

المسكوت عنه في التاريخ الإسلامي

أحمد فتحي سليمان

هل بالتاريخ ما يخزينا؟

لم تغفل عين بالمعسكر طوال الليل.

ما بين قائم وذاكر وحارس لهما سهر كافة رجال المعسكر منتظرين مطلع الفجر وبعد الصلاة الجامعة قام فيهم أميرهم خطيباً فذكرهم بما لم يكونوا عنه غافلين من وعد الله بالنصر لمن ينصره ورسله وحسن ثواب المجاهدين في الدنيا والاخرة وحرصهم على الصبر عند لقاء عدوهم الذي يرفع رايات الكفر ويسعى في مرضاه الشيطان.

ثم كان اللقاء بين معسكرين الحق والباطل ورغم كثرة اعداد العدو وعدته إلا ان تكبير أهل الحق كان أمضي من سيوفهم وفتح أهل الباطل يخربون حصونهم بأيديهم.
هل يبدوا الكلام مألوفاً؟ ذلك لأنك قرأت ما يماثله من قبل بالتأكيد.

فعندما نتكلم عن التاريخ فأول ما يقفز لأذهاننا هي تلك المعارك الملحمية الفاصلة والتي سطرت بطولات قادتها وجنودها وتضحياتهم الاسطورية صفحات الفخر والاعتزاز في تاريخنا.

قد يبدوا هذا واضحاً في كتابات المتصدين للتاريخ الإسلامي حيث تستخدم لإعلاء قيم الجهاد والتضحية من اجل رفعة الدين سواء كان هذا في أطار خطاب وعظي أو في أطار خطاب سياسي.

إلا ان الكتابة الملحمية للتاريخ شائعة للغاية في أطار تكريس الهوية القومية كذلك، فعند مطالعة الكتابات التاريخية عند اى دولة نجد حفاوة كبري بالمعارك التي كان لها تأثير مباشر على استقلالها أو الحفاظ عليه فتاريخ الأمه هو جذورها وقصتها التي تحقق هويتها فبطبيعة الحال يؤدي الانحياز والرغبة في ترسيخ الانتماء الي التركيز على معاني البطولة والفداء ليكون الفخر بها سبيلاً للتأكيد على صدق الهوية ونفي زيفها وحلق مثل عليا يقتدي بها ليدخل ابناء العصر منافسة مع سابقهم في تحقيق المجد.

وكذلك فعظمة التاريخ قد تكون ملاذاً امنياً في ظل واقع غير جدير بالاحتفاء.

ولهذا فليس من الغرابة في شيء أن يكون التاريخ الإسلامي عند البعض قصص عن الفتوحات والانتصارات العسكرية وورع الخلفاء ونزاهة القضاة، قصص تمثل صورة وردية مشرقة لتاريخ هو ككل تاريخ بشري ليس مشرقاً على الدوام وان كان يجوي بعض قصص يليق بها عناوين عندما كنا عظماء فليس كله كذلك.

فالتاريخ الإسلامي هو رحلة هذه الامة وقصة تطورها فكراً وفقها وفلسفة وعقيدة وليس رواية أسطورية.

و جزء من اشكالية قراءة التاريخ عموماً ان القارئ يرتبط بإحداثه ارتباطاً عاطفياً سواء كان هذه التاريخ تاريخ قومي أو تاريخ عقائدي .. ولكن لم يكن تاريخ بلادنا تاريخ مكافحين من اجل الاستقلال و الحرية و رفع راية الوطن فقط و لم يكن تاريخ الإسلام سير الصحابة ثم التابعين ومن تبعمهم بإحسان من الزهاد والعلماء و المجاهدين المخلصين المصطفين الاخيار فقط .. التاريخ كما الواقع ممتلى حد التحمة بالانتهازيين و المزيفين و الزاعقين بشعارات لا يدركون معانيها و الصراعات الاقتصادية و الاجتماعية و التحيز والعنف والظلم و العنصرية . ولهذا فإن كانوا يقولون ان التاريخ يكتبه المنتصرون فما وجدت أن الكل يكتب ما حدث من وجهة نظرة وحسب موقعة من الاحداث و لكن القارئ عادة ما يتخير من القصص ما يرضي هواه ويشبع حاجاته , فهل بالتاريخ الإسلامي بجوار ما نتشرف به و نفتخر ما يخرينا ؟

أو بالأحرى هل يجب علينا ان نحلل من النقاط السوداء في تاريخنا كما نفتخر بالبيضاء ؟ لنجب عن هذا السؤال يجب أن نعرف كيف ننظر لماضيها اولاً , وتلك النظرة هي انعكاس لثقافتنا وقيمنا الحالية فكما يقول (اي اتش كار) نحن نري الماضي و نحقق فهمنا للماضي فقط من خلال عيون الحاضر .

فأن كانت نظرتنا للماضي عاطفية رومانسية فذلك لأننا عاطفيون ولسنا عقلايين .. وان كنا نقرأ التاريخ للبحث فقط عن مفاخر أجدادنا فنحن لا نجد في واقعنا ما نفتخر به ببساطة

.. وأن كنا لا نهتم بما جري بالتاريخ فذلك لان الصلة بيننا وبين أسلافنا قد انقطعت فلا نعتبر انفسنا امتدادا لهم.

ولهذا نجد الي الان الاحتفالات تقام في أوربا بذكريات انتصاراتهم ضد العثمانيين و طردهم المسلمين من الأندلس برغم الفارق الشاسع بين الايدولوجيا السائدة في وقتها و الايدولوجيا السائدة في اوربا العصرية التي تغيرت بعمق وأصبحت تدين الكثير من الافكار و المعتقدات التي مثلت اركاناً اساسية في تعريف هوية أوربا التاريخية وترفضها. فبرغم الاختلاف الصارخ بين أوربي القرن الحادي والعشرين و أوربي القرن الخامس عشر نجد الكثيرين يحاولون الإبقاء علي الرابطة بين الماضي و الحاضر علي الرغم من ان الهويات ذاتها قد تغيرت عبر العقود كما تغيرت النظم السياسية و الاقتصادية و التراتبية الاجتماعية و الحدود الجغرافية وظهرت دول و اختفت اخري و قبل ذلك كله فقد اختلفت القيم السائدة في المجتمعات عن ما كانت , ولكن تبقي الحقيقة ان الحاضر ابن الماضي وأنة لا مجتمع ينفصل عن أمته أو يمكنه التنصل من ماضيها ما كان منه مصدرا لفخره وما كان يفضل عدم حدوثة .

وكما نحكم على الاشخاص و الأحداث في واقعنا من خلال رؤيتنا الثقافية و قيمنا الأخلاقية فكذلك التاريخ لا يمكن أن نفصل للإحداث التاريخية معايير اخلاقية خاصة بما لتكون مبررة و مقبولة .

فلا يوجد انفصال ما بين ما هو تاريخي وما هو واقعي أخلاقياً بل كل ما في الامر أننا يجب أن نضع في الحسبان الظروف الواقعية التي أحاطت بالإحداث ليكون حكمنا عادل و موضوعي .. فالظلم و العدوان دوماً سلوك لا أخلاقي ولكن تعريف ما هو ظلم وما هو عدوان قد يختلف من عصر لآخر لخضوعهما لظروف موضوعية متعددة.

ولهذا أتخفظ علي تعامل البعض مع أحداث الماضي بطريقة انتقائية و تبريرية محاولين رسم صورة مثالية للتاريخ ولو علي حساب الحقيقة الأمر الذي يعكس ذهنية متعصبة وغير متسامحة .

فلا يمكن للإنسان أن يكون متسامحاً مع غيره ان لم يكن متسامحاً مع نفسه أولاً .. يعترف بنقصه و عجزه و أخطائه فيستطيع ان يندم ويراجع نفسه و يصلح من شأنه ويلتمس لغيره العذر ويتفهم مواقفهم وأرائهم التي يخالفها , أما ذلك الذي يري نفسه شخصاً مثالياً أفعاله لا تحتمل الخطأ وقوله الصواب مطلقاً وبلدة الافضل في كل شيء و فريقه الكروي الاعظم على الإطلاق فذلك المتطرف الذي لا يقبل غيره لان ذهنه المنغلق علي افتراضات تحكيمية مسبقة يستعصي عليه تفهم اراء غيره ومبرراتهم .

وعندما يجد الإنسان المتسامح في تاريخه و ماضيه ما لا يرضيه فإنه لا ينكره أو يبرره بأسباب واهية وإنما يتعامل مع الحقائق بعقلانية محاولاً فهمها وتفسيرها على حقيقتها دون ان يخشى أن تتزعزع عقيدته و تضطرب هويته لأنه خلافا للمتعصب لا يبني عقيدته و هويته على الأوهام , وغاية هذا الكتاب ليست تسليط الضوء على السلبيات أو نقد الرؤية المثالية للتاريخ الإسلامي وتشوية رموزة و أبطاله كما يفعل البعض مدفوعين بأسباب ايدلوجية متنوعة , غاية هذا الكتاب هو التحفيز علي القراءة الاعمق للتاريخ بعيداً عن سطحية الأبيض و الأسود في سبيل تحقيق الاستفادة القصوى من قراءته في فهم قوانين التغيير ومسارات التطور الاجتماعي وتبيين جزء من تأثير التاريخ في واقعنا المعاصر توطئة لحسن أدراك الواقع و تحسين رؤيتنا له , فعندما نقرأ التاريخ فليست الغاية الوحيدة ان نعرف ماذا حدث وإنما ايضا ان نعرف لماذا حدث .

وان كانت موضوعات هذا الكتاب قد فرضت عرض و مناقشة عقائد و اراء فقهية متنوعة فليس من غرض هذا الكتاب الترويج أو ترجيح اي منها علي الاخر فهذا ليس كتاب فقه ولا عقائد ولا كاتبه مؤهل لذلك وأن كنت بذلت جهدي في تقصي الحقائق و لم أتعمد نسبة رأى إلى غير صاحبه إلا ان عدم التخصص مظنة الخطأ و لهذا ارجوا المعذرة وادعوا من يريد التعمق التوجه لأولى العلم من المتخصصين في العلوم الشرعية أشخاصاً و مؤلفات .

أعتقد أن الكتاب الجيد هو الكتاب الذي يفتح للقارىء افاقاً جديدة و يحفز عقله علي طرح الأسئلة وأرجوا ان تجد هذا الكتاب جيداً .

وأخيرا فذلك الكتاب اجتهاد شخصي أتمنى لو كنت رزقت فيه الصواب وألهمت التوفيق وأن
كنت أدرك وأتفهم انك قد تجد فيه ما لا يعجبك و لكن أعدك أنك لن تجد فيه تزوير أو
تدليس متعمد .

الملك عقيم

من الخلافة إلى الملك العضوض

أيام مشهودة عديدة مرت منذ تحققت نبوءة عثمان بن عفان و البغاة يحاصرون بيته حيث قال (وإما أن يقتلوني فو الله لئن قتلوني لا يتحابون بعدي أبدا ولا يقاتلون بعدي جميعا عدوا أبدا) .. فما إن سالت دمائه حتى تمزقت عباءة أمة الإسلام و انقسمت على نفسها لجماعات وشيع نالت من دمائه بعضها ما لم يناله عدوا منها قط .

فقتل عثمان صبراً في بيته واعتدى على أهله فثار له معاوية بالشام و جيش الجيوش لحرب قاتليه و ثار له طلحة والزبير في مكة وتصادم الجميع مع علي بن أبي طالب الذي انقسم جيشه و خرجت عليه الفرقة الأولى من الخوارج المسماة بالحرورية وانقسمت الأمة إلى سنة وشيعة وخوارج وتحولت دولة المسلمين لدولتين على رأس أحدهما علي و على الأخرى معاوية.

الي أن اغتيل علي ثم بويع ابنه الحسن فصدق قول جده صلى الله عليه وسلم (إن ابني هذا سيد و سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) فتنازل لمعاوية عن الخلافة مقابل حقن الدماء وإلا يطلب احد بدماء عثمان وكان قد قتل به ما لا يحصى من المسلمين وقد قتل في موقعة الجمل ١٨ ألف مسلم و قتل في موقعة صفين وحدها ٧٠ ألف مسلم وان تعود الخلافة من بعدة شورى بين المسلمين في عام الجماعة و أظهر الناس الهدوء و بدا وكأن الفتنة انتهت وعادت للأمة الإسلامية وحدتها لكن النار ظلت مشتعلة تحت الرماد .

وحافظ معاوية طيلة عهده على سياسة سلمية هادئة جمع بها الناس حوله وثبط الناقلين عليه لخصها بقوله (لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت كانوا إذا شذوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها) و في قوله (يا بني أمية قاربوا قريشا بالحلم فو الله أن كنت لألقى الرجل منهم في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعهم حلماً فأرجع وهو لي صديق إن استنجدته أبجدني وأثور به فيثور معي وما رفع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرماً) .

ولم يخرج معاوية عن هذه السياسة إلا نادراً كفضية حجر بن عدي وأصحابه.

وكان معاوية قد أستوحش من حجر لجهره بمعارضته و خلافة مع زياد ابن ابيه والي الكوفة الذي أوغر صدره عليه و خوفه أن يثير عليه فتنة فتذرع بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم) إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان) وقوله (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) وقتل حجر وستة من أصحابه وعاتبته أم المؤمنين عائشة في ذلك فقال (يا أم المؤمنين إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحيائه في فسادهم)

وعندما توفي الحسن بن علي اتهم معاوية باغتياله وهذا ما يرفضه العديد من العلماء فقال ابن كثير(روي بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت فلما مات الحسن بعثت إليه فقال : إنا والله لم نرضك للحسن أفضاك لأنفسنا ؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى) وقال ابن تيمية (وإذا قيل أن معاوية أمر أباهما كان هذا ظناً محضاً والنبي صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث , ثم أن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر بنته) و إما ابن خلدون فقد قطع بان هذا من اختلاق الشيعة تشنيعاً على معاوية .

وبعد وفاه الحسن بن علي أخذ معاوية البيعة لولده يزيد من ولاية الأمصار بينما رفض العديد من الصحابة بيعته وأسلوب التورث في الخلافة من الأساس و روي الطبري أن معاوية لما أشتد عليه المرض دعا أبنه وقال (يا بني إني قد كفتيك الرحلة و الترحال ووطأت لك الأمور وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد , وإني لا أخاف عليك أن ينازحك هذا الأمر الذي انتسب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق لم يدعوه حتى يخرجه فإن خرج عليك

فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ما مثله وحقا عظيما. وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله وليس له همة إلا في النساء. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويروغك روغان الثعلب وإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إريا إريا)

وعند وفاه معاوية أعلن يزيد خليفة في الشام و كان أول ما خطب في الناس قوله (إن معاوية كان يغزيكم في البحر وإني لست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثاً وأنا أجمعه لكم كله) فرضي أهل الشام منه بذلك وانفضوا وقد أعلنوا ولائهم له . ولكن الوضع في الحجاز كان مختلفاً فما كانوا ليرتضوا يزيد خاصة مع سوء سمعته وما أشتهر عنه من شربه الخمر و انغماسه في الشهوات بينما للبيت الهاشمي شيعة قوية في الحجاز والعراق يرون الحسين أحق الناس بالخلافة وكان الصدام بين المعسكرين حتمياً .

و أرسل يزيد إلى مروان بن الحكم ليأخذ البيعة من ابن الزبير والحسين ولكنهما رفضا و كذلك غيرهما من الصحابة و شعر يزيد بالخطر فعزل الوليد بن عتبة عن المدينة وأضافها إلى عمرو بن سعيد بن العاص نائب مكة فأشتد على أهلها و جلد جماعة منهم إرهابا لهم .

ثم وردت العديد من المراسلات من أهل العراق يدعون الحسين إليهم و يعلنون رفضهم ليزيد و يستحثونه على القدوم إليهم ليبايعوه فبعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى العراق ليتبين حقيقة الأوضاع .

وعندما وصل مسلم الكوفة اجتمع عليه الناس وبايعوه على إمرة الحسين وأقسموا بان ينصرونه بأنفسهم وأموالهم فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليها وهو واثق من متانة مركزه , فجهز الحسين نفسه و جمع أهله وأستعد للرحيل وسط معارضة عنيفة من أنصاره الذين وجدوا في ذلك تسرعا و ثقة غير مبررة بأهل الكوفة الذين لم يقوموا بشيء لنصرته سوي إطلاق الوعود.

وفي ذات الوقت بادر يزيد بعزل والي الكوفة النعمان الذي كان يغض الطرف عن تجمع شيعه الحسين ولا يتعرض لهم وضمها إلى عبيد الله ابن زياد مع ولاية البصرة .

و فوجئ مسلم بجنود عبيد الله يحاصرون الدار التي سكنها فقاتلهم حتى أعطاه قائدهم الأمان فأمكنه من يده ولكن عندما سلبوا عنه سيفه عرف أنه مقتول وأوصى من حضر إن يحذر الحسين من القدوم إلى الكوفة التي لم يدافع عنه فيها هؤلاء الذين بايعوه و أقسموا له بالنصر وقتل مسلم و جماعة أشتبه فيهم عبيد الله وأرسل رؤوسهم إلى يزيد ولكن الحسين لم تصله التحذيرات إلا وهو في الطريق بالفعل.

وعندما وصل الحسين لكريلاء وجد عمر بن سعد في جيش قد أرسله عبيد الله بن زياد وأوقفهم بها و لم يبادر عمر بقتال الحسين وإنما حاصره و قطع عنه الماء رغبة في استسلامه بينما عرض الحسين عليه ثلاث خصال إما ان يتركهم يرجعون لديارهم أو يتركهم يذهبون الي يزيد فيحلون مشكلتهم بينهم أو يتركه يتوجه الي الثغور فيجاهد بها حتى يموت.

وعندما ارسل عمر بن سعد بذلك الي ابن زياد رفض و ارسل شمر بن ذي الجوشن وقال له : إن تقدم عمر فقاتل وإلا فاقتله وكن مكانه فقد وليتك الإمرة.

فلما كان يوم عاشوراء نادي عمر بن سعد بالقتال فصلى الحسين بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون رجلا ثم انصرف إلى خيمة قد نصبت فاغتسل وتطيب . ثم ركب على فرسه وأخذ مصحفا فوضعه بين يديه ونادي أيها الناس : اسمعوا مني نصيحة أقولها لكم فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم علي سبيل وإن لم تقبلوا مني (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون) .. (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) .

فلما سمع ذلك أخواته وبناته ارتفعت أصواتهن بالبكاء فقال : لا يبعد الله ابن عباس .. يعني حين أشار عليه أن لا يخرج بالنساء معه ويدعهن بمكة , ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره و شرفه ويقول : راجعوا أنفسكم و حاسبوها : هل يصلح لكم قتال مثلي وأنا ابن بنت نبيكم وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري وعلي أبي وجعفر ذو

الجناحين عمي وحمزة سيد الشهداء عم أبي؟ وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولأخي (هذان سيदा شباب أهل الجنة) .

فإن صدقتموني بما أقول فهو الحق فو الله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على
الكذب وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك جابر بن عبد الله
وأبا سعيد وسهل بن سعد وزيد بن أرقم وأنس بن مالك يخبرونكم بذلك .

ويحكم! أما تتقون الله؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟

أخبروني أطلبوني بقتيل لكم قتلته؟ أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاصة من جراحة؟

ثم نادى يا شبيث بن ربعي يا حجار بن أبحر يا قيس بن الأشعث يا زيد بن الحارث ألم
تكتبوا إلي أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة؟
فقالوا له : لم نفعل .

فقال : سبحان الله! والله لقد فعلتم ثم قال : يا أيها الناس إذ قد كرهتموني فدعوني أنصرف
عنكم.

فقال له قيس بن الأشعث : ألا تنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يؤذوك ولا ترى منهم
إلا ما تحب؟

فقال : أنت أخو أخيك أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل؟ لا والله
لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لهم إقرار العبيد.

وقد تميز إلى الحسين من جيش عمر ثلاثين رجل تقريبا منهم الحر بن يزيد أمير مقدمة
جيش ابن زياد فاعتذر إلى الحسين مما كان منهم قال : ولو أعلم أنهم على هذه النية
لسرت معك إلى يزيد فقبل منه الحسين ثم تقدم بين يدي أصحاب الحسين فخطب عمر
بن سعد فقال : ويحكم ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعرض
عليكم من الخصال الثلاث واحدة منها؟ فقال عمر : لو كان ذلك إلي قبلت.

ثم خرج من أصحاب الحسين زهير بن القين فقال : يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ونحن حتى الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا أمة وأنتم أمة .

إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه لينظر ما نحن وأنتم عاملون إنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لم تتركوا منهما إلا سوء عموم سلطانهما يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه .

فسبوه وأثنوا على ابن زياد ودعوا له ورموا شمر بن ذي الجوشن بسهم وقالوا : لا ننزع حتى نقتل صاحبك ومن معه .

وانقطعت الكلمات سريعاً فقد بادر عمر بن سعد بالقتال وقد خشي من انقسام جيشه و انضمام رجاله إلى معسكر الحسين .

وبدء بين الفريقين المباراة فكان للحسين ومن معه الغلبة فتوقف جند عمر بن سعد عن المباراة وهاجمهم كافة معتمدين على كثرتهم حتى قتل الفرسان من حول الحسين و أحاطوا به وقد أئختته الجراح فقتلوه و قطعوا رأسه وبعثوا بها لابن زياد .

وأمر ابن زياد فنودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي فقال : ويحك يا ابن زياد تقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب . ثم أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة وطيف به في أزقتها ثم سيره ومعه رعوس أصحابه و النساء و الأطفال من اله إلى يزيد بن معاوية بالشام .

ولم يكن حادثاً بهذه البشاعة أن يمر كغبرة فاندلعت الثورة في المدينة ومكة .

وأعلن أهل المدينة خلع يزيد وأخرجوا ولاته وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل و حاصروا بني أمية وكانوا ألف رجل في دار مروان بن الحكم .

فندب ابن زياد مسلم بن عقبة المري للمدينة فنادي في الناس أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كاملة مقدماً و مائة دينار إضافية لكل رجل فأنضم اليه اثنا عشر ألف رجل !

وأخرج أهل المدينة بني أمية المحصورين في دار مروان بعدما عاهدوهم على أن لا يدلوا على عورة لهم لكنهم نقضوا ذلك العهد عندما لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى فعندما دخل عبد الملك بن مروان على مسلم طلب منه المشورة فرسم له خطة الهجوم وحدد موقعها وميعادها الملائم بحسب معرفته بالمدينة ونقاط ضعفها تفصيلاً

فكانت وقعة الحرة ٦٣ هـ التي انتهت بمقتل عبد الله بن حنظلة الغسيل و الآلاف من أهل المدينة وصالحهم وأباح مسلم المدينة لجنوده ثلاثة ايام يقتلون الناس وينهبون الأموال ثم أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد على أنهم عبيد له وقتل من رفض البيعة أو قال أبايع على سنة أبي بكر وعمر !

أما أهل مكة فقد كانوا بايعوا عبد الله بن الزبير وحاصروهم الحصين بن نمير فأدت فرقة من الخوارج بقيادة نجدة بن عامر بمنعون البيت وانضموا لأهل مكة في حمايته وأشدت القتال بينهم وكثر القتلى من الجانبين فنصب الحصين المنحنيق و رمى مكة بالنار والحجارة واحتترت الكعبة وتصدعت.

وأستمر الحصار ٦٤ يوماً حتى بلغ ابن الزبير موت يزيد فصاح فيهم (إن طاعتكم قد هلك فمن شاء منكم أن يدخل في ما دخل فيه الناس فليفعل ومن كره فليلحق بالشام) وعندما تيقن الحصين من الخبر قابل ابن الزبير و قال إن كان هذا الرجل هلك فأنت أحق من أرى بهذا الأمر هلم فلنبايعك على أن تخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه الناس وفرسأخهم فو الله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة.

ولكن ابن الزبير رفض وقال أما خروجي إلى الشام فلا يمكن فإني أتبرك بالبيت ولكن بايعوا لي هناك فإني بعد ذلك أقدم عليكم و لم يقبل أهدار دماء أهل الحرة .

فخرج الحصين من عنده ونادي في جنده بالرحيل الي المدينة حيث أجمع مع بني امية ورحلوا جميعا الي الشام وبرغم أن الكثيرين يرون أن ابن الزبير أضع فرصة ذهبية برفضه عرض الحصين إلا أن الثقة كانت غائبة بين الرجلين لما كان بينهم من دماء , فلم يكن ابن الزبير ليطمئن إلى الحصين وجنوده و يأمن غدرهم ولا هم يؤمنون جانبه وقد قتلوا أصحابه.

بعد هلاك يزيد بن معاوية تولى الأمر من بعده أسمى ابنه معاوية الثاني بناء على وصيته لمدة قصيرة لا تزيد عن ثلاث أشهر وكان مريض فلما طلب منه تسمية خليفة له رفض وقال (لم أتفجع بما حيا فلا أقلدها ميتاً , لا يذهب بنو أمية بحلاوتها و أتجرع مرارتها, ولكن إذا مت فليصل علي الوليد بن عقبة و ليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم) ولما أحس بدنو الأجل نادي في الناس الصلاة جامعة فخطب فيهم قائلاً (أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر وإن شئتم تركتها شورى في ستة كما تركها عمر بن الخطاب وليس فيكم من هو صالح لذلك وقد تركت أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم) ثم نزل ودخل منزله فلم يخرج حتى مات .

وشهد دفنه مروان بن الحكم فلما فرغ منه قال مروان أتدرون من دفنتم ؟ قالوا نعم معاوية بن يزيد فقال هو أبو ليلى الذي قيل فيه

إني أرى فتنة تغلي مراحلها ... والمملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

وكاد أمر بني أمية أن ينتهي فقد توفي معاوية الثاني وأخوه خالد بن يزيد صبياً وبايع الناس في الأمصار عبد الله ابن الزبير فرأى فريق من جند الشام على رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق أن يبايعوا لابن الزبير وحتى مروان بن الحكم كبير بني أمية فكر في الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أخوال يزيد رفضوا أن يخرج الأمر من بني أمية ولبت الشام ستة أشهر بدون قيادة و بدء حسان بن مالك الكلبي يجمع الناس لبيعه

الأمويين وحرصهم على ابن الزبير فوافقهم منهم الكثيرين في ظل خشيتهم لانتقام ابن الزبير منهم لاستباحتهم المدينة و موقعة الحرة على إن لا يبايعا ابنا يزيد عبد الله أو خالد لصغر سنهم و قالوا لا يأتيانا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي .

وأخيراً اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمراً للشورى يبحثون فيه عمن يصلح للخلافة فكان مؤتمر الجابية الذي اتفقوا فيه على مروان بن الحكم الذي لا يعتبره أغلب المحققين والمؤرخين خليفة حيث يعتبرونه باغياً خرج على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير .

فأجتمع الأمويين في الجابية وأدعو إن بيعتهم كرؤوس الناس و أولي الشوكة هي الملزمة ولا اعتبار لغيرهم ولكن يجب على الكافة إتباعهم وعدم مخالفتهم درء للخلاف وألا فهم العصاة ! فقصروا الشورى في اختيار الخليفة عليهم ! وقد أشار ابن حزم إلي ابتداء الأمويين هذا الرأي فقال (كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعه مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام) واتفقوا على بيعه مروان دون توارث الأمر في ذريته وأن يخلفه عمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد بن معاوية .. فكان ذلك اول ظهور لفكرة قيام شرعية السلطة على القوة والعصبية العشائرية في الإسلام .

ولم يضيع مروان وقتاً فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام وعلي رأسهم عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد واتجه إلى مرج راهط حيث دارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان ٦٤ هـ حيث هزم القبائل القيسية أنصار ابن الزبير وقتل الضحاك بن قيس وعدد كبير من أشرف القبائل القيسية في الشام لبدأ عداء تاريخي طويل بين اليمنية و القيسية .

وبعدما تمكن مروان من الشام توجه إلى مصر وعليها عبد الرحمن بن جحدر والياً من طرف عبد الله بن الزبير فقتله وأرغم الناس على البيعة له ثم رجع إلى دمشق وأنهى عهدة القصير بنقض ما اتفق عليه في مؤتمر الجابية وجعل ولي عهده ابنه عبد الملك ولعبد العزيز من بعده وسرعان ما توفي بعد تسعة أشهر من ولايته.

أما عبد الله بن الزبير فهو أول مولود ولد للمسلمين في المدينة و عند مولدة حملة جدّة أبو بكر الصديق وطاف به المدينة والمسلمون حوله يكبرون يكيّدون اليهود الذين أشاعوا أنهم سحروا المسلمين ولن يولد لهم مولود ماداموا بالمدينة وقد شارك في كتابة المصحف في عهد عثمان وجاهد في شمال إفريقيا و دافع عن عثمان عندما حوَصر من البغاة و أصيب عندما اقتحموا الدار وقتلوا عثمان إصابات بالغة واخرج من البيت محمولاً على الأعناق و قد ظن أنة قتل معه وجاهد في فتوحات معاوية و شارك كذلك في الجيش الذي حاول فتح القسطنطينية .

وكان غزير العلم عابداً مهيباً وقوراً والروايات عن عبادته وشجاعته متواترة وان كان الكثير زادوا في اتّهامه بالبخل و ذلك لأنة كان مقتصدًا في أموال المسلمين ولا يشتري الولاء بالمال كما فعل الأمويين في صراعه معهم حتى انه عزل أبنة حمزة عن ولاية العراق وسجنه عندما وزع أموالاً على قومه بغير حق.

و بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة فإن الذين بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب بينما كان عبد الله بن الزبير قد بويع له في الحجاز وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام حيث أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع في العراق ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام ونشط الخوارج و أصبحوا مصدر تهديد فاتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر بها ثم شرع ابن الزبير في تعيين نوابه بعد بيعه أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود بن خلف القرشي وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره.

وبويع لابن الزبير في مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب وبايعت الشام أيضا إلا بعض جهات منها وهكذا تمت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام وأصبح الخليفة الشرعي وعين نوابه على الأقاليم ولذلك صرح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعه ابن الزبير بيعة شرعية أداها له عامة الناس وخاصتهم بإرادتهم الحرّة وأن مروان بن الحكم وسائر الأمويين كانوا خارجين عليه.. فيروي ابن عبد البر عن الأمام مالك أنه قال: إن ابن الزبير كان أفضل

من مروان وكان أولى بالأمر منه ومن ابنه عبد الملك ويقول ابن كثير: ثم هو - أي ابن الزبير - الأمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر. ويؤكد كل من ابن حزم والسيوطي والذهبي وغيرهم شرعية ابن الزبير ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغيين عليه خارجين على خلافته.

ولكن لم يبايع ابن الزبير عدد من الصحابة كابن عمر وابن عباس وكذلك محمد بن الحنفية الذي اجتمع عليه جمع من شيعة أبيه علي بن أبي طالب وطالبوه بالسعي لخلافته وعندما طلب ابن الزبير من محمد ابن الحنفية وابن عباس المبايعة قالوا حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس وادي الخلاف بينهما إلى خروج ابن عباس إلى الطائف وبقي بها إلى أن توفي ولكنه ظل يثني على ابن الزبير ويذكره بالخير.

وبمجرد انتشار خبر موت يزيد اشتدت دعوة الشيعة التوابين (حيث حرك مقتل الحسين المأساوي مشاعر الندم لدي اهالي الكوفة الذين وجدوا السبيل الوحيد لتعويض خذلانهم له و تقاعسهم عن حمايته ان يضحوا بأنفسهم في سبيل مقاومة الظالمين وكانوا يخرجون جماعات الي كربلاء ليكون و يتضرعون رغم تصدي جيوش الأمويين لهم و قتلها للكثير منهم) و كذلك ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة ٦٤ هـ وادعي انه من طرف أبو القاسم بن علي بن ابي طالب الشهير بمحمد بن الحنفية نسبه لأمه خولة بنت جعفر الحنفية يدعوا الي خلافته ويزعم انه وزيره ولم يمنع محمد بن الحنفية الناس من الانضمام للمختار وطلب الانتقام للحسين من قتلته و في وقت ظهوره كان سليمان بن الصرد زعيم الشيعة التوابين يستعد للخروج للشام لقتال عبيد الله بن زياد فحاول تثييط الناس عنه ورفض الخروج لعدم تكافئ القوي بينهم وبين الامويين وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة بينما بقيت غالبيتهم مع سليمان.

وكانت هزيمة الشيعة في معركة عين الوردة بداية لصعود المختار حيث انفرد بزعامة الشيعة بعدما قتل سليمان ولجأ إليه الناجون من المعركة فقويت حركته وكثر أتباعه ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه وهو من زعماء الكوفة فثار على عبد الله بن مطيع

العدوي أمير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها وتمكن من الكثير ممن اشتركوا في قتل الحسين فقتلهم ومثل بهم واحرقهم و أرسل برؤوسهم إلى محمد بن الحنفية ثم أعد جيشًا جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر وأرسله إلى قتال عبيد الله ابن زياد فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد الذي خر صريعًا في ميدان المعركة سنة ٦٧ هـ وأستمر المختار في تتبع قتلة الحسين فظفر برؤوس كبار منهم كعمر بن سعد أمير الجيش الذي قتل الحسين وثمر بن ذي الجوشن وسانان بن أبي أنس وغيرهم

وتعاضم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد وسيطر على شمال العراق والجزيرة وانضم إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم لبني أمية من ناحية ولأنه أغدق عليهم الأموال وساوي بينهم وبين العرب الذين أشبعوهم عنصرية وتعالى من ناحية أخرى وأقام دولته المستقلة في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك بن مروان في الشام الذي لم يحاول التصادم معه بعدما هزم جيشه وقتل أهم قواده بل أنتظر صدامه المحتم مع ابن الزبير ليلاقي من ينتصر فيه منهم.

وسرعان ما حدث الصدام وهزم جيش لأبن الزبير جيش للمختار ثم إن عبد الله بن الزبير حبس محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر رجلا من أهل الكوفة بزمزم رفضوا البيعة له وتوعدهم أن لم يبايعوا وضرب لهم أجلا فأرسل ابن الحنفية إلى المختار وأهل الكوفة كتاباً يعلمهم حاله فأرسل له المختار جنوده في موسم الحج فأطلقوهم الي شعب علي حيث اقاموا .

وازدادت خطورة المختار الذي تصمه المراجع السنية بالانتهازية و استغلال فرصة الوضع السياسي الملتبس لتحقيق مجد شخصي بادعاء التشييع حيث كان مع عبد الله بن الزبير في حصار الحصين لمكة ثم انصرف عنه عندما لم يجد عنده المنزلة التي يرغبها و كذلك فساد عقيدته و ادعائه انه يوحي اليه وممارسة الكهانة بينما تجله المصادر الشيعية وتصنفه كبطل ويشكرون له انتقامه من قتله الحسين وروي عن الأمام محمد الباقر (لا تسبوا المختار فإنه قتل قاتلينا و طلب ثأرنا و زوج اراملنا و قسم فينا المال علي العسرة) و عن الأمام جعفر

الصادق (ما أمتشطت فينا هاشمية ولا أختضبت حتى بعث الينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين) .

وفزع إشراف الكوفة إلى مصعب بن الزبير بالموصل وقد غلب عليهم المختار و حرر عبيدهم و ساوي بينهم وبين الموالي فأرسل مصعب إلى المهلب بن أبي صفرة بفارس فأمدته بالآلاف من جنوده فقتال بهم جنود المختار وأغلبهم من العبيد و الموالي فهزموهم هزيمة شنيعة و حوصر المختار في جماعة من جنده بالكوفة إلى إن خرج فقتال حتى قتل في رمضان ٦٧ هـ وخرج جنده مستسلمين وقد نزلوا على حكم مصعب فيهم .

ورغم اعتذارهم و مطالبتهم بتحكيم الشريعة و العفو عنهم ألا ان جنود مصعب من اشراف الكوفة أصروا علي قتلهم انتقاماً لعشائهم وخشي مصعب انقسام جيشه فأطاعهم و أمر بقتل الأسري .

فنادوه يا بن الزبير لا تقتلنا و اجعلنا على مقدمتك إلى أهل الشام غدا فو الله ما بك ولا بأصحابك عنا غدا غنى إذا لقيتم عدوكم فإن قتلنا لم نقتل حتى نرقهم وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك.

وقال مسافر بن سعيد (يا بن الزبير ما تقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلت أمة من المسلمين صبرا حكموك في دمائهم وكان الحق في دمائهم ألا تقتل نفسا مسلمة بغير نفس فإن كنا قتلنا عدة رجال منكم فاقتلوا عدة من قتلنا منكم وخلقوا سبيل بقيتنا وفينا رجال كثير لم يشهدوا موطننا من حربنا وحربكم يوما واحدا كانوا في الجبال والسواد يجيئون الخراج ويؤمنون السبل).

ولكن مصعب كان قد حسم امره و قضى الأمر فكان عدد من قتل صبرا سبعة آلاف سوى من قتل في المعركة!

وقد لقي مصعب بعد ذلك عبد الله بن عمر في مكة فسلم عليه فأعرض عنه فقال أنا ابن أخيك مصعب فقال نعم أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة عشم ما استطعت !

فقال مصعب إنهم كانوا كفرّة فجرة .

فقال ابن عمر : والله لو قتلت عددهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً .

وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعو له بطاعته ويقول له (إن أنت أحببتي ودخلت في طاعتي فلك الشام وأعنة الخيل وما غلبت عليه من أرض المغرب وما دام لآل الزبير سلطان) وأرسل إليه عبد الملك بن مروان (إن أحببتي ودخلت في طاعتي فلك العراق) فشاور أصحابه فاختلفوا فقال إبراهيم (لو لم أكن أصبت عبيد الله بن زياد ورؤساء الشام لأجبت عبد الملك) فكتب إلى مصعب بدخوله في طاعته .

وأدى مقتل المختار إلى ضعف موقف ابن الحنفية بمكة و أرسل ابن الزبير إلى ابن الحنفية أخاه عمرو يطلب منه أن يبايع وتوعده إن هو أصر على الرفض لكن عبد الملك بن مروان دعاه إن يقدم للشام فإجابة ابن الحنفية وتوجه إلى الشام واختاروا المقام بآيلة وسرعان ما ضغط عليه عبد الملك لبياعه محاولاً إغرائه بالمال تارة و تهديده أخرى ولكنة رفض ورجع إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأخرج ابن الزبير فأنقل إلى الطائف حتى وضعت الحرب أوزراها .

وكان عمرو بن سعيد ناقما على نقض مروان لشروط مؤتمر الجابية وبيعه عبد الملك بدلا منه بينما تنازل خالد بن يزيد وانصرف لطلب العلم وفي أول سنة ٦٩ هـ خرج عبد الملك من دمشق نحو العراق يريد مصعب بن الزبير فقال له عمرو بن سعيد : إنك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده وعلى ذلك جاهدت معه وقد كان من بلائي معه ما لم يخف عليك فاجعل لي هذا الأمر من بعدك فلم يجبه عبد الملك إلى شيء فرجع عمرو إلى دمشق فاستولى عليها واستحوذ على ما فيها من الخزائن واجتمع الناس وخطبهم فقال : أيها الناس إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة ونارا

يدخل الجنة من أطاعة والنار من عصاه وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله وأنه ليس إلي من ذلك شيء غير أن لكم علي حسن المواساة والعطفية .

وعاد عبد الملك إلى دمشق فوجد عمرو وقد تحصن بها فحاربه ١٦ يوم ثم سعي بينهم شيوخ بني أمية بالصلح ويبدو أن عبد الملك قد رأى موقف عمرو قويا فتصالحا على ترك القتال على أن لعمرو بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك وأن يستشيريه في كل صغيرة وكبيرة ويوليه الديوان وبيت المال وقبل عبد الملك هذه الشروط و قد أدرك إن القتال يقسم مؤيديه إلى نصفين لا يستطيع المنتصر منهما دفع عدو.

بعد عقد الصلح ودخوله دمشق بأربعة أيام فقط أرسل عبد الملك إلى عمرو فلما دخل عليه وجد بني مروان مجتمعين عنده فأحس بالغدر وأرسل خادمة ليستدعي بعض رجاله ثم غلقت الأبواب وأمر عبد الملك أن يأخذ سيف عمرو ثم قال له عبد الملك : يا أبا أمية إنك حيث خلعتني آليت يمين إن أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة فقال له بنو مروان : ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟

قال : ثم أطلقه وما عسيت أن أصنع بأبي أمية!

فقال بنو مروان : أبر قسم أمير المؤمنين فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين فأخرج من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه ثم قال : يا غلام قم فاجمه فيها فقام الغلام فجمعه فيها ثم جذبة عبد الملك بعنف فارتطم بالسرير فكسرت أسنانه فقال عمرو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك إلى كسر عظم مني أن تركب ما هو أعظم من ذلك فقال له عبد الملك : والله لو أعلم أنك تبقي علي إن أبقى عليك وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجالان قط في بلدة على مثل ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه.

وأذن المؤذن العصر فخرج عبد الملك يصلي بالناس وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتله فقام إليه عبد العزيز بالسيف فقال له عمرو : أذكرك الله والرحم أن لا تلي أنت قتلي وليتول ذلك من هو أبعد رحما منك!

فألقى عبد العزيز السيف وجلس وعاد عبد الملك فوجد عمرا حيا فسب عبد العزيز وطلب سيفه و أمر بعمرو فطرح ارضاً وجلس على صدره فدبحه وهو يقول : يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حيث تقول الهامة اسقوني . ثم أصابته رعدة شديدة فلم يستطيع القيام حتى أقاموه وأجلسوه على السرير.

وأقتحم أتباع عمرو على بني مروان ساحة الدار فقاتلوهم ولكنهم القوا اليهم رأس عمرو وقام عبد العزيز بن مروان فجعل يلقي بالدنانير الذهبية من النوافذ فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس أخذوا الأموال وتفرقوا وقتل عبد الملك بعد ذلك جماعة من بني أمية لممالتهم عمرو عليه وشكه في ولائهم .

ولتأمين جبهة الروم و ليتفرغ لقتال ابن الزبير أضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم جزية ٣٦٥ ألف قطعة ذهبية و ٣٦٠ عبدا و ٣٣٠ جوادا أصيلا سنويا ونصف خراج قبرص وأرمينيا .

وبعد إن دانت الشام لعبد الملك أراد انتزاع العراق فبدء بمكاتبة القادة والزعماء يعدهم بالمناصب والأموال وعندما تلاقي الجيشان في دير الجثاليق سرعان ما ظهرت في المعركة الحيانات فانسحب جزء من جيش مصعب بن الزبير فجأة وقتل قائدة إبراهيم بن الأشتر و فر الكثيرين منه بلا نظام وظهر الأحقاد التي أضمرها البعض لمصعب الذي فوجئ بأحد جنوده يطعنه في المعركة وهو يهتف يا لثارات المختار وقتله و حز رأسه انتقاما لعداء شخصي ولم يقبل مكافأة عبد الملك بن مروان له وعندما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك والذي كان صديق صباه بمكة بكى وقال : ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حيي له حتى دخل السيف بيننا ولكن الملك عقيم .

وحين قتل مصعب كان المهلب بن ابي صفرة يحارب الخوارج الأزارقة بفارس فلما عرف الخوارج صاحوا بأصحاب المهلب : ما قولكم في مصعب ؟ قالوا : أمير هدى وهو ولينا في الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه. قالوا : فما قولكم في عبد الملك ؟ قالوا : ذاك ابن اللعين نحن نبرأ إلى

الله منه وهو أحل دما منكم .. قالوا : فإن عبد الملك قتل مصعبا وستجعلون غدا عبد الملك إمامكم.

فلما كان الغد سمع المهلب وأصحابه خبر قتل مصعب فبايع المهلب جيشه لعبد الملك بن مروان وقد ادرك ان انتصاره النهائي مسألة وقت فصاح بهم الخوارج وأكثروا من سبهم يا أعداء الله و إخوان الشياطين وعبيد الدنيا.

ولما جاء خبر مصعب لعبد الله بن الزبير خطب الناس فقال : الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه وإن كان الناس عليه طرا. وقد أتانا من العراق خبر أحنزنا وأفرحنا أتانا قتل مصعب فالذي أفرحنا منه أن قتله شهادة وأما الذي أحنزنا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم عبد من عبيد الله وعون من أعواني ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق سلموه وباعوه بأقل الثمن فإننا فو الله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص والله ما قتل رجل منهم في الجاهلية ولا في الإسلام ولا نموت إلا طعنا بالرمح وتحت ظلال السيوف ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبدي ملكه فإن تقبل لا آخذها أحد البطور وإن تدبر لم أبك عليها بكاء الضرع المهين أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ولكن بخلاف تلك الخطبة العصماء لم يفعل ابن الزبير شيء سوى انتظار هجوم عبد الملك عليه فقد كانت هزيمة أخيه مصعب ومقتلة في معركة دير الجثاليق إيذانا بانتهاء دولته التي انحصرت في الحجاز ولم يكن في استطاعته الصمود طويلاً لافتقاره إلى المال والرجال وأصابه الإحباط .

ولم يضع عبد الملك بن مروان وقتنا وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير وكان سلاحه وقائدة الحجاج بن يوسف الثقفي .

وقد بدء الحجاج مسيرته العسكرية بالاشتراك في جيش حبيش بن دلجة الذي توجه لقتال عبد الله بن الزبير ولكنة هزم ثم انضم الحجاج إلى شرطة روح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان

فأظهر حزمًا و انضباطا دفع روح لترشيحه ليتولى مهمة تعبئة الجيش البعيد عن روح العسكرية وهذا ما قام به الحجاج بكفاءة ولكنه عندما مر على بعض من جند روح وهم يأكلون وقد تأخروا عن اللحاق بالجيش أمر بهم فجلدوا وطوف بهم في المعسكر واحرق فسطاط روح الذي كانوا فيه فاشتكاه إلى عبد الملك فقال إنا ما فعلت , قال ومن فعل ذلك ؟ قال أنت إنما يدي يدك وسوطي سوطك . فعوض عبد الملك روح وقرب الحجاج واقره على فعلة و ولاية بلدة تبالة فلما كان بإزائها وسأل عنها قالوا هي وراء تلك الأكمة فقال أف لبلدة تسترها أكمة ورجع عنها ولم يدخلها فصار مثلا (أهون من تبالة على الحجاج) وعاد فطلب عملا آخر فولاة شرطة فلسطين.

وعندما تقاعس بعض أهل الشام عن الخروج لقتال مصعب كلف الحجاج بتعبئتهم فكان الحجاج يمر على البيوت فمن لم يخرج للقتال احرق عليه داره ونهب ماله .

وطلب من عبد الملك أن يوليه قتال عبد الله بن الزبير فأختاره لذلك فتوجه بجيشه إلى الحجاز . واستقر بالطائف يرسل منها السرايا ثم حاصر مكة ومنع وصول المؤن إليها حتى أصيب أهلها بمجاعة و يقال إن ابن الزبير ذبح فرسه ليطعم أصحابه في الحصار بينما كانت المؤن تصل لمعسكر الحجاج بوفرة وانتظام فدفع اليأس الناس إلى طلب الأمان من الحجاج والتخلي عن ابن الزبير تدريجيا وأخيرا نصب الحجاج المنجنيق على جبال مكة وضربها حتى منع الناس من الطواف والسعي وبعد موسم الحج نادي في الناس بالانصراف لبلادهم والخروج من مكة وانصرف الناس عن عبد الله حتى ابناه حمزة و خبيب ذهبوا للحجاج و قبلا الأمان منه وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه بينما رفض إلا إن يبقى على موقفه و لو كان وحده.

وروي مخزومة بن سليمان انه عندما أشدت الحصار ذهب عبد الله الي امه اسماء يشكوها خذلان الناس له فقال : يا أمه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تتمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك وإن قلت: كنت على حق فلما

وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن .

فقبل ابن الزبير رأسها وقال: هذا والله رأيي والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتيني بصيرة مع بصيرتي.

فانظري يا أمي فإني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي اللهم إني لا أقول هذا تركية مني لنفسي أنت أعلم بي ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن تقدمتني وإن تقدمتك ففي نفسي أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك قال : جزاك الله يا أمه خيرا فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد فقالت : لا أدعه أبدا فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبني اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

وفي النهاية أقتحم جيش الحجاج الحرم من جميع أبوابه فأشار بعض أصحاب ابن الزبير عليه بالفرار فقال : بمس الشيخ إذن أنا في الإسلام إذا وقعت قوما فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم .

وتقدم يقاتل وهو يرتجز : إني إذا أعرف يومي أصبر وإنما يعرف يومه الحر , وأشدت في القتال حتى تراجع الفرسان من أمامه و رموه بالحجارة فأصابته في وجهه أحداها فسقط وهو ينشد
فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فتكالب عليه الجند فقتلوه وله ثلاث وسبعون سنة .

وحمل رأسه إلى الحجاج وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه فقال طارق : ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجاج : أتمدح مخالف أمير المؤمنين ؟ قال : نعم هو أعذر لنا ولولا هذا لما كان لنا عذر إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا بل يفضل علينا فبلغ كلامهما عبد الملك فصوب طارق .

وبعث الحجاج برأس ابن الزبير ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبت بها ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان ثم امر بصلب جثمان عبد الله بن الزبير حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال السلام عليك أبا حبيب أما والله لقد كنت أنمأك عن هذا أما والله إن كنت ما علمت صواما قواما وصولا للرحم أما والله لأمة أنت أشرها لأمة خير فبلغ الحجاج موقف عبد الله وقوله فأرسل إليه فأنزل عن جذعه فألقي في قبور اليهود .

ثم انصرف الحجاج إلى المدينة فأقام بها شهرين سام فيهما أهلها العذاب وقال : أنتم قتلة عثمان وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص بختمه (عتيق الحجاج) منهم جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وسهل بن سعد وأساء الحجاج معاملة العلماء الذين لم يشتركوا في قتال ولا انحازوا لطرف وإذا هم حتى اضطروا الحسن البصري و إبراهيم النخعي و مجاهد بن جبير للهرب والاختفاء منه حتى لا يقتلهم أو يرغمهم على الاشتراك في القتال لصالح الأمويين .

والواقع أن عوامل متعددة أدت لهزيمة ابن الزبير الذي أستقر بمكة على قلة سكانها وان كانوا مناصريه وابتعد عن الشام والعراق الذين امتثلوا بالعرب مع حركة الفتوحات والمهجرات الجماعية الكبيرة لهما وأصبحوا مصدر للثراء و الأموال وكذلك كانت سياسة ابن الزبير المالية والإدارية الصارمة التي بررها بالحرص على أموال المسلمين يقابلها سياسة غاية في الدهاء من عبد الملك الذي جمع الأنصار بناء على المصالح حريصا على ترك الباب مفتوحا لمن يريد إن يلحق به بينما لا تأخذه رحمة بمن يجد فيه أدني خطرا عليه و بينما كانت صلة عبد الله شبة منقطعة بولاته داوم عبد الملك علي إغرائهم وقوادهم للانضمام لصفة كحالة زفر بن الحارث الذي كان يمكنه ان قدم له ابن الزبير العون ان ينهي الصراع مبكراً جدا ولكنه انتهى به الحال للانضمام لعبد الملك بعد سبع سنوات من المقاومة وكذلك عجز ابن الزبير عن استيعاب

زعماء العراق الذين لم يكن يثق فيهم و رفض إمدادهم بالمال فسرعان ما تحولوا لعبد الملك بن مروان ودانوا له بالطاعة .

و عبد الملك هو أول خليفة للمسلمين انتزعها بالقوة و القتال حيث حارب الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير حتى قتله و انتزع الحكم منه وبه تبدأ مرحلة الملك العضوض في التاريخ الإسلامي فهو أول خليفة متغلب والمؤسس الثاني الدولة الأموية التي أشرفت على الاندثار بعد وفاة معاوية .

ولكن ذلك الملك الذي في سبيله قتل عبد الملك أبن خاله عمرو بن سعيد و صديق عمره مصعب بن الزبير و أفضل أهل الأرض في زمانه -على حد تعبيره - عبد الله بن الزبير ونقض العهود و المواثيق كان لم يزل يتطلب المزيد من الدماء ليثبت و تتوطد أركانه .

فقد بقي الخوارج برغم قلة إعدادهم شوكة في حلق عبد الملك و بقي العراق مصدراً للقلاقل و الكثير من أهلة يتحينون الفرص للوثوب و الانتقام .

وبدء عبد الملك في مواجهة الخوارج و أخطرهم فرقة الأزرق أشد الخوارج تطرفاً بقيادة نافع بن الأزرق أول من شق صفهم و كفر كافة مخالفيه و كل من لم ينفر للقتال معه واستباح دماء وأموا المسلمين من مخالفيه حتى النساء و الأطفال وهم يكفرون مرتكب الكبيرة ويقولون بخلوده في النار و تحريم التزواج بينهم بين المسلمين أو أكل ذبيحتهم حتى يتوبوا و يسلموا وقد بدئت الحرب بين الخوارج الأزرق و عبد الله بن الزبير لمدة سنتين متوليا حرهم المهلب ابن أبي صفرة وبعده هزيمة مصعب بن الزبير أقر عبد الملك المهلب على أمانة الجند وأمره بالاستمرار في حرب الخوارج حتى قضى عليهم تماما .

ثم ظهر الخوارج الصفرية بقيادة شبيب بن يزيد الذي هزم خمسة من جيوش الحجاج وقتل قوادها و تمكن من اقتحام الكوفة وأضطر الحجاج أن يطلب من عبد الملك أن يمدده بجيش من الشام لينضم لجيشه واستطاع هزيمة شبيب الذي غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار.

ورغم شجاعة الخوارج الفاتكة و استبسالهم في القتال إلا إنهم لم يستطيعوا أن يحدثوا فارق في الواقع السياسي بسبب تشبثهم و عدم وحدة قيادتهم و كراهية الناس لهم لقسوتهم المفرطة و تطرفهم و إفراطهم في القتل و الدمار وكذلك لم يستطيعوا إن يقيموا أحلافا لا مع القبائل ولا مع ابن الزبير و كرههم أهل الكوفة ذوى الميول الشيعية وأعانوا عليهم بالرغم من إن الحجاج كان يرغم أهل الكوفة و البصرة و سائر العراق على الانضمام للجيش ويقتل من يتخلف و يحرق داره و ينهب ماله .

فقد كان عبد الملك ولي الحجاج الكوفة بعدما ظهر خطر الخوارج بما فدخل مسجدها وهو ملثم و نودي في الناس فخطبهم خطبته الشهيرة التي مطلعها (أنا ابن جلا و طلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني , يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوسا قد أئنت و حان قطافها واني لصاحبها وكأني انظر الي الدماء بين العمائم و اللحى) إلى قوله (أن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم عطائكم و أن أوجهكم لحرب عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة و إني لأقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه) .

وكرر الأمر في البصرة فاعتذر إليه شريك بن عمرو لإصابته بفتق و قد عذره الوالي قبل الحجاج و استرد العطاء منه فبادر بقتله على أعين الناس الذين لم يجدوا مهربا من بطش الحجاج سوي الانضمام لجيش المهلب.

ولكن أخطر ما واجه عبد الملك كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث و قد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان جنوب شرق إيران و التي كان ملكها رتبيل نقض ما عاهد عليه المسلمين و رفض دفع الجزية مستغلاً الحروب الداخلية في الدولة الإسلامية فلما انتهت الصراعات الداخلية الخطيرة قرر عبد الملك أن يؤدب رتبيل فأرسل الحجاج إليه جيشا بقيادة عبيد الله بن أبي بكره وأمره الحجاج أن يتوغل في بلاد رتبيل وأن يدك حصونهم وقلاعهم وتمكن من هزيمة رتبيل واجتياح بلاده وغنم غنائم كثيرة ولكن رتبيل أخذ في التقهقر فأطمع المسلمين في اللحاق به دون ان يدركوا انه يستدرجهم الي كمين ساعدته عليه طبيعة البلاد الجبلية فأغلق جنده الطرق والشعاب وحاصروا المسلمين وجوعوهم قبل المعركة التي قتل فيها عامة الجيش .

فجمع الحجاج جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل الكوفة و البصرة وأنفق الملايين في تجهيزه وإعداده وتسليحه حتى سماه الناس جيش الطواويس وأسند قيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث الذي انسحب رتبيل من إمامه يريد تكرار ما فعل بجيش بن ابي بكره ولكنه لم يقع في الفخ بل ثبت موقفه في الأراضي التي فتحها و أحسن تنظيم دفاعاتها وانتظر للعام القادم ليواصل تقدمه بخطى محسوبة وأرسل إلى الحجاج بذلك فرفض إلا أن يواصل التوغل وكتب لعبد الرحمن رسالة مهينة فما كان منه إلا أن جمع جيشه وقرء عليهم الرسالة فتاروا و قالوا فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه : احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجأ فلك بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع.

وبدئت الثورة على الحجاج لخلعة من العراق وقد وقع في قناعه الجيش أنه يريد إهلاكهم بقتال العدو والتخلص منهم ولكن في منتصف طريق عودتهم إلى العراق بدأ الثوار يتوجهون لعزل عبد الملك فما كان الحجاج إلا سيفه و يده التي يبطش بها وما كان يفعل شيء إلا بإمرة ولصالحه و استولى ابن الاشعث على الكوفة وبايعه أهلها و أهل البصرة والكثير من الموالي الذين وترهم الحجاج بإجبارهم على دفع الجزية رغم إسلامهم وحرمتهم من الأعطيات رغم إجبارهم على الاشتراك في المعارك و الحروب وتضخم جيش ابن الاشعث وكثر تابعوه وأنضم إليه الكثير من وجهاء الناس وفقهائهم حتى كونت كتبية من العلماء والفقهاء سميت كتبية القراء بقيادة جبلة بن زحر .

ووجد الحجاج نفسه عاجزاً عن التصدي لكل هؤلاء فأستنجد بعبد الملك الذي فكر في إن يضحى بالحجاج ليتجنب الحرب فبعث ابنه عبد الله وأحاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم وأن يجري عليهم العطاء وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون واليا فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الجميع وولي القتال وعلم الحجاج بهذا فكتب لعبد الملك (يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفونك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ألم ترى وتسمع بوثوب

أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه . إن الحديد بالحديد يفلح .. خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك)

وبرغم أن ابن الأشعث قبل الفكرة وحث جنوده علي قبولها إلا أنهم رفضوها بشدة وأعلنوا أنهم لا يرضون إلا بخلع عبد الملك والتخلص من حكم الأمويين بالكليية فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجاج وقالوا : شأنك بعسكريك وحنديك فاعمل برأيك فأنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك.

وجمع الطرفان قواهما للقاء في دير الجماجم وكانت كتبية القراء في جيش ابن الأشعث أشد على الحجاج من إي عدو قابلة فاعد لها ثلاث كتائب لقتالهم فلما اصطفوا خطب عبد الرحمن بن أبي ليلى فقال : يا معشر القراء إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم إني سمعت علي رفع الله درجته في الصالحين وأتابه أحسن ثواب الشهداء والصدقيين يقول يوم لقينا أهل الشام : أيها المؤمنون إنه من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم ويرئ ومن أنكر بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه اليقين فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه .

وقال أبو البخترى : أيها الناس قاتلوهم على دينكم وديناكم و الله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم وليغلبن على ديناكم.

وقال الشعبي : يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا بأخذكم حرج من قتلهم فو الله ما أعلم قوما على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم فليكن بهم البدار.

وقال سعيد بن جبير : قاتلوهم ولا تأثموا من قتلهم بنية ويقين وعلى آثامهم قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين و أستدللهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة.

وحملوا عليهم فهزموا الكتائب الثلاث في أول القتال و أزالوهم عن أماكنهم ولكن أميرهم جبلة بن زحر قتل فجأة في المعركة فارتبكوا ولم يستطيعوا أن يعيدوا تنظيم صفوفهم فكان فرصة أهل الشام الذي عاودوا الهجوم بقوة فهزموهم و أنهزم ابن الأشعث بعد قتال مرير ففر إلى رتبيل الذي كان عاهدة أن يسقط عنه الخراج أن ظفر و أن يأوي إليه ويحميه إذا هزم ولكن الحجاج هدد رتبيل بغزوة فأرسل رتبيل له برأس ابن الأشعث .

ودخل الحجاج الكوفة و جلس يبايع الناس وكان لا يبايعه أحد إلا قال له :أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال : نعم بايعه وإلا قتله!

وإسراف الحجاج في القتل بأدنى شبهة يأتي في مقدمة جرائمه حيث كان يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له وأن مخالفة أمره في أي شأن تبرر له القتل فقد روى أبو داود عن عاصم قال : سمعت الحجاج يقول : اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مشنوية وسمعوا وأطيعوا ليس فيها مشنوية لأمر المؤمنين عبد الملك . والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حالالا .

يقول ابن كثير محاولاً تفسير سلوك الحجاج : فإن الحجاج كان عثمانيا أمويا يميل إليهم ميلا عظيما ويرى خلافهم كفر ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومه لائم.

وأستقر الأمر أخيرا لعبد الملك الذي عرب الدواوين مما دفع الموالي لتعلم العربية كوسيلة للعمل في الحكومة وتولى المناصب الإدارية بها و اتسعت الثقافة العربية الإسلامية واكتسبت زخماً بذلك وظهرت في عهده حركة الترجمة من خلال الموالي الذين تعلموا اللغة العربية و نقلوا علوم أممهم وآدابها إلى العربية تدريجيا و أخذت اوضاعهم في التحسن وبينما ترك لكل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية وإلى يصاحبه عامل الخراج وله سلطات واسعة في ادارة الإقليم كانت الشام تحت إشراف عبد الملك المباشر و قسمت إلى خمس اجناد لكل منها قائد وجند العاصمة دمشق تحت إشراف عبد الملك المباشر.

وبني عبد الملك مسجد قبة الصخرة وقد روى اليعقوبي انه فعل ذلك لأنه منع الناس في الشام من الحج حتى لا يستميلهم ابن الزبير وأقام لهم هذا المسجد بدلا منه و اليعقوبي ذو ميول شيعية واضحة تفقد تلك الرواية التي أنفرد بها على غرابتها مصداقيتها .

و قام عبد الملك بتعريب النقد و أحدث دور الضرب التي تضرب فيها الدنانير وجعلها تحت إشراف الخلافة المباشر وهناك رواية أن سبب ذلك إن الروم كانوا يستوردون من مصر صحائف البردي فأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردي (شهد الله أن لا إله إلا هو) فغضب لذلك إمبراطور الروم وهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن التفسير الأقرب للمنطق أن الرغبة في توحيد العملة اقتصادي تنظيمي في المقام الأول سواء صحت القصة أم لا فاحتكار الدولة للعملة وتحكمها في معاييرها عامل حاسم في تكوين قدرتها على حكم رعيتهما .

وحاول عبد الملك إقامة توازن بين القبائل اليمنية والقيسية في المناصب والعطاء و اختيار القيادات والولاية محاولاً السيطرة علي ما بينهم من عصبية قبلية قد تؤدي بدولته ولكن العداء بينهم أستمروا قرون تالية.

وعادت حركة الفتوحات الإسلامية التي أصبحت بجانب كونها جهاداً لإعلاء كلمة الله وسيلة ناجحة لتفريغ الطاقات العربية ودرء للنزاعات التي قد تؤدي إليها بقاء كل هؤلاء المقاتلين العرب في العراق و الشام .

فبمجرد استقرار دولته توقف عن دفع الجزية للإمبراطور البيزنطي الذي أعلن الحرب وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية و ازدادت الفتوح بقيادة محمد بن مروان و ابنه عبد الله بن عبد الملك داخل دولة الروم في آسيا الصغرى وكان من أهم قوادة في فتوحات الروم ابنه مسلمة الذي لم يكن يطمع في الخلافة لأنه من أبناء الجوارى ولا ترضى العرب بمبايعتهم.

وأولى اهتماما خاصا إلى الوضع في شمال إفريقيا فجهز جيشا كبيرا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني .

وفتح حسان قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل وغيرها من الحصون والقلاع ثم التقى بالكاهنة أعظم ملوك أفريقية في ذلك الوقت فانصرت عليه وقتل من المسلمين الكثير فأضطر حسان للانسحاب إلى قابس وملكت الكاهنة المغرب خمس سنين بعد ذلك فهدمت الحصون وخربت المدائن حتى لا يطمع فيها العرب فيعودوا لحرابها ولكن حسان عاد فحاربها وانتصر عليها وقتلت عند بئر الكاهنة بالقرب من قابس و أعاد فتح قرطاجنة

وكانت سياسة حسان ناجحة للغاية مع البربر فقد اهتم بالجانب الدعوى فأنتشر الإسلام بينهم سريعاَ وسأوى بينهم وبين العرب في العطاء ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقا بإخلاصه وحسن إسلامه مما ساهم في إسلام الكثيرين من قومهم وانشأ مدينة تونس ولكنة اختلف مع عبد العزيز وإلى مصر فشكاة إلى عبد الملك فعزله .

ومات عبد الملك ٨٦ هـ بعدما أخذ البيعة لولديه الوليد ثم سليمان من بعده فلما جاهر سعيد بن المسيب بمخالفة تلك البيعة السنة في بيعه واحد وليس خليفتين متتالين سجن وجلد رغم كبر سنة و عمى بصره.

كان عبد الملك قد رسخ أسس مرحلة الملك العضوض التي نحيا فيها إلى يومنا هذا.

فمن سنة ٦٠ هـ حيث مات معاوية أنهى ذلك الملك المقرون بالرحمة وبدء الملك الذي يكتسب بالسيف و ينتزع به فبداية من مؤتمر الجابية الذي قرر فيه زعماء الأمويين و حلفائهم إسقاط حق الأمة في اختيار حكامها و قرروا أنهم من يحتكرون هذا الحق لأن أسيافهم قادرة على حماية اختيارهم وفرضه على من يرفضه بدئت مرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي أنتجت ما نحيا في ظلالة لليوم من فكر سياسي استبدادي و من انقسام عقائدي للامة التي تركت على المحاجة البيضاء فلطخها الدم

فكانت مأساة كربلاء بداية التشيع الديني حيث ظهرت جماعة التوابين ثم فرقة الكيسانية بقيادة المختار الذي ألقي بذور الباطنية في أصحابه ليتحول الخلاف السياسي إلى خلاف عقائدي ومن تداعيات هزيمة ابن الأشعث أن تغير الفقه السياسي الإسلامي فبدلاً من القول بعدم طاعة الحاكم الظالم وقتاله لم يستجيب للنصح رجحت كفة القائلين بعدم الخروج على الحاكم وإن كان ظالماً فاسداً لما في ذلك من شرور أكثر وفتن أكبر بسبب الدماء التي أريقت على أيدي حكام الأمة ومقتل الكثير من العلماء الذين كانوا يقولون بالخروج والتنكيل بهم.

و ظهر مذهب الإرجاء العقائدي أن الإيمان قول بلا عمل وأنه لا يزيد ولا ينقص و يستوي عند القائلين به كل من اعتقده بقلبه وقال بلسانه فيستوي إيمان أبي بكر و عمر وإيمان الطغاة كالحجاج ويتساوى من قضى عمرة في طاعة الله و من قضاه في معصيته مادام كلاهما يشهد أن لا اله إلا الله .

و دعم الرأي القائل بتحريم الخروج على الحاكم أي كان مصدر شرعيته و أي كان مقدار ظلمة و بغيه و نشرت أحاديث موضوعة تحث على طاعة الحكام وتحذر من معارضتهم وتبيح دماء من يجهرون بالمعارضة في مقابل تقديس أوامره و تعظيم طاعته وأخرجوا الخليفة ونوابه من دائرة المحاسبة والمسائلة فإن أخطأ أو ارتكب جريمة حتى فليس لأحد من الأمة الاختصاص بمحاسنته .

فتغيرت عقلية الأمة و أختلف مزاجها فلم يقتصر التغيير على حكامها ونمط سياساتها بل فقدت تلك الأمة الكثير من قوتها الروحية عندما ذاق بعضها بأس بعض وتحولت حتى أصبح ينطبق عليها إلى اليوم كلمات عبد الملك أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر و عمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر و عمر نسأل الله أن يعين كل على كل.

المصادر

تاريخ الدولة الأموية - محمد سهيل طقوش

تاريخ الرسل والملوك - الطبري

البداية والنهاية - أبو الفداء إسماعيل بن كثير

الكامل في التاريخ - عز الدين ابن الأثير

عبد وسلطان

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خاناه فله في مصر تمهيد
صار الخصي إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواظير مصر عن تعالبيها فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتت العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحياء إلى زمن يسيء بي فيه عبد وهو محمود

من قصيد للمتنبي في هجاء كافور الاخشيدى الذي حكم مصر و الشام ٢٣ عام .

شهد الشرق الإسلامي ظاهرة عجيبة أنفرد بها عن الحضارات الإنسانية كافة , حيث ظهرت العديد من الدول التي يقودها من كانوا في بداية حياتهم رقيق استجلبوا لخدمه حكام تلك الدول وان كانت الدول المملوكية في مصر والشام هي الابرز إلا ان مرجع هذه الظاهرة يعود لقبول ظهورها بقرون ..

و لكي نفهم هذه الظاهرة لابد ان نعود لبداية الدولة العباسية حيث حملت دولة الخلافة العباسية في طياتها العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية حيث بلغت أوجها وانطلقت نهضة حضارية كبرى في شتى المجالات وذخرت بالمبدعين و العباقرة في كل صنعه , ولكن بجوار كل هذا كان الصراع السياسي على أعنف ما يكون .

فالدولة العباسية كانت حياتها الطويلة ومنذ يومها الاول حرباً ضروس ضد معارضين ومنافسين غاية في الشراسة والتنوع العقائدي و العرقي و الثقافي .

وكانت بداية الدعوة العباسية حركة سرية مثلت امتدادا لحركة الشيعة الهاشميين الذين قالوا بإمامة محمد بن الحنفية ومن بعده ابنة ابو هاشم الذي اسس الدعوة السرية وأدارها بعيدا عن

بطش الامويين حتى كشف سره الخليفة سليمان بن عبد الملك ققتلة و لكن بعدما عهد بالإمامة من بعده لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس حيث لم يكن له من ولد يخلفه واستمرت الدعوة السرية في الانتشار وجمع الانصار في غفلة من الامويين سنوات طويلة دون ادنى تصادم مع الدولة رافعة شعارات الرضا من ال محمد والإصلاح و المساواة و العمل بالكتاب و السنه وهي شعارات مكنتهم من جمع الانصار من كافة الساخطين على الامويين بسبب المظالم و عدم المساواة الاجتماعية و العنصرية العربية التي كانت شعار الدولة القائمة على ولاء القبائل , كما جمعت كافة فرق الشيعة حيث شعار الرضا من ال محمد والذي يعني امامة الافضل من بيت النبوة بلا نص على امام معين بذاته شعار توافقي قبله الجميع .

وكانت الدعوة العباسية مثال احتذي به من اتي بعدها من تنظيمات حيث السرية المطلقة و اخفاء الامام عن العامة بينما يتعامل النقباء والدعاة معهم بتعليماته حيث لا يعرف بسر الامام إلا اثنا عشر نقيباً يعاونهم اثنا عشر من نظرائهم يحلون محلهم ان عارضهم عارض ثم تأتي مرتبة الدعاة السبعين ثم دعاة الدعاة ثم العمال وقد ادى النظام الهرمي المتقن الى الحفاظ على سرية الدعوة وعدم تسرب اخبارها وخططها و الحزم في تحقيق خطتها .

وبينما كان البيت الاموي يتصدع جراء الصراع الدموي بين أمراهه على الخلافة وفقد مصدر قوته في القبائل العربية التي انشغلت بحرب ضروس بينها امتدت من اليمن إلى الاندلس كان صاحب الدعوة العباسية ابراهيم بن محمد العباس قد قرر الخروج من اطار السرية إلى الثورة المسلحة وولى ابو مسلم الخراساني الموالي الفارسي قائدا لها وأمر شيعته بطاعته .

و بالرغم من صغر سنة ابدى ابو مسلم عبقرية وحنكة سياسية منقطعة النظير فسرعان ما استمال القبائل العربية اليمينية كما استمال الموالي الناقمين على الامويين وفي رمضان ١٢٩ هـ اعلن الثورة في خراسان واتخذ اللون الاسود شعار للعباسيين و انخرمت جيوش الامويين امامة وأمام قحطبة بن شبيب الذي سيطر على طوس و نيسابور و نزل إلى العراق يحطم جيوش الامويين و يبدد قواهم ولكنة سقط في احد الأنهار اثناء عبوره فمات قبل أن يشهد النصر النهائي.

ولكن في العراق تعرضت الثورة لضربة موجعة غيرت مسارها و قلبت المائدة فوق رؤوس الثوار حيث تمكن اخر الخلفاء الامويين مروان بن محمد من القبض على ابراهيم امام العباسيين و قتله قبل ان تصل جيوش الثوار لتجدته وعندما وصل ال العباس إلى الكوفة بعدما استولي عليها جيش الثورة انزلهم أبو سلمة الخلال قائدها ووزير الامام المقتول احد الدور ومنعهم من الاتصال بالناس بينما اتصل سرا بزعماء ال علي بن ابي طالب و بقيادة الثوار الخراسانيين للبحث عن من يلائم أمزجة الثوار غير المتوائمة و عندما حسم الامر لصالح ابا العباس عبد الله بن محمد مرشح الخراسانيين الذي فرضته قوتهم وكثرتهم برغم ميل ابو سلمة إلى تولية احد ابناء علي بن ابي طالب الخلافة كان ذلك ايداناً بنهاية التعاون مع الشيعة العلويين وإقصائهم عن المشهد واستبداد ال العباس بالحكم من دونهم لتبدأ العداوة التاريخية بين أبناء العمومة والتي لم تزدها الايام إلا تعمقاً ومرارة .

والصبغة الدينية للدعوة العباسية لا تنكر فبمجرد ان بويع للسفاح بالخلافة في الكوفة صعد منبر المسجد الجامع فخطب في الناس وقال بعد حمد الله وذكر ماثر ال البيت (وزعمت السبائية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم , أيها الناس بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ونصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الحسياسة وأتم النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم وإخوانا على سرر متقابلين في أخراهم فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم فحووا موارث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصاصا منها , ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم تداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حيناً) فلما آسفونا انتقمنا منهم) فاتترع منهم ما بأيديهم بأيدينا ورد الله علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وتولى أمرنا والقيام بنصرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله)

ثم قام عمه داوود فكان في اخر كلامه متفائلاً لحد كبير حيث قال (و اعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا- وأشار بيده إلى السفاح - واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام)

وبرغم الامال الواسعة التي كانت لإل العباس فان دولتهم كانت في حالة حرب مستمرة منذ نشأتها فمنذ البداية واجه ابا العباس السفاح الثورات و الرفض من جيوب الامويين حتى هزمهم الهزيمة النهائية في معركة الزاب وطارد مروان حتى قتله في مصر وكذلك التمرد في الشام و العلويين ولكنة تصدى لهم كما تخلص من وزير ال محمد أبو سلمة الخلال وأمر باغتياله .

وبعد وفاته واجه خليفته اخيه المنصور تمردا من عمه عبد الله بن علي الذي استعان بالجيش الذي كان يقوده لحرب البيزنطيين ضده ولكن ابو مسلم الخراساني استطاع هزيمته والقبض عليه حيث سجنه المنصور سنوات ثم قتله.

ولكن العلاقة بين ابو مسلم و المنصور رغم ذلك كانت غاية في السوء فكلتا الرجلين كان يستشف من الاخر الرغبة في الإطاحة به وقد حاول المنصور خداع ابو مسلم بتوليته مصر والشام بدلا من خراسان ليبعده عن شيعته وأنصاره ولكنة رفض وفي النهاية تمكن المنصور من استدراجه للمدائن حيث واجهه بأسباب نقمته عليه وفي مقدمتها خطبته امنة بنت علي عمه الخليفة وهذا ما كان يعده العباسيين الذين لم يتجاوزوا العنصرية رغم قيام دولتهم على ايدي الموالي جرما وعدد له جرائم ارتكبها منذ بدء الدعوة ومنها قتلة لنقيب الدعاة في خراسان والعديد من رؤساء القبائل اليمينية وانتهت المحاكمة الرمزية بقتله وقامت ثورة في خراسان عند معرفة خبر مقتل ابو مسلم ولكن المنصور وجه للمتمردين جيشا هزمهم وان استمرت الحركات السرية المناوئة نشطة تتحين الفرص.

ثم قامت حركة محمد النفس الذكية الذي كان مختبئ مع اخيه ابراهيم عند تولي المنصور الخلافة ورفض بيعته وعندما ضيق عليه وسجن عائلته ونكل بهم خرج و ثار عليه وتابعة الكثير من شيعته ولكن العباسيين هزموه وقتلوه في المدينة وقتل اخيه ابراهيم في البصرة.

وحاول المنصور استعادة الاندلس بمكيدة ان رتب ثورة على عبد الرحمن الداخل الذي اعلن استمرار الدولة الاموية بها و استقلالها ولكنها فشلت وأرسل عبد الرحمن له رؤوس رجالة المتآمرين فأقنعه بالكف عن المحاولة .

و للبعد عن تقلبات ولاءات القبائل والعشائر اعتمد العباسيين على تنظيم أقطاع عسكري و دفع رواتب منتظمة لجيش نظامي ثابت , ولكن الخطر كان دائماً حاضراً فبجانب ثورات الخوارج و الحرب مع الروم بقي التهديد الشيعي في الصدارة حتى مع قيام هارون الرشيد بإخراج الامام موسي الكاظم من المدينة المنورة و حبسه حتى وفاته .

وبعد وفاة الرشيد كان الصراع بين ولدية الامين و المأمون مخرجاً للصراع العربي العجمي على الدولة فالأمين الذي تولي الخلافة من بعدة كان يريد خلع اخيه المأمون الذي ظل بخراسان يعزز قواته و يجمع انصاره يخشى الغدر و يتحين الفرص ورفض اوامر اخيه بالعودة إلى بغداد وهو يعتقد انه لو عاد إلى بغداد وحدة فسيكون اسير بها وتوتر الوضع حتى انقسمت الدولة لعراقية يقوم علي رأسها الامين ووزيرة الفضل بن الربيع ممثلين للحزب العربي وخرسانية يقوم علي رأسها المأمون ووزيرة الفضل بن سهل يمثلون الحزب الفارسي و اقدم الامين على خلع اخيه من ولاية العهد و ارسل من دخل حرم الكعبة ونزع كتابي العهد الذي استكتبهما ابوهما الرشيد لهما و احرقهما و ارسل جيشا لخراسان لمحاربة اخيه ولكنه هزم وبادر الخراسانيين بمبايعه المأمون بالخلافة و حوصرت بغداد ورغم استسلام الامين إلا ان جماعة من الجند الخراسانيين بقيادة طاهر بن الحسين اقتحموا سجنه وقتلوه.

وبينما كانت بغداد تغرق في دماء الحرب الاهلية و الفوضى حاول المأمون تخفيف الضغط من عليه باكتساب حليف قوي فصاهر الامام الشيعي الثامن علي الرضا بن موسي بن جعفر الصادق وولاه عهدة حتى يأمن جانب الشيعة ثم عاد إلى بغداد التي كان يحكمها الوزير الفضل بن سهل الذي دبر المأمون مؤامرة لاغتياله قبل دخولها وتوفي علي الرضا فجأة بعدها و يتهم الشيعة المأمون بخيانتة و دس السم له.

وفي عهد المعتصم الذي سأم الصراع العربي الفارسي وأدار ظهره للجميع ظهر العنصر التركي على الساحة في صورة حرس الخليفة الشخصي القوي وسرعان ما تحول لجيش كان قوامه المماليك الأتراك وبدئت دولة قادة الجند الأتراك الذين تضخمت اعدادهم حتى زادت عن عشرين الف جندي وبني لهم مدينة سامراء ليسكنهم فيها وسرعان ما بدء الاعتماد عليهم واستبدالهم بالعرب الذي ثاروا عليه لما اسقط اسمائهم من الدواوين وقطع اعطيتهم و ولي الجنود الأتراك مناصبهم و تأمر بعض القادة العرب على المعتصم ولكن فشل المؤامرة ادي لتوغل الأتراك أكثر وإقصاء العرب عن السلطة التي جعلت حصنها الجنود الذين لا ولاء لهم إلا للخليفة .. أو هكذا كان يظن.

ومع الوقت أصبح الخلفاء في عزلة عن الناس وزاد فيها اعتناق الوثائق ابن المعتصم عقيدة المعتزلة بشكل كامل وواضح واستمرار سياسته في الاعتماد على الجنود الأتراك بشكل كامل فقدت الخلافة تواصلها مع الناس عقائديا وسياسيا و بين عزلة الخلفاء و ضعف شرعيتهم وتفشي الفساد نتيجة المؤامرات المستمرة في البلاط العباسي تحولت الامارات إلى الانفصال بما كأحمد بن طولون الذي أستقل بمصر بعد توليته لها وهو ابن مملوك تركي أهدها حاكم بخاري للخليفة المأمون و تدرج حتى اصبح قائد حرسه الخاص ثم أعقبه أبنه في خدمة البيت العباسي .

وبلغ الضعف بالوثائق إلى ان أعطى قائد الجند الأتراك أشناس لقب السلطان معترفا له بحقوق الحكم وإدارة السياسات المدنية بجانب العسكرية وبينما ولي القادة الأتراك ولايات فأرسلوا نوابا لهم ليحكموا بأسمائهم بينهما ظلوا هم في بغداد يحاصرون الخليفة وعندما توفي الوثائق فرض القادة الأتراك ابنة جعفر المتوكل خليفة في سابقة خطيرة حيث اصبح من بعدها الجند الأتراك اهل الحل والعقد يتم اختيارا لخليفة من خلالهم و يخلعونه ان ارادوا وعندما حاول المتوكل التمرد وممارسة سلطاته قتلة القادة الأتراك بالتأمر مع ابنه المنتصر الذي وضعوه محلة ثم اغتالوه بعدها بعام واحد و اجلسوا أخيه احمد المستعين على العرش الذي قاوم نفوذهم بدورة و تحول الصراع إلى حرب اهلية سائدة فيها العامة بينما ساند الأتراك المعتز و انتصروا على المستعين وقتلوه لتتكرر المأساة بمحاولة المعتز التمرد و تخلصه من بعض القادة الأتراك ثم

تأمرهم عليهم وإرغامه على خلع نفسه ثم تسليمه إلى من عذبة حتى فاضت روحه تحت التعذيب ومن بعدة المهدي وأخيرا عاد للخلافة بعضا من قدرها في عهده المكتفي و المعتضد بالرغم من تفاقم الحركات الانفصالية والثورية التي هددت دار الخلافة ذلك ان الصراع مع القرامطة و الاسماعيلية استنفذ الكثير من قوي الاتراك وشغلهم عن التأمر على الخليفة ككل قوة عسكرية ان عطلت عن اداء مهمتها العسكرية صار لها خطر سياسي وأن شغلت بالحرب تركت السياسة .

وبعد وفاه المعتضد عاد الامر إلى ما هو عليه يولي الاتراك خليفة ثم يخلعونه وكان انتقامهم من الخليفة القاهر الذي قتل القائد التركي مؤنس الخادم ان قبضوا عليه واقتلعوا عينيه وفي عهد الراضي من بعدة نشأ نظام امير الامراء المهيمن على السلطة الفعلية بينما الخليفة مجرد رمز حيث استدعى الخليفة محمد بن رائق امير البصرة وسلمه كافة الامور لما استشعر ضعف القادة الاتراك نتيجة لصراعاتهم الداخلية.

ونالت الدول الشيعية ايضا حظها فعندما ظهر بنو بويه مثلوا حركة مناهضة للنفوذ التركي حيث كان الفرس الشيعة يريدون استعادة مكانتهم التي انتزعها منهم الاتراك وأسسوا دولة قوية استعان بهم الخليفة المستكفي الذي دعا أحمد بن بويه إلى دخول بغداد وعينه امير الامراء واخرج البويهيين الأتراك و سيطروا على الدولة العباسية سيطرة تامة

ورغم ان البويهيين كانوا شيعة إلا انهم لم يلغوا الخلافة العباسية رغم قدرتهم على ذلك لأنهم كانوا يدركون انهم يفقدون حقهم في السلطة ان قام خليفة علوي ينتسب لإل البيت رغم توثق العلاقات بينهم وبين الدولة الفاطمية التي اعترفت عضد الدولة البويهي بإمامتهم في رسالة الي الخليفة الفاطمي العزيز بالله .

ولهذا فقد تميز عصر البويهيين باستمرار الخلفاء مدد طويلة على عروشهم مقارنة بفترات سيطرة الاتراك فقد تولي المطيع ٢٩ عام والطائع ١٨ عام والقادر ٤١ عاما كاملة بينما كانت خلافتهم رمزية و الامر كله لمنصب لأمير الامراء الذي توارثه بني بويه ورتبوا للخليفة راتبا ثابتا ثم خصصوا له ضياعا ينفق من عائداتها وأن لم يتورعوا عن مصادرة امواله ان احتاجوا اليها

وفي مفارقة لطيفة كانت القاب الامراء البويهيين مرتبطة بالدولة (عضد الدولة - بماء الدولة - شرف الدولة) بينما الخلفاء العباسيين ارتبطت القابهم بالله (المستعين بالله - الطائع لله - المطيع لله) في فصل رمزي بين الدولة التي سيطروا عليها والرمز الديني ممثلاً في الخليفة .

ولكن الامور لم تسر دائما على ما يرام فقد ادى تهادى البويهيين في اظهار عظمتهم إلى حقن العامة عليهم وعندما اضاف جلال الدولة لقب شاهنشاه الاعظم ملك الملوك إلى القاب بموافقة الخليفة وأمر ان يدعي له على المنابر بهذا اللقب ثارت فتنة عنيفة أعتدي فيها الناس علي خطباء المساجد الذين دعوا بذلك .

وبعد وفاة بماء الدولة اضطرت اوضاع البويهيين لصراع ابناءه على خلافته و قسموا الدولة بينهم وثارت بينهم الحروب الاهلية و استعانوا بالجنود الاتراك الذي اصبحوا مثار فتن وقلقل ثانية ولم يتورعوا عن نهب بغداد اكثر من مرة و ليتفادى البويهيين اشكاليات مطالبة الجند بالمال نظموا الإقطاع العسكري غير الوراثي فيكون للقادة الاتراك ضيعات يعيشون من عائدها طيلة حياتهم وتعود للبويهيين بعد وفاتهم مما خرب القرى و اضعف الاقتصاد بشدة لان القادة الأتراك لم يكونوا زراع ولا يهتمون بتنمية الاراضي و ظهر التعصب الطائفي بقوة في بغداد حيث أجتذب البويهيين العامة من الشيعة بينما استمال الاتراك السنة وارتفعت شعارات التكفير و التنجيس وحل الدماء بين الطائفتين وأصبحت الصدامات الطائفية واقع يومي في بغداد .

وانتهت الدولة البويهية على يد السلاجقة الذين سيطروا على اراضيها في فارس والعراق ثم دخلوا بغداد وطردوهم منها .. فقد ضعفت الاسرة البويهية وسيطر على بغداد القائد التركي الشيعي البساسيري الذي كان شوكة في جانب الملك الرحيم البويهي و الخليفة العباسي ولم يتورع عن الاستعانة بالخليفة الفاطمي المستنصر وخطب باسمه في بغداد و أرغم الخليفة العباسي علي كتابة أقرار بأنه ليس للعباسيين حق في الخلافة في ظل وجود ابناء فاطمة الزهراء و استنجد الخليفة العباسي بالسلطان السلجوقي طغرل بك الذي دخل بغداد دخول الفاتحين ولكنة اضطر للعودة لبلادة لمجاهة تمرد فاستولي البساسيري على بغداد مجددا وفر الخليفة العباسي و خطب باسم الفاطميين عام كامل بما و لكن الفاطميين لم يرسلوا للبساسيري

المساعدات التي تمكنه من الاحتفاظ بمكتسباته ربما لضعفهم أو لعدم ثقتهم في الرجل للدرجة التي تجعلهم يخاطرون بجيشهم بعيد عن قواعدهم فعاد طغرل بك وقتله و استعاد بغداد وظلت الخلافة اسيرة السلاجقة حتى سقطت دولتهم بمقتل السلطان طغرل الثالث لتستعيد دولة الخلافة العباسية استقلالها ولكن الأتابكيات والشاهات التي كانت عبارة عن دويلات صغيرة يرأسها الجند الاتراك و حكام المدن المعينين من قبل السلاطين السلاجقة ورثت ممتلكات الدولة السلجوقية التي كانت مقسمة كإقطاعات عسكرية واستمرت الدولة العباسية كأحدي الدول المتنازعة حتى سقطت بغداد على يد المغول .

أما الولايات التي استقلت مبكراً فقد اعتمدت بدورها على المماليك لحماية عروشها وكان ابرزهم أحمد بن طولون الذي كون جيش ضخم من المماليك من كافة الاعراق ليحافظ على دولته التي لم تستمر من بعدة طويلا وعادت للدولة العباسية ثم كرر واليها التركي محمد الإخشيد تجرته بحذافيرها وقد تصادم الأخشيدين مع الدولة الحمدانية ولكن الاخشيد بعدما هزم سيف الدولة ودخل دمشق عقد صلحا معه تنازل له بموجبة عن حلب وشمال الشام ليتفرغ لمواجهة تهديدات الفاطميين من جهة ولتكون دولة الحمدانيين فاصل بينة وبين البيزنطيين والعباسيين .

ورغم نجاح الاخشيد في تأسيس دولة قوية إلا انه توفي و ولدية طفلان صغيران فكانت ولاية العهد لهما و خادمة كافور الاخشيدي (الذي كان عبداً أهدي اليه) وصبا عليهما و سرعان ما توفي ابنة في ظروف غامضة و أنفرد كافور بحكم مصر واستطاع مواجهة الفاطميين و القرامطة والحمدانيين ببراعة واقتدار إلا ان الدولة سرعان ما انحارت بعد وفاته فلم يكن بها من قيادات بل منفذين لأوامره و جند مرتزقة طاعتهم لمن يدفع لهم فسقطت في يد الفاطميين الذين استمروا في الاعتماد على الجنود المرتزقة والرقيق من كافة الاعراق والذين تمكن قادتهم من التحكم في امور الدولة والتلاعب بها طويلاً .

اما الأيوبيين فقد توسع الملك الصالح نجم الدين أيوب في شراء المماليك الاتراك حتى اصبحوا غالبية جيشه لشكة في ولاء الاكراد و الخوارزميين من جنود الدولة الأيوبية خاصة وان المماليك الاتراك هم من خلعوا اخيه العادل الثاني و نصبوه سلطانا وهزموا من ثار عليه من

الاكرد واثبت المماليك الصالحية جدارتهم عندما تصدوا للحملة الصليبية التي توفي الملك الصالح في أثناءها.

ولكن بمجرد انقشاع غبار المعركة قامت اخرى بين توران شاة ابن الملك الصالح و بين أرملته شجر الدر والمماليك الذين قتلوا ملكهم و اقاموا شجر الدر محلة ثم تزوجت المعز ايبك و تنازلت له عن السلطنة ليوامحه ثورة من القبائل العربية في مصر بقيادة الشريف حصن الدين ثعلبا و حربا مع الامراء الايوبيين في الشام بقيادة الملك الناصر وحصاراً من زملائه المماليك الذين شق عليهم انفرادهم بالسلطة من دونهم و رفضاً من العامة الذين كانوا يصيحون عند مرور موكبه نريد سلطاناً على الفطرة .

و رغم انتصاره على الثائرين العرب و قتل قوادهم و هزيمته الملك الناصر و اجبارة على الاعتراف بدولته وترسيم الحدود وتخلصه من منافسة القوي فارس الدين أقطاي باغتيالها و تشريد رجالة فقد ظل حكمة مزعجاً و لم ينفعه اعلان تبعيته للخليفة العباسي في تثبيته حتى مقتله الذي أظهر دولة المماليك وكأن عصرها القصير قد أنتهي مبكراً والباب مفتوح لمن يستطيع السيطرة على مصر ان يبدأ دولة جديدة .

ولكن احتياح المغول لبغداد والشرق الإسلامي كله قلب المائدة على رؤوس الجميع فبينما خضع بعض أمراء الايوبيين لسلطان هولاكو وقبلوا على أنفسهم أن يكونوا جنوداً وولاء له في الشام رفع المماليك راية الجهاد وكانت انتصاراتهم وتصديهم للمغول و الصليبيين واستعادة الشام من ايديهم مبرر وجودهم و سلطانتهم.

فلم تكن إعادة بيبرس إقامة الخلافة العباسية في القاهرة وتلقيب الخليفة له بقسيم أمير المؤمنين وتفويضه في كافة الامور بمصدر لشرعيته وتأكيداً عليها بقدر انتصاراته العسكرية المدوية وفتح عشرات المدن والحصون في عصر تعرض فيها المسلمون لهجمة شرسة جعلت نموذج الملك المقاتل هو الأنسب للعصر .

فعلي الرغم من ان بيبرس واجه منذ استيلاءه على عرش مصر مؤامرات متعددة و أعداء اقوياء إلا انه تصدي لكل ما واجهه طيلة سبعة عشر عاماً بصلاية مكنته من تأسيس أقوى دولة في الشرق .

فبمجرد عودته للقاهرة بعد اغتياله قطز واجه تمرد سنجر الذي استقل بالشام وهزمه كما اجهض مؤامرات مماليك ايبك و قضي عليهم ثم تفرغ لمقارعة خصومة من المغول والفرنجية فهزهم وردهم عن الشام مرات عديدة واستعاد قيسارية ثم حيفا و ارسوف و صفد وحاصر يافا حتى استسلمت و طلبت مملكة بيروت الصلح فأجابها وضم النوبة والسودان وتحالف مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية الذي اشهر اسلامه ودخل حرباً ضد هولوكو و المغول الوثنيين وكانت لطبيعة بيبرس المتدينة رغم قسوته وعنفه مع خصومة اثر واضح في عهده فأعاد افتتاح الجامع الازهر و مسجد الحاكم وأقام اربعة قضاة على المذاهب الاربعة بعدما كان الايوبيين يقصرون القضاء على المذهب الشافعي وجدد المسجد النبوي و خصص حصته من غنائم فتح أنطاكية في بناء مسجده بالحسينية وأقام العديد من المنشآت والمساجد ومنع صناعة الخمور والاتجار بها وإغلاق الحانات في جميع انحاء مملكته . كما أمر بجمع اصحاب العاهات من القاهرة وأسكنهم بلدة في الفيوم وتولي الانفاق عليهم بدلا من تسولهم وعندما حدثت ازمة في الغلال في بداية عهده ووزع على نفسه و أمراءه كل بحسب عدة جنده و الاثرياء مجموعات من الفقراء و المعوزين يقومون بالإنفاق عليهم حتى انتهت الازمة .

واستمر خلفاء بيبرس في نحه الجهادي واحترام الدين وقامت علاقات وثيقة بين سلاطين المماليك و الفقهاء والعلماء المصريين والشاميين حيث أعتمد السلاطين على فتاويهم كسند لتصرفاتهم الادارية والاقتصادية و السياسية و حرصوا في المقابل على الواجهة الدينية لحكمهم وعدم المساس بالأوقاف الدينية التي كان الشيوخ نظار لها بل زيادتها مما وفر للمشايخ مصادر دخل متميزة وكانت الفئة العليا منهم تحصل ايضا على رواتب من الديوان السلطاني كما أستمر المماليك على نحه الأيوبيين في دعم الطرق الصوفية و الأنفاق على الزوايا (الخوانيق) التي كانوا يقيمون بها إقامة كاملة ويمنحون رواتب .

وثبت في عهد بيبرس ثم خلفاءه تركيب الجيش المملوكي وبلغ أوجه بتعداد تخطي اربعين الف فارس محترف علي أعلي مستوى بجانب الجنود غير النظاميين من جند الحلقة و الاعراب والمتطوعين ومماليك الامراء الذين يتجمعون وقت الحرب ويندمجون في جيش السلطان .

وقسمت مصر إلى ٢٤ قيراط استأثر السلطان بأربعة منها وللجند ١٠ منها و للأمرء ١٠ اخرى في نظام اقطاعي صارم كان للأمير المملوكي الاقطاعي فيه جيش صغير من المماليك بين ٣٠٠ إلى ٦٠٠ مملوك أما جنود الحلقة فهم المقاتلون الاحرار من ابناء المماليك و العرب و المصريين المتطوعين للجيش مقابل رواتب وإقطاعات صغيرة وكان الإقطاع يتراوح من نصف زمام قرية لجندى الحلقة إلى زمام عشر قرى للأمير المملوكي .

ولكن عندما تخوف السلاطين من قوة مركز المماليك في اقطاعيتهم تحولوا لتفريق الإقطاع وتغييره كل فترة فأصبح الجندى أو الامير المملوكي يعلم انة لن يبقى سيدا على هذه الارض للأبد فضعف ارتباطهم بها و بالتالى توقفت حركة الإصلاح و الاهتمام بالأراضي الزراعية و تدهورت بسرعة فلم يكن الإقطاع المملوكي متوارث كالأقطاع الاوربي متمركز في اسر و مناطق بما يكفي لتكوين مراكز حضارية ساهمت في مناهضة استبداد الحكام بل اقطاع شخصى يحق للسلطان ان يهبه أو يجرم منة كما يشاء وينتهي بوفاة صاحبة الذي لا يدخل ابناءه نظام المماليك المقتمر على الارقاء بينما ابناءهم الذين غلب عليهم تسمية اولاد الناس في منزلة اقل من المماليك لا يسمح لهم إلا بالانضمام لجنود الحلقة بينما تحول اغلبهم عن الحياة العسكرية وامتصهم المجتمع المصرى وذابوا فيه .

وبينما قل اعتماد المماليك على الإقطاع الزراعى كانت مطالبتهم بالأجور والأموال السائلة من السلاطين و ثورتهم عليهم ان عجزوا عن الدفع واعتدائهم على الناس فارتفعت الضرائب وضعف الاقتصاد و بعد عصر السلاطين المماليك العظام الذي بلغت دولتهم فيها أوجها بدء طور الانحدار .

فبينما كانت الظروف التاريخية في صالح رفعة الدولة المملوكية حيث أحدثت الهجمة الشرسة التي تعرض لها المسلمون موجات من الهجرة إلى الداخل الإسلامى وكانت مصر حاضنة

لعلماء الشرق والغرب ومعقل للإسلام ضد اعدائه حتى سجل الرحالة ابن بطوطة انهياره عندما وصل الي مصر في عهد قلاوون من مظاهر الثراء و القوة فوصف القاهرة بقولة (ثم وصلت إلى مدينة مصر وهي أم البلاد و قرارة فرعون ذى الاوتاد ذات الاقاليم العريضة و البلاد الارضية , المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة , ومجمع الوارد و الصادر ومحط رحل الضعيف والقادر, وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل و حلیم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف و منكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعه مكانها وإمكانها , شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديله لا يبرح عن منازل السعد قهرت قاهرتمها الأمم و تمكنت ملوكها نواحي العرب والعجم)

ولكن بعد انتهاء الخطر المغولي وبعده الخطر الصليبي بفتح السلطان الأشرف صلاح الدين خليل عكا اخر معاقل الصليبيين ١٢٩١ م بدئت الامور في التحول للأسوء..

فالجيش المملوكي الكبير أصبح عاطلاً وفقد مبرر وجوده في مجابهة التحديات وتحول الفرسان المماليك من حماه للدين و الارض إلى طغمة عسكرية منعزلة عن المجتمع ولم تمنعهم رابطة الخشداشية (علاقة الأستاذ أو الامير المملوكي لتلاميذه من المماليك الجدد الذين يتعاملون معه كأب و يعاملهم كأبناء و يتعاملون كإخوة ويكونون أسرة بديلة عن أسرهم التي لا يعرفونها ويعتبرون علاقتهم أشد من علاقة الدم) التي جمعتهم من الغدر و تدبير المكائد و المؤامرات المميتة لبعضهم البعض , خاصة مع ظهور التحيزات العرقية التي بدئت بأستجلاب السلطان قلاوون الكثير من المماليك الجراكسة و اسكنهم القلعة ليضمن ولائهم له و لابناءة في مواجهة المماليك البحرية , في سبيل تحقيق غايتها في أن تكون السلطنة متوارثة في ابناءة ولكن كالعادة استبد المماليك الجدد بالسلطة فأغتالوا ابنه الأشرف خليل و عادت وسيلة تداول السلطة القتل من جديد .

وتحولت مشاعر المصريين للمماليك للعدائية والكراهية الشديدة وكيف لا وهم لا يرفعون سيوفهم إلا لنهبهم و العدوان عليهم وتعرضت مصر لازمات خانقة و تعرضت للمحاعات وموجات الأوبئة دون ان يستطيع السلاطين فعل شيء سوى الفرار والانعزال عن الناس خلالها وانهار سوق النقد حتى امتنع الناس عن التعامل بالنقد لانتشار التزوير ونقص الفضة

وفشا الفساد و انتشرت الدعارة و الحشيش وتحولت الرشوة إلى عرف يسري في كل صغيرة وكبيرة من امور الدولة إلى ان سقطت على يد العثمانيين.

ومع بزوغ الدولة العثمانية بتحول الاتحاد بين القبائل التركمانية التي استوطنت الارضي ما بين الامبراطورية البيزنطية والدولة السلجوقية إلى دولة يرأسها عثمان ابن ارطغرل الذي اعلن استقلاله عن السلاجقة بعد هزيمة المغول لهم وعاد عهد الفتوحات الإسلامية على يد القبائل التركمانية التي أعلنت راية الجهاد و في عهد ابنة أروخان بدء توسع الدولة العثمانية الناشئة على حساب الامبراطورية البيزنطية وانتزعوا منها الكثير من الاراضي و المدن والحصون .

وكان الجيش العثماني في بدايته مشابها للجيش السلجوقي حيث تقدم كل قبيلة وحدة عسكرية من رجالها المؤهلين ولكن الغنائم التي وزعت على الفرسان المقاتلين جعلت منهم فئة متميزة في المجتمع العثماني الناشئ الذي لم يتخلص بعد من بساطة البداوة ثم احتيج لتعظيم الجيش بالمشاة فاتخذ من الفلاحين جنودا مؤقتين بالأجرة ثم يعودون لمزارعهم عند انتهاء الحملات .

وفي عهد أروخان ابن عثمان ثم مراد الاول بدء استخدام الاسري المسيحيين في تكوين الجيش الانكشاري باقتراح من قرة خليل باشا حيث صدر قانون بتسليم خمس الاسري إلى البيك العثماني ليستخدمهم في قوة المشاة وألا يدفع قادة الغارات من رؤساء القبائل مبالغ مالية بدلا عنها وبعد ذلك يتم تنشئة هؤلاء الصبيان تنشئة اسلامية خالصة ويعلمون التركية ويتلقون تدريبات عسكرية مكثفة ليكونوا الجيش النظامي الثابت الذي لا يكون ولائه إلا للسلطان

ومع أتساع رقعة الدولة و زيادة الحاجة للمقاتلين ظهر نظام ديو شيرمة الذي كان التجنيد يتم فيه في فترات سلمية من ضمن رعايا السلطان الأوربيين فأخذ عامل التجميع ما يشابه الجزية البشرية من الاطفال فيصطفي الافضل من كل اربع أو خمسة صبية للأسرة ما بين سن الثانية عشرة و الخامسة عشرة ويرون في عائلات تركية لفترات قصيرة ثم يعملون في الاشغال

المدينة والحربية كالبنا و التحديف ثم يندرجون في معسكرات تدريب مغلقة ليصبحون أهم قوة ضاربة في الجيش العثماني و أمضي اسلحته .

وبعد وفاة السلطان بيازيد ظهر لأول مرة التأثير السياسي للانكشارية في صراع الاخوة المتنافسين على العرش وان لم يكن انحيازهم حاسماً

وفي عهد محمد بن مراد حدث التمرد الاول للانكشارية الذين ثاروا لتأخر أجورهم فدمرو بيوت كل وجهاء ادرنة ونهبوها ولكن سرعان ما تمكن محمد من السيطرة على الانكشارية وعاقب من تمرد منهم بيد حديدية وجيش جنوده والقبائل التركية لفتح القسطنطينية الباهر الذي منحه لقب الفاتح واستمر من بعدها في غزواته الناجحة واخضع صربيا الخضم العتيد وضم البوسنة و حطم قوى المجر إلا ان الوضع اختلف من بعده فقد اضطر السلطان إلى تجنيد الكثيرين لتعويض الخسائر الضخمة في صفوف الانكشاريين الذين اصبح عليهم بالإضافة لخوض الحروب حماية اراضي الامبراطورية الواسعة وبمجرد وفاته بدء الانكشاريون في التمرد و النهب واستولوا على زوارق عبروا بها إلى اسطنبول ونهبوا بيوت الوزير الاعظم ووجهاء المدينة إلى ان تدخل اسحاق باشا احد القادة السابقين و هدئهم بوعود زيادة الاجور و العطايا وبالفعل اجاب بايزيد الثاني خليفة محمد مطالبهم وعين اسحاق باشا الوزير الأعظم بناء على طلبهم وقد ادرك انه لم يكن ليصير سلطانا إلا برضائهم.

وثار نزاع مسلح بين ابناء بايزيد , سليم ذو الشعبية الكبيرة والذي يرغبه الانكشارية واحمد الاكبر سنا ولي العهد وليحسم بايزيد الامر أعلن أحمد سلطاناً , ولكن الانكشارية قابلوا هذا بالطريقة التي تعودوها لفرض ارادتهم بتمرد و نهب وسلب ومنعوا احمد من دخول المدينة حتى اتي سليم وبعد مناورات وتهديدات اضطر بايزيد ان ينزل لابنة سليم عن العرش وكافئ سليم قدامي الانكشارية بان اعطاهم حق الزواج والإقامة خارج الثكنات واعدم اخويه أحمد وكوركودا قبل ان يقوم بحملته ضد الشاه الصفوي اسماعيل واستطاع سليم ان يسيطر على الانكشارية بالقسوة و الاعدامات والتعذيب لانتزاع الاعترافات لإجهاض المؤامرات وانشأ وظيفة الاغا الانكشاري لتعزيز الرقابة عليهم قبل ان يتجه لانتزاع الشام ومصر من يد المماليك.

وسرعان ما هزم المماليك في مرج دابق و قتل السلطان المملوكي قنصوه الغوري و استولي على الشام كله بلا قتال ثم دخل القاهرة وأباح نهبها للانكشارية ثلاثة ايام ورغم ان الإباحة كانت لبيوت المماليك فقط إلا ان ايدي الانكشارية لم تقتصر عليها و تحول السلب و النهب إلى مذبحه كبري أمر سليم بعدها بإلقاء ٤٨٠٠ أسير من أهالي القاهرة الشكلي في النيل قبل ان يهزم طوماي باي نهائيا و يقتله.

وعندما مات سليم كان خليفته ابنة سليمان لان سليم كان قد قتل ابناء الثلاثة الاخرين وبالرغم من فتوحات سليمان و انتصاراته المبهرة و التي اظهر فيها رحمة و رأفة كتأمينه اهل بلغراد وعدم نهبها إلا ان الانكشارية الذين اثار حنقهم حرمانهم من الغنائم بعد طول الحصار نهبوا بيوت اثرياء المدينة وكنيسة القديس ايوان وخربوها بعد استسلامها مخالفين لأوامر السلطان وقاموا بإعمال نهب واسعة في العاصمة مستغلين غيبة السلطان والوزير الاعظم وبدا واضحا ان الطريقة الوحيدة للسيطرة على الانكشارية هي دفعهم إلى الحروب باستمرار ليحصلون على الغنائم باعثهم الوحيد للقتال .

وعندما رفض السلطان دفع مكافآت للانكشارية بعد فتح مدينة بودا المجرية التي امن اهلها على اموالهم وأنفسهم قاموا بارتكاب مذبحه مروعة في المدينة ضارين بعهد السلطان عرض الحائط .

وبنهاية عصر سليمان كانت القوة الغازية للإمبراطورية العثمانية قد انتهت تقريبا وفقد الجيش التركي قدراته العسكرية المهولة التي جعلته اقوى جيوش العالم وعند وفاة سليمان وقف الانكشارية امام موكب خليفته سليم الثاني ولم يتركوه يدخل قصره إلا بعدما وعد بدفع مكافأة جلوسه على العرش و زيادة اجورهم كما أرادوا.

وعلى الرغم من ان السلطان كان يضطر في كل مرة للخضوع لابتزاز الانكشارية إلا انهم لم يتحولوا إلى وزراء كما كان الجند الاتراك في الدولة العباسية فلم يكن لديهم من طموح سياسي بل جشع للأموال و الغنائم لتكوين ثروات يستمتعون بها وهم المعزولون عن مجتمعهم لا يعرفون حتى ابائهم و امهاتهم.

وبالرغم من انتصار الاتراك في قبرص إلا ان فرحتهم بالنصر لم تطول فسرعان ما واجه الاسطول التركي ارمادا من سفن البابوية و اسبانيا و الدويلات الايطالية في معركة ليبانتو ١٥٧١ م البحرية الشهيرة التي هزم بها الاتراك لأول مرة في تاريخهم و اختل ميزان القوى لصالح القوى الاوربية الصاعدة التي اعلنت تحالفها مقابل الامبراطورية العثمانية التي دخلت في طور الافول الطويل وأول علاماته ان سليم الثاني كان اول سلطان عثماني لا يشارك على راس الحملات الحربية لعدم ثقته في النصر وكذلك كان خلفه مراد الثالث الذي ارسى تقليدا دمويا حيث قتل كافة اخوته الذكور بمجرد اعتلائه العرش خشية الانقلابات و المؤامرات و بقيت القوات الانكشارية في ثكناتها بالعاصمة تمثل خطرا داهما وأصبحت لا تخرج للحرب إلا بدفع الاموال لها مقدما.

و مع تفشي الرشا و الفساد والأزمات الاقتصادية والمالية ازداد الوضع سوء وبرزت ظاهرة اختلاف اعداد الجنود الحقيقية عن تلك المسجلة في الدفاتر حيث كان الانكشارية يدنون اضعاف اعدادهم في سجلات الرواتب و يقسمون الزيادات الهائلة بينهم ولم يعد لديهم ادني حماس للمشاركة في المجهود الحربي مفضلين تفضية اوقاتهم في الحانات بين الخمر و بائعات الهوي و تحولوا من قوة عسكرية محترفة إلى تجار ومضاربين لا علاقة لهم بالانضباط العسكري بالإضافة إلى اعمال البلطجة و السلب و النهب وفرض الاتاوات على الاهالي و التجار.

وعندما قرر السلطان عثمان الثاني ان يستبدل الانكشارية في العاصمة بإخوانهم المرابطين في مصر معززين بمجندين جدد بعد خيبة املة في معركة خوتين التي شهدها ضد القوات البولندية حيث رأى بعينية مدى تخاذلهم . ادرك انه لا يستطيع ابلاغهم بقراره وعندما حاول الخروج إلى القاهرة ليأمن شرهم تذرع برغبته في الخروج إلى الحج لكنه فوجئ بفتوى تصدر عن شيخ الإسلام ان مهمة السلطان البقاء في العاصمة وممارسة القضاء وعدم تركها حتى لأداء فريضة الحج التي لم يؤديها اى من أسلافه !

و انتهى الامر ان اقتحم الانكشارية القصر و ادوا القسم لمصطفى عم عثمان وأرغموا شيخ الإسلام على بيعته و عاثوا تقتيلا في رجال الحاشية والحكومة و قبضوا على السلطان عثمان وطافوا به المدينة وهم يسبون و يهينونه ثم سجنوه حيث مات في سجنه .

وبعد أقل من عام ونصف تم عزل السلطان مصطفى الذي كان يعاني من اضطراب عقلي لعله كان السبب في الإبقاء على حياته .

ومن بعده حاول السلطان ابراهيم ان يجد من نفوذ الانكشارية و فسادهم فقاموا بخلعة وتولية ابنة محمد البالغ من العمر سبعة سنوات فقط سلطاناً ولما تدمر بعض رجال الدولة قام بعض الانكشارية بخنق السلطان في سجنه .

وهكذا تحولت القوة العسكرية التي كان من فكر في أنشاؤها يظن انها ضمانة للسلطان العثماني ضد تقلب القبائل و مؤامرات رجال الدولة الي نكبة للسلطين و بدلاً من ان تكون اهم مصادر قوي الدولة تحولت إلى قوة مناهضة لرفعتها تسببت في انحطاطها وأسرعت من وتيرة سقوطها .

وظل الانكشاريون مصدر للفساد و الفتن يقاومون محاولات الإصلاح بعنف حتى وضع السلطان محمود الثاني نهاية لهم بمذبحة الخيرية ١٨٢٦ م مستعينا بقوات المدفعية والفرسان الموالية له محاكياً لحل محمد علي النهائي في التخلص من المماليك المصرية .

لتنتهي تلك الظاهرة العجيبة من الوجود بعد قرون طويلة استمرت فيها بلا مبرر سوى الانفصال بين السلطة و الإرادة الشعبية و افتقار الحكام لمصدر لشرعية حكمهم مما دفعهم لإقصاء أبناء البلاد من الدخول في زمرة النخبة العسكرية لإجهاض أدني طموح سياسي لديهم كما تسبب ذلك الافتقار لإفقار الشرق الإسلامي وعرقلة نموه الاجتماعي و السياسي والاقتصادي طويلاً .

المصادر

الإنكشاريون في الأمبراطورية العثمانية - إيرينا بيتروسيان

تاريخ الدولة العثمانية - خليل اينالجيك

الأيوبيين و المماليك - قاسم عبده

جهاد المماليك ضد المغول والصلبيين - عبد الله الغامدي

تاريخ الدولة العثمانية - سيد محمد السيد

تاريخ العثمانيين - محمد سهيل طقوش

العصر المملوكي - مفيد الزيدي

فرسان الإسلام وحروب المماليك - جيمس واترسون

تحت راية الصليب

كيف صنع الصراع الإسلامي المسيحي حضارة الغرب

أولئك منكم الذين اعتادوا من قبل على أن يتنافسوا بطريقة آتمة في الحروب الخاصة ضد المؤمنين عليهم ان يحاربوا ضد الكفار وأن ينهوا الحرب نهاية ظافرة .. وأولئك منكم الذين كانوا حتى هذه اللحظة لصوصا عليهم الان ان يصيروا جنودا وأولئك منكم الذين كانوا ينافسون فيما مضى اخواتهم وأقاربهم عليهم أن يحاربوا الان ضد البرابرة حسبما ينبغي عليهم.

البابا أوربان في خطبته بكليرمون جنوب فرنسا والتي كانت بداية الحروب الصليبية

أحدى أهم النظريات في تفسير نشأة الحضارات تقول أن الحضارة تقوم نتيجة استجابة لتحدي يستتفر أفراد حيز عمراني فيحققون هويتهم المشتركة و تتضافر جهودهم في استغلال مواردهم للتصدي لهذا التحدي .. وعندما ننظر للحضارة الغربية التي تؤرخ بدايتها بالثورة الصناعية الاوربية نجد في صراعها مع العالم الإسلامي نموذج واضح لهذا التحدي الذي يحدث الفارق .

بدء الصراع الإسلامي الغربي مبكراً حيث كان الصدام الاول بعد قتل شرحبيل بن عمرو الغساني حاكم البلقاء التابع للإمبراطورية البيزنطية (الروم) لرسول المسلمين الحارث بن عمير الذي كان في طريقة لتسليم رسالة دعوية إلى الشام مما اسفر عن وقوع معركة مؤتة التي واجه فيها المسلمون الروم و حلفائهم من قبائل العرب لتبدأ حرب المسلمين و الروم أحد أهم حروب التاريخ وأطولها حيث استمرت من معركة مؤتة عام ٨ هـ / ٦٢٩ م وحتى سقوط القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٦ م على يد محمد الفاتح .

ولكن القسطنطينية لم تكون محور الصراع الوحيد ففي ٩٢ هـ / ٧١١ م فتحت الاندلس لتمثل بؤرة الصراع والتلاقي بين العالمين الإسلامي والمسيحي حيث وجد القوط المسيحيين انفسهم يعيشون تحت الحكم الإسلامي لتنشأ أشكال أخرى من الصراعات والتفاعلات الثقافية و الدينية و الاجتماعية .

ولكن بعيداً عن الأطراف المتماصة كان قلب العالمين الإسلامي والمسيحي يكاد كلاً منهما يجهل وجود الآخر فباستثناء العلاقات التجارية المحدودة بين التجار المسلمين و نظرائهم من الدويلات الايطالية ورحلات الحج التي يقوم بها قلة من الفرنجة كان العالمان منفصلان تماماً .. حتى جلس الحاكم بأمر الله علي عرش مصر .

فبدون أسباب صب الخليفة الفاطمي المضطرب نقمته على الأقباط و المسيحيين عامة وبدئت موجة اضطهاد كبري ضدهم , بدئها بعزل الموظفين الاقباط و الإساءة إلى رهبانهم و قساوستهم حتى قتل بعضهم ومنع استعمال اللغة القبطية و توعد من يستعملها بقطع لسانه و الزم المسيحيين بتعليق صليب ثقيل في اعناقهم ثم امر بدم الكنائس في مصر والشام وفلسطين ودمرت كنيسة القيامة التي يقدسها المسيحيون الشرقيون والغربيون ١٠٠٣ م ثم امر بإخراج كافة المسيحيين واليهود من مصر ولم يتراجع عن هذا القرار (مستحيل التنفيذ) إلا بعد استعطافات متعددة فتوقف اضطهاد المسيحيين فجأة كما بدء !

ورغم عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه و استمرار سياسة الدولة الفاطمية المتساهمة مع غير المسلمين بعد اغتيال الحاكم علي يد الغاضبين من حاشيته إلا ان افعاله كانت تستعصي على النسيان و حاول البابا سرجيوس الرابع شن حملة صليبية على فلسطين ولكنه فشل في حشد الأمراء الاوربيين لها , و عندما نشطت رحلات الحج الاوربية إلى القدس بمناسبة الفية صلب المسيح ١٠٣٣ م كان الفرنجة يعودون لبلادهم بقصص مخيفة عن الدمار الذي حل بالمقدسات المسيحية و الاضطهاد الذي يتعرض له المسيحيين لتبدأ السمعة السيئة للمسلمين في اوربا تتكون تغذيها الشائعات و الاكاذيب و التعصب الديني , وزاد في هذه السمعة أن رحلات الحج الأوربية للقدس كانت هدفاً معتاد لعصابات قطاع الطرق و البدو .

وكانت الكلمات الاولي التي سمعها العديد من الاوربيين عن المسلمين تفيض بالكراهية وتمثلهم كعرق شيطاني ملعون (لم يتوجه قلبه حقاً ولا عهد بروحه إلى الرب قد غزا اراضي المسيحيين وأخلاها من سكانها بالسيف أو انه دمر تماما كنائس الرب أو حولها لممارسة شعائر دينه أنهم يدمرون المياكل بعد أن نجسوها بقذارتهم و هم يختنون المسيحيين و ينشرون الدم الناتج عن الختان على المذابح أو يصبونه في اواني التعميد) كما عبر البابا اوربان الثاني

الذي جعل إشعال الحرب ضد المسلمين مهمته المقدسة وكانت كلماته التي تصف التعذيب البشع و الاضطهاد المخيف الذي يتعرض له المسيحيين في الشرق الإسلامي (والتي كانت في الحقيقة ترديد لوصف لعصر الاضطهاد الروماني للمسيحيين) تملأ خطبة التي كان ينقلها القساوسة ويلقونها على مسامع الفلاحين والأمراء في كافة أنحاء اوربا التي سرعان ما امتلأت بالغضب والرغبة في الانتقام من اعداء الرب وإنقاذ الاماكن المقدسة من يد الكفار .

وفي عشية الحروب الصليبية كان الشرق الإسلامي في حالة ترهل نتيجة الصراعات المذهبية وضعف الخلفاء الذي ادي لاستقلال فعلي أو حكمي للعديد من الولايات ولكن في مقابل هذا الضعف السياسي والتراخي العسكري الذي اصاب الجميع باستثناء الأتراك السلاجقة الذين تمكنوا من سحق جيوش الامبراطورية البيزنطية في معركة ملازكرد ١٠٧١ م كان الشرق يحصد ثمار سنوات طويلة من الاندماج بين الشعوب المختلفة تحت لواء الإسلام في تنوع ثقافي و تقدم علمي ومعرفي و رقي ادبي و فني و ثراء و مظاهر ترف متعددة بينما كانت اوربا تعاني من مشكلات متفاقمة تجعلها على حافة الانفجار .

كان الأوربيين يعانون من الفقر المدقع لقلة مواردهم و سوء حالة اراضيهم وشهدت السنوات العشر السابقة على الحروب الصليبية مجاعات قاسية وانتشار مروع للأوبئة , بالإضافة إلى الجهل الشديد والانعزال عن العالم الذي جعلهم يتمسكون بعقيدتهم الكاثوليكية تمسكاً شديداً بالتعصب مختلطاً بأساطير شعبية و تفسيرات لاعقلانية للنصوص الدينية التي كانت تنقل شفاهة في ظل كون الكتاب المقدس مدون باللاتينية مع حظر ترجمته للغات الحية و ندرة من يعرفون القراءة اصلاً و كانت الحروب الأهلية أمراً يومياً معتاد بسبب فائض القوى البشرية من المقاتلين الفرسان الذين لا اراضى لديهم أو اراضى ضئيلة لا تفي بحاجاتهم فيلجئون إلى حرب بعضهم من اجل الغنائم أو حتى يكونون عصابات لقطع الطرق و النهب بينما تحول معظم السكان الي اقنان ارض (عبيد زراعيين) يعيشون ويموتون هم وأبنائهم دون ان يروا ما هو خارج اراضي السيد الإقطاعي .

ولما كانت الكنيسة اكبر ملاك الاراضى في اوربا فلم تمنع نظام القنانة بل شجعت عليه , كانت الكنيسة الكاثوليكية منذ دخلت الامبراطورية الرومانية طور الأنهارى هي المؤسسة التي

حاولت ملء فراغها السياسي وظهرت نظرية السيدين على يد البابا جيلاسيوس حيث تتقاسم العالم قوتين السلطة السياسية (الامبراطور) والدينية (البابا) والاحيرة اقوى حيث ان الاباطرة هم ابناء الكنيسة والبابا هو خليفة المسيح على الأرض , وتحولت البابوية الى دولة مستقلة وسط ايطاليا بجيشها و مؤسساتها الخاصة)

و تحول الفلاحين الأحرار إلى اقنان تحت وطأة الحاجة ليضمنوا ما يسد جوعهم أو بجهة انفسهم للكنيسة التي ادي دخولها في النظام الإقطاعي إلى إفسادها وتردي اوضاعها الروحية فدخل الباباوات في صراعات مسلحة مع الامراء و اصبحت المناصب الكنسية معروضة للبيع والشراء و قتل العديد من الباباوات في معارك حربية و نتيجة مؤامرات بمقراتهم.

فكانت الحرب فرصة كبيرة لحل المشكلات و تحمست لها البابوية لتستعيد ما فقدت من سلطتها الروحية جراء تورطها في الحروب بين الملوك والأمرء بجيوشها وتحفظ قيادتها للعالم المسيحي وفرصة للتخلص من القوة العسكرية الغاشمة و توجيهها لعدو يستحق القتال بدلاً من الاقتتال الداخلي فليس غريبا ان يخطب البابا قائلاً (أيها الجند المسيحيون لقد كنتم دائما تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعيا حقيقيا للحرب. لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم وقتما ما فاذهبوا الآن وأزعجوا البرابرة اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار .. أيها الجند أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن ألا هبوا وقدموا قواكم وسواعدكم ثمنا لإيمانكم. إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثا وإن أنتم خذلتهم فستموتون حيث مات اليسوع فلا ينساكم الرب رحمته فيحلكم محل أوليائه. هذا هو الوقت الذي تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزما وبطشا وشجاعة هذا هو الوقت الذي تظهرون فيه شجاعتكم التي طالما أظهرتموها في وقت السلم فإذا كان من المحتم أن تتأروا لأنفسكم فاذهبوا الآن واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار)

وكان لتردى الاوضاع المأسوي ان اعتقد العامة في اوربا بقرب نهاية العالم و وجدوا في الحملة الصليبية التي وعد من يشارك بها بالغفران الاخروي و النصر و الغنائم الكبيرة بما فرصتهم

للخروج من ضنك حياتهم وان لم تشجع الكنيسة اشتراك العامة فيها بل كانت الدعوة للأمرء والملوك ولكنهم تلقفوها ..

ولم يجد الكاهن المجهول بطرس الناسك كبير صعوبة في جذب العامة اليه وهو يجوب اوربا يدعوا للخروج لاستعادة المقدسات المسيحية في الحملة الصليبية الاولي ١٠٩٦ م وبدئت الحملات مذابحها من اوربا حيث هاجمت اليهود و القرى المسيحية في طريقهم ونهبوها حتى ان كولمان ملك بلغاريا بادر بمهاجمة الصليبيين الذي حاولوا عبور ارضه بعدها و لم يسمح لهم بدخولها وكذلك القوات البيزنطية هاجمتهم بعدما عاثوا في اراضيهم فسادا و نهبوا قبل ان يقرر الإمبراطور ألكسيوس ان يتخلص منهم بتمريرهم إلى جانب المسلمين بآسيا الصغرى عبر المضائق بعدما رفضوا ان ينتظروا جيوش الأمرء وعلي الجانب الاخر كانت تنتظرهم قوات السلاجقة التي مزقتهم وقضت عليهم بسهولة , ولكن سرعان ما وصلت جيوش الأمرء الصليبية الضخمة وتولي الإمبراطور البيزنطي نقلهم بعدما أقسموا له بالولاء والتعهد بإعادة الاراضي التي استولي عليها السلاجقة الذين فاجئهم طوفان من الجنود الصليبيين الذين اصطحب الكثير منهم نساءهم وأطفالهم فيما يقارب الهجرة .

وبعد استسلام مدينة نيقية التي أعيدت للإمبراطور ألكسيوس توجهت الجيوش لمحاصرة انطاكية بينما توجه بلدوين إلى الرها ذات الاغلبية المسيحية والحاكم الأرمني طوروس الذي رحب بالصليبيين ولكن بلدوين دبر مؤامرة لقتله لينشأ اولى الممالك الصليبية بما بينما استمر حصار انطاكية قرابة العام قبل أن تمكنهم خيانة أحد الجواسيس من اقتحامها و محاصرة حاميتها في الحصن بداخلها.

و بينما دب الشقاق في قادة الجيش الإسلامي الذي حاول انقاذهم ورفضوا قيادة حاكم الموصل لهم وعاد اغلبهم لبلادهم ادعي أحد الكهان ان المسيح ظهر له في رؤية ودله على مكان الحرية التي طعن بها وبالفعل وجدوا في المكان الذي دل عليه حربة فارتفعت معنويات الصليبيين و زادت قناعتهم بالدعم الإلهي لهم وهزموا الجيش الإسلامي واستولوا علي أنطاكية قبل أن يتوجهوا لهدفهم الأساسي .

وبينما فضل أغلب حكام الشام تقديم الهدايا للصليبيين و عرض دفع الجزية شراء لسلامتهم عرض الفاطميين عليهم اقتسام الشام ظناً منهم أنهم مجرد مرتزقة للبيزنطيين لا يقصدون إلا استعادة اراضى الامبراطورية البيزنطية التي انتزعتها منهم السلاجقة وعندما سقطت انطاكية سارعوا بالاستيلاء على القدس من السلاجقة وحطموا تحصيناتها الدفاعية .

وفوجئت الحامية الفاطمية الصغيرة بحصار الصليبيين للقدس وسرعان ما اقتحموها و حرت بها أحدي أعنف المذابح في التاريخ وأشهرها وذبح أهلها الأبرياء دون تفرقة بين رجل وامرأة وطفل وشيخ في شوارعها وأحرقت على اللاجئين مساجدها وقبل أن تصل اخبار المذبحة الي مصر كان جيش بقيادة وزيرها الأفضل في طريقة لنجدة حامية القدس لكنه فوجئ بمجموع الصليبيين عليه في عسقلان وانهمز الجيش الفاطمي سريعاً وعاد لمصر يجر اذيال الخيبة .

ولكن في الشام كانت وحشية الصليبيين دافعاً لقيام حركة ثورية رافضة للأوضاع السياسية و العسكرية المتردية وارتفعت رايات الجهاد ضد الصليبيين على يد الفقهاء و العلماء أمثال أبو إسماعيل الهروي و أبو الفضل الخشاب قاضي حلب الذين طالبوا حكام المدن الشامية و العراقية بالتضامن و الوقوف ضد الصليبيين الذين يستغلون تشتتهم وبالفعل تحرك مودود أتابك الموصل منادياً بحلف إسلامي و انضم اليه أتابك دمشق طغتكين و إليغازي امير ماردين و تمكن من الحاق أول هزيمة بالصليبيين في معركة الصنابرة .. ولكن الحشاشون اغتالوا مودود في دمشق ليحمل الراية بعدة عماد الدين زنكي الذي استعاد امارة الرها ومن بعده ابنه نور الدين ثم صلاح الدين الايوبي الي ان أنهى السلطان المملوكي الأشرف خليل الوجود الصليبي من الشرق .

ولكن بينما أقتصر أثر الحروب الصليبية على الشرق في صعود نموذج الملك المقاتل الذي يكتسب شرعته من خلال الجهاد والدفاع عن الأرض ضد المعتدين فبرز المماليك و الأتابكة بينما سقطت الدولة الفاطمية والعباسية ولم يستفيد الشرق من الحملات الصليبية سوى بعض التقنيات العسكرية كان اثر الحروب الصليبية الثقافي و العلمي وحتى الديني في اوربا عميقاً .. وأحب أن أنظر لهذه الاثر كنموذج مشابه لما ترتب على الصراع بين الإغريق و الامبراطورية الفارسية , حيث أدى الصراع مع الفرس إلى توحيد الاغريق في إمبراطورية بحر ايجة التي

واجهت الغزو الفارسي و اعادت بناء اثينا بعد تخريبها و استلزمت الحرب خطابا تحريزيا يقوم على ابراز هوية مغايرة للأخر فكان خطاب الإغريق قائم على اعلاء قيم الحرية و الكرامة و رفض العبودية والخضوع بإزاء امبراطورية استبدادية تعتمد على العبيد في حربها واقتصادها فكان وعي الفرد الإغريقي بذاته وقيمه الباعث الأكبر على قيام الديمقراطية اليونانية ذات الاثر الهائل في تاريخ الفكر الإنساني .

ويلاحظ أيضاً أثر الصراع مع المسلمين في تشكيل النظام السياسي و الطبقات الاوربية ففي اطار حرية مع المسلمين ومحاولة طردهم من الاندلس أصبح ملك الفرنجة شارلمان اول اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة في تلك الاراضي التي تضم اليوم المانيا و النمسا وفرنسا و سويسرا وهولندا و ايطاليا وبروسيا و بلجيكا وغيرهم .

و تحول نظام الاقطاع الى السائد في اوروبا حيث أقطع قادة جنوده اراضي شاسعة كإقطاع عسكري سرعان ما تحول الى وراثي و أصبح الفرسان طبقة النبلاء الأرستقراطية الغنية التي تمتلك الاراضي ومن عليها من مزارعين الذين تحولوا الى اقنان لا يغادرون الارض ولا يتزوجون حتى دون موافقة سيدهم الذي يمتلك عليهم سلطة مطلقة ويحكم في خلافاتهم ويوقع عليهم العقوبات ويعدمهم حتى ان اراد مقابل الولاء للملك و الخروج الى الحرب عند طلبهم بجيوشهم الخاصة والتي أصبحت تكون الجيش الامبراطوري .

وبنى الفرسان الاقطاعيون القلاع و الحصون كمساكن لهم للحماية من هجمات بعضهم المستمرة على بعض حيث لم يكن للفارس عمل اخر سوى القتال الذي يكتسب منه مكانته و سمعته و ثروته الى ان ظهرت الجيوش النظامية الملكية ونما دور المشاة الحربي فانحطت مكانتهم ومركزيتهم الحربية ومن ثم الاجتماعية .

حيث كانت الحملات الصليبية فرصة ذهبية لقيام هوية اوربية مسيحية مشتركة وفي المقابل كان الاستخدام السياسي للدين في التحريض عليها سبباً لقيام الحراك الإصلاحية فلاعترض الذي قام به مارتن لوثر عندما قامت حملة لبيع صكوك الغفران لتمويل بناء كاتدرائية القديس بطرس وادي لقيام المذهب البروتستانتي لم يكن ليقع لولا توسع الكنيسة في منح الغفران لمن

يساهمون بأموالهم في تمويل الحملات الصليبية بدلا من الذهاب بأنفسهم حتى تحولت صكوك الغفران لأهم مصدر مالي للكنيسة .

و كانت مدينة انطاكية تمثل نقطة التقاء بين علمين .. فهي وان كانت تحكمها القوى الإسلامية و يتحدث اهلها العربية إلا ان أغلبية سكانها مسيحية وليس فقط من المسيحيين الشرقيين بل سكنها ايضا الكثير من الارمن و اليونان وبالإضافة لثرائها الناتج عن موقعها المتميز في وسط الطرق التجارية و صناعات الحرير و الخزف المميزة بها كانت بوتقة التقاء ثقافية نادرة الوجود وعندما استولي عليها الصليبيون وضعوا ايديهم علي ثروات اخري لم تكن في حساباتهم فبحوار الذهب والفضة والجواهر وجدت مكتبات ضخمة تحمل علوم العرب واليونان و العديد من المترجمين المثقفين المسيحيين المستعدين للتعاون و نقل تلك المعارف للفرنجة وسرعان ما زلزلت اوربا المعارف الجديدة فانتقلت اليهم مؤلفات البلخي و الخوارزمي وابن سينا وابتعدت عن الكلمات انتقلت الرؤية العقلانية للعالم التي ميزت الكتابات العربية و تعاملهم مع الظواهر الطبيعية و الدين فبينما الفقه الإسلامي عقلائي ينظر في علل النصوص و مقاصد الأحكام و يعمل القياس والمصلحة لم يكن الاوربيين يعرفون العقلانية في تفسير الامور و خاصة الدينية فلا عجب في وصف أسامة بن منقذ لهم بقوله (إذا خبر الانسان امور الفرنجة سبح الله ومجده ورأي بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال و لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل) ويصف جهلهم الشنيع و افتقارهم الي اسس النظافة الشخصية و الحياة الصحية بكثير من الاحتقار ولا يمكن ان نعزي هذا لكرهيته للغزاة الذين اتفقت كلمة المؤرخين على وحشيتهم و تخلفهم حتى انهم لم يتورعوا عن أكل لحوم البشر لمحاكمة الجوع كما حدث في بلدة المعرة السورية .

ومع الوقت بدئت طباع الإفرنج تتغير و استقطبت الامارات الصليبية الناشئة بعض الاطباء العرب حتى المسلمين منهم و بدئت الحركة التجارية بين الشرق وأوربا في النشاط و كان من جرائها شيوع الارقام العربية و المصطلحات والأعراف التجارية و استفاد الاوربيين من معارف العرب التقنية في رسم الخرائط و الفلك فتطورت قدراتهم البحرية كثيراً و بسبب ورود الذهب من الشرق بدئت المدن الايطالية في سك العملات الذهبية بعد توقف طال اربعة قرون

وانتهت عزلة الغرب الطويلة بمجرد ان احتكوا بالبيزنطيين الذين كانوا يتجنبونهم و يرفضون التعامل معهم بسبب اختلاف الكنيستين و وجدوا عندهم أثار العلوم اليونانية كنظام التقويم وتقنيات معرفة الوقت .

وكانت الترجمات العربية للفلسفة الاغريقية هي المنبع الذي استقي منه الغرب اساسا الفكري فترجم أديلارد الباثي الراهب الانجليزي الذي قضى قرابة عقد في الامارات الصليبية أصول اقليدس وكتب الخوارزمي و بطليموس من العربية إلى اللاتينية مما وفر للغرب الاوربي لأول مرة رؤية عقلانية لفهم الطبيعة قائمة على قوانين رياضية صارمة ولم يكن اثر تعلم الهندسة و الجبر مقتصرًا على العمارة و الجغرافيا والعلوم الطبيعية فقط بل كان لها ابعاد الاثر في تطوير العقل الاوربي وتنويره بالمصطلح الدارج و يكفينا في هذا كتابات أديلارد (تعلمت من اساتذتي العرب شيئًا أنك ان لم تتبع العقل تبعت النقل وصار لك لجاماً قد انقادت له مبهورا انقياد الحيوانات العجماء التي تسوقها به حيث شئت لكنها لا تدري الام تساق ولم إن تتبع إلا الرسن الذي رسنت به وحسب , كذلك الكلام المسطور خطرا على غير قليل منكم لأنه يأسركم فتسارعون إلى تصديقه من دون تمحيص .. علينا ان نتلمس الحدود الحقيقية للمعرفة البشرية وإلا نحيل هذه المعرفة إلى الله إلا عندما تتعطل هذه المعرفة تماما) .

وهكذا كانت الشرارة الاولى للتنوير الاوربي برفض التقليد الأعمى و التفسير الغيبي للحياة .

وعلي الجانب الاخر كانت الاندلس تمثل الاستثناء الصارخ في أوروبا .. فمنذ الفتح الإسلامي لشبة الجزيرة حرص حكامها الجدد على اقامة تفاهات و اتفاقيات بينهم وبين الحكام المحليين المسيحيين يضمنون لهم بما حريتهم العقائدية مقابل خضوعهم السياسي للسلطة الجديدة بينما أنسحب النبلاء الاسبان إلى منطقة استورياس شمال غرب اسبانيا وأسسوا مملكة مسيحية صغيرة ومع الوقت بدئت تظهر حركة تحول إلى الإسلام و نشأ جيل من الاندلسيين المسلمين عرف باسم المولدين و بدئت تظهر ظاهرة الاستعراب حيث تغيرت لغة المسيحيين في الاندلس للعربية وأصبحوا يرتدون ملابس شرقية و اتخذوا من عاداتهم وثقافتهم الكثير حتى ادخلت الكنيسة اللغة العربية في القداس الامر الذي اعتبرته الكنائس الاسبانية هرطقة .

وكانت الأندلس بوتقة جمعت تنوع عرقي و ثقافي وحضاري كبير تعايش فيها العرب و البربر و القوط و الفرنجة و المسلمين و اليهود و المسيحيين جنباً الى جنب في نموذج مبكر للدولة المدنية متعددة الاعراق و الديانات و انتقلت من بلاد العرب إلى الاندلس المحاصيل الزراعية المختلفة و طرق الري والأساليب الادارية وكذلك الفنون من موسيقي وغناء و سمات الترف و الثراء من مأكـل ومشرب و ملبس و عطور و اداب وأدوات المائدة إلى جانب العلوم المختلفة و بينما كان تفتت الاندلس و قيام عصر ملوك الطوائف كارثة سياسية اذنت بغياب شمس الحضارة العربية الإسلامية عن شبة الجزيرة إلا ان تعدد الملوك بما مع ضعفهم العسكري ادي بهم إلى التنافس الحضاري فكان كل بلاط يزخر بالعلماء و الفنانين و الشعراء و الادباء من كافة المجالات.

و كان العرب قد طوروا من علم الكلام و استخدموه في المناظرات العقائدية بين فرق المسلمين و بينهم و بين اهل الكتب و العقائد الأخرى فكان انتقال هذه الافكار إلى اوربا حدثاً مزعوماً للإيمان المسيحي القائم على التقاليد الراسخة و واجه بفخاخ عقلية تتحداه ووجد العلمانيين الاوربيين سلاحاً يواجهون به السلطة الكنسية مستندين إلى العقل و الحجاج المنطقي و انتقلت الي اوربا مؤلفات الكندي و الفارابي و ابن طفيل و ابن رشد و خاصة شروحه لأرسطو التي ترجمها اليهود للعبرية و ساهم شتاتهم في اوربا في نشرها رغم حظر تدريسها حتى ظهر تيار فكري تنويري عرف بالرشدية رفض سلطة الكنيسة و احتكارها للحقيقة الدينية و العقلية و في النهاية برز المنهج العلمي كوسيلة للفصل في صحة الامور و بطلانها رغم تعسف محاكم التفتيش و اضطهادها للعلماء.

ومع التفوق السياسي و العسكري و الحضاري الكاسح كانت الثقافة العربية الإسلامية تتغلغل في العمق الاوربي و كان تشعب المسيحيين بالثقافة العربية الإسلامية مخيفاً لرجال الكنيسة الذين أفرعهم ما كان بالمدن الإسلامية كقرطبة من تألف و تعايش سلمي بين المسيحيين و المسلمين و نظروا لمقاومته كواجب مقدس يحتم عليهم بذل كل طاقتهم لاستعادة الهوية المسيحية و مقاومة الاستعمار الثقافي الإسلامي.

فبدء رجال الكنيسة في محاولة افساد العلاقة بين المسلمين والمسيحيين و إثارة الضغناء في المجتمع الاندلس بشتى الطرق وعلي رأسهم الكاهن القرطبي يوليوجيوس الذي تحطى مرحلة شيطنة المسلمين والظعن في دينهم الي الدعوة للاستشهاد في قرطبة بدفع المسلمين لقتل رجال الدين لاستشارة الحمية الدينية عند المسيحيين.

وفي يونيو ٨٥١ م قام أحد أتباعه بادعاء انه يريد اشهار اسلامه وعند وقوفه امام القاضى جاهر بسب النبي و المسلمين ورغم محاولة القاضى افساد قصده باتهامه بالجنون أو السكر إلا انه اصر علي اهاناته حتى تم إعدامه وبعدها بيومين قام اخر بتكرار فعلته ثم ست رهبان في حالة انتحار جماعي ثم أقتحم راهبان المسجد الكبير بقرطبة أثناء صلاة الجمعة صائحين بالشتائم ضد المسلمين و برغم المساعي المسيحية و الإسلامية لمنع تلك الظاهرة إلا انها استمرت و في خلال ٩ اعوام اعدم ٤٨ مسيحيا في قرطبة أعلنوا فيما بعد قديسين وان كانت الظاهرة انتهت بعد إعدام يوليوجيوس إلا انه كان قد حقق غرضه بدرجة كبيرة وبث بذور العصبية الدينية لتكون أساساً للصراع لقرون تالية .

وسرعان ما برزت الهوية المسيحية المشتركة كأساس للحراك ضد المسلمين و أصبحت الممالك المسيحية الصغيرة لا تعبر عن حكامها وإنما عن العقيدة الكاثوليكية ولم تعد الحروب محاولات لتعظيم اراضي تلك الدويلات و ثرواتها وإنما لاسترداد الاراضي المسيحية من غاصبيها المسلمين وظهرت الحالة الثقافية العدائية للإسلام والمسلمين بعنف كأناشيد رولاند التي صورت النبي كتجسد للشيطان و المسلمون عبيدة كانت هذه الهوية المشتركة اساس توحيد الممالك المسيحية التي كونت اسبانيا في النهاية .

وكان سقوط الدولة الاموية و بداية عصر ملوك الطوائف المتنازعين نقطة تحول كبري وسرعان ما سقطت طليطلة علي يد ألفونسوا ملك قشتالة ١٠٨٥ م وقد كانت أكثر المدن الاندلسية تعرضا للاضطرابات الدينية والطائفية ولم ينقذ سائر الأندلس إلا استنجد المعتمد بن عباد حاكم أشبيلية بأمر المرابطين يوسف بن تاشفين الذي أجاب داعي الجهاد وعبر بجيشه وأنزل بألفونسوا هزيمة ساحقة في معركة الزلاقة ١٠٨٦ م أنقذ بها الأندلس من مصيرها المظلم وأطال الله عمرها علي يديه لقرون .

وبقيت طليطلة في يد القشتاليين مركز اشعاع حضاري كبير حيث كان بها العديد من العلماء المسلمين واليهود وسرعان ما تحولت لمركز لترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية رغم مقاومة رجال الدين لهذا و اتهمهم العديد من العلماء المسيحيين بممارسة السحر لمحاولتهم التعرف على العلوم العربية .

واستمر المرابطون ومن بعدهم الموحدون في حماية الاندلس وصد هجوم الممالك المسيحية عليها في معارك عديدة مشهودة كان أحرها هزيمة مملكة قشتالة في معركة الأرك ١١٩٥ م , ولكن سرعان ما انعكست الاوضاع وأدت الانشقاقات في جيش الموحدون وصراعات جنده وقوادة العرقية والطائفية الي تخاذلهم وهزيمتهم الساحقة في معركة العقاب ١٢١٢ م التي كانت ايداناً بنهاية دولة الموحدون التي فر سلطانها محمد الناصر وأنسحب بجنده الي المغرب و نهاية دولة الإسلام في الاندلس .

واتحدت مملكتي ليون و قشتالة ١٢٣٠ م لتبدأ الحرب التي عرفت بحرب الاسترداد فانتزعت قرطبة ثم اشبيلية التي لم يكن يدرك الاسبان ان معذنة الجامع الكبير بها كانت ايضا اول مرصد فلكي بأوروبا فحولوه إلى برج حراسة !

ولصد غزوات القشتاليين قامت مشيخة الغزاة المغربية بقيادة سلاطين بني مرين الذين لجيء لهم بنو الأحمر ملوك غرناطة امارة الاندلس الاخيرة بعد تكرار غدر القشتاليين بهم و نقضهم العهد معهم وعبرت جيوشهم الي الاندلس عدة مرات منضمة لقوات غرناطة و هزمت جيش قشتالة في معركة الدونونية هزيمة ساحقة ١٢٧٩ م فأوقفت تقدمهم نحو غرناطة التي أصبحت ملجئ للمسلمين المهاجرين من مدن الاندلس التي انتزعها القشتاليين طويلاً الي ان تصادم السلطان أبو الحسن سلطان بني مرين مع جيشي البرتغال و قشتالة في معركة طريف ١٣٤٠ م التي انتهت بمأساة حيث تسلفت قوة مسيحية من جزيرة طريف و ضربت مؤخرة الجيش و اقتحموا معسكر السلطان وذبخوا نساؤه وأطفاله و دبت الفوضى في الجيش الذي انسحبت فلوله بالسلطان الي المغرب ولم تعد للأندلس ثانية .

ولكن الصراع بين الممالك المسيحية ظهر على السطح بسبب أزمات وراثة العرش فقامت حرب اهلية في مملكة قشتالة و أخرى في البرتغال ثم ثالثة بين قشتالة والبرتغال وعند نهاية تلك الازمات عادت قضية الاسترداد للصدارة خاصة بعد نهاية الامبراطورية البيزنطية بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م علي يد محمد الفاتح وظهور الدولة العثمانية كأقوى دولة في العالم لتصعد من جديد النبرة العدائية للمسلمين وبزواج فيرناندو الثاني ملك أراغون و ايزابيلا ملكة قشتالة وتوحد المملكتين ١٤٦٩ م بدئت مرحلة جديدة من الصراع .

فسرعان ما اشتدت الحملة على المسلمين سواء من كان منهم يعيش تحت السيطرة الاسبانية وعرفوا بالمدجنين أو مملكة غرناطة ونظمت محاكم التفتيش الاسبانية لتفتش في الضمائر وتضمن الایمان بالعقيدة الكاثوليكية في كافة أنحاء المملكة الاسبانية .

لتبدأ حرب استنزاف طويلة مريرة اشترك فيها مع جنود الاسبان متطوعين ومرترقة من جميع أنحاء اوربا يدفعهم الوعد بالغفران من البابا و المطامع في المغام الضخمة احرقوا فيها الاخضر و اليابس و قاموا بحرب تجويع و حصار على المدن الإسلامية حتى سقطت غرناطة ١٤٩٢ م بعد حصار طويل سلم بعدة المدينة عبد الله الصغير ليلا لقوات الاسبان وأدخلهم قصر الحمراء ليستيقظ الناس في الصباح و رايات الاسبان فوق رؤوسهم و الصليب مرفوع على برج الرياح اطول بروج المدينة .. ودقت اجراس الكنائس في المانيا والنمسا ابتهاجا بعدما كنت تدق ثلاث مرات يوميا تحذيرا من خطر الاتراك وأقيمت صلاة خاصة في كنيسة القديس بول بانجلترا بحضرة الملك و حاشيته لتكريم ملكي اسبانيا ولكن هذه لم تكن النهاية ..

وبينما كانت البداية بعد استسلام غرناطة تبشر ببقاء المعيشة المشتركة السلمية في تعهدات الاسبان بترك المسلمين لما يعتقدون بحرية مقابل اداء الجزية و دفع الضرائب وتقديم الولاء للدولة الاسبانية إلا ان تلك السياسة لم تكن لتستمر حتى وأن كانت هذه التعهدات والمواثيق وقعت بحسن نية وهذا احتمال بعيد , فلم يكن رجال الدين ومحاكم التفتيش فقط هم الراضون لبقاء اي مسلم في شبة الجزيرة و مستعدين لإبادتهم أن أبوا اعتناق المسيحية بل كانت تلك الرؤية العامة ذلك ان فكرة الاستعادة التي قامت علي أساسها الحروب و

توحدت في سبيلها الممالك المسيحية لتكون أسبانيا كانت قائمة على عداء دوجماتي مطلق لم يترك مساحة للتفاهم أو العمل المشترك .

أما الطبقة الحاكمة فلم تكن راغبة في طرد عامة السكان المسلمين دفعة واحدة بل كان توجههم للتخلص من النخبة الحاكمة والمتقنين والأثرياء من المسلمين دون الطبقة العاملة التي كانت تمثل مصدر ربح اقتصادي كبير من الصناعات والزراعة على الأقل حتى يتم استعاضتهم بالمهاجرين المسيحيين الجدد الذين اغروهم بالامتيازات والإعفاءات ولكن عملية عزل المسلمون تسارعت و أصبح المسلمون يعيشون في أحياء خاصة مغلقة عليهم .

وسرعان ما ظهرت سياسة أسبانيا الحقيقية في الإبادة الثقافية والجسدية لشعب الأندلس ففي قشتالة اصدرت ايزابيلا قانون يخير المسلمين بين اعتناق المسيحية أو النفي و في حالة اختيارهم الرحيل فلا يسمح لهم بالذهاب لدولة اسلامية قشتالة في حالة حرب معها ولا ان يحملوا معهم ذهباً ولا فضة على ان يتركوا ابناءهم دون الرابعة عشر وبناتهم دون الثانية عشر ليوزعوا على عائلات مسيحية لينشئوا مسيحيين متبعين نصيحة رجال الدين وعلي رأسهم ثيسنيروس رئيس أساقفة طليطلة الذي لخص سياسته تجاه المسلمين بقوله (إذا تعذر جذب الكفار الي طريق الخلاص وجب جرهم اليه جرأً) .

وكانت البداية باليهود الذين تم تجربة الإبادة عليهم فقد تعالت الاصوات أنهم السبب في اغواء اليهود الذين تنصروا و ردتهم وعندما وجدت جثة طفل مسيحي وقد مورست عليها طقوس وثنية بشعة اتجهت اصابع الاتهام إلى اليهود فيما عرف بقضية طفل لاغوارديا المقدس فبدئت حملة تعذيب لانتزاع الاعترافات أعقبها اعدامات ميدانية بأبشع الوسائل وفي النهاية كان اجبار اليهود على الرحيل من كامل اسبانيا ليجد أغلبهم ملاذاً في اراضي الامبراطورية العثمانية ١٤٩٢ م

و أن كان سكان غرناطة قد استسلموا سريعاً فسكان الريف والجبال لم يكونوا بهذه السهولة فقد قابلوا استسلام عبد الله الصغير برفض عنيف أضطره إلى ترك ملجئة في جبال البشرات خوفاً علي حياته ولكون جبال البشرات تعد حصناً طبيعياً فقد لجئ اليها التائرون من

غرناطة وغيرها وانضموا لأخواتهم المتمسكين بدينهم و قابل الاسبان الثورة بحسم فحشدوا ثمانين الف جندي اسباني في حملة ابادة دموية قتل فيها رجال القرى المقاومة و سيق نساؤها وأطفالها إلى اسواق العبيد وفي بلدة بلفيك التي استسلمت بعد حصار طويل القي الاسبان ٢٠٠ أسير من فوق مئذنة مسجدها وفي بلدة أندرش قتل ٦٠٠ طفل وامرأة لجثوا إلى مسجدها ولم ينج من المصير المروع إلا من قبل التنصر صادقاً أو كاذباً أو النفي الذي لم يكن اغلب المسلمين قادرين على دفع نفقاته وهي عشر دوكلات ذهبية يتقاضاها الاسبان عن كل فرد ليسمحوا له بالرحيل وبنهاية ١٥٠١ م كان سكان غرناطة كلهم قد جري تعميدهم جماعياً و علفت الأجراس في مساجدها وحولت لكنائس وأصبحوا مسيحيين جدد وبدء ظهور تسمية الموريسكيين أو المورو .

وكان الموريسكيين يعيشون حياة مزدوجة يظهرن المسيحية ويبطنون الإسلام مستندين لفتاوى متعددة من الفقهاء الذين سمحوا لهم بارتكاب المحرمات و أخفاء العبادات حتى تنفج الغمة في ظل أمل أن تعود شبة الجزيرة لحكم المسلمين .

وما بين عامي ١٥١١ م و ١٥٢٦ م اصدرت العديد من المراسيم المناهضة لا للدين الإسلامي فحسب بل للثقافة العربية الإسلامية ككل وكانت الملابس الإسلامي وخاصة الملحفة التي كانت ترتديها النساء المسلمات وغطاء الوجه النسائي هدفا للاضطهاد ومنعت اللغة العربية و حرقت الكتب و المخطوطات العربية و اغلقت الحمامات ومنعت الموسيقي والرقصات الاندلسية و حتى منع الموريسكيين من غلق ابواب ديارهم ظهر ايام الجمعة حتى لا يتمكنون من صلاحها سراً .

اما المسلمين في ارغوان فلم يكونوا قد شهدوا تلك المذابح التي تعرض لها اخواتهم حيث وخوفا من انهيار الاقتصاد بفرار المزارعين المسلمين حافظ الاسبان على وعودهم بتركهم وما يدينون به في المملكة شبة المستقلة ولكن ميليشيات دينية من السكان المحليين الفقراء قامت بشورة عنيفة ضد الاقطاعيين والسكان المسلمين بغرض اجتثاث كلاهما وأرغموا المسلمين على اعتناق المسيحية أو القتل ١٥٢١ م وبعد اخماد الثورة على يد الجيش الملكي اثار وضع هؤلاء المسيحيين تحت تهديد السلاح جديلاً حول صحته انتهى بان امر شارل كافة المسلمين في

ارغوان ان يتعمدوا ثانية على الوجه اللائق أو يخرجوا من بلادة بينما ذهب وفد إلى مدريد يعرضون على الملك تأجيل قراره مقابل دفع ضريبة ذهبية وبالفعل قبل شارل ذلك وان يؤجل قراره اربعين عام ١٥٢٦ م وبينما فضل بعض المسلمين الهجرة إلى شمال افريقية قرر البعض الاخر تنظيم المقاومة و قامت ثورة اكتسبت حملة اجهاضها سميت الحروب الصليبية حيث وعد ممثلي البابوية المشتركين فيها بصكوك الغفران و شارك فيها اربعة الالاف مرتزق الماني كانوا يعمرون خلال برشلونة وقتها وانتهت مقاومة مسلمي بلنسية بمدحجة على يد الجنود المدريين بينما كانوا لا يملكون ما يواجهونهم به إلا الحجارة.

وقد ادت المذابح التي قام بها الاسبان إلى تهديدات من العثمانيين و المماليك و ان كانت اقتصرت على دعم نشاط القراصنة أما التهديد بمنع الاوريين من الحج لبيت المقدس و هدم كنائسهم في الشرق كما يفعلون بمساجد الاندلس فلم يكن لها من اثر واقعي وسرعان ما عاد الحرق على الخازوق في الميادين و مواكب التكفير تجوب الشوارع بالمعذبين على يد محاكم التفتيش التي كانت تعتمد على المصادرة والغرامات لتمويلها فكان الموريسكيين يدفعون رواتب جلادهم .

وتزامن اضطهاد الموريسكيين مع الحراك العثماني في شمال افريقية حيث استطاع الاتراك ان يؤسسوا سيطرة مباشرة أو غير مباشرة على شمال افريقية مهديين بشكل دائم الامبراطورية الاسبانية خاصة من خلال الاخوين خير الدين بربروسا و عروج الذين اسسا قاعدة للقراصنة في الجزائر و تمكنا من فرض سيطرتهم البحرية على البحر المتوسط بكاملة وتكبد الاسطول الاسباني خسائر فادحة متواصلة وتحولت الجزائر التي اصبحت اياه عثمانية إلى احدي اقوى الدول في حوض المتوسط طوال ثلاث قرون وتمكن الاخوين ببطولات أسطورية من انقاذ الالاف من الموريسكيين وتهييهم من اسبانيا إلى شمال افريقيا .

وقد كانت السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط الدافع الأساسي للأسبان والبرتغاليين (الذين استفادوا كثيرا من معارف العرب البحرية والفلكية والجغرافية) في رحلاتهم الاستكشافية والتي لم يكن مقصدها علمياً أو تجارياً وإنما لجلب الثروات و اكتشاف طرق لتطويق المسلمين ومهاجمتهم من الخلف .

وكانت بداية العصر الاستعماري جزء من الحروب الصليبية ففي عام ١٤٥٤ م منح البابا نيكولاس الخامس تفويضاً لملك البرتغال بممارسة العبودية مادام يبشر الزنوج بالمسيحية و بعد سنتين صدر قرار بابوي من البابا كاليكستو الثالث يعتبر الاستيلاء على افريقيا حرباً صليبية للمسيحية .

وصعدت في اسبانيا الكاثوليكية المتعصبة فكرة أنها اسرائيل الجديدة التي اختارها الرب و ان استعادة القدس ستتم على ايديهم وكان بحث كولومبوس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية يقصد به ايضا إيجاد وسيلة لمحاصرة المسلمين وفي رسالته إلى فيرناندو وإيزابيلا ١٤٩٣ م بعد وصوله إلى اميركا قال (في خلال سبعة اعوام من اليوم سيمكنني ان ازود جلالتكم بخمسة الالاف فارس و خمسين الف جندي مشاه للحرب وغزو اورشليم الذي من اجله بدئنا هذا العمل)

و من العام ١٥١٩ إلى ١٥٢١ م تصادم الاسبان مع حضارة الأزتيك حيث نزل هيرنان كورتيز وبالرغم من انه لا توجد إلا المصادر الاسبانية لتخبرنا عما حدث فان بشاعة الغزو و دمويته التي وصلت لحد الإبادة العرقية الكاملة واضحة تماما في تفاخر الاسبان بمدابحهم في شعوب مسالمة لم يكونوا ليقبوا على مواجهة الاسبان رغم قلة أعدادهم لاعتمادهم على الاسلحة النارية والخيول و الدروع و بدء الاسبان في انشاء المستعمرات و استعباد السكان لتغطي سحابة العصر الاستعماري السوداء العالم سريعاً , ورغم صراع السفاحين الاسبان على الغنائم خاصة الذهب والفضة فقد ارسلت كميات ضخمة منهم إلى اسبانيا فتحت شهية حكامها على ارسال المزيد من الجنود وفتحت اعين الحكام الاوربيين الاخرين على ما يحمله غزو تلك الاراضى المجهولة من مكاسب ضخمة و استمر الاسبان على سياسة الكتلكة القهرية فلم يسمحوا للشعوب المحلية بممارسة معتقداتهم الدينية بل قدموا لهم الكاثوليكية بديلا عن الإبادة باختصار واضح .

وامتد النهم الاستعماري من الامريكيتين إلى افريقيا و اسيا و السفن الاسبانية والبرتغالية تجوب البحار لتبحث عن شعوب ضعيفة تستعبدها وتسترق ابنائها في ظل تقاعس إسلامي

واضح عن صد هذا المد إلا صدامات نادرة رغم استيلاء البرتغاليين على سلطنة مالقا المسلمة
بماليزيا الحالية ١٥١١ م ثم سيريلانكا ١٥١٨ م و تحكمهم في مضيق هرمز بالبحر الاحمر .

وبوصول فيليب الثاني إلى السلطة ١٥٥٩ م بدئت مرحلة جديدة من العنف الديني على يد
الملك المتعصب والذي بدء عهدة بمشاهدة إحراق ٢٩ مسيحي اهتموا باعتناق المذهب
البروتستانتى ولم يكن الملك الذي دخل حروب ضارية ضد الإنجليز و الفرنسيين و الهولنديين
تحت راية العقيدة الكاثوليكية ليتسامح مع الموريسكيين وفي اطار الهوس ببقاء الدم ونقاء
العقيدة اقر فيليب قوانين تفتش عن من كان اسلافهم يهودا أو مسلمين وتضعهم في منزلة
ادني من المسيحي العادي وان كانوا نبلاء و اثرياء .

وتصادم فيليب مع السلطان العثماني سليمان القانوني الذي اوقعت اساطيله هزائم ثقيلة
بالأسبان حتى خشوا من غزو تركي شامل لهم ولم يكن القراصنة الجزائريين والمغاربة بأقل وطأة
عليهم حتى هاجموا داخل البلاد و لإعادة بناء الاسطول لجيء الاسبان إلى الحكم على
الموريسكيين الذين تدينهم محاكم التفتيش بالعمل بالتجديف على السفن عادة حتى الموت
بدلا من قتلهم .

وكان الوجود العثماني في المتوسط و نشاط القراصنة في الجزائر و شمال افريقية الذين كانوا
يعدون نوابا عن السلطان العثماني ويدينون له بالولاء باعثا للأمل في نفوس الموريسكيين انهم
سينقذون و سيستعيدون بلادهم ولكن هذا الامل كان سببا في زيادة الاضطهاد ضدهم بإزاء
موجة جارفة من عدم التسامح الديني امتدت لطائفة البروتستانت التي واجهت الاضطهاد
منذ بدء مارتن لوثر حركته الاصلاحية ١٥١٧ م بتعليق لائحة الاعتراضات على البابوية على
باب كاتدرائية ويتمرنج بألمانيا لتتصاعد الامور سريعا لحروب اهلية مروعة بدئت بثورة
الفلاحين في المانيا ١٥٢٤ م ثم اقتحام روما ١٥٢٦ م لتستمر الحروب الدينية المخيفة أكثر
من ١٣٠ عام حتى وقع صلح وستيفاليا لإنهاء حرب الثلاثين عام في الامبراطورية الرومانية
المقدسة والتي افنت ثلث رجال المانيا ١٦٤٨ م لتقرر اخيرا الحرية الدينية للطوائف
المسيحية المتصارعة و تقرر ايضا مبدأ سيادة الدول و يبدأ بها عصر القانون الدولي .

ويعود الفضل في انتشار التعليم و نحو الامية في اوربوا الي ظهور المذهب البروتستانتى حيث أدت الثورة الدينية البروتستانتية الي انتشار للتعليم بسرعة فائقة , فقناعة البروتستنت بان لا وساطة بين الله و الناس جعلت تعلم القراءة و نشرها ضرورة لكسر احتكار رجال الدين الكاثوليك المعرفة الدينية حيث انها مدونة باللاتينية والتي معرفتها تكاد تكون حكرا على رجال الدين بداية من قيام مارتن لوثر بترجمة الانجيل للألمانية و نشرة لعامة الناس ثم توجيه الاباء لتعليم أبنائهم الانجيل بأنفسهم وان لا يتركوا تلك المهمة للكهنة فقط , وفى مطلع القرن السابع عشر اطلقت الكنيسة اللوثرية حملات واسعة لمحو الامية و فى اقل من قرن كانت السويد قد حققت رقما قياسيا بلغ ٨٠% من السكان أصبحوا متعلمين وذلك فى الوقت الذى كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتبر اقتناء نسخة مطبوعة من الكتاب المقدس هرقطة وانه يجب ان يكون منسوخا باليد وليس بالآلات .

ولكن وضع الموريسكيين كان اسوء فحتى من لم يكن منهم مسلما كان محل اضطهاد بسبب لون بشرته و لكنته و ثقافته وملابسة وأصناف الطعام التي يتناولها وحتى طرقهم فى الغناء والرقص فكان اضطهادهم ثقافيا شاملا وليس دينيا فحسب فكان مجرد الاغتسال أو ارتداء ملابس نظيفة يوم الجمعة أو عدم وضع صليب فى المنزل أو رفض دعوة للغداء فى رمضان تم كافية لسحب المتهم إلى محكمة التفتيش و تعذيبه حتى يعترف ثم السجن أو النفي أو تشويه الاعضاء أو الإعدام حرقا على الخازوق .

وفى ١٥٦٦ م اصدر فيليب حزمة قوانين لاستئصال الثقافة الموريسكية تماما بالتأكيد على حظر كل مظاهرها وعلى رأسها اللغة العربية التي حظر التحدث بها أو كتابتها و الإرغام على تعلم القشتالية و حظر ارتداء الملابس الاندلسية خاصة النسائية وحتى الاسماء تستبدل بأسماء مسيحية واضحة .

وكانت الثورة شبة حتمية وأرسل الثوار إلى السلطان العثماني سليم الثاني وقادة الجزائر يطلبون معونتهم ورغم ضعف احتمالية نجاح الثورة إلا ان المورسكيين لم يجدوا لها بديلاً و اعدوا لها سرا و توجهوا ابن امية ملكا عليهم ١٥٦٨ م بالقرب من غرناطة لتبدأ ثورة البشرات الثانية.

وفي خلال أسبوع واحد كان الثوار قد قتلوا زهاء ثلاثة الالاف من الجنود ورجال الدين و المسئولين وجيرانهم المسيحيين وفي قري البشرات كان الثائرون يرتدون ملابس الكهنة وهم يعذبونهم و يردون لهم الصاع صاعين وساقوا الكهنة والرهبان والمسئولين في مواكب تكفير مثلما ساقوهم واحرقوا الكنائس و دمروا تماثل المسيح و دعا ابن امية لوقف العنف الذي خرج عن السيطرة على يد قطاع الطرق وبخاصة زعيم لهم يدعي فرج بن فرج .

لكن سرعان ما وصلت تعزيزات الجيش الاسباني إلى البشرات و واجه الثوار الذين حوصروا بين جيشين اسبانيين حرب ابادة وحشية من قرية إلى قرية ذبح فيها الرجال والنساء والأطفال بلا رحمة و تم اجلاء سكان حي البيازين من غرناطة رغم عدم اشتراكهم في الثورة تحرزا منهم ولكن الوحشية التي ابادها الاسبان و الفظائع التي ارتكبوها جعلت الالاف ينضمون إلى الثورة و عبر البحر انتقلت الأسلحة و متطوعون مسلمون ليقاتلوا مع الثوار منهم العديد من المقاتلين الاتراك و المغاربة المدربين مما اضطر الاسبان لاستحلب قواتهم من خارج اسبانيا لتدعيم الجيش .

وعندما قتل قائد الثوار ابن امية خنقا علي يد بعض أتباعه بعد اتهامه بالتواصل سراً مع الاسبان من دون علمهم و خيانتهم تولى قيادة الثورة عبد الله بن عبو الذي اضطر فيليب في مواجهته ان يعلنها حرب بلا رحمة و يبيع جنوده و الميليشيات كل الغنائم متنازلا حتى عن حصة الملك فيها و استعباد الاسري لأنفسهم فأعطى لجنوده الباعث الحثيث على اجتياح مناطق الثوار لسلبهم في الوقت الذي حرر فيها الجزائريين تونس بعد خمسة و ثلاثين عام من الاحتلال وعلى الرغم من تخوف الاسبان من تدخل تركي كان يمكنه ان يحسم الامر لصالح الثوار إلا ان السلطان سليم رفض ان يقوم بهجوم شامل على اسبانيا متخوفا من الفشل وفضل ان يوجه جهده لضم قبرص ومكتفياً بدعم الجزائريين للثورة و بتضافر ثلاث جيوش اسبانية بدء القضاء على الثورة بتدمير القرى و اخذ كل من لم يتم قتله من سكانها عميدا ثم محاصرة الكهوف التي لجيء اليها السكان و خنقهم بدخان النيران في مداخلها .

وفي شتاء ١٥٧٠ بدء ترحيل كافة الموريسكيين من غرناطة إلى قشتالة في رحلة مهلكة مات فيها الكثيرين جوعا و بردا و ارهاقا بينما حوصرت المناطق الجبلية حصارا محكما لتجويع

المعتصمين بما وإرغامهم على الاستسلام وقتل عبد الله بن عبو وأخذت الثورة بعدما اغرقت البلاد بالدماء

وفي ١٥٧١ م توجه الاسطول الاسباني للمشاركة في الحلف المقدس الذي ضم البندقية والفاينكان والدويلات الايطالية و فرسان مالطة ضد الاسطول العثماني في معركة ليبانتوا ليتمكنوا من الحاق اول هزيمة بالأسطول العثماني ليدفع السلطان سليم فيما يبدو ثمن ترده في المبادرة بالهجوم على اسبانيا .

ومع مطلع القرن السابع عشر وفي ١٦٠١ م منيت أسبانيا بهزيمتين قاسيتين احدهما امام إنجلترا التي هزمت حملتها لمساعدة الكاثوليك الايرلنديين ضدها و الأخرى عند محاولتها غزو الجزائر لتنتهي بهزيمة ثقيلة واضطرت لتوقيع معاهدة سلام مع جيمس الاول ملك إنجلترا ١٦٠٤ ثم دخلت في مفاوضات للسلام مع الهولنديين ومع تعرض السواحل الاسبانية للهجوم من القراصنة المسلمين الذين انضم اليهم القراصنة المسيحيين الذين سرحوا من الخدمة بالسلام بين اسبانيا وإنجلترا و فرنسا و مما زاد الطين بله انتشار مرض الطاعون الذي قتل ما يقرب من ٦٠٠ الف نفس و ضعف المحاصيل و الاقتصاد و انتشر العنف المسلح والجماعات الخارجة عن القانون . وعلى الرغم من ان الموريسكيين وبعد مائة عام من القمع و الإبادة و الحصار الثقافي كانوا ابعد و اضعف ما يكون عن القيام بثورة إلا ان الاقاويل انتشرت حول استعدادهم لها بينما الواقع ان الموريسكيين كانوا في حالة تشتت شديدة فبالإضافة إلى الفقر المدقع و الشتات كان اغلبهم لا يتحدثون العربية ولا يعرفون من اسس الدين الإسلامي إلا ملامح ضبابية انتقلت مشبعة بالأساطير و الاعراف المحلية ولكن اتهامهم بأنهم السبب في غضب الرب و فشل اسبانيا العسكري نتيجة الإبقاء عليهم كعقاب الهي وانه لا بد من تطهير جسد اسبانيا من وباء الموريسكيين ونجسهم لتعود لها قوتها .

وهكذا تقدم العديد من الاساقفة إلى ملك اسبانيا فيليب الثاني بمشاريع لطرد الموريسكيين و بعد تردد طويل اتخذ القرار و في سرية بدء تجميع اسطول كبير متعدد الجنسيات في جزر البليار و اعيدت فيالق من الجنود المدربين لاسبانيا و عززت الحدود.

وأخيرا في سبتمبر ١٦٠٩ م نودى في مدينة بلنسية بما كان الملوك الاسبان يريدونه من مائة عام مرسوم الطرد لكافة الموريسكيين متهما اياهم بالكفر والهرطقة والخيانة .. ورغم التخوف من اشتعال ثورة إلا ان الموريسكيين قد قابلوا هذا المرسوم بالمبادرة ببيع ما يمتلكون والاستعداد للرحيل لشمال افريقية و بدء بعضهم في ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية علانية بينما حاول المسيحيين الصادقين منهم التوسل بصدق تحولهم إلى الكاثوليكية دون جدوى و سرعان ما نقل الجميع إلى ميناء بلنسية ثم إلى شمال افريقية في رحلة شاقة تكالب عليهم فيها سوء الطقس مع هجمات قطاع الطرق ثم استغلال اصحاب السفن الذين لم يتورعوا عن قتل ركابها و القاء جثثهم في البحر بعد سلبهم و اغتصاب نسائهم و بيع اطفالهم رقيق ثم تعرضوا لهجمات من عصابات شمال افريقية في طريقهم للمدن الإسلامية اما القلة التي قاومت و اثرت القتال على الترحيل القسري فقد توجهت اليهم قوات الجيش الاسباني و الميليشيات لتقوم بمذابحها المعتادة فيهم و للقضاء على الفارين الهارين في الجبال و حددت مكافأة مالية لصيد الموريسكيين تدفع لمن يأتي بموريسكي حيا أو رأس أو قضيب فيرسته و انتهى الوجود الموريسكي من بلنسية بترحيل قرابة ١٢٤ الف منهم إلى الشاطئ الاخر وسرعان ما امتد الطرد إلى سائر اسبانيا برغم كافة الالتماسات التي قدمت منهم ومن المسيحيين المرتبطين معهم بعلاقات وثيقة مؤكدين على صدق ايمانهم بالكاثوليكية و ولائهم لاسبانيا وفي النهاية طرد سائر الموريسكيين من كافة انحاء اسبانيا ليجدوا ملاذهم أخيرا مرحب بهم تحت رعاية السلطان المغربي مولاي زيدان و في تونس والجزائر تحت رعاية السلطان العثماني رغم توجس الاهالي منهم وهم يتحدثون الاسبانية ولا يعرفون من الدين الإسلامي إلا اقل القليل وانتهى الوجود الإسلامي في شبة الجزيرة الأيبيرية الذي بدء بدخول القائد البربري طريف اليها بعد قرابة الف عام بانتهاء حملة الطرد رسميا في ١٦١٤ م بطرد قرابة ثلاثمائة الف موريسكي إلى شمال افريقية أو قبور البر والبحر .

ولكن تلك المأساة التي جعلتها الكراهية و التعصب الديني ممكنة الوقوع لم تكن نهاية سموم العنصرية فالأدب الاسباني الذي يزخر بخطابات الكراهية للموريسكيين ويكيل لهم الاتهامات المختلفة من الاباحية الجنسية إلى الغدر و التآمر وعدم الانتماء للبلاد و كنز الاموال و انهم يتكاثرون كالأرانب مخططين لتدمير الامبراطورية الاسبانية وصورة المسيح المحارب التي ابتكرتها

دعاية الحروب الصليبية تم إعادة انتاجهم وتكرارهم في خطاب النازيين في القرن العشرين
فنجده هتلر في ١٩٢٢ م يقول (شعوري كمسيحي يوجهني نحو إلهي ومخلصي كمحارب ..
ويجب لا متناه كمسيحي وكرجل اقرأ من خلال العبارات التي تقول لنا كيف انتصب الإله في
قدرته أخيراً وأخذ السوط بيده لطرذ ذرية الأفاعي من المعبد , كانت حربه مثلاً مثالياً للعالم
ضد السم اليهودي واليوم بعد ألفي عام وبأعمق العواطف أعرف بثقة لم أعرفها قبلاً بأنه
من أجل ذلك قد بذل دمائه على الصليب) ويبدوا الحل النهائي الذي قام به هتلر بإبادة
اليهود مستوحى من تجرئة الأسبان في ابادة الموريسكيين .

وعلي الرغم من صعود العلمانية و الافكار القومية إلا أن ارتباطها بالدين ظل حاضرا في
ثورات الدول المسيحية علي الامبراطورية العثمانية وحراكها الاستقلالي بداية من الثورة اليونانية
التي لم يكن غريبا ان تكون اول رايتها صليب ازرق علي خلفية بيضاء.

ولاحقاً اعادت الحركة الصهيونية أحياء نصوص التوراة كمسوغات للعدوان على الفلسطينيين
والاستيلاء علي اراضيهم وليس فقط ذلك النص الذي يعد اليهود بمملكة سليمان ودولة تمتد
من النيل الي الفرات وإنما بصفة خاصة تلك النصوص (الحربية) والتي مثلت سنداً شرعياً
للإبادة الجماعية للفلسطينيين .

كما ورد في سفر التثنية (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلي الصلح ، فإن
أجابتك الي الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد
لك. وإن لم تسلمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهم الي يدك فاضرب
جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها
فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك هكذا تفعل بجميع المدن
البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما مدن هؤلاء الشعوب التي
يعطيك الرب إلهم نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً : الحثيين و الأموريين و
الكنعانيين و الفرزيين و الحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا تعلموكم أن تعلموا
حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لأهنتهم فتخطئوا الي الرب إلهكم)

وتقص النصوص التوراتية لاحقاً تطبيقاً عملياً في سفر العدد حيث في حرب بني اسرائيل مع الميدانيين قتلوا كافة الذكور وأحرقوا كل مساكنهم ولكنهم استبوا النساء فغضب عليهم موسى عليه السلام وأمرهم ان يتبعوا كلام الرب فيقتلوا كل انثى عرفت ذكراً لنجاستهم ويستبقوا فقط الاطفال من الاناث كعبيد .

وفي حرب الاستقلال الاسرائيلية كما يسمونها دمرت ٤١٨ قرية فلسطينية و هجر منها قصرا ٣٩٠ الف فلسطيني وأخلت عشر مدن من سكانها العرب تماما بالتزامن مع عشرات المذابح التي اجرتها عصابات الهاجاناه الصهيونية وقبل نهاية العام ٤٨ كان قرار منع المهجرين قسرا من العودة لديارهم قد اتخذ رسميا و اصدرت القرارات للجيش الاسرائيلي بتفجيره و التصدي بالرصاص لمن يحاولون العودة .

مع التطهير العرقي للأراضي المحتلة بدء التطهير الثقافي و طمس الهوية الثقافية الفلسطينية و محو التاريخ المتنوع للأرض التي مر عليها الفرس و الروم و اليونان والكنعانيون و الاشوريين والعرب قبل الإسلام و بعدة في حملة تهود للأسماء و طمس للمعالم وحتى القبور لم تسلم منها فقد حُفرت مقبرة مأمّن الله التي دفن بها شهداء المسلمين عند اجتياح القدس على يد الفرنجة و شهداء جيش صلاح الدين الذي استعادها و اقيمت محلها حديقة باسم حديقة الاستقلال ثم موقف سيارات لتستطيع جولدا مائير ان تتبجح قائلة (ليس هناك شعب فلسطيني ولم يكن الامر اننا جئنا وأخرجناهم من الديار و اغتصبنا ارضهم فلا وجود لهم أصلا) .

ولم يكن عجباً ان يصف بنزي ليرمان رئيس مجلس المستوطنات في الضفة المحتلة الفلسطينيين بقوله (انهم عماليق و سوف ندمرهم جميعا ولكن لن نقتلهم كافة بل سندمر قدرتهم علي الكلام علي انهم شعب إننا سوف ندمر القومية الفلسطينية) .

وصدم العالم في مطلع التسعينات عندما وجد مذابح الإبادة العرقية و الدينية تتحدد في البوسنة والهرسك علي يد متعصي الصرب والكروات وفي خلال ثلاث سنوات وثمانية اشهر فقط من حرب الابادة علي مسلمي البوسنة (البوشناق) كان قرابة مليونين منهم تم تحجيرهم

و قتل ما يزيد عن ٢٠٠ الف واغتصبت عشرات الآلاف من النساء وأضيف رصيد جديد في حساب الكراهية الذي ظن انه قد كان اغلق.

وأكثر من ذلك فالأسبان مدفوعين بتعصبهم الديني أسسوا للعنصرية العرقية حيث ظهر في المجتمع الاسباني مفهوم نقاء الدم العنصري الذي كان عبارة عن تعديل لفكرة الدم الازرق النبيل الذي ادعته الطبقة الارستقراطية فكان ذلك يعني انه بينما المسيحيين الأصلاء ينتمون برابطة الدم إلى القوط و اللاتين في اسبانيا ما قبل الفتح الإسلامي فان المسلمين واليهود والمسيحيين الجدد و من اختلط بهم دمائهم ملوثة ونجسة وغير نقية مثلهم وان هذه الدماء النجسة لا تطهرها المعمودية ولا الزواج من المسيحيين الأصلاء وصنف المسيحيين إلى نصف مسيحيين جدد و ربع مسيحيين جدد واستمر هذا المفهوم العنصري في اقامة تراتبية طبقية للدماء و الاعراق وأطلق تجار الرقيق الاسبان مصطلح الدم الاسود على الافارقة ثم سكان الأمريكيتين الأصليين و قسمت المجموعات العرقية حسب درجة نقاء الدم إلى أكثر من ١٢٠ مجموعة وذلك قبل دعاوي تفوق الجنس الاري النازية بقرون .

وتجد القوميات الشوفينية أساسها النموذجي في الإمبراطورية الأسبانية التي قامت على أساس المزج بين العقيدة الدينية و الثقافة و القومية مع كراهية الاخر حد الهوس التطهيري فال مواطن الأسباني كان هو المسيحي الكاثوليكي الذي لم يخالط دمائه أثار من المسلمين أو اليهود و هو الانسان المعتر الجدير بالاحترام بينما الآخرين اقل منه منزلة بحسب درجتهم في سلم الأعراق وبهذا بدء ظهور الدول القومية الأوربية على أساس وحدة الدين والعرق و برر هذا التعالي والعنصرية الحراك الاستعماري الأوري وما كان التذرع بأن الاستعمار كان إهداء لقيم التحضر للشعوب المستعمرة إلا تكراراً لذريعة التبشير ولكن بصياغة علمانية .

وظل المؤرخين الغربيين طويلاً يقولون بأن اباده شعب الاندلس كانت مأساة ضرورية لإقامة أسبانيا القومية الحديثة والتي كان الموريسكيين بدينهم و ثقافتهم المغايرة عائقاً امام تحققها (لم يقام مسجده في اسبانيا بعد طرد المسلمين منها حتى العام ٢٠٠٣) , كما يتردد الآن الحديث العلماني الغربي عن لزوم اعتناق الجميع المبادئ الليبرالية والعلمانية لتحقيق السلم و التعايش وغني عن البيان القول بأن فرض القيم السائدة في المجتمع على الاقليات لا يعدو

كونه قمعا لهم وان سميت تلك القيم التسامح الذي لا يمكن أن يكون حقيقة ألا مع وجود الاختلافات الجذرية وتقبل حق أصحابها في الاختلاف.

ومع اتساع التجارة وتنوعها وتدفق السلع إلى اوربا بدئت الرأسمالية في الظهور و ساهمت رؤوس الأموال المتكدسة و القوي البشرية في تحقيق مشاريع عملاقة لم يكن يلجم بها سابقا.

وبدئت الارستقراطية الاوربية في اكتساب المزيد من القوة بالخروج من ضيق اراضيها المتنازع عليها إلى رحابة المستعمرات وتضخمت ثرواتها فاستطاعت ممارسة وظيفتها كمحرك وداعم للثقافة و الحضارة من خلال دعم الفنانين و المبدعين و العلماء والمفكرين فبدء عصر النهضة علي ايديهم ولقدرتها المالية التي مكنتها من الترف و تطلب التميز دعمت الارستقراطية الاوربية الصناعات الدقيقة المكلفة حتى تحصل على منتجات متميزة مرتفعة الجودة وان كانت مكلفة للغاية و لكنها ضربت مثلاً للطبقات الاقل حظاً تحتذي به فتحسن الذوق الاوربي و ارتفعت معايير الجودة التي يتطلبها الاوربي في مطعمه وملبسة و مشربة .

وظهرت الشركات التجارية الضخمة التي تستثمر المستعمرات مستعينة بجيوش وأساطيل خاصة بما لحماية تجارتها و مكتسبات مستعمراتها فظهرت شركة الهند الشرقية الهولندية التي حكمت العديد من المناطق التجارية و بعدها شركة الهند الغربية الانجليزية التي تفوقت عليها نجحاً وإجراماً .

ولما اصبحت الاساطيل وسيلة السيطرة على البحار ومن ثم تكوين المستعمرات و ادارتها فقد بدئت الاساطيل الاوربية في التضخم وسرعان ما دخلت على الساحة اساطيل جديدة تنافس الاسبان والبرتغاليين وعلى رأسها الاسطول البريطاني .

وبدء البرتغاليين استخدام الرقيق في زراعة قصب السكر و انتاج السكر بغرب افريقيا ثم البرازيل لتبدأ حمي خطف و استرقاق الافارقة الوحشية ليكونوا الايدي العاملة الزراعية في الأراضي الشاسعة الجديدة في ظروف غاية في القسوة والوحشية تسببت في موت اغلبهم قبل بلوغهم سن الخامسة والعشرين بينما أصبح ملايين الشباب الاوربيين متاحين للخدمة العسكرية الاجبارية بدلاً من العمل في الحقول مما مكن الدول الأوربية من تكوين جيوش

عملاقة لا قبل للشعوب المستعمرة التي لا تعرف التجنيد الجبري إلا في اضيق الحدود بمواجهتها.

وعندما انتقلت المحاصيل من الامريكيتين إلى اوربا كان على رأسها البطاطس و تحول المحصول الذي رفضه الاوربيين في البداية إلى مصدر غذاء اساسي للطبقة العاملة التي تضخمت وزاد السكان بسرعة فائقة نتيجة توافر المحاصيل الغذائية مما كان عاملا هاما في الثورة الصناعية التي بدئت في بريطانيا التي تضافرت عوامل وجود الفحم كوقود مع الاستقرار السياسي النسبي و موارد المستعمرات و كثافة السكان في كونها البوتقة التي خرجت منها الثورة الصناعية التي امتدت لسائر اوربا رغم سنها تشريعات لحظر انتقال التقنيات والعمال المهرة خارج البلاد فسرعان ما تحولت إنجلترا لقاطرة الحضارة الأوربية .

ومع بداية القرن الثامن عشر بدئت الاختراعات الحديثة في الظهور فأكتشف الإنجليزي أبراهام داربي طريقة لإنتاج حديد الزهر باستخدام فرن يعمل بفحم الكوك و توالى من بعده اكتشافات واختراعات المهندسين الإنجليز في إنتاج الحديد و الصلب و اختراع جيمس هارجريفز دولاب الغزل الذي طوره المخترعين بعدة ليتغير وجه صناعة الغزل والنسيج تماماً وتصبح أولى الصناعات المعتمدة على الميكنة تماماً وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت حصة بريطانيا وحدها تقدر ب ٢٣% من الانتاج الصناعى العالمى و أصبحت الصناعة المصدر الرئيسى للثروة وتحتاج لأيد عاملة ماهرة و متعلمة فظهر التعليم التقني و الفني و التلمذة الصناعية وظهرت النقابات العمالية .

وفي صدر الاختراعات الحديثة كان اختراع المحرك البخاري علي يد الانجليزي توماس نيوكومن ثم الاسكتلندي جيمس وات لتتولي الاختراعات الصناعية وتمنح المحركات الصناعة قدرات غير محدودة وتظهر وسائل المواصلات الحديثة من قطارات وسفن بخارية .

و مع بزوغ الرأسمالية بدئت تظهر اخلاق المجتمع الصناعي و التجاري .. فأكسبت الحقبة الصناعية المجتمع الاوربي النظام و الترتيب و احترام المواعيد ودقتها في المعاملات وتقدم الطب بسرعة فائقة معتمدا على التجارب على البشر و التشريح الذى جرى على الاحياء

حتى من الشعوب المستعمرة و الطبقات الاكثر فقرا .. الأمر الذي لم يكن الأطباء المسلمين يجترئون عليه لتصادمه مع المعايير الأخلاقية و القيم الدينية .

ومع عالمية التجارة و انتشارها ذاعت الاخلاق التجارية حيث ان الالتزام بالأعراف التجارية من الصدق و التعامل بحسن نية وعدم الغش والأمانة و الالتزام بالوعد هو ما يعطى التاجر الائتمان الذي يحتاج للاستمرار في السوق فأن لم يلتزم بهذه الاخلاقيات انهارت سمعته التجارية و يطرده السوق و مجتمع التجار وكذلك تضامن العمال والحرفيين في نقابات لها اعرافها و معاييرها الاخلاقية فأصبحت هناك حزمة من الاخلاقيات المستمدة من العلاقات الاقتصادية والتجارية و ليس الدين لتمثل دفعة قوية في اتجاه العلمانية .

وتدرجيا ومنذ الثورة الصناعية التي خلقت الحضارة الغربية تغيرت أوروبا وأعيد تشكيلها ثقافيا و طبقياً وأصبح رجال المال والأعمال فرسان وأباطرة هذا العالم الجديد والذي وأن كان نصيب القوي الإسلامية منه ضئيل للغاية فقد كان دورها في تكوينه أكبر بكثير مما يعترف به.

المصادر

دولة الإسلام في الأندلس - محمد عبد الله عنان

المقتبس من أنباء الأندلس - ابن حيان القرطبي

الكفار تاريخ الصراع بين عالم المسيحية و عالم الإسلام - أندرو هويتكروفت

الدين و الدم إبادة شعب الاندلس - ماثيو كار

العالم من ١٤٥٠ م حتى ١٧٠٠ م - جون إ. ويلز جونيور

بيت الحكمة - جونانان ليونز

تاريخ أوروبا الحديث - جفري برون

فرسان الإسلام وحروب المماليك - جيمس واترسون

في التاريخ الأيوبي و المملوكي - أحمد مختار العبادي

عصر سلاطين المماليك - قاسم عبده قاسم

شعوب وقبائل ألوان وأعراق

إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلاباً ولا أصبر رجالات طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فني السلاح وتجادبوا بالشعور وتلاطموا بالأيدي وكلّ بعضهم عن بعض.

هكذا عبر ابن حيان حين وصف معركة شقنادة إحدى أعنف المعارك التي دارت رحاها بالأندلس و خلفت ما استعصي حصره من الضحايا.

ولكن تلك المعركة التي تنضح بالكراهية لم تكن لأسباب دينية أو في إطار الصراع بين اسبانيا المسيحية ومسلمي الاندلس وإنما هي إحدى المعارك بين القبائل اليمينية و القيسية العربية التي لم تنس ثاراتها و خلافاتها القبلية حتى بعدما هاجروا من الشام والحجاز إلى الاندلس !

ربما يصعب علينا ان نتصور مسلماً عنصرياً يفرق بين الناس بحسب العرق أو الأصل في ظل تعدد نصوص القرآن و السنة التي تؤكد أن لا فارق بين عربي و عجمي إلا بالتقوى وان أكرم الناس عند الله أتقاهم , ولكن العنصرية و القبلية ظلت تفرق بين الناس و ان جمعتهم كلمة لا اله إلا الله .

فتلك العصبية التي أسماها النبي دعوي الجاهلية المنتنة يوم تنادي رجال من الأوس والخزرج بولائهم العشائري و أصبحوا على شفا حفرة من النار بأن كادوا يتقاتلون من أجل تلك العصبية الباطلة والتي كانت سمه من سمات المجتمع العربي القبائلي الذي تفاخر طويلاً بمعاركة من أجلها في الجاهلية وأهمها معركة ذي قار مع الفرس تراجعت بشدة في عهد الرسالة و أن كانت عاودت الظهور بمجرد وفاه الرسول فوجد الاسود العنسي و طليحة الأسدي و مسلمة الحنفي وحتى سجاح بنت الحارث الذين ادعوا النبوة دعماً قوياً من قبائلهم وعشائرتهم التي خاضت حروب الردة شديدة الدموية رافعين رايات ولائتهم القبيلة أشد من معاركهم ضد الإسلام في بدء أمره وما منعهم من دخوله إلا العصبية القبيلة التي كانت تعلوا على كافة الولائات عندهم فشتاع بينهم ان دين الاسلام سحر لانه يجعل الرجل يتمرد على اهله وعشيرته و ينسلخ منهم وكما دخلوا دين الله أفواجاً خرجوا منه أفواجاً, حتى أستقر الأمر في

عصر الخلفاء الراشدين ولكنها سرعان ما عادت في اطار الصراعات السياسية العنيفة بعدهم

ومنذ اختلاط العرب بغيرهم بدئت تظهر علامات العنصرية وبينما زوج النبي صلي الله عليه وسلم زيد بن حارثة ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية وزوج أسامة بن زيد فاطمة بنت قيس .. منعت العرب غيرهم من الأعراق الذين أسموهم الموالي (ولاء الموالاة هو ما عرف في الجاهلية بالتحاق من ليس له قبيلة أو نسب شريف بقبيلة قوية بينما ولاء العتق هو علاقة العبد بسيدة وعائلته بعد عتقه) من زواج نسائهم لأسباب عنصرية بحتة برغم أن ائمة المسلمين شنعوا على هذه العنصرية سواء منهم من اخذ بمعيار الكفاءة في الزواج ومن لم يأخذ به من اول الامام مالك إلى ابن حزم والواقع ان الكثير من علماء الإسلام وفقهائه كانوا من الموالي كالأئمة الحسن البصري والبخاري وابن ماجه و البيهقي و سفيان الثوري و سيبويه .

وبينما كان العديد من الموالي امراء للأمصار في عهد الخلفاء الراشدين ولم يجد عمر بن الخطاب ما يمنع من تسمية بلال الحبشي سيدنا تم إقصائهم عن السلطة السياسية تماماً في عهد الأمويين حتى وصل الامر في بعض مدن الشام والعراق في العهد الاموي ان كان العربي يقابل اول مولي في السوق فيحمله ما يشاء و يستخدمه في امره كيفما شاء بلا أجر و لا يركب المولي فرساً امامة و فرق بين الموالي و العرب في العطاء و ارغم بعضهم على المشاركة في الغزو دون نصيب من الغنائم بل أخذ من بعض الموالي الجزية رغم إسلامهم !

ذلك أن الدولة الاموية كانت منذ بدايتها دولة عربية عنصرية قامت على أعلاء العنصر العربي و استمدت قوتها من القبائل العربية فلم يكن تجييش القبائل اليمينية على يد مروان بن الحكم و حسان بن مالك لتكون سيف الأمويين في حربهم مع ابن الزبير امراً عارضاً بل سياسة الدولة التي استندت على القبلية في مواجهة المعارضة الدينية باختلاف عقائد معارضيهم بين سنه وشيعة و خوارج .

وكان الحفاظ على الولاء القبلي مستحيلاً دون معاملة تمييزية خاصة في العطاء الذي أصبح مصدر الدخل الأساسي للعرب الذين انتشروا في البلاد المفتوحة و ادي اتساع الدولة الأموية الكبير في وقت قياسي الي التأكيد علي لزوم أرضاء العرب و حفظ ولائهم بإزاء شعوباً وثقافات متعددة تحتاج قوة راسخة للسيطرة عليها ومواجهه تحدياتها .

وفي المقابل تحول الموالي لمصدر دعم للحركات الثورية بداية من ثورة المختار الثقفي الذي كان اغلب جيشه منهم وانضموا إلى حركات الخوارج والشيعة الي أن قامت الثورة العباسية علي أكتافهم و أسقطوا الدولة الأموية .

وفي عهد الخليفة العباسي المنصور ارتفعت حده الزندقة و الحركات الالحادية وان كان مصطلح الزندقة اطلق في البداية على اتباع الديانات المحوسية كالزردشتية و المانوية إلا أنها انتقلت إلى وصف الملحدين والمشككين في الدين وأخيراً أضحت وصمة تطلق على الدعاوي الشعبية خاصة الفارسية التي بدئت تظهر بها رغبة لإعادة الماضي العتيد للإمبراطورية الفارسية سواء ما كان من هذا صحيحاً أو ما كان افتراء سببه ما بلغة الفرس من مكانة وحظوة عند العباسيين لكن المؤكد ان حركة لبعث المانوية قد قامت و أزهرت في عهدي المنصور والمهدي خاصة حتى أنشاء المهدي ديوان الزنادقة (قارنه العديد من الباحثين بمحاكم التفتيش الاوربية ولكنه في الحقيقة كان جهاز سياسي وليس ديني غايته الدفاع عن الدولة وليس الدين ولم يكن في حياته القصيرة مؤثراً مثلها) بعدما استشعر الخطر المزدوج من هذه الحركة التي كان مؤداها قيام ثورات اعنف من الفرس ضد العباسيين مشبعة بروح الشعبية من جهة و الردة عن الإسلام من ناحية اخري وبالفعل فقد قامت ثورة في خراسان مشبعة بأفكار مزدك حول التناسخ و ادعى قائدتها المقتع الذي اخفي وجهه عن الناس بقناع ذهبي انة تجسيد للإله و اصاب خراسان اضطراب عظيم حتى تمكنت جيوش العباسيين من دحر الثوار وانتحر المقتع بإحراق نفسه .

و لما كانت الدعوة العباسية قد اعتمدت على عناصر غير عربية في مواجهة الدولة الأموية المتعصبة للعرب فقد كان للفرس نفوذ عظيم وخاصة الاسرة البرمكية وقد بدء نجم البرامكة في البروغ منذ عهد السفاح حيث ولي خالد البرمكى ديوان الخراج وديوان الجند وتولي منصب

الوزارة بعد قتل ابو سلمة الخلال ومن بعدة استمر ابنة يحيى في تولي الوزارة لهارون الذي منحه سلطات مطلقة في اول وزارة تفويض فكان يولي ويعزل من يشاء و يضع خاتمة على ما يشاء دون الرجوع اليه حتى اصبح هو و ولديه الفضل وجعفر الحكام المطلقين للدولة العباسية طيلة سبعة عشر عاما مما أثار حنق القوي العربية التي طعنت في ذمتهم المالية و دينهم وصحة اسلامهم بالإضافة إلى تحكّمهم في الامر دون هارون الذي ظلت حاشيته من العرب تحرضه عليهم ويقال ان أحدهم جعل مطرباً يشدوا امامه بأبيات عمر بن ابي ربيعة

وعدت هند وما كانت تعد ليت هند أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ففهم الرشيد فحوى الرسالة وان مرسلها يعرض به انه يملك ولا يحكم وقال أجل والله إنما العاجز من لا يستبد . وربما كانت هذه حقيقة الوضع فقد كاد لا يطاع لهارون امر إلا بموافقة البرامكة بينما هم لا يستشيرونه حتى في كبيرة ولا صغيرة إلى ان حسم هارون امره عندما اطلق الفضل بن يحيى البرمكي سراح يحيى بن الحسين من سجنه وقد كان عبد الله بن الحسين قائداً لثورة شيعية في عهد الهادي لكنه قتل في معركة فخ قرب مكة وتلاشت امال الشيعة من بعدة وتفرقوا في الامصار ومنهم ادريس الذي اسس دولة الأدارسة في المغرب و اقام بما حتى ارسل هارون من ادعى انه طيب فاطمي , فاعطاه دواء مسموم لاسنانة فقتله , ولكن جارية له كانت حامل فبايع شيوخ القبائل وليدها وهو في المهدي واسموه ادريس لتستمر دولتهم , واقطع ابراهيم بن الاغلب ولاية افريقية ليتصدى للأدارسة وحين هزمهم انشأ بدورة دولته المستقلة توارث ابنائه حكمها بموافقة الخلافة مقابل ٤٠ الف دينار جزية سنوية في سابقة هي الاولى في التاريخ الإسلامي و يحيى الذي اتجه لبلاد الديلم وأعلن تمرده ثم توجه اليه الفضل بن يحيى البرمكي وأقنعة بالعودة إلى بغداد وطلب الامان وقد كان ولكن الفضل اطلقتة فاتجه للحجاز دون ان يعلم هارون الذي ثار و ارسل من قبض عليه ثم قتله واضمر للبرامكة الشر وقد فقد ثقته بهم فضرب ضربته القاضية فقتل جعفر البرمكي و سجن اباه و اخواته حتى توفوا في السجون وصادر اموالهم ونكل بأعوانهم ورجالهم.

وشاعت رواية عجيبة عن نكبة البرامكة مفادها أن العباسة أخت هارون كانت جليسة لياليه مع جعفر البرمكي تستمع الغناء و الشعر و تشرب النبيذ فتخرج هارون و قرر أن يزوجهما عقداً بدون ان يدخل بها حتى لا يكون هناك ما يمنع جلساتهم معاً ولكن العباسة وقعت في حب جعفر وعرضت نفسها عليه فرفض ولكنها اعدت حيلة مع أم جعفر وجعلتها تدخلها عليه كجارية في الظلام فلما طلع الصباح اكتشف أنها العباسة التي حملت منه وأنجبت طفلين أرسلتهما للعيش بمكة الي أن أكتشف هارون فجأة ما حدث بعدها بسنوات بوشاية فقتلها وقتل ابنائها و البرامكة جميعاً .

ويظهر في القصة عنصرية مؤلفها و تعمده الخط من العرب فالعباسة ابنة الخلفاء يصل بها التهتك والاستهتار الي أن تقوم بالحيل وتدفع الرشاوى لتدخل فراش رجل كجارية و هارون الخليفة مغفل لا يدري ما يحدث حوله حتى تحمل اخته وتلد دون ان يدري ثم تكون ثورته و انتقامه لشرفة المهدر متعدياً ظالماً يعاقب من ليس له ذنب و لم يرتكب جرماً .

وفي الاقاليم الشمالية و بين جبال اذربيجان قامت حركة بابك الخرامي التي احيت العقائد الفارسية القديمة و حققت نجاحات قوية وهزمت حملات متعددة ارسلها الخليفة المأمون لإخمادها واستمرت الحرب طويلاً حتى قضى على الحركة أخيراً في عهد المعتصم .

اما في المغرب و الأندلس فقد كان الوضع أشد وطأة ..

فمنذ البداية كان الفتح العربي الإسلامي لشمال افريقيا صعباً حيث واجه العرب قبائل البربر شديدة المراس و كان بينهم وقائع شديدة الدموية , ولكن عندما دخل البربر في الإسلام تحولت قوتهم الي سيوف للفتح و دروع تمنع المسلمين و تحملوا العبء الأكبر في فتح الأندلس والحفاظ عليها من السقوط مراراً .

ولكنهم وجدوا أنفسهم يتم إقصائهم من السلطة لصالح العرب الذين لم يكن ولاتهم يمتلكون البصيرة الكافية لأحترم طبيعة البربر البدوية التي لا تقبل الضيم فضلاً عن احترام أخوتهم في الإسلام و الجهاد فكان سوء سيرة بعض الولاة باب للشيطان في المغرب الذي انتشرت به المذاهب المناوئة للأُمويين ووجد الخوارج و الشيعة ارضاً خصبة لنشر عقائدهم في ظل تعسف

ولاية الأمويين وسوء سياستهم وكثرة ظلمهم وتعديهم علي البربر حتى أخذوا من بعضهم الجزية رغم إسلامهم !

وكانت الطامة الكبرى أن ذهب وفد من مشايخ قبائل البربر بقيادة الزعيم القبلي ميسرة المطغري إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يحملون شكاويهم ويطلبون أنصافه لم يمكنوا من لقاءه ومنعهم حجابيه استخفافا بهم وأهانوهم فعادوا و قد حسموا امرهم فاشتعلت الثورة وقتلوا ولاية العرب في طنجة والسوس و انتقلت نيران الثورة الي الأندلس فعزل البربر واليها عقبه بن الحجاج .

وتولي خالد بن حميد الزناتي قيادة الثورة , وانضم اليه فرسان البربر وقادتهم ومما يلتفت له ان طريف بن مالك اول مسلم يطأ ارض الاندلس غازيا انضم إلى الثورة البربرية ضد العرب بعدها بثلاثين عام ١٢٣ هـ و أسس دولة مستقلة باسم بورغواطة .

وسرعان ما توجه خالد بن حميد الي تلمسان فباغت العرب الامويين بجيشه وشن عليهم هجوما شرسا شاملا فقتل قائدهم حبيب بن ابي عبيدة والالاف من جنوده.

ثم شن هجوما شاملا على القيروان حيث تحصن العرب بقيادة سليمان بن ابي المهاجر وهزمهم و أكثر فيهم القتل وفر من استطاع منهم الي الشام .

وكان رد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك أن أعد جيشا ضخماً أتجه الي طنجة ليلاقى خالد الذي أستنفر القبائل وجمعهم ليتلقى الأمويين أكبر هزيمة في تاريخهم في معركة الأشراف التي قتل بها قرابة خمسين الف من العرب وأكابر فرسانهم و شيوخهم .

ولم يكن الجيش الثاني الذي أرسله هشام بأفضل حظاً حيث تصادم مع البربر في معركة بقدورة التي انتهت بهزيمة أخرى مروعة للأمويين كانت نهاية وجودهم تماماً في المغرب الذي أنقسم الي ثلاثة دول مستقلة ولم ينضو تحت لواء الخلافة ثانية حتى في عهود العباسيين والدولة العثمانية.

و تحصن فلول الجيش المكون من عرب الشام (القيسية) بمدينة سبتة و حاولوا المجاز إلى الاندلس فرفض اهلها من عرب الحجاز (اليمنية) أن يسمحوا لهم بالدخول للأندلس لما بينهم

من عصبية قبلية إلا بعد ما امتدت نيران الثورة البربرية إلى الاندلس فاتفقوا معهم علي أن يشتركوا في إخماد الثورة ثم يعود القيسية الي الشام , فدخلوها بقيادة بلج بن بشر و انتصروا مع جند الاندلس بقيادة عبد الملك بن قطن على الثوار البربر ولكنهم رفضوا الخروج منها بعد ذلك و قاتلوا عبد الملك وقتلوه لتبدأ فتنة القبائل اليمنية و القيسية في الاندلس.

فابنا عبد الملك , قطن و امية تحالفوا مع العرب اليمنية ضد العرب الشامية من القبائل القيسية و ثارت العصبية في الاندلس كلها وانقسمت لمعسكرين و ثارت الحرب حتى ارسل الخليفة حسام بن ضرار إلى الاندلس واليا عليها مدعما بجيش فأوقف الحرب وفصل بين القوات و ابعد بينهم على ان يتكفل كل منهم بجباية الناحية التي انزل بها و يأخذ منها عطائه ثم يرد الباقي لبيت المال .

ولكن هذا لم ينهي النزاع بل سرعان ما تجدد فقد أوقعت بن ضرار عصبية اليمنية في اثارة فتنة جديدة فقد تحاكم اليه رجلين احدهما قيسي والآخر يميني فقضي لليميني فلما ذهب اليه زعيم القبائل القيسية الصميل بن حاتم يتوسط له اهانة و تعدي عليه فجيش قومه وحارب بن ضرار في وادي لكة وانتصر عليه وسجنه وولي مكانة ثوابة بن جذامة الذي سرعان ما توفي بينما هرب ابناء القبائل اليمنية بن ضرار و حاولوا استعادة ملكة فظلت الاندلس شهور بلا والي .

وأخيرا اتفقت كلمة القبائل على تقاسم منصب الولاية فيكون الوالي من القيسية عام ومن اليمنية عام ولكن الاتفاق لم يصمد طويلاً فاشتعلت الحرب ثانية و كانت معركة شقندة التي هزم فيها اليمنيين هزيمة ساحقة وقتل فيها الكثير من قادتهم وزعمائهم حتى من اسروا منهم قتلوا صبراً حتى تدخل بعض قادة القيسية و اوقفوا المذبحة .

ووقعت الاندلس نتيجة هذه الصراعات الدموية في فحط شديد قارب الجماعة واستمرت القلاقل بين اليمنية والقيسية و البربر حتى دخلها عبد الرحمن الداخل فارا من بطش العباسيين ١٣٨ هـ بينما أسترد القوط انفسهم وعادوا للسيطرة علي بعض المناطق منتهزين فرصة الحرب الأهلية .

وعندما قامت الامارة الاموية على يد عبد الرحمن الداخل كانت الإمارات المسيحية في الشمال قد أضحت خصم كفاء قوى يأتيه المدد من الفرنجة و تدعمه البابوية باستمرار .
وبرغم قدرات عبد الرحمن الداخل السياسية والعسكرية الفائقة إلا انه قضى فترة حكمة كلها تقريبا في صراعات داخلية عنيفة .

فثار عليه زعيم القبائل القيسية يوسف الفهري ولكنه هزمه فانسحب الي طليطلة حيث قتله بعض اصحابه و عادوا لطاعة عبد الرحمن ولكن الثورة تجددت في طليطلة بعد عام واحد علي يد هشام بن عذرة الذي قتل عبد الرحمن أبنة أفلح و وضع رأسه في المنجنيق والقي به داخل المدينة وهو يحاصرها الي أن سلم أهلها هشام وأصحابه فقتلهم عبد الرحمن وصلبهم .

وقد اعلن بعض البربر الدعوة الشيعية بقيادة شقيا بن مكناس الذي لم يجد عبد الرحمن وسيلة لهزيمته إلا ان عهد لزعيم بربري اخر هو هلال المديوني بحكم البلاد التي تمكن منها فانفض عنه الكثير من جنوده وانتهى الامر بقتله وان كانت تلك الثورة قد نهبت دعاة الشيعة إلى النجاح الذي يمكنهم تحقيقه في صفوف قبائل البربر .

و لما ضاق عبد الرحمن ذرعاً بصراعات البربر و العرب جعل جيشه النظامى الثابت (الجيش القائم) مكونا من الجنود المرتزقة والريق الأبيض الذين عرفوا فيما بعد بالصقالبة فأضاف لتركيبه الأندلس المعقدة عنصراً جديداً مثيرا للشغب .

وبالإضافة الي ثورات البربر و صراعات القبائل العربية في عهود خلفاء عبد الرحمن بدء في الظهور في ساحة الصراع السياسي عنصر المولدين حيث أعتنق الإسلام الكثير من السكان الأصليين للأندلس و نشأ منهم جيل جديد باسم المولدين نتاج الزواج بين العرب و البربر المسلمين و الاسبانيات وأصبحوا جزء هام من التركيبة السكانية وأختلط بهم المستعربين الذين بقوا علي دينهم و لكن اكتسبوا اللغة والعادات العربية .

وفي عهد الحكم بدئت ثورات المولدين الذين وجدوا انفسهم بالرغم من أعدادهم الكبيرة و إسلامهم ينظر اليهم بدونية ولا يعمل لهم حساب و يستخف الامويين بهم وفي ١٨١ هـ بدئت ثورتهم في طليطلة المدينة ذات الاغلبية المسيحية المستعربة ولم يتمكن الحكم من القضاء عليها عسكريا فلجئ لاغتيال عبيدة بن خفير قائدة الثورة ثم عين عليهم عمرو بن يوسف واليا وهو من المولدين ليسترضيهم و لكن عمرو حطط للقضاء النهائي على قوة المدينة دائمة الثورة بأبشع طريقة ممكنة .

فقد بني عمرو قلعة حصينة بالمدينة ثم اقام مأدبة لكبراء طليطلة احتفالا بانتهاء العمل بها فكان الضيوف يدخلون من باب القلعة الامامي ليجدوا الجنود يقتادونهم إلى ناحية من القصر فيقتلون وتلقي جثثهم في حفرة ضخمة اعدت لهذا بينما يغطي صوت الطبول و الموسيقى المرتفع على اصوات استغاثتهم وبنهاية المذبحة كان الالاف من اهالي طليطلة قد قتلوا و القيت جثثهم في تلك الحفرة ١٩١ هـ

وكانت أشد ثورات المولدين ثورة ابن حفصون التي بدئها في عهد محمد بن عبد الرحمن ٢٦٧ هـ واستمر فيها ابنائه و تضخم سلطانه حتى أضطر الأمويين لعقد صلح معه يقرونه علي ما استولي عليه من اراضي وحصون الي أن قضى علي دولته عبد الرحمن الناصر ٣١٦ هـ

وفي ٣٥٦ هـ اخذت البيعة لأبي الوليد هشام بن الحكم وهو طفل صغير في العاشرة و تولى الامر الوزير المصحفي الذي دخل في صراع مع الجنود الصقالية الذين رفضوا بيعه هذا الصبي وفضلوا عمه المغيرة ولكن المصحفي حسم الامر باغتياله ليصفوا الامر للوزير المصحفي و صبح ام الخليفة التي قربت محمد بن ابي عامر الذي تولى الوصاية على الخليفة الصبي ونجح في التخلص من صقالية القصر ثم عزل المصحفي وسجنه و اخيرا حجر على الخليفة ذاته وانفرد بالسلطة .

وغير بن ابي عامر الملقب بالمنصور في تركيبة الجيش المكون من اجناد العرب و الصقالية والمتطوعين فاستبدل العرب بجنود من البربر و الصقالية بالماليك العامرية الذين عرفوا بالفتيان و فرق جند القبيلة في كتائب مختلفة ليقضي على تضامنهم القبلي و قضى المنصور علي كل

من مثل خطراً عليه من بني أمية أو غيرهم حتى سحق كل من يصلح منهم للرئاسة تحت شعار حمايته للدولة و العرش حتى أشتهر شعراً يقول

أبني أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها ... فلذلك حاز الملك هذا الثعلب

ليبدأ عصر الدولة العامرية التي بلغت فيها الأندلس اوج قوتها وتصدي المنصور للدولة المسيحية الصاعدة كما لم يفعل غيره حيث كانت غزواته العديدة الناجحة والتي أجملها ابن خلدون بقوله (وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية) تختلف في سياستها عن سابقه فلم تكون غزوات موسمية يقصد بها المشاكسة أو الانتقام أو كسب بعض الغنائم وإنما كانت في اطار خطة لتأمين حدود دولة الأندلس من خلال إخضاع جيرانها ويبدو هذا واضحا في حالة مملكة ليون التي توصل المنصور الي أن يضع حامية إسلامية بها و ان يتفق مع حاكمها الذي عاونه في التصدي لمعارضيه على اداء الجزية والتبعية له و كذلك اضطر حكام قشتالة ان يسالموه ويدفعون اليه الجزية بعدما اوقع بهم من الهزائم الكثير .

واستطاع المنصور ان يقوي الجيش النظامي حتى استغني عن خروج القبائل للغزوات و اعلن للناس بسقوط التزامهم بالخروج إلا متطوعين مأجورين وبرغم ما في هذه الخطوة من اظهار لحدائة الدولة و قوتها و تأثيرها الإيجابي على ازدهارها إلا انها في الوقت ذاته مثلت توجه لإضعاف المجتمع الذي صار متمدناً ربما أكثر من اللازم وفقد قدرته على الدفاع عن نفسه لصالح السلطة المركزية وجيشها النظامي فأضحى وجوده مرتهناً بقدرتها علي مواجهه الاعداء الخارجين الشرسين .

وتوفي المنصور بعد ٢٧ عاماً قضاها في الحكم بين جهاد و أعمار و صراعات سياسية عنيفة كانت قسوته ودمويته فيها مضرب الأمثال حتى أنه امر بقتل ابنه عبد الله لتأمره عليه و قضي على كل قوة للأمويين وزعماء القبائل فلم يعد بينهم من يصلح للحكم من بعده .

وانتقل الامر بعد وفاة المنصور الي أخيه ثم ولد أخيه شنجول الذي اعلن توليته للعهد و لكن الامويين لم يستسلموا و استولي الامير محمد بن هشام على السلطة وقصر الخلافة بقرطبة وقضي على شنجول وبويع بالخلافة ولكن الخلافة الاموية في الاندلس كانت قد دخلت طور الزوال واستمر الصراع الدموي على الخلافة بين الامراء حتى اصبحت لا تنتقل بين خليفة لأخر إلا بحرب اهلية ومذابح واستعين بالجنود المرتزقة من الامارات المسيحية الشمالية وانحارت السلطة المركزية في الاندلس بعد هزيمة المهدي على يد هشام المؤيد الذي استعان بالبربر و المسيحيين بقيادة الكونت سانشو أمير قشتالة الذي نال نظير مساعدته العسكرية قرابة ٢٠٠ من حصون الاندلس.

وتمزت الاندلس بين مناطق البربر و الصقالبة و الامويين وكان اخر خليفة اموي في قرطبة المعتد بالله الذي اتى به أهل قرطبة بعدما ثاروا على البربر و لكنه لم يكن أهلاً للمسئولية وترك كافة الامور بيد وزيرة حكم بن سعيد القرزاز الذي اساء إلى الاهالي وبطش بهم فقتله الجنند ٤٢٢ هـ وأخيراً أجمع كبار الوزراء بزعامة ابن حزم بن جمهور و أعلنوا إبطال الخلافة و نهاية عصر الامويين و اخرج الخليفة المعتد من قرطبة بعدما سجن في المسجد مع اهله فترة يعيش على الصدقات و بدء عصر ملوك الطوائف .

ولم تنقطع الصراعات الأهلية بين قبائل العرب و البربر و الصقالبة و المولدين في الأندلس حتى ابتلعها الممالك المسيحية التي توحدت و قضت علي الجميع باختلاف اعراقهم وأنسابهم وألوانهم .

المصادر

تاريخ الدولة العباسية - محمد سهيل طقوش

التكوين العنصري للشعب الأندلسي - سامية مصطفى مسعد

تاريخ العصر العباسي - امينة بيطار

دولة الإسلام في الأندلس - محمد عبد الله عنان

معالم تاريخ المغرب والأندلس - حسين مؤنس

ثورات البربر في الأندلس في عصر الأماة الأموية - حمدى عبد المنعم

الدولة العباسية - محمود شاکر

المهدي

إن الباطل لا يرفعه إلا المهدي وان الحق لا يقوم به إلا المهدي وان المهدي معلوم في العرب
الحضر وان العلم به ثابت في كل مكان وفي كل ديوان وأن ما علم والعجم والبدو و
بضرورة الاستفاضة قبل ظهوره يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره وأن الإيمان بالمهدي
واجب وأن من شك فيه كافر وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليه الخطأ فيه
وأنه لا يكابر ولا يضاد ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع وأنه فرد في زمانه صادق
في قوله وأنه يقطع الجبارة و الدجاجلة وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها وأنه يملؤها بالعدل كما
ملئت بال جور وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة.

محمد بن تومرت

هل يمكنك تصور أن يخرج رجل وحده يعيش في ظل دولة قوية من أعظم دول العصر يمتد
سلطانها بين قارتين وترحف جيوشها فتزلزل الارض من تحتها فيدعي أنه المهدي المنتظر
فيجتمع عليه الناس ويشعل حربا يجتث بنهايتها تلك الدولة من جذورها ويقضي عليها تماماً
ويقيم اخري محلها على مذهبة واعتقاده؟

قد كان وهذه هي قصته.

في ذات يوم جمعة دخل إلى المسجد الجامع بمراكش رجل ضئيل الجسم متواضع الهيئة وجلس
على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين علي بن يوسف أمير دولة
المرابطين فلما نبهه بعض شيوخ الجامع تلا الآية (إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا)
فتركوه وشأنه .

ولما حضر الأمير نخض سائر الحضور إلا ذلك الرجل فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام
على الأمير وقال له (غير المنكر في بلدك فأنت المسفول عن رعيتك) فسكت الأمير ولما عاد
لقصره سأل عن الرجل فقيل له أنه غريب جاء لمراكش قريباً يعظ الناس و يأمرهم باتباع السنة

فأمر علي بن يوسف وزيره عمر بن يتنان أن يكشف عن أمره ومقصده فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها فقال الرجل ليس لي حاجة وما قصدي إلا تغيير المنكر.

كان أسم هذا الرجل محمد بن تومرت.

وهو من قبيلة هزغة و رغم الخلاف الكبير في نسبة فالمتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ووالده رجل فقير من أهل السوس وكان يقال لوالده تومرت ومعناه في لغة المصامدة الضياء الذي يوقد في المسجد ومن هنا اكتسب اسمه الذائع الذي سجله التاريخ وهو محمد بن تومرت كما عرفه بلقبه الديني وهو المهدي.

وان كان نسب بن تومرت اليزيري المعروف لا يسمح له أن ينتحل صفة المهدي و الأمام المعصوم فقد راجت روايات عن نسبة تجعله ينتمي لإل البيت و تمد شجرة عائلته إلى العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

وانتحال النسب العربي لم ينفرد به ابن تومرت بل شاركه في ذلك الكثير من الشخصيات و الأسر في سعيها إلى السلطان كبنو حمود الذين ادعوا نسبتهم لإل البيت.

بدء ابن تومرت رحلته في طلب العلم بعبور البحر إلى الأندلس ودرس في قرطبة ثم في المهديية حيث درس بها على الإمام المازري ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبي بكر الطرطوشي ثم أدي فريضة الحج ثم سافر إلى بغداد وهناك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار وفي بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد .

ويرتاب العديد من المؤرخين كابن الأثير و ابن خلدون و ابن الخطيب في هذه الروايات و يرفض المؤرخ عبد الله عنان إمكانية هذا اللقاء من الأساس ويعتبره أسطورة نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت لمكانه الإمام الغزالي العلمية وشهرته الذائعة في المغرب وكذلك صلته و تأييده لدولة المرابطين و تزعم الرواية أن الغزالي كان يقول لجلسائه)

لابد لهذا البربري من دولة .. إنه يثور بالمغرب الأقصى ويظهر أمره ويعلو سلطانه ويتسع ملكه فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته وباين عنه في شمائله).

ولكن من المسلم به أن ابن تومرت قد تأثر خلال دراسته بآراء الغزالي ويؤكد ابن خلدون إنه تأثر بتعاليم الأشاعرة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد والدفاع عنها وفي تأويل المتشابه من القرآن والحديث.

وعندما عاد إلى المغرب ذهب ابن تومرت إلى المهديّة و بدء في الوعظ و النهي عن المنكر بما دون أن يتعرض له أحد ثم غادرها إلى بجاية و حضر عيدا فرأى فيه اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزيين المتكحلين فزجرهم و تصادم معهم طلابه و أتباعه فوقع المرحج وكانت معركة فلما عرف بذلك والي البلدة العزيز بن المنصور الصنهاجي أمر بإقامة مناظرة بين ابن تومرت و فقهاء البلدة للوقوف على حقيقة معتقداته .

ورغم عدم إدانته بشيء إلا انه تخوف من البقاء بالبلدة فغادرها إلى ملالة ولاذ بأهلها فأسبغوا عليه حمايتهم و بما قابل أعظم أصحابه عبد المؤمن بن علي وتوجد رواية أسطورية أخرى عند الموحدين بشأن لقائهم أن ابن تومرت قد اطلع على كتاب في الجفر (الجفر يطلق علي كتاب يفترض وجوده عند الشيعة وفيه علم الاولين والآخرين املاه الرسول في اواخر حياته لعلي وشاع وجود اجزاء منه في ايدي خاصة العلماء سراً ولا يعلمون به عموم الناس) من علوم آل البيت ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى من ذرية الرسول وان استقامة أمره وتوطد مركزه يكون على يد رجل من أصحابه اسمه عبد المؤمن فظل ابن تومرت يبحث عن هذا الرجل أينما حل فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه أدرك أنه هو الشخص المبتغى.

وبقى عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت وتنقل معه في العديد من مدن وبلدات المغرب إلى أن وصلا إلى مراكش عاصمة المرابطين حيث التقى في المسجد الجامع بسلطان دولة المرابطين في المغرب والأندلس الملقب بأمير المسلمين علي بن يوسف كما تقدم.

وفي وقت صعود ابن تومرت وبداية حملته الدينية الأخلاقية المتعصبة كانت مراكش وسائر المدن المغربية تشهد التحولات التي تحدث للمجتمعات التي تنتقل من البداوة إلى المدنية حيث

تشيع الكثير من مظاهر الفساد و الانحلال في نظر المجتمع البدوي شديد التحفظ المنغلق علي نفسه , و المفارقة ان دولة المرابطين قامت على اساس دعوة دينية , حيث قام الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين بإنشاء معسكر على مصب نهر السنغال جمع به اتباعه وتلاميذة من ابناء قبائل لمتونة و بين الدعوة و التصادم مع القبائل المناهضة ظهرت دولة المرابطين على مبادئ الدين والجهاد و جمعت قبائل لمتونة الصحراء وبلغت اوجها في عهد يوسف بن تاشفين الذى بنى مراكش لتكون عاصمة لدولته التى امتد سلطانها الى المغرب الاقصى والجزائر ثم الاندلس .

وسرعان ما وقع الصدام فعندما قابل ابن تومرت و اصحابه أخت أمير المسلمين وقد خرجت في موكبها ومعها عدد من الجوارى وهن جميعا سافرات على عادة المرابطين من سفور النساء واتخاذ الرجال اللثام , فأنكر عليهم ابن تومرت وضرب هو وأصحابه دواجن فسقطت الأميرة عن دابتها ووقع الاضطراب والهرج ورفع الأمر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فطلب من الفقهاء أن يناظروه ليظهروا فساد اعتقاده وقبل ابن تومرت هذا التحدي.

وقد ورد ذكر هذه المناظرة في كتاب (أعز ما يطلب) الذي دونه عبد المؤمن بن علي عن إملاء ابن تومرت حيث سأهم طرق العلم هل هي منحصرة أم لا فأجاب مقدمهم نعم هي منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني التي نبهت عليها فقال إنما السؤال عن طرق العلم هل هي منحصرة أم لا فلم تذكر إلا واحدا منها ومن شرط الجواب أن يكون مطابقا للسؤال فلم يفهم مناظره قوله وعجز عن الجواب.

ثم سأهم عن أصول الحق والباطل ما هي فعاد مناظره إلى جوابه الأول فلما رأى المهدي عجزهم عن فهم السؤال وعجزهم عن الجواب شرع يبين لهم أصول الحق والباطل عنده فقال إنها أربعة وهي العلم والجهل والشك والظن ثم أخذ يشرح ماهية كل منها في كلام طويل ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك آراء المهدي مفصلة عن الجهل و الشك و الظن ثم عن الأصول والحقيقة ويقسمها إلى أقسام عديدة وكل قسم منها إلى فصول مختلفة.

وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين من علماء الفروع (فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها والحدود و القضاء) وليست لهم معرفة بعلم الأصول (أصول الدين و أصول الفقه) فضلاً عن الفلسفة وعلم الكلام فلم يكن لهم قدرة على مناظرته.

وبنهاية المناظرة خاطب الفقيه مالك بن وهيب قاضي مراكش أمير المسلمين وحذرة من خطورة هذا الرجل وخطورة دعوته وتعاليمه وقال له إن هذا رجل لا يبغي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنه يبغي تضليل العامة وإثارة الفتنة والوصول إلى السلطان وأشار عليه بقتله بينما أشار البعض الآخر على أمير المسلمين باعتقال الرجل وسجنه وخالفهم في ذلك الوزير يبتان بن عمر وقال إن هذا وهن في حق الملك و هون من شأن الرجل .

فأمر علي بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياما حتى يرى فيه رأيه , ولكن بعد أيام جاءت الأنباء بوقوع فتنة في قرطبة وأخذ علي بن يوسف في التأهب للعبور إلى الأندلس. فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت وحضر بين يديه وقال له بلغني عنك ما صنعت ببجاية وغيرها فتورع الناس عن قتلك فعرفني بحقيقة غرضك فقال ابن تومرت غرضي تغيير المنكر ورفع المغارم وألا تولي من قبيلتك أحد وان تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ولا تجوز به صلاة فزجره أمير المسلمين وأمر بإخراجه من مراكش.

ومر ابن تومرت بالعديد من القرى و المدن البربرية يبني المساجد و يضم المزيد من الاتباع , إلى أن وصل جبل إيجليز من بلاد هرغة بلده وموطن قومه وعشيرته ونزل في مكان منيع وكثر صحبه وأتباعه وهو يدعوهم إلى التوحيد وينتقد المرابطين الذين أطلق عليهم أسم المجسمين طعنا في عقيدتهم وكان يعني بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم وما ورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ويث الخاصة من دعائه بين رؤساء القبائل بمهدون لتلك الدعوة ويشرون بها.

ولما شعر ابن تومرت بأن الوقت المناسب قد حان وفي اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م قام ابن تومرت خطيبا في أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدي المنتظر في خطبة قصيرة نقل إلينا نصها ابن القطان في (نظم الجمان) فقال : الحمد لله الفعال لما يريد

القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وصلى الله على سيدنا رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم وقد ظهر جور الأمراء وامتألت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل.

وعلي الفور هرع إلى ابن تومرت عشرة من أصحابه الملازمين له وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم وعلى رأسهم تلميذه المقرب عبد المؤمن بن علي , وسمي هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلاً فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي , تم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين وهم الطبقة الثالثة.

وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره إلى طبقات تلي هذه فالطبقة الرابعة تتكون من طلبة العلم والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ وهم صغار الطلبة والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته وخاصة خدمه والطبقة السابعة تتكون من أهل هرغة بلد المهدي وموطن قبيلته الي الطبقة الرابعة عشرة طبقة الفرات وهم الأحداث الصغار الأميون و وضع المهدي فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورتبها وجعل لكل منها مهمة تختص بها ورتبة لا تتعدها سواء في السفر أو الحضر وشرع القتل جزاء لمن خالف أوامره ومن تخلف عن الحضور أدب فإن تهادى قتل و من لم يحفظ حظه عزز بالسياط وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط مرة أو مرتين فإن تهادى في تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل. وشدد المهدي في تنفيذ شريعته وضبط الأمور بحزم وقد نجح المهدي في إقامة نوع من الحكومة الثيوقراطية وكان أصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته يبحث معهم جلائل الأمور وعندئذ يخلو بهم ولا يحضر معه أحد سواهم. فإذا جرى البحث في أمور أقل أهمية حضر الخمسون من الصحاب

في هيئة جمعية استشارية وإذا جرى البحث في الشؤون العادية حضر معهم السبعون. وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية .

واتخذ المهدي شعارا لجيوشه علما أبيض كتب على أحد وجهيه " الواحد الله. محمد رسول الله. المهدي خليفة الله " وكتب على الوجه الثاني " وما من إله إلا الله. وما توفيقي إلا بالله. وأفوض أمري إلى الله "

ولقب ابن تومرت أنصاره بالموحدين , وليس هذا مجرد لقب و إنما تعبيراً عن مضمون دعوته والتي أوضح أساسها العقائدي في كتاب وضعه باللغة البربرية سماه المرشدة يحتوي على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر والإيمان بما يجب لله تعالى وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتضمن الأعراس والأحزاب والسور وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته ثم وضع بالعربية فيما بعد كتابه في العقيدة والعلم والإمامة الذي رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي والذي يفتتحه بقوله " أعز ما يطلب " وهي عبارة أصبحت عنواناً للكتاب ذاته.

وسرعان ما أستفحل امره وكثر أتباعه وانتشرت دعوته بين قبائل المصامدة وأضحى يمثل خطراً داهماً على سلطان المرابطين ولما عاد أمير المسلمين إلى مراكش فوجئ أن الفقيه المتواضع تحول إلى داعية سياسي خطر يتشع بثوب الإمامة المهديية ويجمع تحت لوائه قوى جارة فبادر بإعلان الحرب عليه .

ولكن المهدي كان قد تحصن في جبال المصامدة و احسن تجهيز انصاره و تحفيزهم فهزموا جيش المرابطين هزيمة منكرة وطاردهم حتى مدينة مراكش وغنموا الكثير من اسلحتهم و خيولهم واعد علي بن يوسف جيشاً ثانياً فثالث لقوا بدورهم الهزيمة أمام الموحديين الذين تضخمتم اعدادهم وقويت نفوسهم .

ومن سنة ٥١٦ هـ إلى سنة ٥١٨ هـ انشغل المهدي بقتال القبائل التي لم تباعه وإرغامهم على الدخول في طاعته حتى بسط سلطانه على منطقة السوس كلها وضعف المرابطين حتى وجه اليهم خطاباً يدعوهم للدخول في طاعته بدورهم فقال فيها (إلى القوم الذين استرلهم

الشیطان وغضب علیهم الرحمن الفئة الباغية والشردمة الطاغية لمتونة أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى والعذاب لمن عصى وقد وجبت لنا علیكم حقوق بوجوب السنة فإن أدیتموها كنتم فی عافية وإلا فستعین بالله علی قتالكم حتى نمحو آثاركم ونكدر دیاركم ويرجع العامر خالیا والجدید بالیا وكتابتنا هذا إلیكم أعدار وإنذار وقد أعدر من أنذر والسلام علیكم سلام السنة لا سلام الرضى)

وفي سنة ٥١٨ هـ غادر المهدي جبل إجلیز بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام وقاد اصحابه إلى تینملل وهي محلة صغيرة تقع فوق ربوة عالية فی سفح جبل درن من شعب جبال الأطلس علی بعد مائة كيلومتر تقريبا من عاصمة المرابطين مراكش تسكنها قبيلة هزميرة وقد كان أهلها بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم فسار إلیهم فأكرمهم وأكدوا له خضوعهم وطاعتهم وبايعوه فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدهم ما أعجبه فقرر البقاء بها.

ولكن المهدي لم یقابل إحسانهم بالإحسان .. فكان یجلس علی حجر خارج القرية یخطب فیهم ويعظهم و لاحظ أن قبيلة هزميرة یحضرون دائما متقلدين سلاحهم فسألهم يوما لم تمسكون سلاحكم وإخوانكم الموحدون لا یمسكونه؟

فتركوا حمل السلاح وأتوا لسماع الوعظ بدونه فباغتهم أتباع المهدي و انقضوا علیهم و أوسعوهم قتلا ثم هاجموا بیوتهم فقتلوا من وجدوه بها و سبوا نساءهم و غنموا كل ما وجدوه من أموالهم فقتلوا منهم فی ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألف نفس وقسمت أراضيهم ونساءهم بین الموحدین ثم أقام المهدي فی قمة الجبل حصنا منيعا یكشف ما وراءه وأخذ یبعث بقواته إلى الأماكن المجاورة تقتل الأهالي و تغتصب أموالهم و نساءهم .

وأخذ المهدي بعد ذلك یتأهب للمرحلة التالية من فی صراعه مع المرابطين. الذین أطلق علیهم لقب الجسمین فأقام حملة لتطهير الجيش ممن لا یتق بهم و كان من ضمن أصحاب المهدي العشرة رجلاً يدعی أبي محمد البشير كانت تظهر علیه الغفلة و البله یتلزم الصمت ولا یشاركهم فی شيء من أمورهم فخرج علیهم المهدي يوما وقال أن البشير هذا من آیات الله و

أمره بقراءة القرآن فقرأه عليهم كاملا في أربعة أيام و ركب حصانا فأتقن ركوبه ثم قال لهم المهدي إن البشير هذا مطلع على الأنفس محدث وأنه يوجد إلى جانب الموحدين أقوام منافقون وقف البشير على دخيلتهم وأنه لا بد من النظر في أمورهم حتى يتم العدل.

فأمر أن ينادي في الجيش بدعوة الناس كافة وندب أبا محمد البشير لتمييز الناس فكان يخرج قوما عن يمينه ويسميهم أهل الجنة ويخرج آخرين عن يساره ويسميهم أهل النار وهم الذين يشك في ولائهم وفي اعتقادهم أن ابن تومرت هو المهدي. فكان أهل اليمين يقتلون أهل اليسار حتى قتل الأب ابنة والابن أباه والأخ أخاه .

وفي سنة ٥٢٠ هـ بدأ المهدي في تنفيذ خطته الهجومية للقضاء على دولة المرابطين فبعث جيشا ضخما من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير هزم جيوش المرابطين حتى وصل إلي أسوار مراكش ثم عادوا الجبل .

و في سنة ٥٢٤ هـ كان المهدي قد أستجمع قواته و حشد القبائل من خلفه في جيش من أربعين ألف مقاتل بقيادة أبي محمد البشير وعبد المؤمن بن علي ولم يصحب المهدي جيشه لمرضه ونزل الموحدون من سفوح الجبال إلى السهول زحفوا على دولة المرابطين يسحقون كل من يواجههم حتى حاصروا العاصمة مراكش بعد معارك رهيبية.

واستمر حصار الموحدين لمراكش أربعين يوما وكان المرابطون يخرجون من وقت لآخر لقتال الموحدين وتنشب بين الفريقين تحت الأسوار معارك طاحنة يفنى فيها الكثير من الجانبين .

واستنجد علي بن يوسف بالأمرء و شيوخ القبائل فأنته الإمدادات من سائر النواحي وانضموا لجيشه . وعندما تجددت المعارك دفع علي بحرسه الخاص من المرتزقة المسيحيين (تخبر علي بن يوسف مجموعة من الفرسان المسيحيين المعاهدين وأستقدمهم من الاندلس وجعلهم حرسه الخاص ليتحاشى تعارض الولاءات القبلية) و جعلوهم مع مجموعة من القوات الجديدة فهزموا قوة من الموحدين لأول مرة فتشجعوا و ارتفعت روحهم المعنوية و اجتمع الجيش للهجوم على معسكر الموحدين الكائن أمام بستان ضخم خارج المدينة وتصادموا في معركة البحيرة وبينما كان المرابطين متفوقين عدديا بصورة ملحوظة بفضل الإمدادات الغزيرة التي

توالت عليهم كان الموحدون قد أصابهم الإرهاق وبالرغم من استبسالهم إلا أن المرابطين تغلبوا عليهم ودمروا جيش الموحدون وأبادوا عامة الجيش وقوادة وسقط في الميدان أبو محمد البشير وسقط معه معظم الرؤساء والقادة و أربعة من أصحاب المهدي العشرة ولم ينقذ عبد المؤمن و فلول جيشه إلا الليل و المطر فارتد جريحا إلي الجبال يلوذ بها والقلعة التي نحت من جنده .

وعندما وصلت للمهدي أخبار النكبة التي أصابت جيشه سأل هل عبد المؤمن في الحياة ؟

فلما قيل نعم , قال الحمد لله قد بقي أمركم.

واستدعي المهدي الموحدون ثم وعظهم حتى أضحى النهار ثم دخل الدار فغاب ساعة ثم خرج حاسر الرأس وقال للناس إنني مسافر عنكم سفرا بعيدا فضج الناس بالبكاء وودعوه ثم دخل داره ولم يره أحد بعد ذلك.

و كتبت وفاة المهدي حتى اتفق أصحابه على اختيار من يخلفه منهم وقد كان هذا الخليفة الأول لدولة الموحدون هو عبد المؤمن بن علي تلميذ المهدي وأحب أصحابه إليه فأعلن خليفة ثم قام بدفن المهدي في مسجده الملاصق لداره.

لتبدأ على يد عبد المؤمن المرحلة الثانية من حياة دولة الموحدون العجيبة والتي لم تسقط بموت المهدي ابن تومرت ولكن استمرت تغذيها قناعة الموحدون بأنة غاب وسيعود مثلما يعتقد الشيعة الأمامية في مهديهم .

وشخصية ابن تومرت من الشخصيات النادرة في التاريخ ففي أقل من عشرة سنوات أستطاع أن يتحول لأقوي رجل في شمال أفريقيا وأن يؤسس دولة فريدة في تكوينها و نظامها ووسط حروب عاتية ويغرس في نفوس أتباعه ما جعلهم يحافظون عليها ولا تنهار بعد وفاته .

ولأ يمكن أن نرد هذا النجاح كله إلي البيئة التي ظهر فيها ابن تومرت فقط فعلي الرغم من أن المجتمع البربري كان مجتمع بدوي تغلب عليه السداحة و يخيم عليه الجهل وتسكن عقلة الأساطير و الخرافات فاضحي فريسة للعديد من المدعين , لكن شخصية ابن تومرت الكاسحة كان لها الأثر الأكبر في نجاح دعوته فقد كان المهدي من أقوى الدعاة شخصية و

أغزهم علما و أشدهم تأثيرا في النفوس وكان خطيبا مفوها فصيحاً في العربية والبربرية , متمكنا من علوم القرآن والسنة و أصول الفقه وأصول الدين شديد التقشف يرتدي الثياب المرقعة والصوف الخشن ولا يأكل في يومه إلا رغيفا بقليل من سمن أو زيت و لم يتزوج وعرف عنه انه حصورا لا يأتي النساء , لكنه على ذلك كان ذو إرادة حديدية وعزم لا يلين .

وفي مقابل زهده وتقشفه و حرصه على أداء العبادات لا يعرف الرحمة ولا الشفقة يبطش بأقرب الناس إليه بأقل شبهه أن ارتاب في أخلاصة يستحل دماء مخالفيه و سبي نسائهم وأولادهم ونهب أموالهم بقسوة مخيفة .

وقد بقي من تراث المهدي الفكري والديني كتابين أولهما (أعز ما يطلب) الذي يضم مبادئه ونظرياته في الأصول وفي الإمامة وفي التوحيد والعلم والثاني كتاب (موطأ الإمام المهدي) وقد وضعه في العبادات والمعاملات والحدود. و كانت كتب ابن تومرت أشد الكتب الدينية احتراما بين الموحدين و نظرا لكتابتها بالبربرية ونشر الموحدين لها بين القبائل كانت ذاتة كبيرة الأثر .

و في أصول الشريعة يرى ابن تومرت (أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان و التجويز وهما شك والشك ضد اليقين ومحال أخذ الشيء من ضده .. و ان الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء فليس للعقول تحكيم ولا مدخل فيما حكم به المولى) .

ويرفض الاجتهاد (قالوا كل مجتهد مصيب فجعلوا هذه المقالة سلما إلى هدم الشريعة وإسناد الأحكام إلى غير مستندها وعكس الحقائق عن موضوعها وصيروا الحلال حراما والحرام حلالا وجعلوا الشرع متناقضا واتبعوا قولة كل قائل وإن تناقضت واعتقدوا الحق في المجتهادات وإن تعارضت) .

وطريقة ابن تومرت في استنباط الأحكام الفقهية كانت أقرب ما تكون الي المذهب الظاهري ولكن لم يصبح المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين إلا في عهد الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته بقرابة ٦٠ عام .

وإنكار ابن تومرت للاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة أمر مفهوم في ظل ادعائه أنه الامام المعصوم فأراءه في الشريعة ليست قابلة للرد ولا محل لنقاشها، و رؤية ابن تومرت للإمامة تكاد تطابق الرؤية الشيعية التي يلخصها الشهرستاني بقوله (بأن الإمامة ليست قضية مصلحة تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمعهم أي الشيعة القول بوجود التعيين والتنصيب وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبراء والصغائر)

ويفيض ابن تومرت في شرحه لنظرية الإمامة عنده فيقول (هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجود اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة. ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح ومن بعده إلى ابراهيم .. ولا يكون الإمام إلا معصوما من الباطل ليهدم الباطل لأن الباطل لا يهدم الباطل وأن يكون معصوما من الضلال لأن الضلال لا يهدم الضلال .. وأن يكون معصوما من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته وأن يكون معصوما من البدع لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبته وأن يكون معصوما من العمل بالجهل لأن الجاهل لا يهدم الجهل وأن يكون معصوما من الباطل لأن المبطل لا يهدم الباطل كما لا تدفع النجاسة بالنجاسة وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة كذلك لا يدفع الفساد بالفساد ولا يدفع الباطل بالباطل وإنما يدفع بضده الذي هو الحق لا يدفع الشيء إلا بضده ولا تدفع الظلمة إلا بالنور ولا يدفع الضلال إلا بالهدى ولا يدفع الجور إلا بالعدل ولا تدفع المعصية إلا بالطاعة ولا يدفع الاختلاف إلا بالاتفاق ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم)

و في قوله (والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان وهو دين السلف الصالح والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله فاعتقادها دين والعمل بها دين والتزامها دين ومعناها الإتيان والافتداء والسمع والطاعة والتسليم وامتنال الأمر واجتناب النهي والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير)

وأكد ابن تومرت لأتباعه وجوب السمع والطاعة له بصفته المهدي الذي لا يكذب به إلا كافر أو منافق أو فاسق (والانقياد لكل ما قضى واجب والرجوع إلى علمه واجب وإتباع سبيله واجب والاستمسك بأمره حتم ورفع الأمور إليه بالكلية لازم) (فإن طاعة المهدي والاستسلام إليه إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها فإن سنة المهدي هي سنة الله ورسوله وأمره أمر الله ورسوله وطاعته طاعة الله ورسوله والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله وموافقته موافقة الله ورسوله وتعظيم حرمانه تعظيم حرمان الله ورسوله. هو أعلمهم بالله وأقربهم إلى الله به قامت السموات والأرض وبه كشفت الظلمات وبه تدفع الأباطيل وبه تظهر المعارف وموافقته تنال السعادة وبطاعته تنال البركات)

وأتباعه من أمن بالمهدي و استقام على طاعته فهم الفرقة الناجية التي بشر بها الرسول , الطائفة التي تقوم بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ظاهرين على من عاداهم إلى آخر الزمان حتى تجتمع مع عيسى بن مريم وحتى يقاتل آخرهم الدجال وأن الله يفتح لهم الدنيا كلها.

اما من خالفه في أي أمر قدمه وماله وعرضه حلال (أمر المهدي حتم ومن خالفه يقتل لا دفع له في هذا لدافع ولا حيلة فيه لزائع ثبت بثبوت نصوص الكتاب وقواطع الشرع وبيان العلم ودام ما دامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار) .

فلا غرابة أذن أن كان لابن تومرت هذه المكانة والسلطان في نفوس أتباعه حتى القي بهم في أتون الحروب يسفكون الدماء و ينتهكون الاعراض بلا شفقة ولا رحمة أو واعز من ضمير متذرعاً بان مراعاة القيام بأمر الله اولى من مراعاة الدماء , وان من منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها وان من ترك دفع الفساد كمن اعان بنفسه وماله.

وفي صراعه مع المرابطين الذين نعتهم بالجسمين الكفار الذين يتشبهون بالنساء بتغطية وجوههم باللثام و تتشبه نسائهم بالرجال في كشف وجوههم يلعن من لا يخالفهم و يجرم طاعة امرائهم و تكثير سوادهم ويوجب جهادهم لتضييعهم السنة وارتكابهم المعاصي و افسادهم في الارض .

والحقيقة أن مسألة اللثام لا تعدوا كونها تقليداً قديماً لازال مستمرا لليوم بين بعض قبائل موريتانيا والسودان ولا علاقة له بالدين وما كان بمراكش وغيرها من حواضر الدولة المرابطية من فساد متعلق بطبيعة الحياة المدنية أكثر منه تعلقاً بفساد حكامهم (على الرغم مما يذكره المؤرخ المراكشي وغيره من ضعف على بن يوسف وانتشار الفساد في اخر عهده بسبب هذا) وسرعان ما ظهر في دولة الموحدين فساد مماثل .

ولا يمكننا أن نتجاهل ونحن نتكلم عن ابن تومرت موقف المؤرخ الأشهر ابن خلدون منه فهو يدافع عن المهدي وعن صحة دعوته وصدق إمامته فيقول (ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفه الرأي من فقهاء المغرب من الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين يزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطأ العقب نفسوا عليه ذلك وغضوا منه بالقدح في مذهبهم والتكذيب لمدعياته وأيضاً فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم والمناسبة لهم تشيعاً للمتونة وتعصبا لدولتهم)

ويعتد ابن تومرت قائلاً (وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهادهم فقهاءهم فنأدى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصاراً وحامية وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة فتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره

والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شىء من الحظ والمتاع في دنياه .. فليت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله. ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسخت دعوته , سنة الله التي قد خلت في عباده (

لكن موقف ابن خلدون قد يتضح ان علمنا ان اسرته بني خلدون عاشت في رعاية ملوك الدولة الحفصية الموحدية وتولى أجداد ابن خلدون في ظلهم مناصب النفوذ والثقة وبدأ هو حياته العامة في سلطاتهم وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي ٧٨٤ هـ فلم يكن ملائماً أن يطعن في إمامة المهدي ودعوته التي كانت أساساً لقيام الدولة الموحدية .. ولكن ربما كان لابن خلدون وجهه نظر اخري خاصة وانه دافع عن نسبه ابن تومرت لإل البيت كما دافع عن صحة نسب الفاطميين مرجعاً الطعن في أنسابهم إلى تليفق الخصوم ويعتمد علي نظرية (ساذجة تفتقر إلى المنطق السليم ويكذبها الواقع) أن قيام دولة و نجاحها واستمرارها عقود طويلة لا يمكن ان يتم لداعى كاذب .

وبعد ابن تومرت جاء دور عبد المؤمن ليكمل القصة ..

فسرعان ما أثبت فراسة ابن تومرت في اختياره خليفة له صدقها , فقضى عبد المؤمن أول عام ونصف من ولايته في تنظيم الموحدين و أعداد جيوشه ثم أستكمل المسيرة الدموية في فتح قلاع المرابطين و اجتياح القرى التي لم تباعه و قتل اهلها و سبي نساها .

وظل عبد المؤمن يقاتل المرابطين ويناوشهم ويكتسب ارضا جديدة كل يوم حتى اضطر تاشفين بن على لترك الاندلس والعودة بجيشه لقتاله مع ابيه دون طائل.

واستمرت الحرب بين الخصمين مشتتة قرابة العشر سنوات أحرق فيها الاخضر و اليباس و قاسي فيها الاهالي ويلات لا توصف فما ان يفرون من المذابح و احراق القرى حتى يحاصرهم الجوع في تشردهم.

وعندما قرر عبد المؤمن ان ينقل الصراع لقلب دولة المرابطين ٥٣٥ هـ ليقضي عليها نهائيا كانت الدولة المرابطية قد اهتزت أسسها وفقدت كثيرا من قواعدها وأراضيها وسادتها الفوضى وبدئت تلفظ انفاسها الاخيرة و بعد وفاة علي بن يوسف واجه ابنه تاشفين تصدعا خطيرا في الجبهة الداخلية حيث اشتعل الصراع بين قبيلتي المتونة ومسوفة وهما دعامتا العصبية المرابطية وخرج العديد من زعماء مسوفة على حكومة مراكش وقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن . فاشتد الاضطراب في الجبهة المرابطية ووغرت صدورهم على بعض وأضحى انهيار الدولة المرابطية مسألة وقت .

واحتدمت المعارك بين تاشفين و الموحدين حتى ارسل إبراهيم ولي عهده إلى مراكش خوفا عليه و سار إلى وهران ولجأ إلى حصن بها ولكن الموحدون ادركوا ضعفه فبادروه بالهجوم وأشعلوا النيران في الحصن وحاصروه حتى حاول الهرب ليلا ولكن فرسه تردى به في هوة فمات و اخذ الموحدين جثمانه وصلبوه واحتذوا رأسه وعلقت في شجرة بإزاء مسجد المهدي .

وعلى أثر مصرع تاشفين اقتحم قائد الموحدين أبو حفص بقواته وهران وأثنخن في المرابطين حتى فنى معظمهم والتجأت منهم جماعة إلى الحصن فحاصرهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أذعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام في يوم عيد الفطر من سنة ٥٣٩ هـ فقتلهم الموحدون جميعا كبارا وصغارا بينما دخل عبد المؤمن وجنده تاجررت ثم تلمسان وأباحهما لجنده يقتلون كل ذكر و يسبون النساء ويقتسمون الاموال حتى تحطت اعداد ضحايا هذه المذابح المائة الف نفس .

وفي مراكش كان الفصل الأخير من مأساة الدولة المرابطية ففي الوقت الذي كانت قوات الموحدين تكتسح اراضي المرابطين كان صراعاً جديداً قد نشب داخل العاصمة المرابطية حيث خرج على الامير ابراهيم الذي لم يكن تجاوز السادسة عشر من عمرة عمه إسحاق بن علي ودعا لنفسه بالإمارة بديلاً عنه.

وهكذا لم تجد جموع الجنود من مختلف القبائل و بقية الحرس الخاص من المرتزة المسيحيين الذين استقدمهم علي بن يوسف من الاندلس المعروفين بجيش الروم التي ملئت مراکش قيادة ملائمة وببطء حاصر الموحدون مراکش حصاراً محكماً .

وأستمر الحصار يخنق المدينة ببطء أكثر من تسعة أشهر وبينما الموحدون ينتظرون بصبر موتها كان اهل المدينة يعانون الولايات حيث نضبت المؤن و نفذت الحبوب و فويت الدواب و خلعت مخازن السلطان من الطعام وبدئت المجاعة تحصد ارواح الالاف من الاهالي المساكين المحصورين بين الموت جوعاً أو ذبحاً بسيوف الموحدون .

وأخيراً وبعدما تأكد عبد المؤمن أن المدينة لم تعد قادرة على المقاومة اطلق هجموه الشامل شوال سنة ٥٤١ هـ حيث دفع الموحدون السلام إلى أسوار مراکش و اقتحموها . وهناك رواية أن بقايا جيش الروم داخل المدينة كانوا قد اتصلوا بعبد المؤمن و تأمروا علي أن يدخلوا قواته من احد ابواب المدينة التي يتولون حراستها مقابل أن يحقن دمائهم و يسمح لهم بالرحيل والعودة إلى الاندلس .

وقبل ان ينتصف النهار كان الموحدون قد استولوا على مراکش ولجأ الأمير إبراهيم ابن تاشفين وجماعة من الخاصة والأعيان إلى قلعة منيعة داخل المدينة تعرف بقصر الحجر فاستمر القتال حتى يؤسوا و استسلموا طالبين العفو ولكن عبد المؤمن أمر بقتلهم جميعاً ثم أعلن استباحة مراکش فيما يصفه ابن الخطيب بالحننة العظمى .

فقرر عبد المؤمن قتل جميع الذكور البالغين بالمدينة واستباحه اموالهم و نسائهم وأطفالهم فاستمرت حمي القتل ثلاثة أيام أخرى أبيد فيها أهل مراکش ولم ينج من أهلها إلا من استطاع الاختفاء بأعجوبة وعندما أعلن عبد المؤمن بعد ذلك عفوه عن أهل المدينة لم يكن بقي بها إلا العشرات من الذكور بيعوا رقيقاً كما فعل بمن تبقي من النساء والأطفال .

ولم تسكن دماء عشرات الالاف من الارباء شهوة الدماء لدي عبد المؤمن فبعد انتصاره عقد للموحدون مجلساً و عهد اليهم بقوائم من أسماء المشكوك في ولائهم و صحة ايمانهم و الزم

شيوخ القبائل بتطهيرها منهم فيما سماه بالاعتراف فنارت موجة جديدة من المذابح قتل فيها
الموحدين بعضهم البعض هذه المرة !

ويورد المؤرخ المغربي أبو بكر البيدق قائمة طويلة بالقتلى فلم تبقي عشيرة من عشائر الموحدين
إلا وقد خاضت في دماء الأخرى وربما كان هذا مقصد عبد المؤمن أن لا تستطيع العشائر
معارضته ابداً وقد أفسدت الدماء كل ثقة يمكن ان تقوم بينهم و قتلوا بأيديهم كل من كانت
له قدرة على قيادتهم .

ولم يبق في المغرب قوة تستطيع مواجهة عبد المؤمن عدا قبائل بنو سليم و بنو هلال العربية و
لهجرة تلك القبائل قصة عجيبة (تختلف تماماً عن تلك الأسطورية التي اوردتها القصص
الشعبية) فقد انضوت تلك القبائل تحت لواء القرامطة عند ظهورهم بالبحرين و انتقلوا معهم
الي الشام يناوئون الفاطميين عندما وقع بين القرامطة والفاطميين العداة ثم أنضوت تحت لواء
الدولة الفاطمية بعد هزيمتهم للقرامطة و استيلائها على الشام واسكنهم الخليفة العزيز بالله
صعيد مصر الي ان فسدت العلاقة بين الدولة الفاطمية و ال زيري خلفائهم بالمغرب فخلعوا
طاعتها الاسمية وأعلن المعز بن باديس الصنهاجي انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية ٤٣٧ هـ
وأعلن رفضه للعقائد الشيعية الاسماعيلية وعودته لاعتقادات السنة وأعلن المذهب المالكي
مذهبا للدولة فغضب الخليفة المستنصر بالله وأراد حربه ولكن وزيره الحسن بن علي اليازوري
أشار عليه بان يرميهم بالعرب الذين كانوا قد تكاثروا و تفاقمت مشاكلهم و شرورهم
واعتدائهم فأن انتصروا حققوا انتقامه و اعدوا ملك المغرب له و ان قضى عليهم بن باديس
فقد تخلصوا منهم .

فوافق المستنصر على ذلك الرأي وبعث وزيره إلى العرب في سنة ٤٤١ هـ فسار إلى أحيائهم
وبذل العطاء الوفير لأشياخهم وعامتهم وأباح لهم عبور النيل وقال لهم قد أعطيناكم ملك
المغرب وملك المعز بن باديس.

فثارت أطماعهم وأغراهم ما سوف ينالونه في إفريقيا من الثراء والسلطان فانتقلت من بطون
سليم وهلال جموع غفيرة وساروا إلى برقة واقتحموها واستباحوها ثم بعثوا إلى إخوانهم

يرغبونهم في اللحاق بهم فجازت منهم جموع أخرى بعد أن أعطوا دينارين لكل رأس وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية يدمرون و ينهبون كل ما يجدوا امامهم.

ولما رأى المعز بن باديس كثرة العرب قد فكر في استمالتهم ومحالفتهم ولكنهم عاثوا في البلاد فساد ونادوا بعودة الخلافة الفاطمية فغضب المعز وخرج بقواته إلى ظاهر القيروان واستعان بابن عمه حماد بن بلكين صاحب القلعة فبعث إليه بالإمدادات والتفتت حوله قبائل البربر وقاتل حشود العرب ولكنه هزم ففر الي القيروان فحاصرها العرب طويلا وخربوا ما حولها واستولوا في الوقت ذاته على سائر بلاد افريقية ٤٤٦ هـ وحاول المعز بن باديس أن ينهي الحرب فزوج بناته الثلاث ثلاثة من أمرائهم تقريباً منهم و محاولة لإقامة السلام , ولكن محاولاته ذهبت سدى وأقتحم العرب مدينة القيروان وخربوها ونهبوها واستباحوا سائر حریمها ثم استولوا على المهديّة بعدما توفي المعز بها وتصادموا مع قبائل البربر طويلاً الي ان تمادوا بمرور الزمن وأصبحوا جزء من التركيبة السكانية في إفريقية والمغرب الأوسط.

ولم يظهر العرب في صراع الموحدين و المرابطين حتى نهايته إلا ان طائفة من بني سليم اعتدت على مدينة قابس بعدما ضمها الموحدين لدولتهم فبعث إليهم عبد المؤمن يعاتبهم إلا أنهم تمادوا في عدوانهم فبعث عبد المؤمن جيشا هزمهم و استنقذ قابس من ايديهم .

و اراد عبد المؤمن ان يكرر ما فعله الخليفة المستنصر بالعرب فجمع زعمائهم وحثهم على نصرة الإسلام بالأندلس ليكون وجودهم جزء من جيشه رادعا للنعرات العرقية عند عرب الاندلس الذين كرهوا حكم البربر لهم وطلب إليهم أن يجهزوا عشرة آلاف فارس ليجاهدوا في سبيل الله إلى جانب الجيوش الموحدية فتظاهروا بالموافقة والطاعة وكان من بين زعمائهم زعيم يدعى يوسف بن مالك فاتصل بعبد المؤمن وأخبره بأن العرب لا يريدون المسير إلى الأندلس وأنهم يعتقدون أنه يريد بذلك أن يخرجهم من بلادهم وقد تحقق صدق ذلك في الليلة التالية إذ هرب العرب تحت جنح الظلام إلى عشائهم ولم يبق سوى يوسف هذا فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق وسار عبد المؤمن في قواته حتى وصل إلى مقربة من قسنطينة واستمر هنالك عشرين يوما.

ثم بعث الي احياء العرب جيشا من ثلاثين ألف مقاتل بقيادة ولديه أبي محمد وأبي عبد الله واشتبكوا معهم في معركة عنيفة انتهت بهزيمة جموع العرب هزيمة ساحقة وقتل قادتهم وسقطت متاعهم وحریمهم وأبنائهم في أيدي الموحدين فأمر عبد المؤمن بالتحفظ عليهم ورعايتهم حتى اقبلت وفود العرب خاضعة له فرد حریمهم وأولادهم إليهم وفرق فيهم الأموال وانتهى بأن جهز منهم قوة لتشارك في حربه المنتطرة في الأندلس

وكانت دولة المرابطين بالأندلس في طريقها للأفول .. حيث تغلبت النظرة العرقية على اهل الاندلس من العرب علي تقديريهم لإنقاذ البربر لهم من غزو الفرنجة . وكذلك فقد تحللي المرابطين عن دورهم في الدفاع عن الاندلس وازدادت الهجمات التي تشنها الممالك المسيحية على الحدود شراسة و في الوقت الذي كانت الدولة المرابطية تنهار في المغرب اشتعلت الثورة في الأندلس ضد المرابطين أولا في ولاية الغرب الأندلسي وهي أبعد المناطق عن سلطان الحكومة المركزية على يد أبو القاسم أحمد بن الحسين و للمفارقة كان بدورة يدعي انه المهدي المنتظر محاكيا ابن تومرت وسرعان تعددت الثورات و الاضطرابات.

وفي أواخر سنة ٥٣٩ هـ بعث عبد المؤمن إلى الأندلس جيشا من عشرة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي عمران موسى بن سعيد ونزل هذا الجيش بساحل الجزيرة الخضراء وكان أول بلد افتتحوه هو مدينة شريش افتتحوها صلحا إذ خرج صاحبها أبو الغمر بن عزون وبايع لعبد المؤمن وأعلن دخوله في طاعته ودخل الموحدون قرطبة وبسطوا سلطانهم عليها سنة ٥٤٣ هـ ثم استمر توغلهم في الاندلس وضم اجزاءها واحدة بعد الأخرى حتى اختفت الدولة المرابطية تماما .

وفي سنة ٥٤٩ هـ اسند عبد المؤمن ولاية عهده لولده البكر محمد بمشورة شيوخ الدعوة وهناك رواية تقول لنا إن عبد المؤمن لم يحقق ولاية العهد لولده نتيجة للشورى ونزولا على رغبة الأشيخ والقبائل ولكن تحقيقها كان بالعكس نتيجة لترتيب سابق وذلك أن عبد المؤمن حينما شعر بتوطد مركزه قرر أن يستبقي الملك في ابنائه واستدعى أمراء العرب من بني هلال و زغبة وعدى وغيرهم ووصلهم وأحسن إليهم ودفع إليهم من يقول لهم أن يطلبوا إلى عبد المؤمن أن يختار لهم ولي عهد من بنيه يرجع الناس إليه من بعده ففعلوا ما طلب إليهم فلم

يجههم عبد المؤمن في بادئ الأمر إكراما لأبي حفص عمر بن يحيى لعلو منزلته بين الموحدين وكان يعتبر ثاني رجل في الدولة بعد عبد المؤمن وكان من المتفق يوم تولى عبد المؤمن الخلافة أن يلي عمر الأمر من بعده ومن ثم فإن عبد المؤمن أجاب من طالبوه بترشيح ولده أن الأمر ليس له وإنما هو لأبي حفص عمر فلما وقف أبو حفص على ذلك خشى عاقبة هذا التوريط فمثل أمام عبد المؤمن وأعلن خلع نفسه من الولاية فعندئذ بويح محمد بن عبد المؤمن بولاية العهد وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أبيه .

ولم يكتف عبد المؤمن بهذه الخطوة الحاسمة في تحقيق ولاية العهد لولده ولكنه قرنها في نفس الوقت بخطوة أخرى هي تولية أولاده حكم البلاد فندب ولده وولي عهده السيد أبا عبد الله محمد لحكم بجاية وأعمالها وولده السيد أبا الحسين لحكم فاس وأعمالها وولده السيد أبا حفص لحكم تلمسان وولده السيد أبا سعيد لحكم سبتة ومالقة والجزيرة الخضراء.

وهكذا تحولت الدولة الدينية الثيوقراطية التي بدائها ابن تومرت إلى مملكة جديدة وانتقلت السلطة من يد شيوخ الموحدين الذين لا يقطع في امر من غير مشورتهم الي ايدي عائلة عبد المؤمن .

وقضي عبد المؤمن السنوات التالية في تنظيم دولته الجديدة و تقويتها بعدما استسلمت اخر معاقل المرابطين غرناطة وانتهت دولتهم بعدما بعث ميمون بن بدر واليها إلى عبد المؤمن يعرض تسليمها بعدما ظل يقاوم لسبع سنوات كاملة دون طائل , فوافق عبد المؤمن و استلم الموحدين غرناطة وعهد بها عبد المؤمن لابنه ابا سعيد , ثم قام بجولة كبيرة في القبائل استوثق فيها من ولائهم و نظم احوالهم ثم عاد إلى مراكش سنة ٥٥٢ هـ

وعندما ساءت حالة عبد المؤمن الصحية و أحس بدنو الاجل دعا مشايخ الموحدين و امر بإسقاط اسم ابنه من الخطبة وإعفاءه من ولاية العهد وتوليه ابنه الاخر يوسف محله , و ذلك لان محمد قد كان ادمن الخمر ويبدوا بحالة مزرية امام القادة و الشيوخ ويرتكب امورا منحلة فيما تقص الروايات فاستوثق عبد المؤمن من الشيوخ تنفيذ وصيته ولاسيما الشيخ أبي حفص عمر عميد الأشياخ واستوثق من ولده أبي حفص بتقديم شقيقه الأصغر يوسف.

وتوفي عبد المؤمن بسلا سنة ٥٥٨ هـ بعد ثلاث وثلاثون سنة وخمسة أشهر من خلافته للمهدي حول فيها فلول اتباع ابن تومرت الي دولة كبري تسيطر على المغرب و الاندلس.

و قد صبغ عبد المؤمن دولته بسماته الشخصية فعلي الرغم من غلبة الحروب على ايام ولايته إلا ان روح الداعية الفقيه فيه (و قد كان عبد المؤمن فقيها بارعا حافظا للسننة وكان يقوم بإملاء علوم المهدي وقراءة العقائد) قد حفظت الروح الدينية لدولته وزادت عليها.

فكان محبا للعلماء يقرهم و يجري عليهم الارزاق السخية ويعظم من مكاتهم وشأنهم واستقدم عبد المؤمن صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب والأندلس إلى حضرته وعنى بأمرهم هؤلاء التلاميذ الصغار أتم عناية وعنى عبد المؤمن بأمر الحفاظ أشد عناية وأمر بأن يحفظوا كتابي الموطأ وأعز ما يطلب وغيرهما من آثار المهدي وكان يستدعيهم في كل يوم جمعة إلى داخل القصر وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ . ويدربهم كذلك على ركوب الخيل والرمي و السباحة في بحيرة اعداها لهم وبالإضافة إلى تكفله بكافة نفقاتهم فترة تعليمهم وتدريبهم قرر عبد المؤمن أن يدفع لكل طالب من هؤلاء الف دينار يتجر بها ثم أسقط هذه القروض و تنازل عنها لهم .

ولما كمل تدريبهم وأصبحوا طائفة يعتمد عليها ندبهم لمختلف الأعمال والرياسة بدلا من أشياخ الموحدنين في المغرب و الأندلس وقال لهم إن العلماء أولى منكم واستبقى الأشياخ لمشورته.

ففقدت الدولة الموحدية سميتها القبائلي و لم تعد معتمدة في سلطتها على القبائل ولا يمكنني أن أتجاهل المقارنة مع حركة طالبان الأفغانية التي نشأت اواخر القرن العشرين وتمكنت من السيطرة على البلاد في فترة وجيزة جداً معتمدة على طلاب المعاهد الدينية الذين مثلوا بديلا عن القبائل المتنازعة .

وكان عبد المؤمن متشدداً صارما في تطبيق قناعته الدينية , وكان يذهب في صرامته إلى قتل تارك الصلاة أو شارب الخمر وكذلك سياسته مع غير المسلمين فعلي النقيض من أمراء الدولة المرابطية المتأخرين الذين كانت سماحتهم الزائدة مع أهل الكتاب مثار لحنق العديدين عليهم

كانت الدولة الموحدية التي قامت على أسس دينية خالصة شديدة التعصب ضد غير المسلمين فغادر المغرب والأندلس كثير من المسيحيين واليهود مثل الفيلسوف والطبيب اليهودي الشهير موسى بن ميمون بقرطبة الذي تظاهر بالإسلام حتى تمكن من مغادرة الأندلس مع أهله فقصده إلى مصر فعاد لعقيدته و خدم في بلاطها وعين طبيباً خاصاً لصلاح الدين الأيوبي.

ورغم كل شيء فأكثر ما ميز الدولة الموحدية سواء في عهد المهدي أو عبد المؤمن هو القسوة المروعة و الافراط في سفك الدماء والوحشية في الوصول الي الانتصار وتحطيم الأعداء أياً كانت الوسائل و ايا كان الثمن المدفوع من دماء الأبرياء .

كما حدث بمدينة لبلبة بالأندلس التي هاجمها أحد ثوار الغرب وقتل حاميتها من الموحدين و هرب قبل ان يصل جيش يحيى بن يومور والي قرطبة لنجدتهم فلم يقبل يحيى عذراً من أهل لبلبة واعتبرهم جميعاً مذنبين متواطئين وأوقع السيف فيهم بلا رحمة فقتل منهم ١٢ ألف نفس بلا جريمة وكان ممن قتل الفقيه أبو الحكم بن بطال و الفقيه أبو عامر بن الجد و باع نساءهم و أولادهم عبيداً سنة ٥٤٩ هـ ولما بلغ عبد المؤمن ذلك اكتفي باعتقال يحيى لفترة بسيطة لتصرفه دون مشورته ثم عفا عنه !

واستمرت دولة الموحدين قوية بعد وفاه عبد المؤمن تحت قيادة أبنائه وبلغت أوجها في عهد الناصر ثم بدء نجمها في الأفول فكما يقول ابي الطيب الرندي لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان .

فدولة الموحدين لم تستمر بسمتها الديني كدولة ثيوقراطية يحكمها الفقهاء طويلاً بل سرعان ما تحولت لمملكة يحكمها سلالة أمراء (لم يكونوا مقتنعين بصحة ادعاء ابن تومرت المهدي وقام الخليفة المأمون بإلغاء الإمامة المهديية من الاساس ٦٢٧ هـ ولكن خليفته الرشيد اعادها مرضاة لشيوخ الموحدين) مثل غيرها يحاربون امراء الدويلات المسيحية حيناً و يهادونهم حيناً ويواجهون ثورات العرب و البربر ويسترضونهم بالأموال والمناصب مع ازدياد الضغوط على دولة الموحدين بالصراع مع الدول المسيحية وثورات الاهالي في الاندلس وثورات قبائل البربر

بدء انخيار دولتهم فكان بداية نهايتهم موقعه العقاب ٦٠٩ هـ التي ظهر فيها بقوة التنافر بين الأندلسيين و جنود الناصر المغاربة وزاد في ذلك قيام الخليفة الموحي الناصر بإعدام القائد الاندلسي ابن قانس قبل المعركة امام مواطنيه الاندلسيين بناء على وشاية كاذبة لتنتهي المعركة بهزيمة ساحقة للموحيين و سرعان ما تتعدد الثورات و تتمزق اسرة ابن عبد المؤمن الحاكمة لشيع متنازعة على الخلافة تقتسم ولاء القبائل بينها وتضرب بعضها ببعض حتى استعان الخليفة المأمون بملك قشتالة ضد اخيه العادل ٦٤٢ هـ و سلمة مقابل دعمه العسكري العديد من الحصون الاندلسية بينما قامت امارة بني مرين توحد القبائل العربية و البربرية وتنزع من اراضي دولة الموحيين ما تشاء الي أن أسقطت دولة الموحيين غير مأسوف عليها بعد معارك عنيفة ومعارك دموية انتهت برأس اخر الخلفاء الموحيين إدريس الواثق معلقة على سور مدينة فاس ٦٦٨ هـ لتفسح المجال لقيام دول جديدة و كتابة صفحات جديدة في التاريخ .

المصادر

دولة الإسلام في الأندلس - محمد عبد الله عنان

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر - ابن خلدون

تاريخ الإسلام - شمس الدين الذهبي

المعجب في تلخيص أخبار المغرب - عبد الواحد المراكشي

البداية والنهاية - أبو الفداء إسماعيل بن كثير

أعز ما يطلب - ابن تومرت

ثورة الزنج

لهف نفسى على قصور ببغداد ... وما قد حوته من كل عاص

وخمور هناك تشرب جهرا ... ورجال على المعاصى حراس

لست بابن الفواطم الزهر إن لم ... أقحم الخيل بين تلك العراض

علي بن محمد .. صاحب الزنج

لا يمكن ان نناقش التغيرات السياسية و الفكرية في مجتمع ما دون أن نتطرق لأثر الطبقة في هذا المجتمع فالأفكار كالبذور لا تنمو وتزدهر إلا ان صادفت بيئة ملائمة وكل فكرة تحتاج لتنتشر ويكون لها اثر واقعي أن تلقي قبولاً من أفراد معينين بالمجتمع وبحسب موضع هؤلاء الافراد في التركيبة الطبقيية و نسبتهم في تكوين الطبقة المنتمين اليها و موضعهم بما يكون حظ هذه الفكرة من الازدهار أو الاختفاء .

وعندما صعدت البرجوازية العربية في عهد الامويين وأصبح العرب يسكنون القصور و يملكون الضياع صعدت معها افكارها و اختياراتها الفقهية والسياسية فأصبحت الملكية الوراثية النمط المفضل للسلطة و اعتبرت فكرة الشورى تحريضا على الفتنة و صعدت الاختيارات الفقهية التي تحض علي الطاعة و التعاون مع السلطة و ترفض مقاومتها مع صعود نموذج الدولة الحامية التي تقتصر وظيفتها على حماية امن الافراد و لا تتدخل في حرياتهم الاقتصادية و الشخصية وليس لها من بعد ديني ولا سمت اخلاقي حتى فلا تحاول اداء وظيفة دينية أو الحفاظ على اخلاقيات المجتمع ولكن علي امنه وبصفة خاصة أمن الطبقات الاكثر ثراء منه .

فسرعان ما تحولت الطبيعة التكافلية التشاركية لجماعة المسلمين في عهد الرسالة حيث كان يطبق قول الرسول (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له و من كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له) ويجمع الناس طعامهم في صعيد واحد فيذوق كلا منهم من طعام اخيه بلا تمييز الي ذكريات وحكايات .

و سرعان ما تمايزت الطبقات في هذه الدولة الجديدة وبينما عرف العرب في المدن والأمصار ترفاً و ثراء لم يكونوا يتخيلوه في أشد أحلامهم جموحاً و ظهرت الارستقراطية العربية مع استقرار الامر لسلالة الامويين كانت الغالبية العظمي تقاسي الفقر والفاقة وتزداد الهوة بين الطبقات أتساعاً و نمت الاحقاد بين الأعراب و الموالي وشاعت في أوساطهم أفكار و عقائد الحركات الثورية المتعددة وأصبحوا معيناً لا ينضب لحركات الشيعة والخوارج وكافة الافكار الشاذة و المتطرفة بداية من حركة المختار الثقفي و الاضطرابات العنيفة في العراق كما ظهرت في نهاية الدولة الاموية ثورة الحارث بن سريح الذي ادعي انه المهدي المنتظر صاحب الرايات السوداء التي تخرج من خراسان كما ورد في أحاديث موضوعة مكذوبة علي الرسول والتف حوله العديد من الموالي و أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا في حركته قصيرة العمر .

ومع صعود الدولة العباسية بلغت الحضارة العربية الإسلامية أقصي ازدهار خاصة في عهد هارون الذي سميت ايامه ايام العروس لرخائها و توفي وفي بيت المال ٩٠٠ مليون دينار ذهبي ثم عهد المأمون من بعده و من بلاط بغداد الذي امتلاء بالشعراء و المطربين و الملحنين انتقل الترف الي القصور على شواطئ دجلة و الفرات حتى أنشأ ابراهيم الموصللي مدرسة لتعليم الجوارى الحسنان و تدريبهم علي الغناء و الموسيقى و انشاد الشعر وأصول الحياة في القصور و آدابها ليتسابق عليهن الامراء والأثرياء في عصر أصبح اقتناء الجوارى الشهيرات فيه علامة الرقي والانتماء لصفوة المجتمع .

ولكن بجوار القصور الشامخة الممتلئة ترفاً علي شواطئ نهرى دجلة و الفرات الممتلئين بالمراكب الصغيرة التي تصدع منها اصوات الموسيقى والغناء في نزهاتها البحرية الممتعة كان سكان الأكواخ والبيوت الطينية الصغيرة علي حالهم وفي ظل الصراعات السياسية و المذهبية الحادة كانت الحركات الثورية و حتى الفوضوية تمثل لهم فرصاً للحصول على ما تراه أعينهم ولا تمسه أيديهم من ترف و ثراء .

وكانت الملكيات الزراعية الكبيرة سمة عامة في عراق القرن الثالث الهجري ولتكسد الاموال بأيدي كبار التجار و الملاك الزراعيين بدئت حركة لأحياء الاراضي الموات المحيطة بالبصرة والتي أحتاج استصلاحها أيدي عاملة كثيفة لكسح المخلفات و تطهير القنوات وتخفيف

المستنقعات وإزالة الطبقة الملحية من التربة وإعدادها للزراعة فتم استخدام جماعات ضخمة من العبيد من شرق أفريقيا غلب عليهم أسم الزنج للقيام بهذه المهمة تحت امره وكلاء السادة الاقطاعيين لينشأ نظام أسوء من نظام القنانة الاوربي حيث كانت حشود هؤلاء العبيد تعيش في معسكرات عمل جماعية من الذكور بلا زواج ولا تكوين أسر ولا يخرج افرادها من تلك الاراضي التي يعملون بها و يأكلون منها ويدفنون فيها بلا أدني أمل في تغيير اوضاعهم الغير إنسانية إلا انتهاء حياتهم البائسة التي قضوها في خدمة جشع السادة الذي لا ينتهي .

ومع بداية عصور الانحطاط في الدولة العباسية وتراجع دور الخلفاء و انزاعهم وصعود القادة الاتراك و سيطرتهم علي مقاليد الامور كانت الفرصة لكل مدعي طموح أن يحاول كسب سلطان وإقامة دولة مستغلاً الفراغ السياسي و الفساد الإداري و الاجتماعي الذي ضرب أطنابه كافة نواحي الدولة .

وفي عام ٢٥٤ هـ دخل البصرة علي بن محمد وقد كان زعم انه أحد أحفاد الحسين وان جده هرب للري بعد مقتل زيد بن علي بن الحسين في عهد هشام بن عبد الملك مثل كثيرين غيره أدعوا النسب العلوي في إطار سعيهم للسلطة مستغلين الثقافة الإسلامية السائدة التي تجعل من النسب العلوي سنداً لشرعية الساعي الي السلطة وتكسبه احتراماً في ظل ثقافة يحتل النسب الرفيع بها مكانة كبيرة و بدء دعوته في البحرين دون أن يحقق النجاح المرجو فدخل البصرة مع بعض اتباعه من الاعراب في ظل صراع دموي بين فرق الاتراك العسكرية .

ولكنه فشل في استثمار الفوضى في القفز علي السلطة وقبض عليه وشتت اتباعه ولكن الحظ كان حليفاً فتمكن من الهرب و الاختباء حتى عزل والي البصرة محمد بن رجاء وأنشغل الجنود الاتراك بالصراع الذي تجدد بينهم فأقام بموضع على اطراف البصرة يسمي قصر القرشي وهناك وجد مبتغاة .

كانت جموع الزنج التي تعمل في الاراضي الشاسعة أمامه تمثل له الفرصة التي كان ينتظرها . قوة بشرية هائلة بلا قيادة ولا ثقافة ولا موروث شعبي ولا ولاءات قبلية مستعدة تماماً للانقياد وراء اي داعية لأي فكرة ان بذل الجهد القليل الكافي لجذبها بالوعود و ايقاظ امالها المحبطة .

وهكذا فعندما قام فيهم علي بن محمد خطيباً في عيد الفطر ٢٥٥ هـ معلناً انه رجل من بيت النبوة خرج علي العباسيين غضبا لله و طلباً للعدل يريد أن يحررهم من الرق و يملكهم الدور و الاموال و يرفع عنهم ذل العبودية و يورثهم ما بأيدي السادة من متاع الدنيا الذي حرموهم منه بغيا وظلماً كانت استجابتهم السريعة أمراً متوقفاً فما الذي كان بأيديهم يخافون خسارته ؟

وسرعان ما تحول العشرات الذين استمعوا لخطبة علي وانضوا تحت لوائه الي مئات وهو يسعى يجمع العبيد الذين يعملون في الاراضي و لما تنبه وكلاء ملاكها وحاولوا استعدادهم امر العبيد فضربوهم ثم بدء في مهاجمة القرى و نهب الاموال و أطعم و كساء جنده من الزنج و بدء تسليحهم وتدريبهم على القتال وقد أصبحوا الالاف و انضم اليهم من الاعراب و الفقراء والمغامرين الكثير طمعاً في الغنائم وفي غضون ايام معدودة أصبح لعلي جيش مرهوب الجانب !

ثم بدئت غارات جيش علي في الاشداد و عرض عليه ملاك الاراضي الذين لم يكونوا ادركوا حقيقة الوضع ان يرد اليهم عبيدهم ويدفعون له فدية خمسة دنانير على الرأس فكان ردة ان أستهدف البصرة و نهب دورها وأسواقها حتى خرج اهلها لمحاربتة فهزيمهم هزيمة ساحقة فاستنجدوا بالخليفة الذي ارسل جيشاً لإنقاذهم ولكن جيش علي حقق مفاجأة وتمكن من هزيمة جيش الخليفة ثم استولي علي أسطول ضخيم مكون من ٢٤ سفينة كان متوجهاً للبصرة .

وكانت بغداد منشغلة عن امر البصرة و كل ما يحدث في الدنيا وقتها فقد تأمر بعض القادة على الخليفة المهتدي وأرادوا خلعة بينما رفض قادة اخرين وهددوا بالحرب ان قتل الخليفة أو تعرض له أحد فظلت القوي العسكرية حبيسة بغداد وما حولها مستعدة للحرب الاهلية واضطرب الوضع و تصادم الفريقين و قتل المئات بينهم الي ان خرج المهتدي في الشوارع يستنجد بالعامه فلم يجيبوه حتى قبض عليه وقد أنثنته الجراح وسرعان ما وفته المنية بينما اخرج القادة الاتراك احمد بن المتوكل من السحن وبايعوه بالخلافة ولقب بالمعتمد ٢٥٦ هـ

و استغل صاحب الزنج هذه الفوضى فهاجموا ميناء الابللة و اقاموا بها مذبحه مروعة و اشعلوا فيها النيران فاحترقت اغلب مساكنها ثم أستسلم أهل عبادان و سلموا للزنج ما بها من سلاح و عبيد مقابل حفظ أنفسهم و أعراضهم ثم هاجم الاهواز فدمر و احرق و سلب و نهب و بعد صدامات مع قوات الخليفة بدء في التوجه للبصرة .

و في مطلع ٢٥٧ هـ بدء صاحب الزنج في حصار البصرة و جمع الاعراب و الزنج و بدء في الضغط عليها و في يوم جمعه بدء الهجوم الشامل من ثلاث جهات في وقت واحد فأعملوا في أهلها القتل و احرقوا المسجد الجامع و جمع من اهلها الكثيرين فعذبوا ليدلوا على اموالها ثم قتلوا و يقدر المؤرخين أن ٣٠٠ الف نفس قد أزهقت في البصرة بالسيف و الحرق و من استطاع الاختباء من اهلها قاسي المجاعة حتى أكلوا جثث الموتى .

و أصبحت لعلي صاحب الزنج دولة ضمت اغلب سواد العراق و البصرة و البحرين و الأهواز و سلطان مهيب أسسها على الرعب و الإرهاب و سفك دماء الابرياء و أن كان حرر فيها الزنج من الرق و منحهم و الإعراب الاموال و المساكن فقد أسترق ابناء العرب و الموالي الأحرار حتى أصبحت بنات العرب تباع بدراهم معدودة و لكل جندي من الزنج خمسة أو أكثر منهن .

و قد حاول بعض المؤرخين أن يصنفوا حركة الزنج في إطار الحركات الشيعية أو حركات الخوارج الأزرقة محاولين تفسير القسوة و الشبق الي الدماء الذي صاحبها ولكن الواضح أن تلك الحركة الفوضوية الدموية لم تكن ذات بعد ايدلوجي أو غاية اصلاحية برغم ادعاء صاحب الزنج نسباً علوياً و قيامة بضرب عملة نقش عليها المهدي علي بن محمد فسلكه الشخصي فضلا عن سلوك العصابات التي قادها يناقض أي انتماء ايدلوجي فلم تكن هناك من دعوة ولا أفكار تناقض ولا جماعة رأى ولكن فقط القتل و النهب و الاغتصاب .

و لم يكن جيش علي من الزنج و الاعراب بأصحاب فكر ولكنهم لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا اسمه و لم يدخل قلوبهم و لم يهتم احد بدعوتهم و تعليمهم العقائد الدينية على اسس سليمة أو محرفة حتى .

وكانت المأساة الإنسانية في البصرة جرس يقاظ للنائمين في بغداد فعهد الخليفة المعتمد لأخيه احمد الموفق بالتصدي للزنج فدخل معهم في حرب ضروس و رغم قوة جيشه إلا ان اسلوب حرب العصابات و خفة المقاتلين الذين اعتمدوا على الغارات والكمان و القتال في الاحراش والمستنقعات التي اعتادوها أضرب بجيشه فتكبد خسائر جسيمة إلى ان انسحب ٢٥٩ هـ

وكان هناك خطر جديد يواجه الخلافة حيث استطاع يعقوب ابن ليث الصفار ان يستقل بفارس فانسحبت قوات الخليفة من قتالهم لمواجهة دولته فاستطاع الزنج اعادة الهجوم على الاهواز و ارتكاب مذابح جديدة مروعة إلى ان توفي يعقوب ٢٦٥ هـ و تصالح خلفه مع الخليفة.

وبينما كانت السلطة الاسمية للمعتمد كان احمد اخيه هو صاحب السلطة الحقيقية و المسيطر على الاوضاع حتى حجر على اخيه واستغل أحمد بن طولون الاوضاع و اعلن استقلاله بمصر و ضم معظم الشام اليها واستغل حجر الموفق على الخليفة فجمع الفقهاء وأعلنوا خلعه من ولاية العهد ولكن ذلك لم يفت في عضد الموفق ومنع اخيه من اللجوء لابن طولون بمصر و حدد اقامته.

ولما تفرغ الموفق لحرب الزنج اخيرا كانت حربة المريرة معهم والتي استمرت سنوات عاقب فيها الاعراب وشتمتهم و استعاد ما سيطر عليه الزنج من المدن و الاراضي وأنخن فيهم القتل الي أن حاصر المختارة عاصمة الزنج و أقتحمها بعد معركة دموية قتل فيها من الجانبين الالاف بينما هرب علي بن محمد تاركاً نساءه و ابناءه خلفه فعفي عنهم الموفق وأمنهم .

واستمر الموفق في مطاردة صاحب الزنج ليلتقي معه في معركة أخيرة ٢٧٠ هـ قتل بها و الالاف من أصحابه و أستسلم الالاف منهم فأمنهم الموفق و تصيد الاعراب الالاف من الهارين فاسترقوهم من جديد وقضي على من حاول اعادة الكرة من زعمائهم سريعاً .

وهكذا انتهت تلك الثورة الدموية التي و على مدار ١٤ عام أسفرت عن مقتل ما لا يقل عن نصف مليون إنسان وأقامت دولة سرعان ما اختفت ولم يبق منها إلا قطعيتين من النقود واحدة بمتحف لندن و الاخرى بباريس منقوش عليهما علي بن محمد امير المؤمنين .

المصادر

الكامل في التاريخ - ابن الأثير

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك - ابن الجوزي

ثورة الزنج - فيصل السامر

تاريخ الدولة العباسية - محمد سهيل طقوش

تاريخ الرسل والملوك - الطبري

أبناء الشيطان

لم يشفع للحجيج المتعلقين بأستار الكعبة ملابس الإحرام و لا تضرعهم وطلبهم للرحمة من هؤلاء الوحوش الذين عاشوا فيهم تقتيلاً شيوخاً و أطفال و نساء بلا سبب و لا جريرة و سدوا بجشثهم الممزقة بئر زمزم وهم يصرخون فيهم أين الطير الأبايل أيها الجاهلون اين الملائكة يا عباد الأوثان .

لكن هذا الموقف المهول لم يكن بداية القصة و لا نهايتها .

لم تكذ أحداث ثورة الزنج الدموية تنتهي بمذابحها الوحشية بأسر قادة الثورة الخمسة ثم اعدامهم ونصب رؤوسهم بمدينة واسط وصلب جشثهم على ابواب بغداد ٢٧٢ هـ حتى بدئت بوادر عاصفة أعتي تلوح في الأفاق .

فالمشكلة الاجتماعية الاقتصادية المعقدة التي أزكت نيران ثورة الزنج لم تزداد إلا تفاقماً فالتجار ازدادوا ثراء من خلال الاحتكارات و التضييق على العامة في ارزاقهم وأصبح الفلاح في ارض العراق لا يجد ما يسد رمقه مما يزرعه لصالح مالك الارض المدعوم بالسلطة التي انحازت للأغنياء فتفاقمت الازمة وتحول العامة إلى حشود جائعة مهتاجة لا تحتاج إلا لإشارة حتى تبدأ في التدمير الأعمى لكل ما يقف امامها في ظل تناقض صارخ بين مبادئ الإسلام و الواقع جعل مدن العراق المشحونة بالأثرياء و المعدمين على حد سواء تنقلب على صفيح ساخن فأهملت منظومة القيم الإسلامية و شاع السلب و النهب و الاغتصاب و المجاهرة بالكفر في ظل استغلال السلطة للدين و تشجيعها على جميع معارضيتها بالكفر و الالحاد و الزندقة .

وبينما أمر الخليفة المعتضد بمنع تداول كتب الفلسفة والجدل و شدد على منع اجتماع الناس على القصاص في محاولة بائسة لمنع انتشار دعاوى الالحادية و العقائد الشاذة والحركات الثورية وزادت ضربات العباسيين للعلويين عنفا و اضطهادهم ضراوة وهم يروئهم البديل الواضح لهم كأصحاب حق شرعي , بدء بزوغ نجم الاسماعيلية اصحاب العقائد الباطنية و منهج العمل السري .

وبدئت القرامطة ييشرون في القرى في سواد الكوفة و أرجاء الجزيرة تحت راية التشيع ودعوى الأمام المهدي محمد بن اسماعيل و يعدون الناس بأنهم سيحققون لهم العدل والرخاء ويستنفذونهم من الفقر والجور بينما الخلافة العباسية في بغداد في غيبوبة منذ تحكم في مقاديرها الجنود الاتراك وأصبحوا يولون الخلفاء ويعزلونهم بل ويقتلونهم ان وقع بينهم خلاف وفي سنوات معدودة تحول القرامطة إلى قوة لا يستهان بها .

ولم يطلق القرامطة هذا الاسم علي أنفسهم و انما وصمة بهم اعدائهم و قرمط هو قائدهم حمدان بن الاشعث ويقال ان سبب التسمية انه كان احمر الوجه كالقرميد أو مأخوذة من لفظ أقرمط أى اشتد غضبة اما القرامطة فكانوا يسمون انفسهم المؤمنون و يسمون حمدان القائم بالحق بأمر الله .

وبينما يري الكثيرين حركة القرامطة شيعية اسماعيلية صرفة يؤكد باحثين اخرين على تنوع المنتمين اليها عقائديا وان كان جمعهم الحقد العميق و الكراهية العمياء للحكم العباسي و الفوارق الطبقيّة الشاسعة التي نتجت عن سياسته وربما الإسلام ذاته ايضاً ولهذا ذهب ابن خلدون ان ليس كل القرامطة اسماعيلية و انما استعملوا فكرة المهدي الشيعية كذريعة و رفعوها كراية توحيدية ليجتذبوا بها التأييد .

وقد كان التشيع الوسيلة المثلى لتنظيم الحركات الثورية في التاريخ الإسلامي كله فكل من يجد في قلبه حقدا على الحكام اظهر التشيع و جمع من حوله الانصار الذين يجدون في الائمة من ال محمد المثل الأعلى الذي يتمنون في ظل فساد كان هو السائد وجمود سياسي تسبب فيه غياب الشورى منذ انتهي عهد الراشدين و تحول سبيل انتقال السلطة إلى القوة , ولعلبة الطابع الإسلامي على الثقافة السائدة فكان طبيعيا ان تأخذ كل الحركات الثورية التي أنتجتها الطبقيّة و العرقية طابعاً دينياً حتى تجتذب الناس وتكتسب تعاطفهم .

وإلى جوار ذلك فالسلب والنهب هما وسيلة البدوي الايسر للحصول على الثروة طوال التاريخ بالإضافة الي ضعف ديانتهم بشكل عام لبعدهم عن المدنية والعلماء وقسوة و شظف

معيشتهم فكان الاعراب الخامة الاقرب لدعاة التنظيمات الثورية لبناء دعوتهم بمجرد ان يغروهم بالدعوة الي سلب و نهب غيرهم تحت أسم الجهاد وكسب الغنائم

ويعتبر بعض الباحثين قيام الخليفة المعتصم بالاعتماد كلية على الاتراك و أخراج العرب من ديوان الحرب سبباً رئيسياً في القلاقل والفتن التي جرت لاحقاً فالجيش كان يستوعب القوي البشرية العربية ويوجه الاعراب إلى الغزو والجهاد ولكن عندما اغلق هذا الباب و انتهى عصر الفتوحات لم يكن لدي الكثير من الاعراب سوي المتنفس القديم في العودة إلى السلب و النهب و الاعتداء و أصبحوا قوة جاهزة لمن يطلبهم مقابل ان يعدهم بالمال و المغاتم فتعاونوا مع الزنج و القرامطة من بعدهم لا لأسباب عقائدية وإنما طمعا في الغنائم وأعطاهم القرامطة غطاء لإجرامهم بإعلانهم ان حجاج بيت الله الحرام كفار مستحقين للقتل و اموالهم و اعراضهم غنيمة.

وبدء ظهور القرامطة علي يد حمدان قرمط بسواد الكوفة وقد تحول حمدان الي عقيدة الإسماعيلية علي يد الداعية حسين الأهوزي مبعوث أحمد بن ميمون القداح وقد اجتمع قرمط مع صاحب الزنج و حاول ان يتحالف معه ولكنهما اختلفا فتركة إلى سواد الكوفة مع جماعته متحيناً الفرص يث دعواه فيمن حوله مكتسبا العديد من الاتباع .

فما هي عقائد القرامطة ؟

قد اتعبت عقائد القرامطة الباحثين في محاولة الوصول الي حقيقتها وهي محل خلاف كبير بين العلماء والمؤرخين وذلك لسببين سرية الدعوة وعدم إطلاع العامة عليها وحتى المنتسبين الي الدعوة كانوا يقسمون الي درجات يطلعون على ما يلائمهم بحسب درجتهم من اصول الدعوة فقط ويخفي عنهم الباقي وكذلك فقد انقرضت كتب القرامطة الأصلية و ما وصلنا إلا نقلاً عنها وردا عليها و مخطوطات محدودة أغلبها رسائل بين الدعاة أستخدمها الباحثين لفك ألغاز هذه العقيدة المبهمة .

و محور عقائد الاسماعيلية هو عصمة الامام و وجوب تبعيته والولاء المطلق له وان ذلك ركن من أركان الايمان فمن لا يؤمن بإمام زمانه ويتبعه مشرك نجس حلال الدم و المال و العرض و من لا يعرفه يموت موته جاهلية .

ويفسر الاسماعيلية النصوص الدينية تفسيراً باطنياً غامضاً فالصلاة تعني مولاه الامام و الصيام حفظ سره و يذكر المقریزی ان الفطرة عندهم تعني اداء درهم و الحجر اداء دينار والبرهان دفع سبعة دنائير و يعدون كل مكسب غنيمة يؤدون خمسة .

وشاع عن القرامطة ان لهم شريعة خاصة ليست كشریعة المسلمين ككون الحج و القبلة إلى بيت المقدس والجمعة هي يوم الاثنين و يحرمون فيه العمل كسبت اليهود وظاهر الاهلة مواقيت للناس و باطنها اسماء الأولياء و الصوم يومان في السنة النيروز والمهرجان عيدان الفرس و الخمر حلال و النبيذ حرام ولا غسل من جنابة إلا وضوء الصلاة و يقولون بكفر من لم يعتقد هذا من المسلمين والحزبية على من لم يجارهم وقتل من عاداهم وأباحوا قتل النساء و الاطفال من مخالفيهم واعتبروا قتلهم من شعائر الله مثلها مثل الأضحية و الأولي بالقتل الاقرب من الكفار وهم من نصب امام غير اسماعيل وولده محمد اى عامة المسلمين. واعتقد القرامطة ان الائمة سبعة اولهم الرسول محمد صلي الله عليه وسلم وأحرمهم محمد بن اسماعيل وهو المهدي القائم ومعنى القائم انه يأتي بشریعة جديدة وينسخ شريعة محمد كما نسخ الإسلام ما سبقه من الشرائع .

وبينما كانت تلك الافكار تنتشر في العراق وقوة القرامطة تشتد كان الخليفة المعتضد منشغلا بآبنة خماورية صاحب مصر التي ارسلها لبغداد لتزف لابن الخليفة ولكنه ارادها لنفسه ونجبة بغداد مشغولين بصراعات و هو و مؤامرات تحاك في الدولة التي فسدت حتى تعفنت وخلت الساحة لكل فكرة مهما بلغ مقدار شدوذها.

وفي اوقات متقاربة بدئت القرامطة ثورتهم في اكثر من مكان فبدء قرمط الثورة في الكوفة و ارتكب بها مذابح بشعة ولكن الخليفة بادر بإرسال الجيوش التي هزمتهم و قتل عبدان منظر القرامطة و اهم دعواتهم و اختفي حمدان قرمط نفسه بشكل غامض ٢٨٩ هـ

وكان الداعية ابو سعيد الجنابي قد ظهر بالبحرين في عام ٢٨٦ هـ واجتمع اليه القرامطة و الكثير من الاعراب و بدء يغزو بهم من حوله من القرى و ينهبها واستولي على القطيف ثم توجه إلى مدينة هجر ولكنها امتنعت عليه واستمات اهلها في الدفاع عنها فوكل بها من حاصرها و توجه للإحساء حيث بني دار و جمع حوله الاعراب والفلاحين ثم هزم اهل هجر واستولى على ما بها وقتل اهلها وخرمها و قاتلة بني ضبة فهزمهم و سجن الاسري في سجن عظيم بناه لهم و أغلقه عليهم شهرا بلا طعام ثم فتحة فوجد أكثرهم موتى و من به الحياة كالميت و قد اكل من لحم الموتى فخصاهم ثم تركهم يهيمون في الصحراء ليكونوا عبدة لمن يحاول التصدي له .

بينما استمال الفلاحين بعدم ايدائهم ويطحن حبوبهم مجانا و الغاء الاعشار من عليهم و مساعدتهم بالقروض الحسنة وكذلك فعل مع العمال و الصناع دون ان تتصرف السلطات ضده إلا بتحصيلين البصرة بسور حتى ضج الناس بالشكوى وقد ملئهم الرعب من غارات القرامطة المدمرة فولي الخليفة المعتضد العباس بن عمرو البحرين واليمامة وإمرة بان يقضى على القرامطة .

ولكن ابو سعيد الجنابي هزمه وأسرته مع ٧٠٠ من رجاله ٢٨٧ هـ فأمر بقتلهم جميعا و احراق جثثهم و اما فلول هذا الجيش فهاجمتهم جماعة من بني اسد قبل دخولهم البصرة فنهبهم وقتلوهم .

وعاد ابو سعيد إلى هجر ثم اطلق العباس بكتاب إلى الخليفة فلما فتحه وحدة فارغاً فقال (والله ليس فيه شيء وإنما اراد ان يعلمنى اننى ارسلتك اليه في العدد الكثير فردك فردا) .

وفي الشام ظهر زكروية بن مهروية وهو احد اتباع قرمط الذين فروا من سواد الكوفة لما اشتد المعتضد في طلبهم وحاول استمالة العديد من قبائل العرب منتحلا نسبا هاشميا وأرسل ابنائه في قبائل العرب يحشدونهم و سرعان ما بدء بالهجوم على من يجاوره من القرى بمن اتبعت وقويت شوكته حتى استطاع يحيى بن زكروية ان يستولي على اغلب بلاد الشام و لقب بأمير المؤمنين بها سنوات حتى خرج له جيش من مصر فانضم لأهل الشام فهزمه وقتل على ابواب

دمشق ولكن أخيه الحسين حل محلة واستمر في الحرب واشتدت شوكته فاضطر اهل دمشق إلى مصالحته ودفع الخراج له و اطاعة اهل حمص و قاتل اهل حماة وبعلبك واقتحمهما ثم توجه إلى سلمية فقاتله اهلها اول الامر ثم صالحوه وأعطاهم الامان فلما دخلها احلها لجنوده فقتلوا كافة من كان بها حتى الاطفال و البهائم و تركوها وما فيها عين تطرف !

وفي النهاية اضطر الخليفة ان يترك بغداد و يقود الجيوش للشام لمواجهة القرامطة بما حتى هزمهم و عاد بالأسري لبغداد يستعرضهم و اقام منصة فقدم رؤساء القرامطة فقطعت ايديهم و ارجلهم من خلاف ثم قتلوا على اعين الناس و بعدهم قدم الحسين بن زكروية فجلد و احرق بالنار وقطعت يده و رجلاه ثم قتل وصلب بدنه في طرف الجسر الأعلى ببغداد .

ولكن بقي رأس الأنعي زكروية يهاجم القرى ثم بدء في مهاجمة قوافل الحجيج و قد انضم اليه بعض الاعراب طمعاً في الغنائم والسلب فقتلوا الالاف من الحجاج حتى هاجمة جيش الخليفة فقتلوه وشتتوا جنده وأن لم ينتهي وجود القرامطة في الشام عند هذه المرحلة .

وتوقفت الجهود لمجابهة القرامطة في البحرين بوفاة الخليفة المعتضد ٢٩٥ هـ حيث تولى بعده ابنة جعفر وكان له ثلاث عشرة سنة فقط ولكن القواد والقضاة اتفقوا على خلعة وتولية عبد الله بن المعتز الذي قتل بعد تولية الخلافة بيوم واحد بمؤامرة !

واستعرت التوترات و الصراع على السلطة في بغداد وتحكمت شغب أم الخليفة جعفر الذي تلقب المقتدر بالله في مقادير الدولة وأصبحت تعيين الوزراء و تفصلهم حتى عينت وصيفتها مثل في منصب متولي دار المظالم وأصبحت تجلس لتنظر في شكاوي الناس وخلافاتهم وتقضي فيها بحضور القضاة والأعيان ومرور سنوات قبل ان يتمكن المقتدر بالله من تثبيت عرشه كانت فرصة ذهبية للقرامطة في التقاط انفسهم و تثبيت قواعدهم .

وتحولت عصابة قطاع الطرق القرمطية الي امارة مرهوية الجانب وأن لم تتغير وسائلهم في شن الغارات علي الابرياء وسفك دمائهم و اغتصاب أموالهم ونسائهم .

ثم قتل ابو سعيد الجنابي على يد احد غلمانه في الحمام ٣٠١ هـ فأقاموا له مقام و زعموا انه سبيعت من جديد وربطوا فرسا باستمرار عند المقام ليركبه عند عودته وتولي ابنه أبي طاهر الامارة من بعدة فعقد هدنه لمدة ١٠ سنوات مع العباسيين .

وقرب نهاية الهدنة عاد القرامطة لمهاجمة الحجيج و سفك دمائهم و نهب قوافل الحج .

في عام ٣١١ هـ وصلت رسالة إلى قائد القرامطة ابي طاهر من الخليفة العباسي المقتدر يطلب منه اطلاق الاسرى والكف عن الاعتداءات على الحجاج و المساجد بعد مهاجمة القرامطة قافلة الحج اثناء عودتها لبغداد .

وقد اكرم ابي طاهر الرسل و اطلق لهم الاسرى وحملهم رسالة إلى الخليفة العباسي بدئها بإهانتة مسميا اياه (قائد الانجاس المسمى بولد العباس) والاستهزاء به لتلقيه المقتدر بالله (اي جيش صدمك فاقدرت عليه أم اي عدو ساقك فابتدرت اليه ؟)

ورد عليه (فإما ما ذكرت من قتل الحجيج و اضراب الامصار و احراق المساجد فوالله ما فعلت تلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس وادعاء طوائف منهم انهم ابرار ومعاشتي فيهم أخلاق الفجار فحكمت فيهم بحكم الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) خبرني ايها المحتج لهم والمناظر عنهم في اي ايه من كتاب الله أو خبر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم إباحة شرب الخمر و ضرب الطنبور و عزف القيان و معانقة الغلمان وقد جمعوا الاموال من ظهور الايتام و حووها من وجوه الحرام)

وختم رسالته بدعوة المقتدر إلى مقايضة يترك له فيها البصرة والأهواز مقابل الكف عن الحجيج.

ولم يكن القرامطة يعترفون بالخلافة العباسية من الأساس فكما قال ابو الفوارس القائد القرمطي الذي استجوبه الخليفة المعتضد بعد اسره (مات الرسول و ابوكم العباس حي فهل طلب الخلافة ام هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات ابي بكر فأستخلف عمر وهو يري موضع العباس ولم يوصي اليه ثم مات عمر وقد جعلها شوري في ستة انفس لم

يوصي اليه ولا ادخله فيهم فيما تستحقون انتم الخلافة و قد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟) ولهذا كانوا يخاطبونهم باحتقار كغاصبين للسلطة .

و في عام ٣١٢ هـ عاود القرامطة الهجوم على قوافل الحج وأصابوا قافلة ضخمة عند عودتها من مكة فقتلوا ٢٥٠٠ رجل وامرأة واسروا مثل هذا العدد تقريبا وكان من ضمن الاسرى عبد الله ابن حمدان والد سيف الدولة الحمداني الشهير والعالم الكبير الازهري وعندما رفض الخليفة طلب ابي طاهر في ان يتنازل له عن البصرة والأهواز نهايا هاجم البصرة ثم الكوفة و عاث فيهما فساد وتخريبا قبل انسحابه منها قبل وصول جيش القائد مؤنس الذي ارسله الخليفة بعدما تفجر غضب العامة في بغداد وقد أصبح القرامطة علي بعد خطوات منهم وكانت مواجهه القرامطة صعبة على الخليفة لتدهور الوضع الداخلي و اختلاف الوزراء وكثرة المؤامرات بين رجال الدولة حتى أن أغلب القادة العسكريين لم يكونوا ليقبلوا بالخروج من بغداد خشية أن تطيح بهم مؤامرة أن غابوا عن المشهد يوماً واحداً !

ورغم خصوبة اراضي البحرين و استعمالهم ثلاثين الف عبد بالإضافة إلى الفلاحين المحليين لزراعتها فان مورد دولة القرامطة الرئيسي لم يكن الزراعة بل المكوس ورسوم المرور من السفن المبحرة في الخليج و الطرق الصحراوية و مكوس سواد الكوفة والجزية المفروضة على البدو و الغنائم التي كانت تأتي بها الغارات .

ونظام الحكم عند القرامطة بدورة ملتبس فيينما يظهر عند ابي سعيد باعتباره الخليفة يظهر وكان خلفاءه حصلوا على السلطة برضاء اهل الحل والعقد وهم جماعة من فقهاء الفرقة و كبار معاونيه يسمون العقدانية بينما سائر الأتباع يسمون المؤمنون الذين كانوا يؤدون خمس ما يحصلون عليه الي الأمام الذي يحصل ايضا على نسبة من المكوس و الجبايات على المرور سواء من السفن المارة في الخليج أو في الطرق الصحراوية أو ضرائب صيد اللؤلؤ وفي مقابل ذلك كان حكام القرامطة يعينون الصناع و الزراع و يصلحون ما تخدم من دورهم ويطحنون حبوبهم مجاناً وإذا اتى اليهم مهاجر جديد أعطوه من الآلات و ادوات الصناعة ما يصلح شأنه بحسب صنعتته وإذا احتاج احد افرادهم اقرضوه بلا فائدة حتى يصلح حالة .

وهناك درجة من الشيوعية في مجتمع القرامطة في البحرين ذهب البعض إلى انها شيوعية المال والنساء و قصرها البعض الاخر على الارض المشتركة وإشراك الاثرياء الفقراء في اموالهم فيما اطلق عليه الألفه وهي درجة من درجات التنظيم .

وان كان القرامطة ليسوا اول من قطع طريق الحج فقبلهم وبلاشتراك معهم أرتكب هذا الجرم الفظيع العديد من قبائل العرب حتى خصص العباسيين فرق عسكرية لحراسة طرق الحج وأصبح الحجاج يدفعون مكوس للحماية على الطريق إلا ان اعتداءات القرامطة كانت غير مسبوقه في بشاعتها و دمويتها .

وفي ٣١٧ هـ أرتكب القرامطة جرمهمم الأعظم حيث كانت وفود الحج من العراق توقفت نتيجة لغارتهم إلى ان توقفوا عنها فحج الناس و لكن يوم التروية فوجئ الحجاج بمجوم جيش القرامطة عليهم بقيادة ابي طاهر وقد حاول امير مكة ابن محل ان يدافع عنها ولكنهم قتلوه واغلب رجاله ثم اقتحموا الحرم فقتلوا المصلين و الطائفين بلا رحمة صارخين في المتعلقين بأستار الكعبة ان من يخالف اوامر الله ليس ضيفا لله والقوا بالعديد من الجثث في بئر زمزم و هاجموا اهل مكة في بيوتهم فقتلوا منهم الالاف و نادي ابي طاهر في الناس أنكم تقولون ان من دخل البيت كان امنا فأين الامن فقال رجل بل المعني ان كل من يدخل البيت فعليكم اعطائه الامان وليس كما قلت .

ونهب القرامطة كل ما وجدوا له قيمة وانتزعوا استار الكعبة وقلعوا بابها و الحلبي التي كان الخلفاء قد زينوا بها الكعبة وانتزعوا الحجر الاسود من مكانة و نقلوه إلى هجر .

وقد خطب القرامطة في مكة باسم عبید الله المهدي الفاطمي و بعثوا اليه يخبروه بما فعلوه فرد عليهم رداً عنيفاً وتبرأ منهم و لعنهم وظل الحجر الاسود في البحرين ٢٢ سنة رغم ما عرض عليهم من ثروات لردة حتى ردة القرامطة تحت ضغط الخليفتين العباسي والفاطمي .

وبالتأكيد كان القرامطة يعتقدون كفر المسلمين بالحرم وهم يذبحونهم لكن هل كان القرامطة يعتقدون كفرهم وأنهم هم المسلمون أم انهم كانوا ملحدين أصلا وادعوا التشيع؟

يصعب قبول تفسير وحشية القرامطة و ما ارتكبه من مجازر و فظائع بأنهم متطرفين من غلاة الشيعة الإسماعيلية فحسب .

وقرامطة البحرين عرف عنهم أنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يقومون بشعائر الإسلام المعروفة واحتذبوا البدو الذين لم يكن الإسلام قد ترسخ في قلوبهم ابداً اليهم ولكن في المقابل حرص القرامطة على اظهار أنهم شيعة اسماعيلية يقولون بإمامة المهدي محمد بن إسماعيل وكانت علاقتهم بالفاطميين تتأرجح بين التحالف و الصراع العسكري ويتفق الكثير من الباحثين علي أنهم كانوا خليطاً من الصنفين غلاة الإسماعيلية و الملحدون العرب جمعهم الحقد و الرغبة في المغامر و كراهية المسلمين والطعن في دينهم .

وربما حمل القرامطة الي الجماعات التي ارتبطت بهم بذور المعتقد الدرزي المنشق عن الأسماعيلية ان الالهية تتجسد في اشخاص كان اخرهم الحاكم بأمر الله الفاطمي وعقائد النصيرية المنشقين عن الأثنا عشرية المعروفين حالياً بالعلويين المحافظين على سرية دعوتهم الباطنية و لا يسمحون لأبنائهم بمعرفة أصول الديانة إلا تحت اشراف قادتهم الدينين وموافقتهم وما تسرب من عقائدهم في كتب ظهرت في القرن التاسع عشر يدعي قولهم بتناسخ الأرواح فتنقل أرواح المؤمنين من جسد الي اخر عبر الاجيال بينما يمسخ الكافر في جسد امرأة عند موته و تمسخ المرأة في جسد حيوان و قولهم بالطبيعة الالهية لعلي بن ابي طالب باعتباره تجسد للإله في صورة بشرية وبينما يشتركون مع غلاة الشيعة في لعن ابي بكر وعمر واغلب الصحابة و الائمة يعظمون عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي لأنه خلص اللاهوت (الطبيعة الالهية) من الناسوت (الطبيعة البشرية) بقتلة .

ومعتقد القرامطة الباطني يفترض ان الشيعة حاموا حول المعني ولم يصلوا إلى الحقيقة بينما سائر المسلمين حمير كفار و طاعة الامام حتمية من يعترض عليها فهو كافر فما بالك بمن ينكره اصلا و البعث هو عودة الروح إلى بارئها وليس بعث الاجساد و الانبياء الناطقين سبعة اولهم ادم وأخرهم الامام اسماعيل الذي نسخ شريعة الإسلام و اتى بشريعة جديدة فلا تلزمهم مناسك وشعائر المسلمين .

ويفسرون نصوص الكتاب والسنة تفسيرات بعيدة فالخمر و الميسر المنهي عنهما هما ابي بكر وعمر لاغتصامهما الخلافة من علي والصوم معناه الكتمان وليس الإمساك عن الطعام وحتى قصة الخلق ذهب الاسماعيلية إلى قصة مغايرة تماماً فادم ليس اول الخلق بل داعية تحت الامام وكان له حجة وهي حواء وليست زوجته ولا انثي اصلا فلما اغضب الامام اخرجته من الجنة والتي هي الدعوة ثم تاب عليه لما اعتذر عنها !

والتأثير الفلسفي على العقائد الباطنية ظاهر فمن خلال مراكز الفلسفة اليونانية كالألكساندرية وإنطاكية و الفلسفة الفارسية انتقلت افكار باطنية و انتشرت بصيغة دينية مثل ذلك القول الذي أنتشر باعتباره حديث (أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فأدبر ثم قال بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا اكرم علي منك , بك أخذ وبك أعطي و بك أثيب و بك اعاقب) وهو ترجمة لأقوال افلاطون صيغت في شكل حديث على لسان النبي .

من ضمن ذلك نصوص تتضمن نفى الصفات الالهية فلا يقال ان الله عليم أو بصير أو سميع بل تنفي كافة الصفات باعتبارها لا تليق بالخالق وما ورد من اسماءه الحسني اشارة إلى حدوده وان الله خلق الكاف والنون ثم من خللهما خلق العالمين السفلي والعلوي وخلق العقل الاول فهو الذي يحوي الصفات والأسماء الالهية والعقل الاول هو الذي يرمز اليه الله بالقلم في قوله (ن و القلم وما يسطرون) فالقلم هو الذي ابدع النفس التي رمز اليها باللوحة المحفوظ.

واعتقد القرامطة ان الامام من نور الله وهو الذي يتوجه اليه في الصلاة وليس الكعبة كما يبدو ظاهرا وان الدين وعلومه حكرا على الائمة لا يستطيع غيرهم استيعابها.

وأما اخوان الصفا الذين حيروا الكثيرين في حقيقتهم من يوم ذكرهم ابي حيان التوحيدي فالأغلب انهم اسماعيلية و يدعي بعض الاسماعيلية ان رسائلهم كتبها ائمتهم .

ويجعل اخوان الصفا الفلاسفة في مقام الانبياء وينقل ابي حيان التوحیدی مبرهم للمزج بين الدين والفلسفة في الإمتاع والمؤانسة قولهم (أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها و تطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية و

المصلحة الاجتهادية، فمتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية و الشريعة العربية فقد حصل
الاكتمال)

والإسماعيلية كانوا يستعملون الفلسفة كوسيلة لدعوتهم فمن خلال طرح الاسئلة الجدلية التي
تثير في نفس من يدعونه الشك في صحة اعتقاده يستطيعون طرح بديلهم الباطني الذي يحمل
الاجابات حول ما لا يستطيع تفسيره ومن الواضح في كتابات اخوان الصفا مبدئي التقية
والابوة الروحية وهما من اسس فكر الاسماعيلية.

وبرغم بشاعة جرائم القرامطة إلا أن الدولة العباسية ظلت عاجزة عن مواجهتهم فقد وصل
الفساد إلى ان اصبح قطاع الطرق وعصابات اللصوص يعملون بعلم و مشاركة كبار رجال
الدولة و اصبح قادة الجند رؤساء عصابات يقودون جنودهم للسلب والنهب إذا ما تأخرت
رواتبهم.

وفي عام ٣٢٧ هـ اتفق القرامطة مع العباسيين على السماح للمسلمين بالحج مقابل جزية
سنوية قدرها ١٢٠ الف دينار و رسماً اسمه الخفارة يدفعه كل حاج مقابل المرور و يروي ان
القاضي ابا علي بن ابي هريرة الشافعي لما طلبت منه الخفارة رجع وقال لم ارجع شحا على
الدرهم ولكن الحج سقط بهذا المكس وامتنع الكثيرين عن اداء الفريضة في ظل ابتزاز القرامطة
لهم وعدم أمن الطريق .

ولم يبدأ نجم القرامطة الشؤم في الافول إلا بعدما استنفذ الصراع مع الفاطميين قواهم و رغم
التصالح بينهم إلا أن أمرهم أنحط و تآكلت دولتهم تدريجياً وفقدوا سلطانهم على كثير من
الاراضي وان ظلوا يمثلون تهديد أجماعي مخيف

وظل القرامطة قرابة قرنين مصدر رعب و ذعر للمسلمين حتى ثار عليهم يحيى بن العياش في
القطيف فانترعها منهم ٤٥٨ هـ ثم ثار عبد الله بن علي العيوني الذي استنجد بالقبائل العربية
في نجد والحجاز و السلطان السلجوقي ملكشاه فدعمه بالجيوش وانتصر على القرامطة نصراً
حاسماً في موقعة الخندق ٤٦٩ هـ وقضى على دولتهم و احتل الاحساء التي سكنتها قبائل
عربية متعددة لاحقاً لتنتطوي تلك الصفحة الدموية من التاريخ.

المصادر

الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم - فرهاد دفتري

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي - محمد أحمد الخطيب

الإسماعيلية تاريخ وعقائد - إحسان إلهي ظهير

القرامطة نشأتهم ودولتهم وعلاقتهم بالفاطميين - ميكال يان دي خويه

مذاهب الإسلاميين - عبد الرحمن بدوي

الفاطميين الصعود

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذي خلا فذلك عصر قد تقضى وذا عصر

ابن هانئ الاندلسي

لم يكن ابناء قبيلة كتامة المغربية يدركون ان هذا الشيخ الوديع الذي تعرفوا عليه أثناء ادائهم لفريضة الحج سيغير حياتهم و حياة قبائلهم وبلادهم ثم التاريخ الإسلامي كله .

كان ابناء القبيلة فرحين بهذا الشيخ الزاهد حسن الحديث غزير العلم ولم يرتابوا حين كثرت أسئلته حول بلادهم و طبيعتها فلما رحلوا خرج معهم الي مصر وعرفوا انه يريد ان يعمل بالتعليم بما فطلبوا منه ان يصحبهم الي بلادهم التي تحتاج الي العلماء و الفقهاء و المدرسين .

وعندما وصل ابو عبد الله الي بلاد كتامة ٢٨٨ هـ اتخذ مسكنا في موضع يسمى فح الأختيار و بدء يجول في القبائل و يخطب فيها ويعظهم و يقيم مجالس للفقه و السيرة يمهّد فيها للدعوة للمهدي و لعقائد الشيعة حتى بلغ خبره إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية فأرسل إلى عامله على مدينة ميله ليسأله عن أمره فهون من امره وذكر أنه زاهد يأمر بالخير و العبادة فسكت عنه خاصة وقد خشي ان يثير غضب قبيلة كتامة التي أوي إليها .

و كان المغرب بيئة خصبة لكل الافكار و التوجهات التي ضيق عليها في المشرق من الخوارج و الشيعة لبعدها عن مراكز ثقل دولة الخلافة في الشرق و حب اهلها لإل البيت مع عدم

وجود أرث تاريخي يجعلهم يرفضون اي من المذاهب الإسلامية المختلفة بالإضافة لقلّة رجال الفقه والعلم عموماً لبعدها المسافات وحاجز اللغة فلم يكن أغلبهم يعرفون القراءة بالعربية و اعتمادا علي قوة القبائل البربرية ذات البأس التي تضي حمايتها علي من يلوذ بها تكونت حركات ودول شيعية وخارجية متعددة فلم يقابل ابو عبد الله الداعية الشيعي صعوبة كبيرة في إيجاد الدعم من قبيلة كتامة عندما أفصح عن حقيقة معتقداته كداعية شيعي للإمام عبید الله المهدي فقد سبقه عدد من دعاه الشيعة الي التعريف بمعتقداتهم في المغرب ولم يكن الكتاميون يسلمونه لأعدائه وقد اسبغوا عليه حمايتهم .

وبالفعل عندما وقع الخلاف بين قبائل البربر بسبب أبو عبد الله دافع عنه الزعيم الكتامي الحسن بن هارون وأخذة الي مدينة تاصروت حيث توافدت عليهما فرسان القبائل وتحصنوا بها ودارت بينهم وبين القبائل المعادية معارك عنيفة انتهت بانتصار الحسن بن هارون وقبيلة كتامة ثم تحولت الحركة الي الهجوم فاستولوا على مدينة ميلة ولكن ابراهيم بن الاغلب بادر بإرسال جيوشه لحرهم وهزمهم واحرق مدينتي ميلة و تاصروت و اضطر ابو عبد الله الي الانسحاب واللجوء الي جبل إيكجان .

ولكن سرعان ما توفي ابراهيم بن الاغلب و اضطرت احوال دولته فقتل قائد جيوشه الاحول و ابنه أبو العباس و تولى زيادة الله بن الاغلب قيادة الدولة في ظروف صعبة زادت سوء سياسته و عيوب شخصيته في تفاقمها .

فأنتشر دعاة ابو عبد الله ودعاته في البلاد يبشرون بخروج الامام المهدي و يثيرون الناس ضد زيادة الله وسرعان ما ثارت معه قبيلة كتامة و هاجموا زيادة الله وهزموه و دخل ابو عبد الله مدينة رقادة والقبروان ٢٩٦ هـ فأمن الناس وأمر بالتحفظ على ما وجد من اموال وسلاح و جوارى .

وفي الوقت نفسه هاجم القرامطة سلمية و قتلوا اسرة عبید الله المهدي ولكنه كان قد خرج منها الي الرملة ثم الي مصر وأخيرا استقر في سجلماسة منتظرا نتيجة الحرب بين الأغالبة و ابو عبد الله ولكن عندما انتهت بسقوط دولة الأغالبة حدد اليسع حاكم سجلماسة اقامة

المهدي و سجن اصحابه قبل ان يبادر ابو عبد الله بالمهجوم عليه بجيش ضخم فحاول الهرب ولكنه قتل و سلم وجهاء سلحامة المدينة لابو عبد الله الذي اعلن لإتباعه وصول الامام المهدي واصطحبه الي رقادة حيث اقامة في قصر الصحن و اعلن علي المناير في يوم الجمعة قيام خلافة المهدي امير المؤمنين ٢٩٧ هـ

وعلى الرغم من ان ابو عبد الله قد أقام للمهدي دولة ووضعه على رأسها ولم يأخذ شيئاً لنفسه إلا ان الخليفة ما كاد يستوي على عرشه حتى دبر مؤامرة لقتله و اخيه ابو العباس !
وثارت فتنة بسبب هذا الغدر ولكن عبيد الله المهدي امن الناس و سكنهم قبل ان يقتل عدد من القادة والزعماء غدرًا ليكون ملك المغرب له وحدة بلا منازع ولكن من هو عبيد الله المهدي ؟

أبناء فاطمة أم ميمون القداح؟

هؤلاء من ولد القداح كذابون مخرقون أعداء الإسلام ونحن أعلم بهم ومن عندنا خرج جدهم القداح.

هكذا قال الحسن الاعصم قائد القرامطة على منبره في اثناء صراعه مع الفاطميين الذين ثارت حولهم منذ بداية ظهورهم الشكوك و طعن في صحة نسبهم الي بيت النبوة مرارا على يد العباسيين الذين كتبوا بيانات اشهدوا عليها رجال الفقه والقضاء و العلويين ان الفاطميين منتحلين النسب و امراء الامويين في الاندلس الذين بدئوا حربهم والتشنيع عليهم منذ ظهورهم وأثاروا عليهم قبائل البربر بالمغرب و رد الناصر على كتاب للخليفة الفاطمي يهجو به قوله (عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك) واستمر المؤرخون في جدال استمر لقرون في محاولة لحسم قضية نسب الفاطميين الذي لم تثر قضية نسب مثل ما أثارته قضيتهم من جدال ونزاع .

فما سبب كل هذا الجدل؟

كانت وفاة الامام جعفر الصادق ١٤٨ هـ حدثاً فاصلاً في التاريخ الشيعي فبمجرد وفاته انقسم الشيعة الي اثنا عشرية يقولون بولاية ابنه موسى الكاظم من بعده وإسماعيلية يقولون بولاية ابنه الاكبر اسماعيل الذي ذهب بعضهم الي انه المهدي المنتظر وغاب ليعود ويملك الارض و الاخرين الي انه مات في حياة ابيه وورث الولاية من بعده ابنه محمد لان الإمامة لا تنتقل بين الأخوة من بعد انتقالها من الحسن الي الحسين و أما تنتقل في الاعقاب من الاب الي الابن .

ومن هنا بدئت الحركة الاسماعيلية التي هي أصل الفاطميين والقرامطة المشترك فكلاهما يقول بإمامة محمد بن اسماعيل.

واهم رجل في الدعوة الاسماعيلية هو ميمون القداح وهو فارسي اشهر اسلامه وتحول إلى داعية محمد بن اسماعيل الاكبر والاهم و تولى ابنه عبد الله مسؤولية الدعوة لابن محمد بن اسماعيل الامام عبد الله الرضي .

وتفرق ابناء عبد الله القداح الثلاثة في البلاد لنشر الدعوة الاسماعيلية فذهب احمد للعراق و الحسين الي سلمية و علي الي خراسان .

وبعد وفاة الامام محمد بن الحسن العسكري أو دخوله السرداب الي حين عودته في صورة المهدي المنتظر كما يعتقد الشيعة الإثنا عشرية (ينفي بعض مؤرخين السنة وجودة من الاساس ويؤكدون ان الامام الحسن توفي دون ان يخلف ولداً) ٢٥٥ هـ دخلت حركتهم في طور السكون و توقفت عن الكفاح السياسي مما أفسح المجال للإسماعيلية لتصدر المشهد وقيادة العالم الشيعي .

وبينما كانت الإثنا عشرية في حالة صدام دائم مع الامويين ثم العباسيين ظهر فيه ائمة الشيعة كبديل شرعي حاصر لهم وتعددت الثورات الشيعية التي لم تعدوا مجرد انتفاضات عاطفية قام بها ائمة الشيعة وقادتهم غضبا من سلوك الحكام أو ردا على المظالم والاضطهاد الذي تعرضوا له دون اعداد مناسب فكان مصيرها الفشل كانت الدعوة الاسماعيلية التي استفادت من اقامة العباسيين دولتهم من خلال التنظيم السري المحكم مغرقة في السرية حيث أكتنف

الغموض ليس فقط أسماء الائمة و أشخاص الدعاة وإنما امتدت الي العقائد ذاتها التي تحولت الي الباطنية يظهر جزء منها للامة و يخفي آخر و تفسر النصوص فيها بتفسيرين ظاهري للامة و باطني للخاصة .

وكللت جهود الحركة السرية بأن حققت الإسماعيلية انتصاراتها الكبرى بقيام دولة القرامطة في الشام والبحرين و دولة الفاطميين في المغرب ثم مصر ٣٥٨ هـ

وقبل أن نتوغل في السرد فعلينا ان نعترف ان عقائد الاسماعيلية مثار جدل تاريخي كبير ذلك انها ارتبطت بعقيدة التقيية و اخفاء حقائق الايمان إلا علي الخاصة و كانت العلاقة المضطربة بين الفاطميين و القرامطة سبب للكثير من التساؤلات حول مدي توافقهم العقائدي من عدمه بالإضافة للسرية التي أضفيت على أشخاص الائمة و غموضهم و جعلت حتى دعائهم لا يروئهم ولا يعرفون حتى اسمائهم بيقين .

وهناك نظرية تنسب القرامطة والفاطميين لجد واحد وهو ميمون القداح وتضع تفسيراً تأمرياً لنشأة الحركتين خاصة وان ابناء محمد بن اسماعيل و ابناء عبد الله بن ميمون القداح حملوا نفس الاسماء و حرص الفاطميين على كتمان نسبهم خشية الأعتيال فأستغل ابناء دعاة الاسماعيلية احتباء ابناء محمد بن اسماعيل وخشيتهم على انفسهم من العباسيين و سرية الدعوة في ادعاء النسب الي انفسهم بدلا من العمل لصالح ابناء اسماعيل دون ان يستطيع أصحاب النسب اثبات الحقيقة و في احدى تفريعات هذه النظرية ان عبيد الله المهدي هو من ابناء ميمون القداح امام مستودع ظاهر للناس وسلم الإمامة للقائم الذي ظهر مدعياً انه ابنه وهو الامام المستقر ابن محمد بن اسماعيل , كفكرة الامام الظاهر والإمام المستتر عند الخوارج .

بينما ظهرت نظرية ثانية أن القرامطة كانوا يقولون بان محمد بن اسماعيل حيا وانه المهدي و يعدون بعودته تحت قيادة الفاطميين في سلمية يشتركون معهم في العقيدة ولهذا كان اعلان عبيد الله عن نفسه و تلقيه بالخلافة بمثابة خيانة لهم حيث اكتشفوا ان الدعوة كانت لأبناء ميمون القداح وليس للائمة الفاطميين وان الامر خدعة يحتالون بها للوصول الي السلطة وفي

المقابل فأن الرواية التي توردها المصادر الاسماعيلية لتفسر هجوم القرامطة بقيادة ابو مهزول على سلمية و قتل من كان بها من رجال المهدي ونسائه بسبب ان المهدي عزل اخيه ابا القاسم عن ولاية دعاة الكوفة ثم تطور الامر لنزاع مسلح لا يبدو مقنعا على الإطلاق.

و ترددت أقاويل ان ابو عبد الله الشيعي فوجئ بسلوك عبيد الله وأرائه ورأى انها لا تتفق مع صورة الأمام التي كانت في ذهنه ولم يكن رأه من قبل فقال لبعض خاصته انه ربما يكون أخطأ الرجل و ان هذا الشخص ليس الأمام و لهذا قتله عبيد الله مع العديد من خاصته .

و انتحال الانساب لم يكن بالأمر النادر الوقوع في العصور الغابرة وامتد من الافراد الي العائلات والعشائر التي ادعت انسابا تطلب بها ملكا وسلطانا و حقوقاً شرعية والحقيقة أن كلمة المؤرخين السنة تكاد تتفق علي التشكيك في نسب الفاطميين فيما عدا المقرئزي و ابن خلدون الذي دافع عن صحة نسبهم بقوة في كلام طويل بدايته (ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والظعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفتت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم) وأن كان في النهاية لم يؤسس تصديقه لصحة نسبهم إلا بناء علي عظمة دولته وملكهم وان هذا النجاح يستحيل ان يقع لمدعي كذاب !

والواقع انه على الرغم من محورية قضية صحة نسب الفاطميين التي تعد أساس دولتهم وأهم المطاعن الموجه اليهم فالوصول الي الحقيقة بها في ظل التضليل المعتمد و التضارب الشديد في معلومات المصادر المختلفة هو امر لا ادعي القدرة عليه وعلي كل فقضية النسب أهميتها كانت وقت وقوع الاحداث لا وقت روايتنا لها فسواء كان نسب الفاطميين صحيحا أو مدعي فقيام دولتهم علي اساس الاستحقاق الشرعي الوراثي حقيقة تاريخية لا يؤثر في وجودها قناعتنا بصحة نسبتهم من عدمه و لكن يمكننا ان نعرف قصتهم .

بعد قتل عبيد الله المهدي لداعيته ابو عبد الله و أخيه و غيرهم من القادة والزعماء وقعت الوحشة بينه وبين البربر الذين كرهوا غدره وتمنوا زوال ملكة رغم إغداقه الاموال على اتباعه وكادت محاولة عبيد الله لفرض المذهب الشيعي قصراً على الناس أن تؤدي لفتنة تطيح بدولته حيث بدء سب الصحابة على المنابر واتهامهم بالردة بعد وفاة الرسول وأسس في ٢٩٨ هـ ديوان الكشف للتفتيش عن المخالفين لعقائد الشيعة الاسماعيلية من الفقهاء و القضاة و القضاء عليهم .

لكن قبائل البربر لم تقابل هذا بالخضوع بل وجد المهدي التذمر يعلوا و يكاد ان يتحول لثورة عارمة فتراجع عن تلك الاجراءات العنيفة وتوجه لإقامة مدارس الدعوة واستمالة ابناء القبائل من باب طلب العلم و ليس بالعنف و اظهر التشيع المعتدل فأمر دعائه بسرية الدعوة و عدم محاولة اجبار الناس على اعتناقها و هزم من ثار عليه من عشائر البربر وتبع بقايا بني الأغلب و قضى عليهم و أخضع مدينة تاهرت بعد تمردا عليه وتخوف عبيد الله علي نفسه فأسرع ببناء مدينة المهديية وجعلها حصناً يلجئ اليه في وقت الخطر فلما انتهى بنائها ٣٠٢ هـ قال (الان أمنت على الفاطميات) وأكثر من الجنود المرتزقة والمماليك لحمايته و تواصل مع قبائل البربر المختلفة لكسب ولائهم .

وفي ٣٠١ هـ كانت اولي محاولات الفاطميين لغزو مصر و لكن الخليفة العباسي المقتدر ارسل جيشا ردهم الي المغرب وكررت المحاولة في ٣٠٢ هـ و ٣٠٦ هـ وانتهت بالفشل .

وتوفي المهدي ٣٢٢ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم الملقب بالقائم الذي حاول غزو مصر مجددا فهزمه الاخشيد وكانت هزيمته نذير شؤم عليه فسرعان ما واجه اعتي ثورة قابلت الفاطميين حيث تصادم مع الداعية الخارجي أبو يزيد بن كيداد الذي حرض قبائل جبال الاوراس علي الفاطميين و اشعل المغرب بثورة دموية عنيفة وأوقع بهم هزائم متعددة واحرق مدينة باجة وخرّب مدينة تونس حتى يقول المقرئزي ان لم يبقى بها معمور ولا سقف مرفوع وحاصر المهديّة عاصمة الفاطميين .

وتوفي القائم فجأة فكتّم ابنه المنصور وفاته واستمر يقود جيشه في الحرب وأستنجد بقبائل كتامة و صنهاجة فهزم أبو يزيد و هاجم القيروان فاسر نساءه و ابناة فأكرمهم و ردهم اليه طمعاً في السلم ولكن أبو يزيد رفض و تحصن في قلعة كتامة بينما تفرق عنه جنوده و دخلوه في أمان المنصور الذي حاصر أبو زيد في الجبال حصاراً ضيقاً ليضطره الي الاستسلام ولكنه لم يفعل ودارت الحرب بينهما طاحنة حتى اسر أبو زيد بعدما أصيب بجراح خطيرة وسرعان ما توفي في سجنه فأمر المنصور بسلخ جلده و حشاه تبنا ووضع في قفص وطاف به في البلاد قبل أن يعلن وفاه ابيه و تولية الخلافة ٣٣٦ هـ و بقي السنوات الباقية من عهده يعيد للدولة ما فقدته من قوة في الحروب الاهلية الطاحنة و تواصل مع القرامطة الذين كانوا يشهدون صراع داخليا بدورهم و ربما يكون له دور في رد الحجر الاسود الذي انتزعه من الكعبة لمكانه ٣٣٩ هـ

وعندما تولى المعز لدين الله الخلافة من بعدة ٣٤١ هـ كانت الاوضاع قد استقرت وأزدهر اقتصاد الدولة و عمها الامن وحاز المعز ثروة فاحشة مكنته من تمويل مشاريعه التوسعية.

ولكن برغم ذلك لم يكن الفاطميين يشعرون بالأمن في المغرب فكثيراً ما تصادموا مع قبائل البربر و التي هي مصدر قوتهم الوحيد في الوقت ذاته وكانت سياسة الفاطميين في استغلال الصراعات القبلية في المغرب وضرب قبائل البربر بعضها البعض بمثابة اللعب بالنار تنذر بسوء العاقبة .

ورغم السهولة النسبية التي صاحبت صعود دولة الفاطميين في المغرب إلا ان الدعوة الشيعية بها لم تلقى قبولاً واسعاً وجابههم علماء المالكية و الخوارج الصفرية والاباضية المنتشرين في المغرب ورغم كل المناورات السياسية فأن الفاطميين ظلوا أسري قبيلة كتامة التي احتضنت دعوتهم من البداية بينما واجهتهم القبائل الأخرى بعنف كلما حاولوا التوسع في المغرب .

فتجددت اطماع الفاطميين في غزو مصر و نقل دار الخلافة اليها و دعم المعز في هذا الرأي قائد جيوشه جوهر الصقلي برغم هزيمته للمتمردين من البربر في سلجماسة و تاهرت و صارحه ان لا امل في البقاء في المغرب بين لحي الاسد الامويين في الاندلس وقبائل البربر بها .

وكان وضع مصر وقتها حرجاً فبعد وفاة كافور الإخشيدي كانت أوضاعها غاية في الاضطراب و تنازع الجند الذين لم يتفقوا على قائد لهم وعندما حاول الوزير ابن الفرات الإمساك بمقالييد الامور تصادم مع العديد من قادة الجند المرتزقة وحوصر في بيته وكاد يقتل ثم هرب يعقوب ابن كلس وهو من كبار الموظفين إلى المغرب محرصاً المعز علي غزو مصر بالإضافة الي نقص فيضان النيل الذي تسبب في غلاء الاسعار و نقص المحاصيل و هدد مصر بمجاعة .

ولم تكن الدعوة الفاطمية بجديدة على مسامع المصريين فقد كان دعاة الفاطميين منتشرين في أنحاء مصر وكانوا يقولون إذا زال الحجر الأسود (يعنون كافور الإخشيدي) ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ومال اليهم من الموظفين والجند الكثير .

وتقص الرواية الفاطمية ان المعز أخذ القرار بغزو مصر عندما اتى تاجر مغربي و حدثه بما شاهده في مصر ومنه انه رأى امرأة شابة على حمار تشتري جارية حسناء بستمائة دينار فلما سئل عن خبرها قيل له يا مغربي هذه بنت الأخشيد اشترت الجارية تتمتع بها وهي ست كافور .

فأمر المعز بإحضار الشيوخ وأمر الرجل فحدثهم بخبر الجارية ثم قال يا إخواننا انمضوا إليهم فلن يحول بينكم وبينهم شيء وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بما فقدت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم فاتمضوا بنا إليهم .

وفي ٣٥٨ هـ حشد المعز جيوشه بقيادة جوهر الصقلي وحشد قبيلة كتامة للخروج معه فأجتمع له ١٠٠ الف مقاتل من البربر و الصقلية ودفع لهم رواتبهم مقدما مع الوعد بجوائز عند اتمام الفتح وجهاز جوهر بثروة هائلة يحملها معه وبمجرد دخول جوهر الإسكندرية بدا و كان امر الفتح قد امضي فلم تواجهه ادني مقاومة ورضا الاهالي عنه لما امنهم و فرق في كبرائهم ووجهائهم الهدايا والعطايا وكانت الشدة العنيفة التي تعرضت لها مصر دافعاً لأهلها للفرح بقدوم جيوش المعز الذي صورته دعائه كإمام ديني شريف النسب حسن السيرة بينما

كان كافور عبدا مجهول النسب ويسوم اهلها العذاب المرتقة من كل جنس ولون فتطلع الناس إلى من يعيد مجد الامة ويصلح شأنها .

وجمع الوزير ابن الفرات قادة مصر و تشاور معهم فاتفقوا على ارسال وفد للتفاوض رأسه أبو جعفر مسلم وهو شيعي وانتهت المفاوضات بكتاب الامان الذي كتبه جوهر بيده ووقعه على رؤوس الاشهاد يضمن للمصريين حريتهم العقائدية ويؤمنهم على أموالهم وأنفسهم و يعد بإسقاط الرسوم والضرائب الجائرة والقيام على المساجد والمسكين بالرعاية وأن يجرى الإذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليليه والزكاة والحج والجهاد على أمر الله و كتابه وما نصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته وأجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه والتصدي للقرامطة الذين عطلوا فريضة الحج وخرّبوا الشام ويهددون بغزو مصر ولم يتصدى لجيش جوهر إلا قلة من الجند الاخشيدية عز عليهم ان يفقدوا وظائفهم و مصدر رزقهم في الجندية ولكنهم انهزموا بعد معركة قصيرة اقرب للمناوشة وفروا الي الشام لتنتهي الدولة الاخشيدية وتقوم الفاطمية في غضون ايام .

و لأربع سنوات تالية حكم جوهر مصر نيابة عن الخليفة المعز باقتدار و اقر الموظفين و الاداريين علي وظائفهم ولكنه تدريجيا بدء احلال السلطة الجديدة فمنع الدعاء للسلطان العباسي و البس الحظباء اللون الابيض شعار الفاطميين بدلا من الاسود شعار العباسيين وضربت العملة باسم المعز ثم امر جوهر بإضافة حي على خير العمل للإذان ٣٥٩ هـ و الجهر بالبسملة في الصلاة و لتأمين الجبهة ارسل جوهر القائد البربري جعفر بن فلاح لفتح الشام وضمها ففتح دمشق و الرملة واعترف الامراء الحمدانيين في حلب بالخلافة الفاطمية و واجه جوهر خطر الجماعة الذي كان يحقق بمصر نتيجة نقص مياه النيل و الذي بدء في عهد الأخشيديين واستمر حتى ٣٦١ هـ

ولكن ضم الشام الذي بدء ميسورا سرعان ما تحول لمشكلة كبرى فقد كان الأخشيديين يدفعون للقرامطة في الشام مبلغا كبيرا ٣٠٠ الف دينار سنويا بموجب اتفاق سري ولما دخل الفاطميين مصر قطع هذا المبلغ مما اثار حنقهم ولم يترددوا في مهاجمة الفاطميين برغم ما يظهر أنهم شيعة اسماعيلية ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم ووجد الفاطميين الذين كانوا يحملون

بالزحف على بغداد من دمشق انفسهم امام هجوم مباغت للقرامطة ساهم في نجاحه قسوة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي استولى على دمشق ٣٥٩ هـ ولكنه تمادي في اذلال أهلى دمشق التي نهبها جنده و قتل العديد منهم وصلبهم على ابوابها وأسوارها و عندما حاول كبرائها ان يسترضونه امرهم بجمع ديات من قتل في المعركة من رجالة و قال (لا اعفو عنكم حتى تخرجوا الي ومعكم نسائكم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يدي لطلب العفو) فلجئ الناس إلى الحمدانيين والقرامطة لإنقاذهم من بطشه وبمجرد عودة جيشه الي الرملة ثارت دمشق و اعلنت طاعتها للعباسيين من جديد .

وتحالف الحمدانيين مع القرامطة وانضم اليهم فلول الاخشيديين تحت قيادة القائد القرمطي الحسن الاعصم وبادروا بالهجوم على الفاطميين فهزمهم وقتل جعفر و انسحبت فلول جيشه الي يافا.

وتحول موقف الفاطميين إلى الدفاع فأقام جوهر الاستحكامات وحفر الخنادق لتحيط بالقاهرة اثناء بنائها ثم بدء هجوم القرامطة على مصر حتى وصلوا الي عين شمس و تواجه الطرفان في معركة دامية امام الخندق الذي حفرة جوهر امام القاهرة فهزم القرامطة بعدما اوقع عملاء جوهر الفتنة بينهم وأثار عليه الاعراب من بني عقيل و بني طيء فانسحب القرامطة الي الشام ثم الي الاحساء .

وامتد سلطان الفاطميين الي الحجاز بلا قتال حيث كانت الحرب قامت بين بني حسن وبني جعفر بن أبي طالب فلما عرف المعز بما انفذ مالا ورجالا سراً فسعوا بالصلح بين المتقاتلين حتى اصطلحوا ودفع ديات القتلي من ماله فلما دخل جوهر مصر بادر حسن بن جعفر فملك مكة وأعلن طاعته للمعز .

وباكتمال بناء القاهرة ارسل جوهر للمعز بالقدم لعاصمة دولته الجديدة فترك المغرب بلا رجعة حاملا معه كل ثروته وكل ما استطاع حملة وحتى توأبيت من مات من عائلته ٣٦٢ هـ وعندما اراد المعز ان يترك المغرب اراد ان يترك خلفه من يقوم علي رعاية دولته ووقع اختياره على بلكين بن زيري الصنهاجي الذي اظهر دهاء فائقا فما ان فاتحة المعز حتى قال (يا

مولانا انت وإبائك الأئمة من ولد رسول الله ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا بربري
صنهاجي ؟ قتلتي يا مولاي بغير سيف ولا رمح) فطمئن المعز مما كان يخشاه ان يستقل من
يوليه دولته بالمغرب بها وقسم بقية الدولة فمنح صقلية لبني ابي الحسن الكلبي يتوارثونها وعلي
طرابلس عبد الله بن يخلق الكتامي حتى تكون قوة قبيلة كتامة موازنة لقوة قبيلة صنهاجة .

وعلي الرغم من الاساس العقائدي لدولة الفاطميين و أظهر المعز نفسه منذ وطئت قدماه
مصر كإمام ديني و خليفة للمسلمين وليس حاكم عاديا مثلما عهدوا وبدء خطابه للمصريين
في الإسكندرية انه لم يسر لازدياد في ملك أو رجال وإنما رغبة في الجهاد و نصره المسلمين
إلا ان المعز الذي تعلم من التجربة المغربية كان قد ادرك ان المذهب الاسماعيلي لن يضرب
بجذوره في مصر سريعاً و يصعب ان ينتشر بها فاستعاض عن ذلك بالاستعانة باليهود
والمسيحيين و المغاربة من شيعته و اسناد الوظائف الكبرى لهم وتدرجيا بدء في استبدال
القضاة السنة بأخرين شيعة وعلي الرغم من عهد جوهر للمصريين بالحفاظ على الاوضاع
الادارية و الدينية القائمة إلا ان الوعود سرعان ما تأكلت وبدء التضيق على المصريين في
دينهم من اول عدم رؤية هلال رمضان و منع صلاة التراويح و اقصاء الموظفين والإداريين
المصريين و تعيين مغاربة شيعة بدلا منهم تدرجياً .

وأن كان التبشير في عهده ظل في حدود ضيقة , خاصة في الجامع الأزهر الذي انشأه جوهر
٣٥٩ هـ و أجمع به العلماء والفقهاء الشيعة وفي عهد الخليفة العزيز عين ٣٧ فقهاء بالأزهر
بصفة دائمة يعقدون مجالس للعلم والقراءة والدرس لنشر المذهب وبالتدرج نمت الأروقة
وتعددت و كثر الطلاب و الفقهاء على مر العصور حتى اضحي الأزهر جامعة عالمية
تستقطب طلاب العلوم الشرعية من كافة ارجاء العالم الإسلامي .

و لم يتحول عامة الناس الي مذهب الشيعة الاسماعيلية و مع اظهار الشيعة طقوسهم الدينية
بدء تصادمهم مع الاهالي وحاول المعز استيعاب الامر بعزل اتباعه في القاهرة و إسكانهم في
عين شمس .

و مع المعز ظهرت سياسة الدولة الفاطمية المتساهلة لحد كبير مع غير المسلمين فعندما طلب بطريريك الاقباط من المعز ان يسمح له بإصلاح الكنيسة المعلقة ساهم في تكاليف الإصلاحات و رغم تدمير العامة اشرف الخليفة بنفسه على البناء و امر بعدم اعتراض بناء اي كنيسة في كافة ارجاء مصر.

ولاستعادة الشام استعان المعز بقبائل طيء و عقيل و ولي ظالم بن موهوب العقيلي دمشق فانتزعاها من القرامطة ٣٦٣ هـ ولكنه تصادم مع جيش الفاطميين الذين اتوا لمعاوته فتعدوا على الاهالي و احدثوا فوضى و احرقوا احياء كاملة من دمشق الي ان ولي المعز عليها والي طرابلس ريان الخادم فهدت الاوضاع .

وبعد وفاة المعز تولى ابنه العزيز بالله الخلافة وتوسعت الدولة في عهده و ازدهرت اقتصاديا وعسكريا وسياسيا فخطب له في اليمن والحجاز و حاصر مكة بجيش حتى اصاب اهلهما القحط والجوع لما تمردوا عليه و تعزز وجود الفاطميين بالشام و اوقعوا بالبيزنطيين والقرامطة هزائم قاسية .

وبجانب كونها حصناً ومعسكراً وعاصمة ادارية و رمزا للدولة الجديدة تحولت القاهرة لمصدر دخل للخلفاء فقد بلغ عدد حوانيت القاهرة ١٠ آلاف كلها ملك السلطان تدر عائداً شهرياً ضخماً وسرعان ما عمرت القاهرة وازدانت و بلغت حدا من العظمة و البهاء جعلها مصدر جذب للرحالة من كافة الانحاء و يعودون مبهورين بما كقول ابن خلدون عندما زارها (رأيت حاضرة الإسلام وبستان العالم و محشر الامم و مدارج الذر من البشر).

وازداد وضع غير المسلمين في عهد العزيز بالله تميزاً فقد كان متزوجا من مسيحية و عين اخيها بطريرك للقدس مما حسن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية وتولي دواوين الدولة في عهده القبطي عيسي بن نسطور بينما كان نائبة بالشام منشأ بن ابراهيم اليهودي .

وظلت الدولة في صعود الي ان توفي العزيز متأثرا بمرض معوي في ٣٨٦ هـ لتكون مصر علي موعد مع القدر مع أشهر الخلفاء الفاطميين وأكثرهم اثارة للجدل.

عندما توفي العزيز بالله كان ولي عهده الحاكم بأمر الله طفل في الحادية عشر وتولي الوصاية عليه ثلاثة رجال كبير الخدم برجوان الصقلي الملقب بالأستاذ والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامة في مصر و قاضي القضاة محمد بن النعمان .

وفي بداية عهد الحاكم شهدت الدولة الصراع المحتوم بين الجنود الاتراك و المغاربة حيث اراد المغاربة الكتاميون استعادة ما فقدوا من نفوذهم عندما قسم العزيز مناصب الدولة بينهم وبين الاتراك حتى لا يكون اعتماده عليهم كاملاً و ظهر زعيمهم الحسن بن عمار و عظم سلطانه حتى وقع التصادم في الشام بين القوتين فهزم المغاربة منجوتكين القائد التركي حاكم دمشق الذي حاول غزو القاهرة في رفح ثم عسقلان و اسر ٣٨٧ هـ .

ولكن برجوان الخادم الذي لم يكن يعمل له حساب كان يحيك المؤامرات في الخفاء بهدوء الثعابين وسرعان ما فوجئ بن عمار بفتنة في القاهرة و بخصومة يهاجمون بيته حتى اضطر للفرار تاركا الفرصة لبرجوان الذي تولي منسبة وتحكم في كافة الامور و عزل كبار الاداريين المغاربة وولي محلهم مسيحيين و صقالية وانتهر فرصة وفاة القاضي النعمان وولي اخر محلة يدين له بالولاء و استولي على الدولة تماما و حجب الحاكم بأمر الله عن الناس . ولكنه لم يحسب حساب ذلك الذي كان طفلا فصار في فبدلا من ان يكرر برجوان ما فعله كافور في ابناء الاحشيد اعد الحاكم مؤامرة لاغتياله ٣٩٠ هـ ليبدأ عهده مخصباً بدماء استاذة و يظهر كحاكم فعلي للبلاد و برغم الهزة التي تعرضت لها البلاد جراء تلك الجريمة إلا ان الحاكم استطاع التغلب عليها ببساطة بان جمع شيوخ كتامة وقادة الاتراك و تبسط اليهم و صارحهم بأنه هو من قتل برجوان لتعدية على حقوقه الشرعية والاستهانة به فلم يملك كبار المشايخ والقادة إلا ان يسلموا للفتي ذو الخمسة عشر عاماً قيادتهم .

ولكن الحاكم كان قد اعد مؤامرة اخري قتل فيها شيخ كتامة الحسن بن عمار و كبار اعوانه لينفرد بالسلطة دون منازع و ليصبح القتل عادته طوال عهده كلما شك في ولاء شخص أو طموحة كما عبر معاصرة الانطاكي (و بذل سيفه في اراقة الدماء في سائر الناس على طبقاتهم حتى افني شيوخ الكتاميين ووجوه دولته و أصاغرهم وتزايد الحاكم في القتل لسائر من في دولته و بذل سيفه في مقدمي اهل المملكة و متحيزها من الكتاب والقواد والجنود والرعايا و قطع

أيديهم وفرط في ذلك فاختلت بلاده و في رؤساء رجاله) . وبدء الحاكم عهدة باستعمال الحسين بن جوهر مديرا بدلا من برحوان و عبد العزيز بن النعمان قاضي للقضاة وتحسنت الاوضاع سرعيا و عم العدل و الإصلاح خاصة وقد جلس الحاكم بنفسه يوميا للنظر في المظالم و الشئون العامة ولكن سرعان ما ترك هذا المجلس وعاد لممارسة هواية القتل فقتل مؤدبة ابي تميم ثم متولي الحسبة ثم كبير الكتاب و صاحب المظلة و ولية على الشام وبنهاية عام ٣٩٤ هـ كان قد قتل اغلب كبار رجال الدولة وكان للحاكم خادم مخلص يدعى غبن فقلده الشرطة و الحسبة و اطلق عليه قائد القواد ولكنه غضب عليه مرة فامر بقطع يده اليسري ثم عفا عنه و اهداه الكثير و بعث الاطباء لتطيبه و غضب اخري فقطع اليمنى ثم ثالثة فقطع لسانه وظل المسكين يقاسى حتى مات دون ان يعرف سر غضب الحاكم عليه !

وكذلك كاتبة الجرجاني فقد امر بقطع يديه الاثنان و اطلقة هكذا دون ان يعرف احد ما الذي اثار غضبة لهذه الدرجة وفي ٤٠١ هـ هرب الحسين بن جوهر و عبد العزيز بن النعمان فارين بجياهم مع اسرهم ولكن الحاكم ارسل اليهم وأمنهم و عندما عاد جوهر قتله و هرب ابناءة فتعقبهم و خصص ٢٠٠ الف دينار لمن يأتي برؤوسهم فقتلوا في دمشق وأرسلت رؤوسهم اليه .

ولم ينج العامة من بطش الحاكم بطبيعة الحال فسرعان ما ظهر التطرف الديني فنقش عبارات السب والقذف في حق ابي بكر وعمر على المساجد وصدرت بها القوانين و المراسيم والخطب واجبر الناس على كتابتها على ابواب الحوانيت و لعنوا علي المنابر وضرب وسجن من اقاموا صلاة الضحى أو التراويح , وقد ثار على الحاكم أحد شيوخ الصوفية الملقب بابي ركوة , بعدما أعلن عن حقيقة نسبة أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك من أمراء الأمويين الذين تحفوا وتفرقوا في البلاد بعد سقوط دولتهم و لكن ثورته التي بدئها في الصعيد لم تككل بالنجاح حيث قتل في إحدى المعارك اثناء زحفه نحو القاهرة و أنتهت ثورته .

اما أهل الذمة من المسيحيين و اليهود الذين كان وضعهم المتميز في الدولة الفاطمية مثار للتعجب و التهجم عليها فقد نالهم من الحاكم الكثير من التعنت وقاسوا تحت حكمة لسنوات بداية من عام ٣٩٥ هـ هدمت فيها و نهبت كنائسهم ومعابدهم وعلي رأسها

كنيسة القيامة المقدسة بفلسطين التي خربت وسرقت ذخائرها و قتل الكثير منهم وفرض على اليهود الإقامة في حي خاص حتى لا يختلطوا بالمسلمين بجوار باب زويلة وفرض عليهم تعليق صلبان كبيرة الحجم في اعناقهم و منعوا من ركوب الدواب و دخول الحمامات العامة و ضيق عليهم حتى هدد الحاكم بترحيل كافة المسيحيين واليهود من مصر و اضطر الكثير من الرهبان والقساوسة للهرب والاحتباء في الصحراء و اضطر الكثير من المسيحيين لإشهار اسلامهم خوفا علي حياتهم في ظل موجة الاضطهاد إلى ان أصدر الحاكم كتاب الامان الذي اعتبرته المراجع المسيحية معجزة ٤١١ هـ وقرر فيه التوقف عن اضطهاد المسيحيين واليهود والسماح لهم بالعودة لممارسة عقائدهم وحياتهم الطبيعية .

وأنحصرت موجة الاضطهاد وتدرجيا أعيد تعمير الكنائس التي خربت و سمح للمسيحيين الذين اشهروا اسلامهم كرهاً بالعودة لدينهم بينما ازيلت عبارات سب الصحابة من علي المتاجر و سمح لعامة المسلمين بالصلاة و الصيام كما تقضي مذاهبهم .

وعلي الصعيد الشخصي فكما تدل تصرفاته كان الحاكم شخصية مضطربة فبدء حياته بالحزم و التعسف والعنف الشديد و حتى صارت سمة لعصره ان يذهب اهل حي فيتوسلون اليه حتى يمنحهم عهدا بالأمان علي أنفسهم و أموالهم .

ويقدر الباحثون عدد ضحايا الحاكم بثمانية عشر الف نفس من كافة الطوائف والطبقات امر بقتلهم بلا اسباب معلومة أو اسباب واهية ليرضي شهوة الدماء التي ملكته و جعلته يتسلى بمشاهدة منازلات جماعية مميتة و قتل بعض من غضب عليهم بلا اسباب واضحة بيده حتى أن ابن اياس يذكر انه كان يتخير من غلمانهم فيأخذ احدهم فيقتله بيده و يلقي بأمعائه للكلاب و يترك المقتول بلا ذنب مطروحا في الطريق حتى يأخذه اهله فيدفنوه , حتى شاع انه مريض عقلي فيقول المقريري (ويقال انه كان يعتربه جفاف في دماغه فلذلك كثر تناقضه و ما احسن ما قاله فيه بعضهم كانت افعاله لا تعلل وأحلام وساوسه لا تؤول) .

ولكن بخلاف القرارات التعسفية و سفك الدماء فقد عرف الحاكم بشدة الكرم و غزارة الانفاق فقد اوقف على الازهر و دار الحكمة ومساجد القاهرة والمستشفيات الكثير من

الاراضي وفي ٤٠٤ هـ اعتق جميع عبيدة ووهبهم كل ما كان تحت ايديهم في حالة الرق ليستعينوا به على حياتهم وهم احرار و تكفل بنفقات المساجد التي لا مصدر للإنفاق عليها وبلغت ٨٣٠ مسجد ثم تجاوز الحاكم اصول العقيدة الاسماعيلية بتعيين ابن عمه ولياً للعهد ! وكان ذلك لا يعني إلا اسقاطه لحق اسرته الشرعي في الإمامة باعتبارها متوارثة فيهم تنتقل من الاب الي الابن مما اثار الكثير من الجدل.

وكذلك كان شديد الكرم مع العلماء و الشعراء والأدباء و استقدم العالم ابن الهيثم لدراسة مشروع للسيطرة على فيضان النيل ولكن ابن الهيثم فشل في وضع المشروع المناسب وتظاهر بالجنون ليتمكن من الفرار خوفاً من بطش الحاكم .

و طبيعة الحاكم ادت به إلى اتخاذ قرارات متطرفة فعندما منع تداول الخمر والنبيد امر ايضا بتدمير بساتين العنب وحرمة الزبيب و الشعير ومنع العديد من الاطعمة والمحاصيل الزراعية بلا اسباب واضحة وشدت في محاربة البغاء مع منع الغناء و الموسيقى و حرم على النساء الخروج من المنازل إلا للحاجات ضرورية أو حتى التطلع من الشبايك أو تشييع جنازات ابائهن و ازواجهن ومنع صناع الاحذية من صنع الاحذية النسائية واستمرت الاقامة الجبرية مفروضة على النساء في سابقة لم يسمع بمثلها في التاريخ سبع سنوات كاملة .

ثم أخذ اتجاه صوفي فبدء يظهر التواضع ومنع الناس من تقبيل يديه و الارض عند الدخول اليه ومنع ذكره باسم سيدنا في المكاتبات وركب الحمير بدلا من الخيل المطهمة و ارتدى الملابس البسيطة الخشنه و منع الزينات و ضرب الطبول و الابواق عند خروجه ولكن ربما كان ذلك يخفي وراءه سرا .

فمع تطور الدعوة الفاطمية بدئت الحاجة لما هو ابعد من الازهر والعودة ثانية للدعوة السرية للعقائد الباطنية التي بعثت من جديد في عهد الحاكم بأمر الله فكانت دار الحكمة التي أنشئت ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي الصغير و نقلت اليها مكتبة عملاقة و اوقفت ارض شاسعة ينفق من غلتها على الدار و موظفيها و مدرسيها كجامعة مفتوحة تحتوي العديد من الاقسام ويعين لها اقطاب الاساتذة في كل علم و ينتسب اليها الكافة بلا تمييز هي المركز

الملائم فسرعان ما ابعدها العلماء السنة وبدئت في التحول لمركز لاستقطاب الصالحين
للدعوة السرية و نشرها وقصر التدريس بها علي الافكار والعقائد الباطنية التي لا تلائم العامة
ولا يطلعون عليها .

والكثير من النصوص الشيعية توضح جانبا من التفسيرات الباطنية لنصوص الكتاب والسنة و
الكثير منها يدور حول منزلة الأمام و التأكيد على كونها ركن من اركان الدين ان لم يكن اهم
اركانه (فالبسملة مثلا تم تفسير ان كلماتها ان بسم الله المكونة من سبعة احرف ترمز الي
الائمة السبعة و الرحمن الرحيم ترمز حروفها الإثنا عشر الي الإثنا عشر داعية الذين ارسلهم
الامام في انحاء الارض وهكذا)

و اساس العقائد الاسماعيلية يكمن في منزلة الامام حيث ان الامام ليس مجرد قائد سياسي
صاحب الحق الطبيعي في قيادة الامة الإسلامية و إنما هو قائد ديني هادي بالحق لما اختلف
فيه المسلمون وهذا يعني بالضرورة امران الأول ان قول الامام أقوى من النصوص وحاكما
عليها والثاني ان النصوص تحتمل من المعاني أكثر مما يفهمه عامة الناس ولهذا كان التأويل
الباطني ضرورة حيث انه لو كان فهم النصوص الكامل ممكن بالتفسير الظاهري طبقا لقواعد
اللغة و المنطق لما كان لوجود الامام ضرورة ولما كان لقوله بإزائها حجة ولكن يجب ان يكون
العقل البشري قاصرا عن ادراك المعني في النص الديني حتى يلزم وجود قوة اعلي ممثلة في الامام
يهدي الناس ويدلهم على الصواب الذي لا يدركون بعقولهم .

وفي المقابل فقد شاع بين اهل السنه و معارضي المذاهب الباطنية أن الفاطميين والقرامطة من
اصل واحد وعلي دين واحد وهم ابناء ميمون القداح و ان دعواهم ليست إلا دعوى لهدم
الإسلام من الداخل على يد مدعين الإسلام من الفرس الذين فقدوا دولتهم و ارادوا الانتقام
وإعادة مجدهم بالثورات الشعبية فلما فشلت اتجهوا لضرب الدين من الداخل ويلخص الأمام
الغزالي رؤيته لمذهب الباطنية بقوله (هو مذهب ظاهرة الرفض و باطنه الكفر المحض ومفتحه
حصر مدارك العلوم في قول الأمام المعصوم وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعترضها
من الشبهات)

وان الدعوة الفاطمية كانت تجري على تسع مراتب ينتقل فيها المنتسب اليهم من درجة العامي الغر المخدوع الذي يخاطب بما يعقل من ظاهر الامور الي ان يعتقد بلزوم الإمامة ثم يعرف علي الائمة السبعة و اخرهم محمد بن اسماعيل قائم الزمان ثم يعرف بعقيدتهم ان الانبياء هم فلاسفة العامة ارسلوا لسياستهم و تنظيم حياتهم بالشرائع بينما الخاصة من العارفين غير مكلفين ولا مخاطبين بها ثم يتحول المدعو تدريجيا الي داعية و قد عرف من اصول المذهب و اسراره ما يناسب قدراته و تأكد من ولاءه .

وهكذا تبدوا سرية الدعوي منطقية فمن ناحية القول بان الشرائع تلزم العامة ولا تلزم الخاصة لا يعدو كونه وصمة بالإلحاد لمن يقول به فلا يمكن ان يتقبل عامة المسلمون القول بإسقاط الشريعة دون تكفير من يقول بذلك ومن ناحية اخري فالاعتقاد بان العامة لا يصلحون لمعرفة اسرار الدعوة ولا يستطيعون ادراك حقائقها يجعل سرية العقائد التي لا تصلح إلا للخاصة حتميا حتى لا يفتن العامة ويفسد دينهم البسيط الذي ينظم حياتهم ومعاملاتهم علي قدر عقولهم .

وفي المقابل فالرؤية الشيعية العامة المعلنة للائمة هي كما يعبر عنها القاضي النعمان (خلق من خلق الله وعباد مصطفون من عباده أفترض طاعة كل امام منهم على أهل عصره وأوجب عليهم التسليم لإمره وقرن طاعتهم في كتابه بطاعته وطاعة رسول الله وهم حجج الله علي خلقه وخلفاؤه في ارضه) واستعان الشيعة على تأكيد ان الإمامة مسألة عقائدية وليس سياسية بالعديد من الايات والأحاديث و في سبيلهم لذلك نشأ اسلوب التأويل الباطني للنصوص الشرعية الذي لم يقتصر علي مسألة الإمامة بل تعداها لغيرها وبالغ بعض الشيعة في أجالال الائمة حتى قيل انهم يعلمون الغيب و ان اعمال الخلق تعرض عليهم و انهم يجتروحون المعجزات وتسربت للإسماعيليين أفكار تناسخ الأرواح والحلول والاتحاد و غير ذلك من الأفكار الفلسفية و العقائد الباطنية التي تجد جذورها في العقائد الفارسية القديمة وكان انتشار مثل هذه الافكار في الإطار الأسطوري الذي وضعه الإسماعيلية للعقائد طبيعيا برغم تبرى العديد من علماء الشيعة من هذه الافكار ووصفهم اياها بأنها من نبات افكار المتطرفين

و الزنادقة و نشرهم اعدائهم وألصقوها بهم في أطار الحرب العقائدية وإضلالا عن سبيل الهدى .

ومنذ عام ٤٠٧ هـ بدء ظهور بعض دعاة الاسماعيلية الفرس بمصر وكان أكثرهم جرأة نشتكين الدرزي الذي جاهر بتأليه الحاكم في جامع عمر بن العاص وانه رمز حل فيه الاله فنثار عليه الناس و تصادموا مع اتباعه في معركة في الشوارع قتل في حضمها .

ودعوى ان الحاكم تجسيد للإله في صورة بشرية لم يسبق ان سمع بها في تاريخ الإسلام من بعد حركة المنع الخرساني المستندة للعقائد الفارسية القديمة الي أن تجددت على يد دعاة الحاكم الاسماعيلية من الفرس خاصة محمد بن اسماعيل الدرزي والذي كان يعتقد في الحلول وتناسخ الارواح وان روح ادم حلت في علي بن ابي طالب و روح علي حلت في الحاكم و كان للدرزي مكانة كبيرة عند الحاكم حتى انه امر القواد والوزراء ان يقفوا ببابه ولا يقطعوا امرا من امور الدولة إلا بإمرة حتى ثار الناس عليه وعلي تلك الدعاوى الاحادية التي كان القصر يدعمها سرا حيناً وجهراً حيناً وترى العامة بالدرزي و اردوا قتله وقتلوا العديد من الدعاة وأعوانهم الذين اقتحموا المساجد وحاولوا فرض عقائدهم هذه على الناس فهرب الي الشام و اسس الديانة الدرزية بها والتي تعتبر الحاكم آخر النطقاء الذي انتقلت اليه روح آدم من خلال علي بن ابي طالب وحلت به الروح الإلهية فصار تجسيدا بشريا لله في اعتقاد مشابه لاعتقاد الكاثوليك في المسيح .

حيث يعتقد الدرزي ان الاله ظهر في تاريخ العالم الذي يمر بسبعين مرحلة في هيئات بشرية فظهر سبعين مرة في صورة فلاسفة وانبياء متعددين فتجسد في صورة ارسطو وبعض العلماء الهنود و الفرس واخيرا في صورة الحاكم بامر الله الذي كان اخر تجلى الهى في صورة بشرية , واغلق باب العقيدة من بعدة فليست الدرزية ديانة تبشيرية بل تنتقل من الاباء الذين اعتنقوا الديانة الى ابنائهم فقط , و الذين يظلون دروز حتى وان اعتنقوا ديانات اخري ظاهرياً , وبالإضافة الى التجلى الالهى يكون هناك وزراء فكان عيسى عليه السلام و سلمان الفارسي ووزراء للأله ويمثلون العقل بينما غيرهم يمثلون النفس والبلاغة و العلم و في نهاية العالم حسب معتقداتهم ينضم الدرزي من كافة ارجاء العالم الى اخوانهم في هجر ثم يفتحون مكة و يقاتلون

المسلمين و المسيحيين في القدس حتى يفتحونها و تقوم الساعة .. ولا يعرف اسرار العقيدة الا العقل حيث بعد بلوغ الدرزي الخامسة عشرة يخضع لاختبارات متعددة يكتشف فيها العقيدة تدريجيا حتى ينضم الى زمرة المؤمنين العقل .

وكان ضيق الحاكم بالعامه من اهل الفسطاط شديد وازدادت كراهيته و حقه عليهم لتصديهم لدعاته و الثورة عليه فأوعز الي جنوده السودان بمهاجمة المدينة فعاثوا فيها تدميرا وفي اهلها قتلاً ونحبا و اغتصابا واختطف من نساءها الكثير وانتحر منهن الكثير خشية الاغتصاب حتى تصدي لهم الجنود المغاربة و الاترك و لهم بالمدينة املاك و اصهار وقاتلوهم و لم يتوقف الدمار إلا بعد احتراق معظم الفسطاط و بعد ان هدد المغاربة و الاترك بإحراق القاهرة

وأخيرا اتت نهاية الحاكم الذي اختفي ٤١١ هـ مع اثنين من خدمة ولم يعثر إلا علي بعض ملابس ملطخة بالدماء بعدها بأيام وتكاد الروايات تجمع على ان من وراء اغتياله اخته ست الملك بالاشتراك مع القائد المغربي سيف الدولة ابن دواس ليتولى ابنة الظاهر الخلافة بعد التخلص من ولي عهدة بمؤامرة اخري سريعة .

وساعدت الطريقة التي قتل بها الحاكم في صعود مذهب حمزة بن علي الدرزي ان الحاكم لم يمت وإنما غاب وسيعود يملئ الارض عدلاً باعتباره المهدي المنتظر و غير ذلك من العقائد الباطنية التي انتشرت بالشام التي استمرت بها أسطورة الحاكم بينما اندثرت في مصر.

وقبل ان يتولى الظاهر الخلافة دبرت ست الملك مؤامرة جديدة للتخلص من شريكها سيف الدولة فقتل و تولي الظاهر الخلافة وست الملك تدير الامر في الخفاء واعتمدت في تدير شؤون المملكة على القائد خطير الملك أبي الحسين ولكن بمجرد ان استقرت الاوضاع قتل بدوره وانفردت بحكم مصر فلا ينفذ امر صغير أو كبير إلا بتوقيع كاتبها الي ان توفيت ٤١٣ هـ ليبدأ عهد الظاهر الفعلي .

وبدء الظاهر بإلغاء تدريجيا لمراسيم والدة الجائرة و رفع عن اهل الذمة ما كانوا فيه من اضطهاد وترك للناس حرياتهم الدينية وعادت الدولة لسابق عهدها المتسامح والغني مراسيم

حظر الاطعمة و المشروبات و المحاصيل غير المبررة التي قام بها الحاكم و اعلن تبرئة من افكار تأليه الائمة و توعده من يقول بها بشديد العقاب .

وصدرت في ٤١٤ هـ وثيقة من القصر الفاطمي موقعة بإمضاء الخليفة الظاهر جاء بها (وذهبت طائفة من النصرية الي الغلو في ابينا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب , غلت و ادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح ونجحت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيصة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل فغلوا فينا غلوا كبيرا وقالوا في آباءنا و أجدادنا منكرا من القول وزورا ونسبونا بخلوهم الاشنع و جهلهم المستفزع الي ما لا يليق بنا ذكره وإنما لنبرأ الي الله تعالي من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال , ونسأل الله ان أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه) و توعده من قال بان الفاطميين يخرجون عن حد العبودية لله بالقتل .

وطارد الظاهر القائلين بالوهية الحاكم وأخرجهم من مصر فتحجم بعضهم في وادي التيم بالشام الذي تحول لمركز تجمع الدروز الي اليوم .

وهدئت الاوضاع الداخلية في مصر بينما دخل الظاهر في صراع مع الدولة البيزنطية و قبائل العرب التي فرضت سيطرتها علي الشام وحاول الحفاظ على نفوذ الفاطميين في المغرب ليستعيد للدولة ما فقدته خلال عهد الحاكم المضطرب حتى وفاته ٤٢٧ هـ ليبدأ عهد المستنصر بالله .

وعندما خلف المستنصر والده الخليفة الظاهر كان بالكاد بلغ السبع سنوات وشهدت سنوات عهد المستنصر الطويلة التي بلغت ستون عاماً كاملة صعود نجم دولة الفاطمية لأقصى الحدود ثم بدء انهيارها وسقوطها.

الفاطميين السقوط

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت في عذلي

بالله زر ساحة القصرين وابك معي ... عليهما لا على صفيين والجميل

الشاعر والكاتب عمارة اليميني

ادار الدولة الفاطمية في بداية عهد المستنصر الوزير نجيب الدولة الجرجاني بكفاءة حتى توفي ٤٣٦ هـ فظهرت ام الخليفة في الصورة و تحكمت في الأمور ولقبت بالسيدة الملكة وأصبح يشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع و أصبح لها الكلمة في تعيين الوزراء و كبار الموظفين و الاشراف علي تصرفاتهم .

وفي ٤٤٣ هـ اعلن المعز بن باديس اسقاط الدولة الفاطمية في المغرب و استقلاله بدولته و جاهر بلعن العبيديين كما كان يلعنهم سرا والغى المذهب الشيعي و احرق مدارس الاسماعيلية و اعتمد المذهب المالكي للدولة وأقام الخطبة في افريقيا (تونس الحالية) للعباسيين كما اقتني اثرة والي برقة ولكن المستنصر رماهم بقبائل العرب وكان الفاطميون قد أسكنوا بني هلال وبنى سليم صعيد مصر فكثرت أعدادهم وضح الناس من عدوانهم وفسادهم ففكر الوزير ابي محمد الحسن في ان يقطعهم الخليفة افريقيا والمغرب وينقلهم اليها ليتخلص منهم ومن ابن باديس معاً و هكذا بدئت اسطورة التغرية الهلالية المعروفة في السير الشعبية بصورة مختلفة تماما عن الواقع حيث سارت جموع بني هلال كما يصفهم ابن خلدون(كالجراد المنتشر لا يرون شيئاً إلا اتوا عليه) ودمروا كل ما وجدوا امامهم واستجد المعز بن باديس بقبيلة زناتة فأتاه الف فارس منهم و كذلك انضم اليهم العرب البادية ولكنهم انضموا للهلالية وقت المعركة انتصارا للعرق .

وهزم ابن باديس و انسحب إلى القيروان ثم اضطر للانسحاب منها إلى المهديدة ليدخلها بني هلال و يدمرونها تماما وقتلوا من لم يتمكن من الفرار من اهلها بلا حريرة ودمروا دولة بن باديس واقتسموا بلاده بينما سالمهم بنو حماد في المغرب الاوسط ولم يتصادم معهم المرابطين

الذين بدئت دولتهم في الصعود بقيادة يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى رغم عداوتهم للفاطميين.

ونشطت دعوي الفاطميين و مدوا سيطرتهم الي عمان ومحاولين اقامة خطوط تجارية قوية تمتد من مصر الي الهند والسند وأنتشر دعائهم في الهند ومما يلتفت اليه ان لفظ البهرة وهو الفرع الهندي من الاسماعيلية يعني في اللهجات المحلية التاجر.

وفي ٤٥٠ هـ كان انتصار الفاطميين الاعظم حيث أستطاع القائد العباسي الشيعي البساسيري ان يستولي على بغداد ورفع الوية المستنصر عليها و دخل المسجد الجامع يوم عيد الاضحى فكسر المنبر و قال هذا منبر نحس اعلن عليه لعن ال محمد وأقام منبر جديد خطب للمستنصر من عليه وأرغم الخليفة العباسي القائم على كتابة أقرار بيده ان لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود ابناء فاطمة وأرسل هذا الكتاب الذي شهد عليه كبار بغداد الي المستنصر ليظل في ذخائر الفاطميين حتى استولي صلاح الدين على دولتهم لتقام الافراح في القاهرة و تزين شوارعها التي طاف بها المغنيين و الموسيقيين ينشدون

يا بني العباس ردوا ... ملك الأمر معد

ملككم ملك معار ... والعواري تسترد

ولكن تألق نجم المستنصر لم يستمر طويلاً وراياته التي ارتفعت من المغرب الي الهند سرعان ما انخفضت فبعد أقل من عام دخل السلاجقة بغداد و قتلوا البساسيري الذي لولا قلة ثقة المستنصر به وعدم إمداده بالمال و الرجال لكان قضي على العباسين تماما وأعيدت الخلافة العباسية ومذهب السنه لبغداد .

وفي ٤٥٧ هـ كانت بداية سنوات الشدة المستنصرية السبعة التي يشيب لهولها الولدان .

لم تكن ظاهرة نقص النيل و الازمات الناتجة عنها جديدة أو نادرة بل ان دخول الفاطميين مصر كان في ظل احدي هذه الازمات التي تكررت في عهدهم مرات وكان المستنصر يقوم بشراء غلال بقيمة مائة الف دينار في كل موسم حصاد ويتم تخزينها في المخازن السلطانية

كاحتياطي ولكن الوزير ابو الحسن اليازوري اقنع المستنصر بالتوقف عن تخزين الغلال واستثمار الأموال في تجارة اعلي ربحية ولذا فعندما وقعت الازمة لم يكن للمستنصر قدرة على مواجهتها سريعا و عندما نقص ماء النيل ظن المستنصر انه يمكنه استيراد الغلال لتعويض النقص حتى الموسم القادم .

ولكن النقص في ماء النيل أستمر و تزايد عام بعد عام وكأن يداً سدت شريان الحياة الي مصر وارتفعت اسعار الغلال بجنون و ادى الجفاف الي انتشار الأوبئة المخيف فأصبح الناس يتساقطون في الشوارع من الطاعون و الجوع .

وبدئت الخلافات العنصرية تتفاقم في الجيش والحاشية الفاطمية متعددة الاعراق خاصة بين المغاربة و الاتراك حتى قتل متولي الديوان ابي سعد التستري المدعوم من ام الخليفة بتحريض من الوزير الفلاحي الذي قتله الخليفة فيما بعد وبدئت ام الخليفة في جلب الالاف من العبيد من السودان والحبشة وتحييدهم ليكونوا سندا لأبنها و قوة عسكرية مضادة لنفوذ الاتراك و المغاربة المتنازعين ولكن ذلك ادي لعكس غرضها فقد ادرك الجند الاتراك بقيادة ناصر الدولة ابن حمدان ما يحيق بهم من خطر و بادروا بقتال السودان حتى اضطروهم للهرب و التشتت في الصعيد ٤٦٠ هـ

و تحول ابن حمدان الي طاغية حبس الخليفة في قصره واحل لجنده نهب القاهرة و استولوا على ذخائر المستنصر وكنوز قصره وفرقوها بينهم بعدما اتهموه بأنه يدعم السودان بالمال سراً ليقويهم على محاربة الأتراك و حجر ابن حمدان علي المستنصر وخصص له راتب شهري يأكل منه وضيق علي ابناءه حتى خرجوا من القاهرة واستمرت محنة المستنصر حتى تواصل بعض القادة الاتراك الذين ساءهم استبداد ناصر الدولة مع الوزير خطير الملك فقال لهم إنما وصل ناصر الدولة إلى هذا وغيره مما هو فيه بكم ولولا أنتم لما كان له من الأمر شيء ولو أنكم فارقتموه لا نحل أمره واتفقوا على أن يكونوا جميعا عليه ويحاربوا حتى يظفروا به ويخرجوه من مصر ودخلوا إلى الخليفة المستنصر وسألوه أن يبعث إلى ناصر الدولة بالخروج من البلاد فأسرع ناصر الدولة وأصحابه بالهرب الي الحيزة خشية القتل بينما نجت ديارهم .

وخرج له المستنصر وقد صار معه من الجند والعامّة الكثيرين فهزموه واضطروه للهرب للبحيرة ويقال أنه توصل مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان ٤٦٢ هـ يدعو لغزو مصر علي ان يكون نائباً له ولكن بعد المسافة وتهديد البيزنطيين منع ألب أرسلان من انتهاز الفرصة و عندما عرف جنود ناصر الدولة بمؤامرتهم ثاروا عليه وقتلوه و وضعوا رأسه بين يدي المستنصر.

ولكن احوال البلاد لم تتحسن وما بين عامي ٤٥٠ هـ الي ٤٦٦ هـ تولى وزارة مصر ٥٤ وزير لا يكاد احدهم يصل للسلطة حتى يقتل نتيجة مؤامرة من آخر يجلس محله .

وعمت الفوضى مصر و انحل جيشها و ادارتها و المجاعة القاتلة تضرب ربوعها و طالت اثارها حتى الخليفة المستنصر الذي هرب نساءه خارج مصر و فقد ذخائر قصره بين ما قام ببيعه و ما قام الجنود بنهبه حتى لم يعد بيد المستنصر شيء و تقص الروايات انه بلغ درجة من سوء الحال ان تولت أحدي سيدات القاهرة إطعامه رغيفين في اليوم بينما كان عامة المصريين يتساقطون في الشوارع قتلي الجوع و اكلوا القلط والكلاب و سائر الحيوانات و القوارض ثم اكلو الجثث و خربت القطائع و الفسطاط حتى لم تجد الجثث من يدفنها في تلك المجاعة المخيفة التي يروي المقرئزي قصص مرعبة عن احداثها ذكر فيها ما روي عن ظهور جماعات تحطف البشر وتأكل لحومهم على ما في ذلك من مبالغة.

وفي النهاية انتهت المحنة وعاد النيل لمعدلاته الطبيعية بعد سنوات الشدة السبعة التي قدر المؤرخين أن ثلث سكان مصر ماتوا جراء نقص الغذاء و الاوبئة و الامراض في خلال سنواتها التي يعجز القلم عن وصف بشاعتها و عظائم مصائبها .

ولكن الدولة المركزية في مصر كانت قد انتهت ولم يعد للمستنصر الحبيس في قصره سوي الجدران يحدق بها والحسرة في صدره على ملك عظيم تبخر في سنوات الجوع و الرعب وتقاسمت مصر فرق الجنود و العصابات .

وفي النهاية راسل المستنصر سراً والي عكا بدر الجمالي الذي كان مملوكا للقائد البربري جمال الدولة بن عمار واتفق معه ان يأتي لمصر و ينهي الفوضى بما مستعينا بجيشه من الارمن.

وعندما وصل بدر الجمالي الي مصر ٤٦٦ هـ وجد الفسطاط و قد أصبحت خرابا لا حياة فيها وكذلك أجزاء كبيرة من القاهرة فوهبهم لجنوده لينبوا مساكنهم و يعمروها .

وبدء بدر بالهجوم على قبيلة لتوانة التي كانت تسيطر علي الوجه البحري فهزمهم و أعاد المناطق التي كانت تحت ايديهم لسلطة الدولة ورحب المستنصر ببدر و قلده وزارة السيف و القلم ومنحة لقب السيد الأجل امير الجيوش ليكون اول وزير تفويض في الدولة الفاطمية .

و في الحي الذي يعرف الآن بالجمالية نسبة لبدر الجمالي أتخذ بدر مسكناً و دعا أمراء الجند المتناحرين يتودد اليهم و يعدهم بالخير و التعاون فلما اجابوا دعوته اقام لهم مأدبة كبيرة فاخرة عامرة بأصناف الطعام و الخمر ولكن عندما كان أحد الامراء يخرج لقضاء حاجته لم يكن يعود .

ولما طلع الصباح كانت جثث الامراء تملئ باحة المنزل و امتلئ جوال برؤوسهم و ارسل إلى المستنصر ثم وجه بدر جيشه إلى الصعيد لمحاربة كنز الدولة الذي كان استقل به و مجابهة ثورة الجند السودان و العرب بما وقضي علي الجميع و اعاد سيادة الدولة على الصعيد و أعاد الخطبة للفاطميين بمكة والمدينة .

ومع بدر الجمالي بدء عصر الوزراء الاقوياء في الدولة الفاطمية و أسس بدر لمرحلة جديدة يكون فيها الخليفة رمز روحي مكرم بينما يمتلك الوزير كل الاوراق في يديه و يجمع بين قيادة الجيش الذي أصبح الارمن عصبه و المؤسسة المدنية و الخمسين عام تالية حكم بدر و من بعدة ابنه الافضل الدولة الفاطمية .

وبدء بدر الإصلاح بان اعفي المزارعين من الضرائب ثلاث سنوات لتعويضهم عن سنوات القحط و ما اضطروا لدفعه من الاتاوات للعصابات و قادة الجند ورسخ الامن و العدالة فانتعشت التجارة و عمرت الاسواق و بدئت الروح تعود لمصر التي هدت قواها سنوات الحرب الاهلية و المجاعة .

وانتعشت احوال مصر في عهد بدر الجمالي حتى زاد الخراج من مليوني ديناري قبل المحنة الي اكثر من ثلاثة ملايين دينار وبنى في عهده العديد من المساجد الكبرى ولكنة في المقابل حاول اعادة احياء المذهب الاسماعيلي فضيق علي الناس حريتهم الدينية وقتل العديد من الفقهاء والعلماء .

وزوج بدر ابنته ست الملك إلى الخليفة المستنصر ليتحول إلى جد امير عهد منتظر ومنافس لنزار الابن الاكبر للمستنصر وولي عهدة الذي فطن لمحاولة بدر استبداله وقاوم بعنف وتواصل مع قادة الحركة الشيعية الاسماعيلية مشككا في ديانة بدر الأرمي بينما معظم جنوده من الارمن ظلوا مسيحيين وتحالف سرا مع والي الإسكندرية منتظرا أن تواتيه الفرصة ليطيح ببدر.

وفي احتفال ضخم ولي بدر ابنه الافضل كولي لعهدة ٤٧٧ هـ بحضور المستنصر الحاكم الاسمي للدولة التي تحولت لميراث لبدر الجمالي الذي توفي بعدها ليتولى الافضل الوزارة و في العام التالي توفي المستنصر في هدوء غاب عن اغلب فترات حياته العصبية.

وسارع الأفضل بإعلان أحمد بن المستنصر و ابن أخته الملقب بالمستعلي خليفة ولكن نزار الابن الاكبر للمستنصر لم يستسلم وبينما قبض الافضل على أخويه وأرغمهما علي مبايعة المستعلي فر هو الي الإسكندرية و تحصن بها معلناً نفسه الخليفة الشرعي وريث المستنصر حسب العقائد الشيعية.

وكانت الحرب الأهلية حتمية فقد أنضم لنزار المتحصن في الإسكندرية الالاف من الجنود ولكنة تعجل الهجوم علي القاهرة فكمن له الأفضل وهزمه في معركة كوم الريش وقبض عليه ثم أمر فبني عليه في سجنه حائطاً و تركه حتى هلك بين الجدران جوعاً وعطشاً !

وانشقت دعوة الفاطميين علي نفسها حيث اعلن الاسماعيلية في مصر و الشام و اليمن و الهند خلافة احمد وعرفوا بالمستعليية بينما تمسك شيعة ايران بإمامه نزار و رفع الداعية الشيعي النشط في الشام وفارس وخراسان الحسن الصباح لواء النزاية ووضع جهود جماعة الحشاشين الشهيرة التي كونها وقادها في خدمة هذا المعتقد .

الحسن الصباح و جماعة الحشاشين

ولد الحسن الصباح لعائلة شيعية اثنا عشرية ولكنه تحول الي مذهب الاسماعيلية في مطلع شبابه حيث يروي انه كان يناظر احد دعاة الاسماعيلية و يشتد عليه ولكن عندما اصابه المرض نذر ان يعتنق المذهب الاسماعيلي و يبذل حياته في نشرة بدلا من الجدل في محاولة ابطالة .

ولتميز الحسن الدراسي وقد تفوق في دراسات الفلك و الرياضيات و الفلسفة بالإضافة لشخصيته المتميزة تمكن من الحصول على وظيفة مرموقة في بلاط السلاجقة في عهد السلطان ملكشاه ولكنه تصادم مع الوزير نظام الملك ليهرب ويتجه إلى مصر حيث لفت الانظار اليه وقابل الخليفة المستنصر و اخذ عن علماء الاسماعيلية واطلع على مؤلفاتهم قبل ان يغضب عليه الوزير بدر الجمالي فيأمر بنفيه فاتجه الشام ثم فارس مواصلا نشاطه الدعوي ولكن السلطات في الدولة السلجوقية تنبهت لخطره لما كثر اتباعه واتهموا بقتل مؤذن مسجد أطلع على بعض اسرارهم فتحول الحسن الي الشمال حيث هضبة الديلم حيث الاغلبية الشيعية و الجبال الوعرة التي تكفل له و لإتباعه الحماية وتخبر الحسن قلعة الموت الحصينة وسط الجبال لتكون مكان اقامته ورحب به القائم عليها و سمح له بالبقاء و استقدام اتباعه واستقبال تلاميذه وإلقاء الدروس بها بحرية تامة فلما تمكن الحسن و شعر بقوته وكثر اتباعه استولي على القلعة وطرده القائم عليها ٤٨٣ هـ لتبدأ أسطورة الحشاشين .

وقد اشتهرت القلعة في الغرب من خلال ما روي الرحالة ماركو بولو من مشاهدات مذهلة عن القلعة التي يسكنها المجاهدون الذين يدينون لشيخهم بالطاعة العمياء ويفسر شجاعتهم و استهتارهم بالموت بان شيخهم يخذرهم ثم يدخلهم الي بستان سري به انهار من غسل ولبن و جواري جميلات يغنين ويرقصن و يعزفن ثم يخذروا ثانية و يخرجوا من البستان وقد وقع في قناعتهم انهم شاهدوا الجنة ولا يمنعهم من العودة اليها إلا تنفيذ اوامر الشيخ و الموت في سبيلها .

ورغم شيوع مثل هذه القصص إلا ان العديد من المؤرخين يرون رواية ماركو بولو بما الكثير من المبالغات ان لم تكن مختلفة من اساسها وان ماركو لم تطأ قدميه القلعة ابداً .

وفي رسالة الحسن التي يرد فيها على رسالة لملكشاه يتهمه فيها بابتداع دين جديد والخروج على الائمة ويدعوه للتوبة أكد الحسن انه على دين الإسلام يعتقد ما أعتقده الصحابة والتابعين و لا يطعن في احد من الخلفاء الراشدين و انما ينكر على العباسيين استبدادهم بالأمر دون مستند شرعي بينما ابنا علي بن ابي طالب اولي منهم وأحق وأنهم لم يقوموا بحماية الدين ولا سياسة الدنيا وإنما انشغلوا بالملذات والمحرمات واعتدوا على حرمت المسلمين و اراقوا دمائهم و استباحوا اعراضهم فكيف يكون عدائه لهم خروجاً على امام شرعي ؟ و حاول تهمين امرة لملكشاه فقال انه اختار زاويته يلجئ اليها لان اعدائه يطلبون دمه وخاصة الوزير نظام الملك الذي يظلمه فأن فرغ السلطان من امر اعدائه لجيء اليه وكان في جملة عبيدة ولا يخرج عن طاعته .

ولكن في الوقت الذي تجنب فيه الحسن المواجهة مع السلطان بدبلوماسية ارسل دعواته ينشرون المذهب الاسماعيلي في فارس واستولوا على عدة قلاع فلم يكن هناك سوى التدخل العسكري فأرسل ملكشاه قواته فحاصرت قلعه ألموت اربعة اشهر كاملة قبل ان تهاجم قوات اسماعيلية استنجد بها الحسن من أنحاء فارس معسكر ملكشاه في هجوم ليلي مفاجئ وتضطرهم الي الانسحاب بينما تمكن احد فدائي الحسن من اغتيال غريمه الوزير نظام الملك في ضربة مفاجأة ثم توفي السلطان ملكشاه فتوقفت الحملة ضد الحسن الصباح وعادت القوات لقواعدها .

وعندما وقع الانشقاق الكبير في الدعوة الاسماعيلية ٤٧٨ هـ عمل الحسن الصباح على تأسيس الدولة النزارية في المناطق التي يسيطر عليها ليدخل في صراع دموي مع الدولة الفاطمية ويمثل مصدر رعب مستمر لها .

والاغتالات هي السمات المميزة لحركة ألموت الشهيرة بحركة الحشاشين حيث كانوا يسيطرون على المناطق التي يتواجدون فيها بالإرهاب و اختطاف و اغتيال من يعارضهم خاصة القادة

الدينين والعسكريين وظل سلاح الاغتيالات الماضي يتخزن في الامراء و الوزراء و الفقهاء و
القضاة حتى بدء السلاجقة في توجيه حملة عسكرية قوية ضد معاقلهم ٥٠٠ هـ دمرت
معظمها وفي ٥٠٣ هـ توجه الوزير نظام الملك وأخيه فخر الملك ولكن رغم طول الحصار فشل في
الاستيلاء على القلعة المحصنة وتكررت المحاولات الفاشلة حتى وفاة السلطان محمد ٥١١ هـ
وبعده قام الحسن بمناورة كفلت له ان يتجنب خليفته السلطان سنجر محاربه حيث استمال
احد خدام القصر و جعله يدس خنجرا و رسالة من الحسن الصباح تحت وسادة السلطان
سنجر نفسه جمع فيها بين التهديد والتودد فكتب بما انه لو اراد قتله لفعل و هذا الخنجر
دليلة و لكنه يراه رجل صالح ولا يجب ان يعاديه و لا نفع من تصادمهما .

بالفعل اوقف السلطان سنجر الحملات العسكرية ضد الحسن وفي ٥١٨ هـ مرض الحسن
مرض الموت فاستدعي كبير دعائه برك و عهد له بقيادة الجماعة التي اسسها وأدارها من
عزلته بقلعه ألموت ٣٥ عاما من بعده .

ولكن الحركة لم تنتهي بوفاة الحسن بل ازدادت شراسة ففي ٥٢٠ هـ قتل الحشاشون قسيم
الدولة صاحب الموصل ثم الوزير السلجوقي معين الدين ثم بلغت اغتيالهم مداها الأقصى
باغتيال الخليفين العباسي والفاطمي ٥٢٤ هـ .

واستمرت الحركة مصدر رعب حتى تولي جلال الدين قيادة الحشاشين ٦٠٧ هـ فأعلن تبرئة
من كل ما يخالف الشريعة و عقائد يوم القيامة التي أعلنها اباه وجدته و تقضي باستحلال
الدماء و سقوط الفرائض و ارسل إلى الخليفة العباسي و أمراء السلاجقة يبلغهم بطاعته
والتحالف معهم حتى وفاته ٦١٨ هـ و ظلت العلاقات بينهم وبين العباسيين والخوارزميين
متباينة بين التحالف والصراع حتى اتي التتار فدمروا قواعد الحشاشين و اقتحموا قلعه ألموت
التي صمدت امام كافة المحاولات من قبل و احرقوا مكتبته التي كانت تحوي ذخائر
الاسماعيلية و نتاجهم الفكري ٦٥٤ هـ لنتنقل مراكز الدعوة النزارية الي الهند حيث صعدت
الاغاخانية والي الشام حتى قضى عليهم الظاهر بيبرس .

وتوفي المستعلي بعد سنوات قليلة دون ان يلفت الانظار اليه ليخلفه ابنه الأمر بأحكام الله وهو ابن خمس سنوات فقط لتستمر السلطة بيد الافضل الذي عزل الخليفة بالقاهرة واتخذ عاصمة ادارية باسم دار الملك خارجها واطرف من شعائر الفاطميين و السمت الديني للدولة واستجلب المزيد من الارمن وأحاطهم به كجيش شخصي له في ظل تهديدات النزارية الذين تسللوا إلى مصر وحاولوا اغتياله عدة مرات .

ولكن نهاية الأفضل كانت علي يد الخليفة الأمر الذي دبر مؤامرة لاغتياله فقتل ٥١٥ هـ وسجن ابنائه واستولي على ثرواته الكبيرة ففضي اربعين يوما في حصرها و تولي الوزارة من بعدة مأمون البطائحي الذي اشترط على الأمر ان لا يأمر بشيء سرا أو جهرا يكون فيه ذهاب نفسه أو انحطاط قدرة وان تكون الوزارة بعد وفاته في ذريته و كتب بذلك عهدا .

وبرغم قلة الثقة الواضحة في هذا التعهد الفريد من نوعه إلا ان فترة حكم الأمر و مأمون كانت فترة انتعاش و ازدهار للدولة الفاطمية وعمرت القاهرة وازدانت وأقيمت مساجد وجدد ما حارب من القاهرة الي ان وقعت الوحشة بين الرجلين فاستدعي الأمر مأمون وأخيه المؤمن و اتهمهما بالخيانة والأعداد لمؤامرة لقتله واعتقلهما ثم استدعى قاضي القضاة والأمرء وأشهدهم على تفاصيل المؤامرة (سواء كانت حقيقة ام لا) و انتهى الامر بقتل مأمون وأخيه ٥٢٢ هـ وانفرد الأمر بالسلطة اخيرا ولكنه لم يهنأ بها طويلا حيث تسلل عدد من النزاريين الي مصر واغتالوه ٥٢٤ هـ

وسبب مقتل الأمر أزمة كبيرة في الدعوة الاسماعيلية ذلك ان الأمر لم يكن له أبناء وهكذا فان الدعوة الاسماعيلية انتهت والدولة الفاطمية سقطت فلا أمام ولا خليفة !

ولكن لأن الحاجة أم الاختراع فقد تم اختراع حلين .

في اليمن وجدت الملكة اروى بنت أحمد الصليحي (حكمت اروى اليمن بعد وفاه زوجها المكرم أحمد حاكم اليمن نيابة عن الفاطميين و بعد وفاته زوجها المستنصر بالأمير المنصور سبأ ولكن ظل زواجهما صوريا حتى وفاته فانفردت بالحكم) طريقة للاستقلال بالسلطة والدعوة في اليمن فقد ادعت ان الأمر انجب طفلا واسماه الطيب و فر به الدعوة الي اليمن

بعد قتل النزارية لأبيرة خوفاً عليه فنشأت الدعوة الطيبية التي اعترف بها إسماعيلية اليمن و الهند وبايعوا الامام الذي لم يره أحد ابداً وحكمت اروى اليمن باسمه .

و في مصر تولى ابن عم الأمر الامير عبد المجيد الحكم باعتباره وكيلاً وأمام مستودع لابن الأمر الذي لم يولد حيث ادعى أن احدي جواريه حامل في ابنه وتولى هزار الملوك جوامرد وزيرا .

ولكن تمرد قام بين الجنود واخرجوا أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي من السجن فبادر بقتل هزار الملوك و اعتقل عبد المجيد في قصره و قتل من رجال الفاطميين الكثير و انفرد بحكم الدولة التي كان يخالف مذهبها فقد كان أحمد شيعي أمامي فالغى مظاهر التشيع الاسماعيلي و منع الخطبة باسم عبد المجيد و الامام محمد بن اسماعيل و اسقط صيغة الإذان الفاطمية و دعا للإمام المهدي المنتظر ونقش علي العملة الله الصمد - الأمام محمد وعين في ٥٢٥ هـ اربع قضاة اسماعيلي و امامي و شافعي و مالكي !

ولكن هذا الوضع الشاذ لم يستمر طويلا فسرعان ما تم الانقلاب على أحمد وقتله ٥٢٦ هـ واخرج سجلاً ادعى فيه ان الامر اوصي لعبد المجيد الذي لقب بالحافظ بالإمامة من بعده كما اوصي النبي لعلي بخلافته وأسقطت قصة الجارية الحامل بابن الأمر من الازدهان !

وعند هذه المرحلة كانت الدعوة الإسماعيلية الفاطمية قد انقسمت الي نزارية و طيبية و حافظية .

وعندما تجاوز الحافظ ابنه الاكبر حسن في ولاية العهد وولي ابنه الاصغر حيدر قام حسن بثورة ٥٢٨ هـ وقامت حرب اهلية بين فرق جند الدولة الفاطمية قتل فيها الالاف الي ان خضع الحافظ و عين ابنه حسن وليا للعهد ولكن قادة الجيش والأمراء الذين حاربهم حسن رفضوا تعيينه وهددوا بعزل الحافظ الذي استدرج ابنه وقتله بالسهم ٥٢٩ هـ وعين بھرام الارمني كأول وزير تفويض مسيحي في الدولة الفاطمية ظنا منه ان الخلاف العقائدي سيجعله لا يطمع في الاستبداد بالسلطة التي تركها له فيما عدا تعيين القضاة الشرعيين والدعاة.

و لكن بمرام سارع باستقدام الالاف من عشيرته الارمن وأكثر من بناء الكنائس والأديرة و استهتر بمشاعر المسلمين و بالغ في احتقارهم حتى ثارت فتنة طائفية وصلت حد الحرب الاهلية حيث ثار عليه والي الغربية رضوان بن ولخشي الذي حشد جيشا من الاعراب و زحف للقاهرة وعندما التقى بجيش بمرام رفع المصاحف علي الحراب فانجاز اليهم الجنود المسلمين فهرب بمرام الي قوص حيث كان يحكمها اخيه فاساك ولكن اهالي قوص كانوا قد ثاروا عليه بدورهم وقتلوه فالتجئ لمملكة النوبة المسيحية الي ان هدئت الاوضاع و اتفق مع الحافظ علي ان ينسحب بقواته و تعود عشيرته الارمن الي بلادها و عين رضوان بن ولخشي وزير .

وانعكست الاوضاع في عهد رضوان الذي كان سنياً و ارد ان يعيد الامور الي نصابها فبدء عزل الموظفين الاقباط و اليهود من مناصب الدولة وتوليتها المسلمون السنة و بني بالإسكندرية اول مدرسة لتدريس المذهب المالكي ٥٣٢ هـ ولكن الحافظ دبر مؤامرة ضده فثار عليه الجند فاضطر للهرب الي الشام ثم عاد بجيش وحاول استعادة سلطته ولكن تعرض للخيانة وقبض عليه فسجن ثمانية اعوام كاملة قبل ان يمكن من الهرب و حاول الاتصال بأنصاره و الاعداد لثورة ولكن بعض الجند توصلوا اليه فقتلوه .

وتوفي الحافظ ٥٤٤ هـ ليتجدد الصراع الداخلي في عهد ابنه الظافر فدخل علي بن السلار والي الإسكندرية و البحرية القاهرة بقواته وأرغم الظافر علي تعيينه وزيرا محل غريمه ابن مصال الذي استولي على الوجه القبلي و دخل معه في حرب اهلية الي حين مقتلة ولما كان علي بن السلار شافعي المذهب فقد انشأ ٥٤٦ هـ مدرسة للشافعية في الإسكندرية و بدء تعيين القضاة و كبار الموظفين منهم ولكن سرعان ما قتل بن السلار علي يد نصر بن عباس الصنهاجي بتحريض من ابيه الذي ترك مواجهة الصليبيين في الشام وعاد للقاهرة ليتولى الوزارة .

ثم دخلت الأحداث في منعطف مظلم حيث اعدت مؤامرة اخري قتل بها الخليفة الظافر علي يد نصر بن عباس الذي راجت اقاويل عن علاقة شاذة جمعتهما بتحريض من ابيه وادعي

عباس الصنهاجي ان اخوة الظافر هم من اغتالوه فقتل اخويه جبريل ويوسف امام ابن الظافر الطفل الذي اصيب بصدمة أورثته مرضا عصبيا طيلة حياته بعدما رأى أعمامه يذبحون امامه. ولكن هذا الاجرام البشع لم يمر على عقول الناس بهذه السهولة فما ان خرجت انباء المذبحة التي وقعت بالقصر من ابوابه حتى ثار الناس والجند على عباس الصنهاجي وابنة وارسلت نساء القصر حصلات من شعرهن الي طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهنسا يستنجدن به.

فهرب عباس وابنه مع اسامة بن منقذ الي الشام ولكن سوء حظهم اوقعهم بيد فرقة صليبية فقتل عباس واسر نصر فافتدته نساء القصر في القاهرة بثلاثين ألف دينار ليعيدونه ويشنق على باب زويلة بينما تمكن المؤرخ اسامة بن منقذ من الفرار ليخبرنا القصة.

و تولي طلائع بن رزيك منصب الوزارة وسط ترحيب من العامة والخاصة رغم انه شيعي امامي وليس اسماعيلي وتلقب بالملك الصالح وبادر بجلب حرس خاص به من برقة كونت فرقة عسكرية بالبرقية وسرعان ما انفرد بالسلطة و قضى على نفوذ غيرة من رجال الدولة ثم احتكر الغلال وتحكم في قوت الناس و ابتكر طريقة عجيبة في الحكم حيث كان الراغبون في وظيفة يدفعون له مبالغ نقدية سميت البراطيل نظير حصولهم على الولاية لمدة ست اشهر فقط !

وسرعان ما توفي الفائز الخليفة الاسمي ٥٥٥ هـ دون ان يعقب ولدا فادعي طلائع انه اوصي بالخلافة من بعده لابن عمه الطفل عبد الله بن يوسف فبويع بالخلافة ولقب العاضد لدين الله و زوجه طلائع ابنته طمعا في ان يجمع الخلافة والوزارة في ذريته ولكن القدر لم يمهلها .

ففي رمضان ٥٥٦ هـ كمن له بعض الخدم في القصر فقتلوه بتحريض من نساء القصر وان كان ابنه رزيك قد استطاع تولي الوزارة من بعدة إلا انه لم يصمد طويلا امام الصراعات العنيفة التي احاطت بالمنصب برغم تسامحه و رفعه للمظالم و كان الامير شاور بن مجير الدين امير الصعيد اقوي منافسيه الذي قابل خبر عزلة بان اعد جيشا و اقتحم القاهرة وقتل رزيك واستولي على ثروته ٥٥٨ هـ ليتصدى له بدورة ضرغام قائد فرقة البرقية ويهزمه ويتولى الوزارة بعد تسعة اشهر فقط من استيلاء شاور عليها .

ولكن صراع شاور وضرغام لم يقف عند هذا الحد .

فقد لجئ شاور الي نور الدين محمود صاحب دمشق وتقرب منه وزين له غزو مصر في وقت كانت أعين الصليبيين تنصرف اليها .

وقد بدء الصدام بين الدولة الفاطمية و الصليبيين مبكرا حيث أنتزع الصليبين القدس من ايديهم و تصادموا معهم في الشام و فلسطين مرراً وتحكم في سير العمليات الحربية الاوضاع الداخلية كثيرة الاضطراب بمصر والتي منعت الفاطميين من التصدي بكامل قواهم للصليبين وتسببت في انتزاع الصليبين العديد من المدن والحصون من ايديهم حتى طمع بلديين الثالث ملك بيت المقدس في غزو مصر ٥٥٥ هـ عقب الفوضى التي اعقبت قتل الخليفة الفائز ولكن الامراء الفاطميين تجنبوا الحرب بان عرضوا عليه دفع جزية سنوية ضخمة قدرها ١٦٠ الف دينار .

وفي عهد خليفته عموري الاول الذي واجه ضعوطا في الشام وهزم امام نور الدين محمود تحولت مصر لجائزة يتطلع اليها عموري و نور الدين على حد سواء في ظل تخبط قيادتها و الاضطرابات المستمرة بما بينما تكفل ثرواتها و خراجها الضخم السند المالي الكافي لحسم الحرب بين الطرفين .

وكانت اعادة انتشار المذهب السني في مصر سبيلا الي الوحدة الإسلامية التي مثلت حلماً للدعاة و المصلحون وساعد في ذلك التقارب بين الوزير طلائع بن رزيك و نور الدين .

وفي ٥٥٨ هـ بدء عموري هجومه على مصر وهزم جيش ضرغام في الشرقية و لكنه لم يستطيع مواصلة الهجوم الي القاهرة لان ضرغام استغل فيضان النيل و هدم السدود فطغي الماء و منع الفيضان جيش عموري من التقدم فانسحب لبيت المقدس ولكن بعدما ادرك تماما مدي سهولة الاستيلاء على مصر وضعف قوي الفاطميين .

وفي الوقت نفسه كان شاور قد توصل لاتفاق مع نور الدين محمود يتعهد له بمقتضاه بدفع ثلث خراج مصر له ويعترف بسيادته مقابل ان يمدد نور الدين بجيش يستعيد به سلطته ويقي معه في القاهرة عدد من الامراء الشاميين ضامين للاتفاق .

ولكن نور الدين لم يكن يثق بشاور تمام الثقة فعين أسد الدين شيركوه قائدا للجيش الذي خرج معه ٥٥٩ هـ وانتصر شيركوه على جيش ضرغام في بلبس ثم لحق به وقتله على ابواب القاهرة حيث قتل امام مشهد السيدة نفيسة اثناء محاولته الهرب ليعود شاور للوزارة ثانية .

ولم يكد شاور يجلس على كرسي الوزارة من جديد حتى بدء عهدة بالإرهاب و قتل خصومة وأعوان ضرغام و طلب من شيركوه الرحيل عن مصر بجنوده فلما رفض تحول شاور الي عموري عارضا عليه ان يأتي بجيشه ليسانده في التخلص من شيركوه مقابل المال ومحذرا له من خطر نور الدين وانه سيستغل قدرات مصر في الهجوم عليه .

وبالفعل استجاب عموري و زحف بجيشه إلى مصر وحاصر شيركوه في بلبس ثلاثة اشهر كاملة قبل ان يضطر للدخول معه في مفاوضات للجلء المزدوج عن مصر بعدما ازدادت ضغوط نور الدين على مملكته بالشام بينما كان معسكر شيركوه يعاني رغم تحصنه من قلة المؤن لينسحب الجيشان الشامي والصلبي من مصر وتخلوا لشاور الذي حقق ما يريد اخيرا وانفرد بعرشها و عاد سيرته الاولي في الظلم والقتل و التعسف حتى اضطر الخليفة الفاطمي المعتضد نفسه الي ان يرسل نور الدين محمود سرا يطلب منه المساعدة في التخلص منه .

وعاد شيركوه ثانية إلى مصر مصطحبا معه ابن اخيه صلاح الدين ولكن اخبار الحملة كانت قد تسربت الي عموري الذي بادر بالذهاب على مصر على راس جيشه وعقد اتفاق جديد مع شاور يتعهد فيه بدفع ٤٠٠ الف دينار مقابل التصدي لشيركوه وتم كتابة اتفاقية بهذا و حملت الي الخليفة الفاطمي الذي وقع عليها .

وتصادم شيركوه مع جيش عموري و شاور وهزمهم بالقرب من الاشمونين و اتجه شيركوه الي الإسكندرية ربما لتخوفه من مدد يأتي للصلبيين و دخلها بدون قتال وقابلة اهلها بالترحاب ولكن سرعان ما حاصرها عموري مستعينا بالقوات الجديدة التي وافته بينما ترك شيركوه

صلاح الدين محاصرا في الإسكندرية وتوجه هو للصعيد ووصل لقوص حيث وصلته رسائل صلاح الدين يستنجد به وقد بدء سكان الإسكندرية يقاسون ويلات الجوع نتيجة الحصار الذي فرضه الصليبيين و حاصرت سفنهم الميناء ايضا وبعد التفاوض اتفق الجانبين على تبادل الاسري و الجلاء الثنائي مرة اخري ٥٦٤ هـ

ثم عاد عموري للمرة الرابعة و اقتحم بلبس و اوقع في اهلها مذبحه مروعة ثم اتجه للقاهرة محاولا الاستيلاء عليها بضربة مباغتة و عند وصولهم بركة الحبش جنوبي الفسطاط بادر شاور بإحراقها لوقف تقدمهم و ظلت النيران مشتعلة في الفسطاط أكثر من خمسين يوما بينما ارسل الخليفة العاضد إلى نور الدين خصلات من شعر نساءه مستغيثاً مقدما وعدة بان يمنحه ثلث مصر و يمنح فرسانه الاقطاعيات و يسمح لشيركوه بالبقاء بمصر ان اتت جيوشه لنجدته وطردت الصليبيين وبالفعل دخل شيركوه القاهرة وسط ترحيب اهلها الذين تمنوا إنقاذهم من الصليبيين و بطش شاور بينما انسحب عموري بدون قتال وقد يئس من ان يملك مصر يوما .

و هدئت الاوضاع في مصر بعدما قبض صلاح الدين على شاور و قتله ٥٦٤ هـ بينما لم يهنئ شيركوه بالوزارة و حياة القصور طويلا فما هي إلا شهر وتوفي فتنافس على منصبه الكثير من الامراء الذين رافقوه و كذلك تجدد امل الفاطميين في ان يعين وزير من بني جلدتهم ولكن الخليفة العاضد اختار صلاح الدين ربما لصغر سنة (٣٢ عام) فلم يتخوف منه العاضد تخوفه من امراء نور الدين الاقوياء .

ولكن صلاح الدين لم يكن اقل خطرا ولا حكمة فسرعان ما أكتسب قلوب الناس بالإحسان اليهم والعدل في معاملتهم و سيطر على الجند الشاميين الذين لم يكن بعضهم راضيا عن توليته و تصدى لمؤامرة دبرها مؤتمن الخلافة وقبض عليه .

وسرعان ما وجد صلاح الدين نفسه يواجه حملة صليبية بيزنطية مشتركة على دمياط ٥٦٥ هـ ولكنه فضل إلا يغادر القاهرة خشية تعرضه لتمرد و اعدم مؤتمن القصر و عزل رجاله وعين بهاء الدين قرقوش محله و ثار الجند السودان لقتل مؤتمن القصر فقاموا بتمرد حرضهم عليه

الموظفين المفصولين ولكن صلاح الدين تصدى لهم و كانوا يظنون ان العاضد سيساندهم ولكنه لم يفعل و خشى علي نفسه بعد تهديد جنود الشام له بإحراق قصره فأهزموا واخرجوا من القاهرة وسرعان ما قضى صلاح الدين على حرس العاضد الارمن ايضا بينما صمد أهالي دمياط وحاميتها امام الحصار وسارع نور الدين محمود بإرسال المدد الي دمياط ومهاجمة الصليبيين في الشام لتخفيف الضغط عليها حتى فشلت الحملة واحرق البيزنطيون و الصليبيين ابراج الحصار و رحلوا عن طريق البحر لقواعدهم

وصفت الامور اخيرا لصلاح الدين الذي بدء تنفيذ مخططة في القضاء على الدولة الفاطمية و الدعوة الاسماعيلية في مصر .

وبدء صلاح الدين بتكوين قدراته العسكرية فأنشأ فرقة عسكرية باسم الصلاحية و ضم اليها الأسدية التي انشأها شيركوه و استجلب الكثير من المماليك الاتراك وطبق نظام الإقطاع العسكري في مصر فكان المقطع يلتزم بتقديم الجنود والإنفاق عليهم في حالة الحرب دون توارث في الاقطاعات فيأخذها السلطان و يعطيها لقائد اخر ان قصر في جهوده.

واستمال المصريين بإبطل العديد من الضرائب والمكوس و اقصى العديد من الاداريين الفاطميين واستبدلهم بآخرين جلبهم من الشام .

ومنذ عام ٥٦٦ هـ بدء صلاح الدين خطته لإعادة مذهب السنة لمصر بإنشاء مدرسة للشافعية و اخري للمالكية و ثلاثة صوفية وأوقف مجالس الدعوة الاسماعيلية في الازهر والقصر و ابطل صيغة الإذان الاسماعيلية و حرض على التشكيك في صحة نسب الائمة الفاطميين وأخيرا عزل كل القضاة الشيعة و عين صدر الدين المارني الشافعي قاضي للقضاة وأطلق يد القاضي الفاضل الذي عينه رئيس ديوان الإنشاء في الإدارة وسريعا بدئت مصر تعود للمذهب السني وانتشر بها المذهب الشافعي و الأشعري ولكن عندما طلب منه نور الدين الغاء الخلافة الفاطمية والدعوة للخليفة العباسي تردد ربما خشية من تمرد شعبي أو لرغبته في ان تكون سلطته مستمدة من الخليفة الفاطمي الذي يسيطر عليه لا ان يكون مجرد تابع لنور الدين يمكن استبداله في اي وقت ولكن نور الدين انذره بحسم ان ينفذ قراره .

فأنهي صلاح الدين الدولة الفاطمية في شهر محرم ٥٦٧ هـ وقطعت الخطبة للخليفة الفاطمي و أقيمت للخليفة العباسي المستضيء وأعيد السواد شعار العباسيين بدلا من الابيض شعار الفاطميين وكان العاضد وقتها مريضا فأمر صلاح الدين ان لا يبلغه احد الامر (فإن عوفي فهو يعلم و ان توفي فلا ينبغي ان نفعجه بهذه الحادثة قبل موته) وبعد ايام قليلة توفي العاضد و بموته انتهت الدولة الفاطمية من مصر بعد قرنين من الزمان شهدا ما يعجز القلم عن خطة من الاحداث العظام.

المصادر

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر - عبد الرحمن ابن خلدون

الكامل في التاريخ - عز الدين ابن الأثير

السلوك لمعرفة دول الملوك - تقي الدين المقرئ

البداية والنهاية - أبو الفداء إسماعيل بن كثير

اتعاظ الخنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - تقي الدين المقرئ

تاريخ البطارقة - ساويرس ابن المقفع

تاريخ مصر الفاطمية - ل . أ سيمينوفا

ظهور وسقوط الخلافة الفاطمية في مصر - عبد المنعم ماجد

الدولة الفاطمية تفسير جديد - أيمن فؤاد سيد

إمبراطورية المهدي - هاينتس هالم

تاريخ الدولة الفاطمية - محمد جمال الدين سرور

الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية - محمد عبد الله عنان

الخوارج عقائد و دول

أقول لها وقد طارت شعاعا من الابطال ويحك لم تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم علي الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي فداعية لأهل الأرض داعي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع

أمير الخوارج - قطري بن الفجاءة

تسعة أيام من الحرب الطاحنة أسفرت عن سقوط ما قدر بسبعين الف شهيد من الجانبين
قبل أن يرفع جيش معاوية صحف القرآن على اسنه الرماح يطلبون تحكيم كتاب الله فيما
شجر بينهم و برغم أن ميمنة جيش علي بقيادة الأشتر النخعي كانت قد أشرفت على
اقتحام معسكر معاوية وحسم المعركة إلا انه اضطر للنزول على رأى عامة الجيش الذين
أصروا على وقف القتال و القبول بالتحكيم .

هكذا كانت معركة صفين ٣٧ هـ التي انتهت بتوقيع صحيفة التحكيم و اشهاد ١٠ من قادة
كل فريق عليها وكان نصها (بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي
طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي أهل الكوفة و من معهم من شيعتهم من
المؤمنين و المسلمين و قاضي معاوية على أهل الشام و من كان معهم من المؤمنين و المسلمين

إننا نزل عند حكم الله عز و جل وكتابه و لا يجمع بيننا غيره و إن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحبي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة)

ولكن عندما مر الاشعث بن قيس على القبائل في جيش علي يقرئهم الاتفاق على التحكيم عارضة عروة بن أديه التميمي قائلا (أتحكمون في أمر الله الرجال ؟ أشرط أوثق من كتاب الله وشرطه ؟ أكنتم في شك حين قاتلتهم ؟ لا حكم إلا لله) وسرت كلماته كالنار في الهشيم بين صفوف الحانقين على اتفاق التحكيم الذي أضاع من ايديهم نصراً مؤكداً من ناحية و أثار الشك حول عدالة قضيتهم وسلامه موقفهم من ناحية أخرى و هم يقاتلون مسلمون آخرون باعتبارهم بغاة بلا شك أو جدال والتحكيم تعني نتيجته التي قد تكون لهم أو عليهم أن الأمر غير محسوم ابتداء ثم أن علي أسقط عن نفسه صفة الأمام عندما أرتضى أن يذكر كنظير للمعاوية في نص التحكيم فكيف يقاتلون من خلفه و هو ليس امام فلا يكون من يحاربهم بغاة ؟

بينما جادل مؤيدي التحكيم بأنه مطلوب لحقن دماء المسلمين و يمكن اجراء بعد القتال كوسيلة لإيقافه وان التقاضي لا يعني أن صاحب الحق يشك في أحقيته بمحل المنازعة وإنما هو وسيلة لغلق باب المنازعة سلمياً وثار الخلاف العنيف في معسكر علي وتضارب الطرفين وتسابا فأعتزل جماعة منهم الجيش و اجتمعوا في حروراء قرب الكوفة لتظهر اولي فرق الخوارج المسماة بالحرورية نسبة لهذه البلدة .

فأرسل علي اليهم عبد الله بن عباس ثم ذهب اليهم بنفسه فعادوا معه إلى الكوفة ولكن ظلت المشكلة قائمة لرفض علي جحد اتفاق التحكيم والرجوع عنه ولما صعد علي المنبر بالكوفة وجدهم يهتفون في المسجد بشعارهم لا حكم إلا لله فرد عليهم الله أكبر كلمة حقٍ أريد بها باطل أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتموننا لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها

اسمه ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تبدءونا وإنما فيكم أمر الله .

فخرجوا الي النهروان وقد أمروا عليهم عبد الله بن وهب وأنضم اليهم خوارج البصرة ولما فشل التحكيم وأختلف الحكيمين بعدما أعلن ابو موسى الاشعري عزل علي بينما أمتنع عمرو بن العاص عن عزل معاوية كما اتفق معه وأعلنه اماماً بدلاً من ترك الأمر شورى للمسلمين فتسابا ثم تحول الامر لمشاجرة بعدما ضرب شريح ابن هانئ عمرو بن العاص بالسوط و دعا علي الخوارج في النهروان الي العودة لجيشه وقد عزم على السير لقتال جيش معاوية فرفضوا قائلين إنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت علي نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

وبرغم أن ابن عباس ذهب اليهم واستطاع اقناع الكثير منهم بالعودة إلا ان من بقي منهم كانوا على درجة من العناد تجعلهم على اعلي درجة من الخطورة ثم ارتكب جماعة منهم جريمة غير مبررة حيث قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت وزوجته الحامل حيث مر مصادفة في طريقهم ودار بينه وبينهم حديث عابر !

فأرسل اليهم علي يطلب تسليم القتلة فرفضوا و قالوا كلنا قتلناه وكلنا يستحل دمائكم و الغالب ان اتخاذهم هذا الموقف المتعنت كان تعبيراً عملياً عن خلعهم لعلي وعدم اعترافهم بخلافته وقالوا انه خلع نفسه عندما نفي عنها صفة الامارة في التحكيم فتوجه اليهم بجيشه و اقام معسكرة بإزائهم وأمهلهم ثلاثة ايام ثم امر فنصبت راية ونودي من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا فأنصرف معظمهم ولم يبق مع عبد الله بن وهب الراسبي إلا قلة قتل معظمهم في المعركة الخاطفة ٣٨ هـ .

وعلي عكس الشائع فأن الخوارج بالنهروان لم يكونوا جميعهم اعراب حديثى الإسلام صغار السن بل كان فيهم العديد من الصحابة علي رأسهم قائدهم عبد الله بن وهب و زيد بن حصين و عمير بن الحارث و هرم بن عمرو الانصارى

وقد عامل علي الخوارج معاملة المسلمين فلم يأسر أحد ولا تتبع فاراً ولا أجهز علي جريح ولا أخذ غنيمة بل حمل كل ما وجد معهم الي الكوفة و نودي ان من عرف شيئاً فليأخذه فأخذ كل أهل قتيل متاعه .

ولعل علي كان يدرك أن تلك الموقعة ليست الاخيرة فكانت وصيته بالخوارج قوله إن خالفوا إماماً عادلاً فقاتلوهم وإن خالفوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم فإن لهم مقالاً .

وسرعان ما تعاهد ثلاثة من الخوارج علي قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن لم ينجح منهم في مسعاه إلا عبد الرحمن بن ملجم فاغتال علي بن ابي طالب رمضان ٤٠ هـ ولسته اشهر تولي الحسن خلافة ابيه قبل أن يتنازل لمعاوية عن الخلافة في عام الجماعة ٤١ هـ ولكن قصة الخوارج لم تنتهي عند هذا الحد .

تطورت قضية الخوارج من رفض التحكيم الي اتخاذ موقف سياسي عام مؤسس على اختيارات عقائدية و فقهية تطورت مع الوقت و انقسموا بسببها الي فرق متعددة .

و خلال العصر الاموي بدء تيار الخوارج الفكري في الصعود وان كان اقتصر على انتفاضات عشوائية قصيرة فظهرت عشرات الحركات متناهية الصغر كلهم أطلق عليها أسم الخوارج الذين اصبحوا علامة على الثائرين الرافضين لاستبداد الأمويين وأن كان موقفهم العقائدي شبة مجهول وكانت تلك الحركات تبدأ عادة بأن يخرج رجل واحد أو قلة في احد الامصار هاتفين بشعارهم ان الحكم إلا لله الأمر الذي تسبب في إطلاق أسم المحكمة عليهم فلا يعود منهم أحد عادة و أنتشر في ذلك الوقت إطلاق أسم الشراة عليهم كما كانوا يسمون أنفسهم

فيقولوا شربنا انفسنا في طاعة الله وبعناها بالجنة ممثلين قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)

وبعد وفاه معاوية ٦٠ هـ كان تفجر الصراع السياسي فرصة ودافعا لتجدد دعوة الخوارج بعد ١٩ عام من حكم معاوية شهدت فيهم الدولة استقرارا نسبيا وأن ظلت الخلافات السياسية تتعمق تحت السطح الهادئ .

وفي صراع عبد الله بن الزبير مع الأمويين ظهرت فرق الخوارج الاساسية ومن المفارقات أن قادة فرق الخوارج الاربعة (نافع بن الازرق - عبد الله بن اباض - نجدة بن عامر - زياد بن الاصفر) كانوا معا يدافعون مع عبد الله بن الزبير عن الحرم المكي عندما حاصره جيش الحصين بن نمير الذي ارسله يزيد بن معاوية لحربه .

ومع نهاية الحصار تشاور الخوارج فيما بينهم واتفقوا على ان يناظروا عبد الله بن الزبير فدخلوا عليه فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك فإن كنت علي الصواب بايعناك وإن كنت إلى غيره دعوناك إلى الحق ما تقول في الشيخين (أبي بكر وعمر) قال: خيراً قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجنا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصاحبها أن يقرن في بيوتهن وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة!

فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفة عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا .

فقال ابن الزبير إن الله أمر في مخاطبة أكفر الكافرين و أعتى العتاة بأرفه من هذا القول فقال لموسى ولأخيه في فرعون { فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى } وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى) فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجداد في المحاربة و المتبغض إلى رسول الله قبل الهجرة والمخرب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً.

وقد كان يغيثكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا أتبرأ من الظالمين؟ فإن كانا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه { وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً } وقال جل ثناؤه { وقولوا للناس حسناً } وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلي من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله .

فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه فلما رأى ذلك نبذة قال : هذا خروج منا بذكركم .

فجلس ابن الزبير فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرتها فيها فجعلها كالماضية وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح وأن القوم استعتبوه من أمور وكان له أن يفعلها أولاً مصيباً ثم أعتبهم بعد محسناً وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العتي ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم فدفعوا الكتاب إليه فحلف أنه لم يكتبه ولم يأمر به وقد أمر بقبول اليمين ممن ليس له

مثل سابقته مع ما أجمع له من صهر رسول الله ومكانه من الإمامة وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه وعثمان الرجل الذي لزمته يمين لو حلف عليها لحلف علي حق فافتداها بمائة ألف ولم يحلف وقد قال رسول الله (من حلف بالله فليصدق ومن حلف له بالله فليرض) .

وحتم بقوله فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه وأنا ولي وليه وعدو عدوه وأبي وصاحبه صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم , ورسول الله يقول يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة (سبقته إلى الجنة) وقال (أوجب طلحة) وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله أو جلّه لطلحة , والزبير حواري رسول الله وصفوته , وقد ذكر أنهما في الجنة وقال جل وعز: { لقد رضي الله عه المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة } وما أخبرنا بعد أنه سخط عليهم فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذلك هم وإن يكن زلة ففي عفو الله تحميمها وفيما وفقتهم له من السابقة مع نبيهم صلي الله عليه وسلم ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتكم بأمرهم عائشة رضي الله عنها فإن أبي آب أن تكون له أمماً نبذ اسم الإيمان عنه قال الله جل وعز وقوله الحق { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم } .

فلم يقنع الخوارج من عبد الله بن الزبير بذلك وقرروا مفارقتة وخرجوا من مكة وتفرقوا بحسب ارائهم .

وفي ٦٤ هـ بدء ظهور نافع بن الأزرق مؤسس فرقة الأزارقة التي يعدها بعض الباحثين اول فرق الخوارج وان ما سبقها كان مجرد خلاف تحول الي فتنة في معسكر علي وليس حراكا مؤسس على عقيدة راسخة .. وان كان ذلك يعد تجاوزا فتكفير الخوارج في النهروان لعلي ثابت بقولهم وفعلهم.

وقد ذهب نافع بن الأزرق ومن اتبعه من الخوارج الي البصرة بعدما دب الخلاف العقائدي بينهم في حين ذهب الاخرين الي اليمامة تحت قيادة نجدة بن عامر .

وسرعان ما بادر الازراقة بعداء ابن الزبير فغلبوا على الاهواز و ما ورائها من بلاد فارس و قتلوا عماله بهذه النواحي وتحولت حركتهم الي حركة ارهابية مخيفة عاثت في الاهالي قتلاً وسلباً ولم يسلم منهم حتى الاطفال والنساء وبرغم شذوذ اراء الازراقة و سوء سمعتهم إلا انهم اجتذبوا الالاف في ظاهرة تتكرر في ازمة الاضطرابات حيث يكون الحكم للسيف و فيتجه المعارضين لأقصى الحدود تطرفا و تلقي الحركات العنيفة قبولا مفاجئ سرعان ما ينقشع , الي ان قتل نافع ٦٥ هـ علي يد جيش من اهل البصرة بقيادة مسلم بن عبيس عامل عبد الله بن الزبير ليتولى امرهم قطري ابن الفجاءة أحد أشهر قواد الخوارج و شعرائهم ويجدد قواهم ليبدأ حربا طويلة مريرة مع المهلب بن ابي صفرة الذي أنتخبه أهل البصرة لحربهم بعدما أثنى فيهم قطري و أذلهم ثم أقره ابن الزبير علي حربهم التي استمرت بعد تغلب عبد الملك بن مروان واستيلائه على الخلافة فتحول ولاءه وجيشه اليه وأقره بدورة لمواصله الحرب وأستغل المهلب خلاف بين الأزراقة و ساهم في تأجيجه فانقلبوا على قطري و خلعوه و ولوا عبد ربه الكبير وانصرف قطري ومن معه الي طبرستان حيث واجهه جيش بعثة الحجاج بقيادة سفيان بن الابرذ فقتله بينما بادر المهلب بالهجوم على سائر الازراقة ففضي عليهم بعد معركة عنيفة ٧٩ هـ لتنتهي فرقة الازراقة رسميا بينما بقي فكرها المتطرف يظل برأسه بين الحين والآخر الي يومنا هذا .

اما نجدة بن عامر فاشتهرت فرقته بالعدرية لأنهم يعذرون المسلمين بالجهل ان اخطئوا في اجتهاد وقد تمكن من بناء دولة امتدت من صنعاء الي البحرين ولكن اصحابه اختلفوا عليه وتأمروا عليه عندما عرفوا بمراسلاته مع عبد الملك بن مروان و قالوا ما كاتبة عبد الملك إلا وهو

يعرف انه مدهان في الدين بالإضافة لنقمتهم عليه في اسباب مالية و اراء فقهية اخري فقتلوه

ولكن يذهب بعض المؤرخين الي ان العصبية القبلية هي السبب الفعلي وراء مؤامرة قتل نجدة حيث انه من حنيفة بينما ابو فديك الذي تولي المؤامرة عليه من بني قيس بن ثعلبة وبينهم عصبية قبلية قديمة و لما تولي ابو فديك محلة نقل عاصمة الخوارج من اليمامة الي البحرين مقرر قبيلته.

وبسبب قتل نجدة انقسمت فرقة الي ثلاث فرق سرعان ما تلاشت وأما ابو فديك فقد قتل ٧٣ هـ على يد قوات عبد الملك لتنتهي فرقة النجدات مبكراً .

اما الصفرية فهم محل خلاف شديد بداية من أسمهم هل هو نسبة الي زياد بن الاصفر أم عبد الله بن صفار أو النعمان بن صفر ؟

وبداية ظهورهم كانت مع فرقة الصالحية بقيادة صالح بن مسرح التميمي المؤسس الفعلي للفرقة التي يفسر بعض المؤرخين تسميتها بصفار وجهه من تشدده في العبادة !

وقد بدء ثورة ضد عبد الملك بن مروان في البصرة ٧٦ هـ ولكنه سرعان ما قتل في احدي المعارك ليتولى قيادة الخوارج من بعده شبيب بن نعيم أحد أشهر قادة الخوارج و أكثرهم نجاحاً أثناء حصارهم في احد الحصون وبرغم انه لم يكن معه إلا سبعين رجلاً فقط إلا انه استطاع ان يخرج من الحصار منتصراً بهجوم ليلي مفاجئ على معسكر محاصريه وقتل قائدهم ليدخل مع الامويين في صراع دموي عنيف صنع له سمعه أسطورية كمحارب لا يقهر حتى ان الشهرستاني يذكر ان شبيب قتل ٢٤ امير جيش أموي وهزمهم في اكثر من عشرين معركة وكان في صراعه الدامي مع الحجاج بن يوسف الثقفي مواقف مشهودة منها أنه أضطره للهرب والاختباء بعدما اقتحم الكوفة ليلا لتوفي زوجته غزاة الفارسة (التي بلغت القصص

حول شجاعته (حد الاساطير) بنذر لها ان تقيم الليل في مسجدها وكان هذا سبباً في انتشار شعر يهين الحجاج أطلقه مجهول يقول :

أسد علي وفي الحروب نعمة .. فتخاء تنفر من صغير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى .. بل كان قلبك في جناحي طائر

وظل شبيب شوكة في حلق الامويين حتى وفاته ٧٧ هـ بعدما أسقطه فرسه عن جسر دجيل بالأهواز فمات غريقاً وتفرق أصحابه و انتهت حركته .

ولكن مذهب الصفرية عاود الظهور في المغرب بعيد عن معاقل الأمويين حيث تسبب تعسف ولاة الامويين وتعنتهم واعتدائهم على قبائل البربر في فتحهم الابواب لدعاة الشيعة والخوارج الذين نشطوا في استمالة قبائل البربر اليهم ثم انتهى الامر بثورة عنيفة اجتثت الحكم الاموي من جذوره في عهد هشام بن عبد الملك ١٢٢ هـ وكان علي رأس الثائرين المنتسبين للخوارج ومنهم قادة الثورة ميسرة المطغري و خالد بن حميد سواء كانت انتمائهم العقائدي للخوارج صادقاً ام كان استجابة لدواعي السياسة حيث يوفر الانتماء الي الخوارج غطاء شرعي للخروج علي الامويين وإنكار حقهم في الخلافة حيث رأى الخوارج أن الإمامة حق للأمة تختار من يقودها اختياراً حراً بالشورى بلا توارث ولا قصر الحق فيها في أسرة أو عرق لقي قبولا عند قبائل البربر التي لم يكن لديها مبرر لقبول حكم بني أمية الوراثي .

ولكن الملاحظ ان حتى الخوارج لم يخجل انتشارهم من تأثير العصبية القبلية فجدد القبائل المتنازعة اختارت مذهبها خلاف القبيلة التي تنازعتها فأنحازت قبائل غمارة ومكناسة وبرغواطية و بعض بطون صنهاجة الي الصفرية بينما انحازت هواره ولواتة وبعض بطون زناتة الي الاباضية .

فظهرت امارة برغواطة على المذهب الصفري تحت قيادة الفاتح الشهير طريف بن مالك ثم ابنه صالح وان كانت انحرفت عن المذهب وعن الإسلام كله لاحقا الي ان انتهت على يد المرابطين ٤٥٠ هـ وظهرت امارة بني مدرار ١٤٠ هـ و أسسوا مدينة سلجامة واتخذوها عاصمة لهم تحت قيادة عيسي بن يزيد الذي يؤكد المؤرخون انه كان عبد زنجي أنتخبه الصفرية أماماً لتجنب النزاعات القبلية وظل في منصبه ١٥ عام كاملة قبل أن يقوم ترمذ عليه فيقتل و يحل محله رئيس قبيلة مكناسة أبو القاسم بن مدرار و تستمر الأمانة في ابنائه حتى قضى عليهم أبو عبد الله الشيعي في أطار تأسيسية للدولة الفاطمية في المغرب ٢٩٦ هـ أما الفرقة الرابعة من الخوارج فهم الاباضية .

وقد انتشر المذهب الإباضي في المغرب على يد دعائه المخلصين وسرعان ما ظهرت دولة للاباضية في طرابلس علي يد الداعية ابو الخطاب ولكنها سرعان ما سقطت على يد جيوش العباسيين بعد اربع سنوات فقط من تأسيسها ١٤٤ هـ بسبب انسحاب ابناء قبيلة زناته من المعركة بعد اتهامهم للأمير ابو الخطاب بالتحيز لقبيلة هواة وبعد مقتلة حاول الأباضية ان يتجنبوا إثارة العصبية القبلية يشتي الطرق وكان من ذلك أن اختاروا لقيادتهم عبد الرحمن بن رستم (الفارسي الاصل و الذي ينسبه المؤرخون الي كسري الفرس نفسه) الذي انتقل إلى تاهرت و اجتمعت عليه كلمة الإباضية و سلموا له بالخلافة ١٦٠ هـ لتجنب الصراعات القبلية بعدما شهدوا تأثيرها المدمر فكان نعم الرئيس بزهده وعلمه و تعففه وبقيت دولته في ازدياد حتى احس بدنو اجله فانتخب سبعة من الاعيان وعرضهم على الناس ليختاروا خليفته من بينهم فاختاروا ابنه عبد الوهاب درءا للتنازع الخفي بين القبائل ولكنه صعّد على حساب يزيد بن فندين الذي كان مرشحا للخلافة فائراً ففتنة انتهت بمقتلة بعد ان تسبب في انشقاق صف الاباضية و حوضهم في دماء بعض ولكن الدولة استمرت في ابناء عبد الوهاب و تحولت بشكل ما الملكية وراثية ثرية وقويت دولتهم التي يلاحظ انها كانت متسامحة لدرجة

كبيرة تعايش بها المسلمون من مختلف المذاهب جنباً إلى جنب مع اليهود والمسيحيين بسلام كما يقول ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية (ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين و رحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين) .

ولكن في عهد الخليفة ابي بكر وقع الصراع بينه وبين وزيره ابن عرفة وتحول إلى حرب اهلية دمرت قوة الدولة وكادت ان تطيح بها لولا ان بادر اخيه اليقظان إلى الاستيلاء على الحكم ومصالحة القبائل ٢٤١ هـ ولكن الصراع استمر داخل الاسرة المالكة و انصارها من القبائل بعد وفاته ٢٨١ هـ فقتل خليفته ابنه أبي حاتم علي يد اخوته ولم يستمر خليفته اليقظان في الحكم إلا عامين قبل ان يطيح به ابي عبد الله الشيعي ٢٩٦ هـ في اطار تأسيسية للدولة الفاطميين في المغرب واقتحم تيهرت و دمرها و احرق مكتبتها العظيمة المسماة بالمعصومة إلا ما وجد من كتب الرياضيات و الفنون والصناعات بينما اكلت النيران مراجع الاباضية الفقهية والعقائدية.

و قد جرت علي يد الثائر أبي يزيد الخارجي محاولة لإحياء الدولة الاباضية بثورته العنيفة على الفاطميين ولكنه فشل وانتهى مقتولا ٣٣٥ هـ بعدما ساهم الصراع القبلي التي في ترجيح كفة الشيعة لتحتفي دولة الأباضية من شمال أفريقيا ولكن بقي المذهب منتشراً الي اليوم .

و قد ظهر الخوارج كحزب سياسي في عمان علي يد عبد الله بن اباض وكذلك عمران بن حطان بعدما خرج من سجن الحجاج الثقفي ٧٥ هـ وجابر بن زيد الذي نشر المذهب في قبائل الأزدي بها فرسخت بعمان مبادئهم و استقر بها دعائمهم لتنشأ حركة الاباضية التي تحولت الي دولة .

وفي عام ١٢٩ هـ أثناء انهيار الدولة الاموية كانت الفرصة سانحة لأهل عمان في الثورة وإعلان استقلالهم تحت قيادة الجلندى بن مسعود الأزدي ولكن دولته لم تستمر إلا قرابة عامين قبل ان تداهم جيوش العباسيين فتعيد عمان جزء من دولة الخلافة قصرا حتى عام ١٧٩ هـ حيث تولي قيادتهم الوارث بن طعب الخروصي و تصدي لجيش العباسيين بقيادة عيسى بن جعفر عم هارون الرشيد و هزمه وأخذة اسيراً

و لم تكن مقاومة العباسيين للحركة الانفصالية في عمان قوية حيث ان الاباضية لم يكونوا يبادرون بالقتال وإنما يريدون حكم انفسهم حسب معتقداتهم ولم تكن بلادهم ذات خراج كبير يستحق الصراع من اجله ولا يحاولون تصدير الثورة على العباسين خارج اراضيهم فيكونوا مضطرين لقتالهم لتستمر دولتهم مستقلة حتى ٢٨٠ هـ حيث ظهرت فتنة قبلية بين العدنانية و اليمانية وصلت لحد الاقتتال الداخلي فلما هزم الامام راشد بن النظر معارضيه استنجدوا بالخليفة العباسي العاضد ورغم اعتزال الامام راشد إلا ان خليفته عزان بن تميم هزم امام جيوش العباسين لتختفي دولة الأباضية من عمان لمدة اربعين عام كاملة .

وفي ٣٢٠ هـ ظهر الامام سعيد بن عبد الله الذي اعاد دولة الاباضية في عمان الي حين وفاته وتولي بعده العديد من الائمة دون ان يبرز منهم احد حتى بدء حكم اليعاربة .

حيث تولي الامام ناصر بن مرشد اليعربي البلاد وهي في حالة فوضى ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٤ م فقوى الجبهة الداخلية و تصدي للبرتغاليين و الايرانيين و طردهم من عدة مناطق سيطروا عليها و اكمل بعد خليفته سلطان بن سيف مسيرته من بعده فاستولي على سواحل الهند الغربية وأجزاء من الساحل الشرقي لإفريقيا واستمرت الاسرة اليعربية في قيادة عمان حتى وقع الصراع بينهم على منصب الإمامة فتراجعت الدولة وضعفت و احتل الايرانيين مسقط الي أن ظهر أحمد بن سعيد مؤسس الاسرة البوسعيدية و اول سلاطين عمان .

وقد صنع احمد اسماً لنفسه عندما استطاع بقوة صغيرة ان يجلي الايرانيين عن مسقط بان اعد لكبرائهم وليمة ثم قبض عليهم و اجبر الحامية على الاستسلام فقتل ضباطهم و ارسل الجنود في سفن الي ايران .

وعندما قتل الامام بلعرب بن سلطان اليعربي أصدر مفتي عمان وقتها قرار ان أحمد هو منقذ البلاد و يستحق ان يكون امام للمسلمين و لكن أحمد تحول لأول سلاطين عمان و حول نظام الحكم إلى الملكية الوراثية بدلا من الشورى باختيار أهل الحل والعقد .

واستمرت الاسرة البوسعيدية تحكم عمان و قد وسعت من سلطانها و قويت شوكتها حتى قام سالم بن ثويني بأعداد مؤامرة وقتل والده فلم يستمر في الحكم إلا قرابة عامين قبل الثورة عليه وخلعه ونفيه إلى الهند حيث مات بها ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م و تم اختيار الامام عزان بن قيس من علماء الاباضية حاكماً وحاول ان يعيد اقامة النظام السياسي على اساس الشورى و لكن سوء علاقته بالبريطانيين الذين فرضوا سطوتهم على المنطقة ادي لتواطئهم مع بعض المتآمرين عليه وإعداد مؤامرة قتل بها و اعاد خليفته تركي بن سعيد الدولة البوسعيدية على ما كانت عليه من الحكم الوراثي المطلق وخفت صوت العودة الي الإمامة بدلا من حكم السلاطين حتى ١٩١٣ م حيث قامت ثورة سالم بن راشد الخروصي الذي انتخبه علماء الاباضية اماماً و بعد حرب أهلية انقسمت عمان الي دولتين بموجب اتفاقية السيب ١٩٢٠ م التي قسمتها إلى سلطنة مسقط التي يحكمها سلاطين الأسرة البوسعيدية و اقليم الداخل امامة عمان الاباضية وعاصمتها نزوي .

واستمر الحال هكذا حتى العام ١٩٥٤ م حيث تحالف السلطان سعيد بن تيمور مع بريطانيا و ضم عمان الأمامية الي دولته بعد حرب الجبل الاخضر ضد الامام غالب بن علي الذي لم يستسلم وقام بالثورة ١٩٥٧ م ولكن تدخل سلاح الجو البريطاني بالقصف العنيف لمواقعه

ومحصرة الاسطول البريطاني للسواحل أرغم الامام وقادته إلى اللجوء للملكة العربية السعودية بعد صراع عنيف ١٩٦٠ م وليستمر حكم الاسرة البوسعيدية لعمان الي اليوم .

وان كان ذلك موجز تاريخ أهم فرق الخوارج السياسي فمإذا عن عقائدهم ؟

عندما يسمع مصطلح الخوارج فان اول ما يرد الي الذهن الإسراف في القتل و التكفير و استحلال دماء و اعراض المخالفين و حتى قتل الاطفال و النساء والتشدد العنيف في الدين ولكن هل هذه الصورة التي بأذهاننا عن الخوارج دقيقة ؟

كان الخوارج دوماً مثار جدل فحتى أسمهم له معنيان في الاستعمال الاول الدال على فرق الخوارج المعروفة و الثاني يطلق لقب الخوارج للدلالة على العديد من المعاني منها السياسي مثل ما قال الشهرستاني (كل من خرج علي الامام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج في ايام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم علي التابعين بإحسان و الائمة في كل زمان) ومنها التاريخي مثلما عبر الأشعري (السبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي ابن ابي طالب) و منها العقائدي و الفقهي كقول ابن حزم (ومن وافق الخوارج من انكار التحكيم و تكفير اصحاب الكبائر و القول بالخروج علي أئمة الجور وأن اصحاب الكبائر مخلدون في النار وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي)

والعلامة المميزة للخوارج هي شجاعتهم الفائقة التي تصل حد التهور القاتل و استماتتهم في

القتال فقلة منهم كانت تهزم الجيش من جنود الخلافة المرغمين عادة على القتال وكان السميت ألاستشهادي عند الخوارج في غايته ففي العديد من الحالات كنا نري الرجل الواحد منهم ليس معه أحد يشهر سيفه و يعلن مذهبة بشعارهم ان الحكم إلا الله فلا يعود لبيته إلا مقتولا وحتى النساء اشتهر العديد منهن بقتلهن مع الخوارج كغزاة و أم علقمة و كحيله و قطام و البلجاء التي كانت تمحو حاكم البصرة الأموي ابن زياد فلما قبض عليها امر بقطع

يديها ورجلاها في السوق وتسببت هذه الوحشية في خروج جماعة من الغاضبين و تحولهم للخوارج الذين اصبحوا تيار ثوري واسع يحمل افكار عقائدية و فقهيه متنوعة بين الاعتدال و التطرف .

وما يجمع بين جميع طوائف الخوارج تمسكهم بالتدين و الشعائر الدينية و تأكيدهم على انهم ما خرجوا إلا لنصرة دين الله لا وراء مطامع الدنيا و حياة السلطان.

فحتى نافع بن الازرق المشهور بسفك الدماء يقول في رسالة فصيحة لأهل البصرة (فلا تغتروا ولا تطمئنوا الي الدنيا فأئها غرارة مكاراة لذاتها نافذة ونعمتها بائدة حفت بالشهوات اغترارا وأظهرت حبرة وأضمرت عبرة فليس أكل منها أكلة تسره ولا شارب شرية تؤنفه إلا دانا بها درجة الي اجله وتباعد بها مسافة من امله وإنما جعلها الله دارا لمن تزود منها الي النعيم المقيم والعيش السليم فلن يرض بما حازم دارا ولا حلیم بها قرارا فاتقوا الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى)

وعلي الرغم من ان اغلب كتب الخوارج مفقودة لأنهم كانوا حركات ثورية في حالة صدام مستمر مع السلطة اغلب الوقت وكثير من فرقهم بدئت وانتهت تحت ظلال السيوف و اسنة الرماح دون ان يتسنى دراسة افكارهم لأحد و كذلك فقد جنح الكثير منهم الي اخفاء امرهم و كتبهم القليلة وكثرت فرقهم فكان لكل قائد حوله بضع اتباع فرقة تسمى باسمه إلا ان اهم فرق الخوارج الأربعة (الازارقة و النجدات و الإباضية و الصفرية) قد وصلتنا افكارها بدرجة من الوضوح .

وأول هذه الفرق فرقة الازارقة حيث كان نافع بن الازرق اول من شق صف الخوارج بمعتقداته العنيفة التي تسببت في شيوع السمعة السيئة للخوارج .

فمن البداية حرم نافع التقيية واعتبرها خشية غير الله فلا يجوز لأحد ان يخفي اعتقاده وان ادي ذلك الي قتله و اعتبر كل مخالف فيه مشركين لا يحل الزواج منهم أو التوارث منهم ولا اكل ذبائحهم و أحل ايضا قتل نساءهم و أطفالهم فلما عرض افكاره هذه على زملائه من الخوارج انفصل عنه فريق منهم بقيادة نجدة بن عامر قالوا أحدثت ما لم يكن عمله السلف من اهل النهروان وأهل القبلة .

وقد قويت شوكة الازرقاة عندما غلبوا على الاهواز و قتلوا عمال عبد الله بن الزبير بها ثم اتجهوا إلى فارس وكرمان وانضم اليهم الكثير من عرب البحرين و عمان فصاروا جيشا كبيرا قدر بعشرين الف مقاتل حكم مناطق واسعة بالعنف و الإرهاب.

والملاحظ ان الازرقاة تكونوا في معظمهم من الاعراب قساه القلوب البعيدين عن المدنية و الذين لم ينتسبوا للإسلام إلا بالأسماء ولهذا كانت بشاعة تعاملهم مع مخالفينهم فلم يراعوا قدر تابعي ولا ضعف امرأة ولا اخذتهم رحمة بطفل ولا بشيخ .

ويقص الطبري علينا مشهد من غاراتهم حيث هاجموا المدائن عام ٦٨ هـ (فشنوا الغارة على أهل المدائن , يقتلون الولدان والنساء والرجال , ويبقرون الحبالى .. فوضعوا أسيافهم في الناس فقتلوا أم ولد لربيعة ابن ماجد وقتلوا بنانة ابنة أبي يزيد بن عاصم الأزدي وكانت قد قرأت القرآن وكانت من أجمل الناس فلما غشوها بالسيوف قالت: ويحكم! هل سمعتم بأن الرجال كانوا يقتلون النساء! ويحكم! تقتلون من لا يبسط إليكم يدا , ولا يريد بكم ضرا , ولا يملك لنفسه نفعا! أتقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين!

فقال بعضهم: اقتلوهما وقال رجل منهم: لو أنكم تركتموهما! فقال بعضهم: أعجبتك جمالها يا عدو الله قد كفرت وافتنتت وحملوا عليها فقتلوهما.

فقال ربيعة بنت يزيد: سبحان الله! أترون الله يرضى بما تصنعون! تقتلون النساء والصبيان ومن لم يذنب إليكم ذنبا! ثم انصرفت وحملوا عليها وبين يديها الرواع بنت إياس بن شريح الهمداني، وهي ابنة أخيها لأمها فحملوا عليها فضربوها على رأسها بالسيف ويصيب ذباب السيف رأس الرواع فسقطتا جميعا إلى الأرض)

ويقص ابن الأثير أنهم (وأخذوا رجلا اسمه سماك بن يزيد ومعه بنت له فأخذوها ليقتلوه فقالت لهم يا أهل الإسلام! إن أبي مصاب فلا تقتلوه وأما أنا فجارية والله ما أتيت فاحشة قط ولا آذيت جارة لي ولا تطلعت ولا تشرفت قط فلما أرادوا قتلها سقطت ميتة فقطعوها بأسيافهم وبقي سماك معهم الي قرب الكوفة فضربوا عنقه وصلبوه)

ولا يوجد مبرر لهذه التوحش في القتل والاستعراض سوي ارهاب الناس حتى لا يتصدى لهم منهم احد ويسلبوهم وينهبوهم بلا مقاومة أما عقائد الأزارقة المتطرفة فأنها لم تصمد امام أي نقاش جاد وأول من رد عليهم وأظهر فساد معتقداتهم كان نجدة بن عامر.

وفي أطار مجادلاته مع ابن الأزرق أسس نجدة أصول مذهبه فرقة النجدات حيث قال ان الدين امران معرفة الله ورسله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم و الإقرار بما جاء من عند الله جملة فهذا واجب معرفته على كل مكلف لا يعذر الجاهل به .. و الامر الثاني هو ما عدا ذلك فالناس معذورون بالجهل فيه حتى تقوم الحجة عليهم فمن استحل حراما باجتهاد معذور .

وان الإصرار هو العنصر الذي يجعل العاصي مشركا فمن ارتكب صغيرة وأصر عليها فهو مشرك بينما من ارتكب المعصية غير مصر علي الذنب و غير معاند وإنما غلبت عليه شقوته واستنذله الشيطان فهو مسلم عسي الله ان يغفر له .

وتتشارك الصفرية مع النجدات في الاعتقادات مع خلاف القيادات و النطاق الجغرافي للانتشار و هم بدورهم انشقوا عن الأزارقة و اتهموهم بالغلو و ابتداع ما ليس من الدين.

وما تفرد به النجدات هو قولهم بان الإمامة ليس ضرورية وإنما يجب على المسلمين ان يتعاطوا الحق بينهم وينظموا شئونهم بالعدل و التراضي فان اضطروا لنصب امام فعلوا ولكن هذا النمط من المجتمعات الالاسلطوية لم يطبقه الخوارج ابداً فيما أعلم .

وبرغم الخلاف في سلوكيات النجدية إلا ان اغلب من تكلموا عنهم نسبوا اليهم الاعتدال و التسامح مثل ابن الجوزي والأشعري و البغدادي والشهرستاني وغيرهم .

اما الإباضية فهم الفرقة الباقية من الخوارج برغم أنهم يرفضون نسبتهم الي الخوارج و يقولون بأنهم مذهب اسلامي مستقل بل وأنهم اول المذاهب الإسلامية و اعرقها علي الرغم من أن الإباضية هم الامتداد التاريخي و الطبيعي لحركة الخوارج.

و يفسر محمد بن عبد الله السالمي الإباضي ذلك بقوله (أن أسم الخوارج كان في البداية مدحا لأنه كناية عن الخروج للغزو في سبيل الله فلما غلب شر الازارقة و الصفرية على تسمية الخوارج صار سبة) و لهذا يرفض الاباضية تسميتهم بالخوارج و يفضلون تسميه اهل الاستقامة .

ويختلف الإباضية عن اهل السنة في العديد من العقائد منها اعتقادهم ان اهل الكبائر ان لم يتوبوا فهم في النار و ان شفاعة النبي لا تكون لأصحاب الكبائر و ان القرآن مخلوق كقول المعتزلة و ان مرتكبي الكبائر كفروا كافر نعمة لا كفر شرك فيكون مرتكب الكبيرة موحدا غير مؤمن .

ويقول الأشعري في مقالات الإسلاميين (اما السيف فأن الخوارج جميعا تقول به إلا ان الاباضية لا تري اعتراض الناس بالسيف ولكنهم يرون ازالة أئمة الجور ومنعهم من ان يكونوا أئمة بأي شيء قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف)

ويرتب علي يحي معمر الإباضي مذهبهم في المسألة ان الحاكم الجائر يطالب بالعدل فان لم يستجيب يطالب بالاعتزال فان ابي يقاتل حتى يخلع .

ويشترك الاباضية مع الشيعة الزيدية و أهل السنة في اجازة امامة المفضول مع وجود الافضل خشية الفتنة بينما يرفض عامة الخوارج إلا ان تكون الإمامة لمن يصلح لها مطلقا وليس لمن هو اقل منه كفاءة .

وبرغم تحم بعض المؤرخين عليهم إلا ان كتبهم و شهادات العلماء فيهم تقول بأنهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا يقول الشيخ ابو زهرة (هم أكثر الخوارج اعتدالا وأقرهم الي الجماعة الإسلامية تفكيرهم و ابعدهم عن الشطط والعلو ولذلك بقوا ولهم فقه جيد و فيهم علماء ممتازون)

ولعل سبب ذلك الاختلاف ان العديد من الفرق كانت تنتسب الي الاباضية و لهم اقاويل شاذة وأفعال قبيحة كالحفصية و الزيدية بينما يبرئ منهم الاباضية ويرفضون هذه النسبة .. ولكن هل خروج فرقة تنتمى اصلا الي المذهب ينفي انتسابها اليها ؟

فمثلاً يثور خلاف في تقييم فرقة النكارية الذين انشقوا على الاباضية في دولتهم بالمغرب حتى قاموا بمحاولة اغتيال لإمامهم واستمروا علي عدائهم حتى قضي عليهم الفاطميون هل هم فرقة مستقلة ام فرع من الاباضية ؟ وكذلك السكاكية الذين اتهمهم الاباضية بالشرك ونسبوا اليهم انكار السنة و الاجماع وقاتلوهم ؟

ايا كان اختيارنا فهذه الفرق قد انقرضت الان وليس من الأنصاف أن ننسب عقائدها و افعالها للأباضية بينما هم يرفضونها .

وجمهور الفقهاء و العلماء من اهل السنة على ان الخوارج بشكل عام مسلمون يصلي ورائهم ويعاملون معاملة المسلمين ولا يقاتلون إلا ان كانوا معتدين بل ويرون عنهم الحديث النبوي

لنفورهم من الكذب ويقارن بن تيمية في منهاج السنة فيقول (وأين الخوارج من الرافضة الغالية ؟ فالخوارج من اعظم الناس صلاة وصياما وقراءة للقران ولهم جيوش وعساكر وهم متدينون بدين الإسلام باطنا وظاهرا)

وفي المقابل كان الخوارج هدفاً للحكام على الدوام يجاذرون خروجهم ويبطشون بمن يظهر منهم بعنف ولم يتعامل احد من الحكام مع الخوارج بعقلانية وإنصاف كما فعل الخليفة الاموى عمر بن العزيز ١٠٠ هـ حيث راسل قائد الخوارج بسطام اليشكري يطلب مناظرتهم و حوارهم وكتب له (بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك مني ، وقد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها. فهلهم إلي أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرك) فاستجاب اليه ورغم قوة حجة عمر إلا انه توقف عن اجابة الخوارج عندما سألوه لماذا تقرر بولاية يزيد بن عبد الملك بعدك وهو غير مأمون ولا يصلح للخلافة ؟

ويعتقد الكثير من المؤرخين ان هذه المناظرة كانت السبب الرئيس في اغتيال عمر الذي وقع بعدها بأيام خشية أن يطيح بيزيد من ولاية العهد وبمجرد وفاته تجدد القتال بين الامويين والخوارج الي ان قتل بسطام و اغلب جنوده و انتهت حركته .

وقد ثار الخلاف حول الأساس الفكري للخوارج بشكل عام هل هم نصيين يتمسكون بظاهر النصوص أم أنهم يستعملون التأويل فيخرجون النص عن مقتضاه بذلك ؟

فبينما يري الشيخ ابو زهرة أنهم نصيين حد السخف و الاندفاع قائلاً (وهم في دفاعهم وتحورهم متمسكون بألفاظ قد اخذوا بظواهرها وظنوا هذه الظواهر ديناً مقدساً لا يجيد عنه مؤمن).

يقول ابن حجر عنهم (وكان يقال لهم القراء لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة إلا انهم كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه ويستبدون برأيهم ويتنطعون في الزهد والخشوع) ... ومن ذلك ما قال ابن عباس عند رجوعه من مناظرتهم (والله ما سيماهم بسيماء المنافقين أن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون القرآن) .

و كلا الفريقين دلل علي صحة موقفة بالعديد من مواقف الخوارج و مناظراتهم ولكن لا يمكن ان نجعل الخوارج كلهم في كفة واحدة بينما هم فرق متباينة و ان وضعنا ايدينا على سبب خروجهم و تحزيمهم وهو الصراع السياسي نجد ان فقههم دار مع هذا الصراع في كل معركة فكرية فاصلة فتكون تدريجيا من اعتزال اهل النهروان الاوائل لجيش علي إلى مقاتلتهم له الي انفصال الازارقة ثم الاباضية كان ذلك كله نتاج معارك فكرية ومناظرات اقتضي صراعها طلبا للغلبة التمسك بظواهر النصوص تارة وتأويلها تارة بحثا عن ادلة تدعم المجادلين .

فالتمسك بظواهر النصوص لا يمكن اعتباره خطأ في الجمل ولا تأويلها كذلك ان كان التأويل سائغ يقبله العقل و مقتضيات الشريعة ولكن التمسك بظواهر نص بينما دلالاته واضحة على خلافة و تأويل اخر تأويل غير سائغ مرضاة لدوافع نصرمة المذهب والانتصار في الجدل فذلك منهج فاسد يدل علي الانحراف الفكري الذي وقع فيه الخوارج بلا جدال وادي بهم للمغالاة في التكفير واستحلال دماء المسلمين و اعراضهم وان كان الظلم قد وقع عليهم في تعميم هذا الغلو على جميع فرقهم وأفرادهم .

وعلى كل فقلة كتب الخوارج سببت جهلاً بكثير من عقائدهم فيما عدا الاباضية حيث المذهب لم يزال قائما وله فقهاء و علمائه .

ومحور الخلاف والنزاع بين اهل السنة والشيعة و الخوارج هو موقفهم من الإمامة.

ومذهب الخوارج بكافة فرقهم فيها انما بالشورى لا بالنص علي الائمة المعصومين كمتعقدات الشيعة ولا يشترطون فيها قرشية نسب الامام ولا يقبلون بولاية المتغلب أو بالتوارث ولا بالوصية في معظمهم كما شاع عن اهل السنه ويرون الخروج بالسيف على الحاكم الظالم .

والواقع ان الخوارج و المعتزلة لم ينفردوا بالقول بأن الأمة هي صاحبة الحق و الاختصاص في اختيار حكامها و أن تولي الامام يكون بناء على عهد بينه وبين جماعة المسلمين أن يلتزم جانب الشرع و الحق ويعمل لصالح الجماعة ككل بلا تفريق أو محاباة لبعض افرادها على حساب الاخرين فإن لم يلتزم تلك الشروط طولب بالاعتدال أو الاعتزال كما فعل الخوارج مع العديد من أئمتهم و امرائهم .

فأراء الخوارج هنا لا تخرج عن الإطار العام لفهم الصحابة بل تطابق العديد من الروايات و الاثار عن عهد الشيخان ابا بكر وعمر الذي تتفق كلمة اهل السنة و الخوارج على أنهما قاموا بواجبهم الديني والسياسي على أتم وجه و أسسا دولة مثالية في الرؤية الإسلامية .

وحدير بالملاحظة قول ابن تيمية (وأما عمر فإن أبا بكر عهد إليه ويايعه المسلمون بعد موت أبي بكر فصار إماماً لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم) الذي لا يترك مجالاً للشك في فتاعته ان بيعه المسلمون و إجماعهم على خلافه عمر هو مصدر شرعيته وليس اختيار أبا بكر ووصيته له ويمثل هذا المضمون نص النووي و غيره بينما ذهب البعض الي أن مصدر شرعيه عمر الرئيسي هو الوصيه مثل أبو حامد محمد المقدسي (وإذ قد صحت إمامة أبي بكر رضي الله عنه فطاعته فرض في استخلاف عمر رضي الله عنه بما ذكرناه و بإجماع المسلمين عليها) ولكن مذهب ابن تيمية اقوي لعدة أسباب أوضحها ان خلافة أبا بكر انتهت بوفاته وليس حكم الامة جزء من ميراثه يوصي به وان خلافته لم تكن صحيحة إلا برضاء المسلمون فكيف تكون خلافة من بعده صحيحة بغير رضائهم .

ثم تعددت أقوال العلماء أن الخلافة الراشدة انتهت بقتل علي بن ابي طالب و ان ما تلاه هو ملك وليس خلافة تكتسب شرعيتها من كونها حكومة فعلية منوط بها القيام بواجبات الحكم من تنظيم قضاء و دفاع و فض المنازعات و تحقيق الأمن والصالح العام .

اما اشتراط قرشية الامام الذي شكك الخوارج في صحة الاحاديث الدالة عليها و اتهموا الامويين بوضعها تدعيماً لوضعهم السياسي كما وضعوا احاديث بلعنهم و التحريض عليهم ففيه منازعه .

فبينما الخوارج و المعتزلة حيث لا يرون تقييد الاختيار باللون أو العرق أو الانتماء القبلي على الاطلاق نجد اهل السنة يحاولون فهم ماهية هذا الاشتراط الذي يتعارض مع العديد من الاحاديث و الاثار ففي اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول عرض الانصار ان يكون لهم امير وللمهاجرين امير بينما قال ابي بكر ان العرب لن يقبلوا بان يتولى الخلافة غير قرشي و عمر نفسه يقول قرب وفاته لو كان سالم مولي حذيفة حيا لباعته وذلك يعني انه كان يري جواز ولاية غير القرشي .

وللشيخ ابو زهرة اجتهاد في الامر حيث يقول جامعا بين احاديث اشتراط القرشية و الاحاديث الأخرى التي توجب طاعة ولي الامر ايا كان جنسه (ان النصوص في مجموعها لا تستلزم ان تكون الإمامة في قريش وانه لا تصح ولاية غيرهم بل ان ولاية غيرهم صحيحة بلا شك و يكون حديث الامر في قريش من قبيل الاخبار بالغيب كقول النبي الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكا عضوا أو يكون من قبيل الافضلية لا الصحة) .

بينما يقول عبد العزيز بن محمد بن سعود (الذي عليه اكثر العلماء انها لا تصح في غير قريش إذا أمكن ذلك وأما إذا لم يمكن ذلك واتفقت الامة على مبايعه الامام أو اتفق اهل الحل والعقد عليه صحت امامته و وجبت مبايعته ولم يصح الخروج عليه وهذا هو الصحيح الذي

تدل عليه الاحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم (عليكم بالطاعة والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي)) .

وقد فسر ابن خلدون اشتراط القرشية بأنه في الحقيقة اشتراط للعصبية التي تساند الخليفة ضمن رؤيته الاجتماعية السياسية حيث ذهب الي لزوم ان يكون للخليفة قبيلة قوية تمنعه فلا يطمع فيه الطامعون وقد أحتاج ابن خلدون على مذهبه بمحدث النبي (ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه) قائلاً (وإذا كان هذا في الانبياء وهم اولي الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم إلا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية) .. وعلي هذا فشرط القرشية موضوعي معلق بكوئهم عصبية تمنع الأمام فأن وجد غيرهم يقومون بهذا الدور يكون الشرط منطبقاً عليهم.

بينما ذهب العديد من العلماء ومنهم ابي بكر الباقلاني ان اشتراط القرشية انما كان لدفع التنازع بين القبائل و أنه شرط سياسي مرتبط بظرف و عصر بعينه لا بغيره .

وعندما ثار في العهد العثماني مسألة تسمي سلاطين ال عثمان باسم الخلفاء و امراء المؤمنين وقيل ان ذلك لا يصح لهم لأنهم ليسوا من قريش أحتج علمائهم ان السلطان يكون كذلك بالمبايعة وان ينفذ حكمة وان لا اعتبار لقرشية أو عربية النسب اما اشتراط القرشية فكان للزمن الاول بين الصحابة حيث كان الإسلام محصور في قبائل العرب ولا يصلحها إلا قرشي لغلبة العصبية القبلية عليها .

اما امامة المتغلب فلا تقول بما اى من فرق الخوارج بل مذهبهم (الامام يختار عن طريق الشورى وباتفاق اغلبية أهل الحل والعقد)

و لا يمكن الادعاء ان القول بصحة البيعة للإمام المتغلب هو مذهب اهل السنة والجماعة على الاطلاق فمن صححوا امامة المتغلب و ان كان ظالما قالوا بذلك تحت شرط موضوعي

ان يكون في خلعة فساد اكبر من بقائه بينما من قالوا بوجوب طاعته على الاطلاق برا أو فاجرا وسواء كان خلعة ممكنا بلا وقوع فتنة ام لا فهم الاقلية ولا يمكن اعتبارهم اهل السنة والجماعة بحال .

فعندما تقرأ قول ابن قدامة في المغني (ولو خرج رجل على الامام فقهره و غلب الناس بسيفه حتى اقروا له وأذعنوا بطاعته وبايعوه صار اماما يجرم قتاله والخروج عليه فإن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير فقتله واستولي على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعا وكرها فصار اماما يجرم الخروج عليه وذلك لما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم) .

نجد التأثير الواضح بالواقع السياسي الذي لم يترك مجالاً لانتقال السلطة إلا بالسيف أو التوارث في حماية العصبية القبلية و تكتلات المصالح ذلك بالإضافة الي ان الإمامة ليست منصب ديني عند اهل السنة مثلما هي عند الشيعة ولهذا فالصراع عليها لا يعدوا كونه صراع على متاع الدنيا و فتنتها في السطوة و شهوة الحكم يجب على المسلم ان يتجنبه وقد ذاق المسلمون مرارة الحرب الاهلية التي تخطت ويلاهما كل حدود الفساد التي يمكن ان تتصور من حاكم مسلم ظالم متعدي .

اما الخروج على الحكام فالخلاف بين الخوارج و السنة انهم اوجبوا الخروج (بيرون الخروج على الامام إذا خالف السنة حقا واجبا) بينما غلب على اهل السنة القول بعدم الخروج بالسلاح على الحكام والاكْتفاء بنصحهم و عدم تنفيذ اوامرهم الظالمة تجنبا للفتنة إلا ان كان عزلمم ممكنا دون الوقوع في فخ الاقتتال الداخلي الذي عاني منه المسلمون بشدة .

والسبب الواضح في الخلاف هو ان العرب لم تكن لديهم من تجرية سياسية عميقة و لا تاريخ سياسي مثل ما احاط بهم من امبراطوريات ودول لها تاريخ سياسي طويل ولهذا لا أظن من

التجاوز أو المغالاة القول انه حتى في عهد الرسالة كانت قبائل العرب تتصرف باستقلالية كبيرة ولكن عندما تحولت جماعة المسلمين الي دولة ضمت العديد من الشعوب و الاقاليم تضخمت السلطة وتركزت فلم يعد منصب الخلافة يصلح لعابد زاهد وإنما أصبح مركز السلطة التي تملك التحكم في ثروات و موارد ضخمة وتمسك بمصائر شعوب كاملة يحتاج لسلطة دنيوية قاهرة قد تتغاضي عن الالتزامات الدينية و الاخلاقية لتستطيع الحفاظ عليه .

وفي غضون سنوات قليلة كانت دولة الإسلام الناشئة قد تحولت الي امبراطورية فكان حتما أن يحكمها أباطرة .

وكما كان النزاع السياسي السبب وراء ظهور الخوارج و تطور عقائدهم و أفكارهم فقد استمر هذا النزاع يحدد سمعتهم و يرسم صورتهم في اعين الناس فكما نشرت الاحاديث التي تلعن الخوارج والتي أن سلمنا بصحتها نجدها تصف اناس مستحقين للعن بسوء فعلهم ايا كانت مذاهبهم السياسية و الفقهية فمن يقتل المسلمين و يستبيح اموالهم وإعراضهم مستحق للعن ايا كان اسم فرقته و ايا كان سنده الزائف ولكن تلك الاحاديث قصرت على الخوارج تحديداً و حصراً في إطار الصراع السياسي و تنفير الناس منهم في تحايل واضح.

و في العصور الحديثة شاع بين الكتاب اطلاق وصف الخوارج على المعارضين السياسيين ايا كانت قناعتهم و اهتمهم بالخروج عن اجماع المسلمين و لذلك تم التركيز على أكثر الجوانب تطرفاً من حقائق الخوارج وتاريخهم وإغفال الباقي عمداً لتلائم الصورة الذهنية المراد رسمها عن المعارضين كمتطرفين فاسدي العقيدة ثم الصاق وصف الخوارج بالمعارضين.

والصراع على السلطة كما له بعد سياسي بعيد الاثر في تكوين و انتشار المذاهب الدينية عامة فكذلك الصراع على السلطة الاجتماعية فكان السبب الرئيسي وراء التعصب المذهبي تكريس المنتمين لهذه المذاهب عدم التسامح مع الاخرين بحثاً عن السطوة الاجتماعية كما

عبر ابو حامد الغزالي بقوله (التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء
السوء فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار
فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوفر بواعتهم على طلب نصره الباطل
ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في
الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لا نجحوا فيه ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع
ولا يستعمل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآتهم وسموه
ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس
(

وفي النهاية احد كلمات الشيخ الأباضي علي يحيي معمر الليبي تعبر عن ما في صدري ..
إن المذهبية في الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة . ولا تتحطم بالقانون
فإن هذه الوسائل لا تزيدها إلا شدة في التعصب وقوة رد الفعل ، وإنما تتحطم المذهبية
بالمعرفة والتعارف والاعتراف ، فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا
يتمسكون به . وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعي للعبادات ، وبالاعتراف يتقبل
كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ، ويعطيه مثل الحق الذي يعطيه لنفسه (اجتهد
فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفي ظل الأخوة والسماح تغيب التحديات ، وتجد القلوب
نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنة ، غير خائفة أن
يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً . ولن نصل إلى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم
أتباع جابر وأبي حنيفة ومالك والشافعي وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس أن
أئمتهم أيضا يقفون في صعيد واحد لا مزية لأحدهم على الآخرين إلا بمقدار ما قدم من
عمل خالص .

المصادر

دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب و الأندلس - بوزياني الدراحي

الخوارج و الحقيقة الغائبة - ناصر بن سليمان السابعي

الخوارج - محمد علي الصلاحي

الخوارج تاريخهم وأرائهم الأعتقادية - غالب عواجي

تيارات الفكر الإسلامي - محمد عمارة

مقالات الإسلاميين و إختلاف المصلين - أبو الحسن الأشعري

الملل والنحل - الشهرستاني

تاريخ الإسلام - شمس الدين الذهبي

الفصل في الملل والأهواء و النحل -ابن حزم

من الشاه لأيه الله

إنهم ينادون بالحرية الفردية ويدعونك لها من أجل تمويه الأذهان والغفلة عن النباهة الاجتماعية حيث يرى الإنسان نفسه حرا من الناحية الفردية في غذائه وشهوته كقفص فيه طير وقد وضع في صالة مغلقة تماما ثم فتح باب القفص إنه شعور كاذب بالحرية لأن الأسير الذي يعلم أنه مأسور يحاول أن يطلق نفسه ويتحرر من الأسر بينما الذي لا يشعر أنه أسير ويشعر بالحرية فشعوره وهم وكذب.

علي شريعتي - النباهة و الأستحمار

صادف صعود الدولة العربية الإسلامية أزمة حادة تعرضت لها الإمبراطورية الفارسية حيث هزمت امام الامبراطورية البيزنطية هزيمة ساحقة في نينوى ٦٢٧ م الموافق العام الخامس للهجرة ثم اغتيل كسري الثاني بعدها لتدخل البلاد في دوامة دموية من الصراع على العرش الذي اعتلاه خلال السنوات ٦٢٨ م الي ٦٣٢ م عشرة من الملوك و الملكات كان اخرهم يزيدجر الثالث الذي بدء في عهدة فتح فارس ونهاية الامبراطورية الفارسية الساسانية .

وقد بدء الصدام العسكري بين العرب المسلمون و الفرس في العراق في العام ١٢ هـ في عهد ابو بكر ثم بدئت الفتوحات الكبرى في عهد عمر الذي كلف سعد بن ابي وقاص بتولي الجيوش الإسلامية في العراق بعد هزيمتها ومقتل قائدها المثني بن حارثة بينما ولي خالد بن الوليد جيوش الشام ليتصدوا للهجوم الفارسي البيزنطي الذي فشل و هزم الروم في اليرموك بينما هزم الفرس في القادسية بعدها بثلاثة شهور سنه ١٥ هـ لينفتح الباب للمدائن عاصمة الفرس امام سعد بن ابي وقاص الذي لم يتردد و غزا الفرس في عقر دارهم لتندفع الجيوش الإسلامية و تقضي على الامبراطورية الفارسية في بضع سنوات .

وفي عهد الدولة العباسية التي استعانت بالموالي على العرب عاد حكم الفرس لإيران في أطار صعود النفوذ الفارسي حيث كان الولاة من الفرس يعينون من الايرانيين معاونين وإداريين بينما في عهد الامويين كان الاعتماد كلية على العرب ورغم كون العربية اللغة الرسمية إلا ان الايرانيين لم يتوقفوا عن الحديث والكتابة بالفارسية كتعبير عن الهوية القومية رغم تعريب الدواوين.

وعند نهاية عصر هارون الرشيد وقع الصراع بين ولدية المأمون و الامين على الخلافة من بعدة فأنحاز القائد العسكري طاهر بن الحسين للمأمون و قتل اخيه الامين و اعوانه ومكنة من العرش ولكن المأمون ابعدة وولاة خراسان ربما خوفا من سطوته و غدره أو كراهية له وقد قتل اخاه وأن كانت جريمته كانت في سبيل تمكينه من العرش .

و لكن عندما دخل طاهر خراسان ٢٠٦ هـ دعا للإمام موسي الكاظم محولا ولاءه الي التشيع و خارجا عن سلطان العباسيين بدعوى الخلاف المذهبي ولكنة سرعان ما توفي و ثارت اشاعات حول بعث المأمون من دس السم له

واستمر ابناء طاهر يحكمون ايران شبة مستقلين و قد رضي منهم العباسيين بطاعة اسمية وجمعوا بين ولاية خراسان و ادارة شرطة بغداد يتوارثونها من عهد ابيهم طاهر حتى نهاية عهد حفيدة محمد بن طاهر الذي فوجئ بثورة العلويين و مساندة العامة لهم لسوء سيرته وكثرة ظلمة ٢٥٠ هـ

وارتفع شان الحسن بن زيد مؤسس اسرة العلويين بطبرستان و تضخمت سلطته ودولته وبنهاية ٢٥٣ هـ كان قد استولي على كامل طبرستان ولكن لم يستطيع ان يضم خراسان لتصدي جيوش العباسيين له بينما استطاع القائد العسكري يعقوب بن الليث الصفار ٢٥٩ هـ ان يزيل الدولة الطاهرية و يرث ممتلكاتهم ويؤسس أسرة حاكمة جديدة باسم الصفاريون

بينما أقر العباسيين الأسرة السامانية الفارسية كأمرء مستقلين تحت سيادتهم على بلاد ما وراء النهر كإقليم منفصل عن إقليم خراسان الذي استولى عليه الصفاريون الذي تصادموا معهم سريعا ليقضي السامانيون عليهم و يضموا خراسان الي دولتهم التي استمرت قرابة القرن قبل أن تسقط بدورها .

وظلت الهضبة الايرانية وما حولها تتعاقب عليها الاسر الحاكمة على اختلاف ميولها المذهبية و السياسية حتى تأسست دولة ديلمه ال بويه الذين استغلوا الفوضى السياسية في بغداد و انحلل سلطة الخلفاء و تسلط القادة العسكريين الاتراك عليهم واستولوا علي بغداد ٣٣٦ هـ في عهد الخليفة المستكفي الذي رحب ب أحمد الديلمي مرغما و لقبه معز الدولة واتخذ البويهين قرار عملي فلم يهدموا الخلافة العباسية لأنهم ان كانوا فعلوا لكان الحق للعلويين الشيعة وليس لغيرهم ولتحولوا لخدم لهم بينما كانوا يستطيعون البطش بالعباسين المتسلطين والغاصبين للخلافة حسب أعتقادهم متي شاءوا بلا معارضة .

ورغم قوة ال بويه إلا ان تقاسم ابناء ركن الدولة ممتلكاته بعد وفاته ٣٦٥ هـ ثم دخولهم في حرب عائلية عليها ادت لإضعافها وظهر السلاجقة الاتراك في الصورة فانتزعوا العراق من ايدي بني بويه واسر اخر حكامهم الملك الرحيم ٤٤٧ هـ

وكانت ايران و خراسان و سيستان و غيرها من أجزاء الامبراطورية الفارسية اقرب لانتشار دعاوي التشيع و الخوارج معتمدين على بعد المسافات و اختلاف اللغة ووجود القوي المحلية التي تستطيع الدفاع عن نفسها و من تؤويه ضد السلطة المركزية و قبل كل ذلك كانت الشعبية تجد غطاء عقائديا في ارتباطها بالمذاهب المناوئة لأهل السنه حيث مذهب السلطة المركزية التي يتم الخروج عليها بذريعة اختلاف العقيدة قبل الدعاوي العرقية و الشعبية التي يرفضها الإسلام فتعددت الدول في المنطقة الثرية كثيرة التقلبات .

حتى وقع زلزال المغول ..

كانت دولة المغول تصعد بقوة و رغم توسعاتها إلا انها حافظت علي علاقات طيبة مع جيرانها المسلمين ممثلين في الدولة الخوارزمية وارتبطت معها بمعاهدات تجارية ولكن ٦١٥ هـ وقعت جريمة كبرى علي يد حاكم مدينة أترار الذي هاجم قافلة تجارية للمغول و قتلهم و استولي على بضائعهم الثمينة مدعيا انهم جواسيس ولما اعترض جنكيزخان و ارسل الي محمد خوارزم شاه يطلب تسليم هذا الحاكم المتعدى رفض محمد خوارزم بل و تعدي اخر حدود خط التراجع بقتل رسول جنكيز خان معلناً الحرب بلا داعي سوى الحماقة والغرور وفي ٦١٦ هـ تحرك جيش المغول المخيف الذي لم يكن يدرك الخوارزميين مدي ضخامته وعند قلعه اترار انقسم الجيش الي اربعة جيوش شن كل منها هجوما مخيفا على جانب من البلاد التي تمزقت و دمرت مدنها وسبق شبابها ليعملوا بالسخرة في خدمة جيوش جنكيز خان و بيعت نسائهم وأطفالهم رقيق .

وعلي الرغم من ان سمرقند كان يرابط بها قرابة خمسين الف جندي خوارزمي إلا ان جنكيز ساق امام جيشه الالاف من الاسري من اهل بخاري كدروع بشرية وبينما انسحب الجنود الخوارزميين الاتراك بعدما استأمنوا المغول الذين تركوهم يخرجون ليلاقوهم في معركة اخري قاوم اهل سمرقند قدر طاقتهم حتى احرقت المدينة و قتل عامة اهلها.

وظارد المغول السلطان محمد الذي فر ولجئ الي جزيرة ابسكون حيث بلغة ان المغول اقتحموا قلعة قارون و قتلوا اطفاله و استبوا حريمه فمات كمدا من شدة القهر.

وتولي جلال الدين ابنه قيادة مملكته التي تحتضر ففر الي خراسان محاولا جمع قواه و انصارة بينما استمر هجوم المغول وفي الجرجانية التي استعصت عليهم لمناعتها قدموا الاسري ليردموا خندقها الممتلئ بالمياه و يهدموا اسوارها فاضطر سكانها الي قتل العديد منهم رغما عنهم

وفي النهاية استسلمت حامية المدينة ولكن المغول استمروا في قتال الاهالي و تحول الامر لمذبحة احرق فيها جنود المغول المدينة بيتا بعد بيتا وشارع بعد شارع وفي النهاية صنف المغول الاسري فاحذوا ارباب الحرف و الصناعات ليخدموا جيوشهم و استبوا النساء و الاطفال لبيعهم بينما قتل كافة الرجال في مذبحة مروعة .

اما مرو فقد كان قاضيها ارسل الي قواد المغول هدايا و قبل الدخول في طاعتهم في غيبة حاكمها مجير الملك فلما عاد اثار الناس على القاضي واتهمه بالخيانة فقتلوه وبعد مدة قليلة وصل جيش المغول فاستسلم له مجير الملك بعد خمس ايام من الحصار و عاملة قائد المغول باحترام ووعده بان يبقي الاوضاع علي ما هي عليه و عندما اجتمع اكابر المدينة قتلهم جميعهم بينما هاجم جنوده المنتشرين في المدينة الاهالي فعاثوا فيهم تقتيلا ثم احرق مرو كاملة وسويت بالأرض .

وكان جلال الدين يناوش المغول و يحاربهم ولكن بينما كان يستعد لعبور نهر السند فاجئه جيش مغولي فأمر بإغراق والدته و نساته خشية وقوهن في الأسر والقبي بشروات عائلته في النهر حتى لا يأخذها المغول و تمكن من عبور النهر سباحة بينما قتل كل من كان معه ولم يرحم جنكيز خان حتى الطفل الرضيع من اسرة خوارزم شاه التي اصر ان لا يترك فيها ذكر حي وعندما انتهت الحملة المغولية المدمرة وعاد جنكيز خان الي بلاده ٦١٩ هـ كانت الدولة الخوارزمية قد محيت من علي وجه الارض و قتل الملايين من رعاياها بسبب صراع لم يكونوا حتى يعلمون أسبابه .

وكانت رؤية جنكيز خان ان البداوة هي سر قوة المغول و انهم لا يجب ان يسكنوا المدن والقرى و يتعودوا الحياة السلمية السهلة كالشعوب التي غلبوها فكان المغول يعيشون في معسكرات ضخمة يتخذون موضعا مناسباً للصيف وآخر للشتاء ينتقلون اليه .

ورغم مأساوية تلك الحملة وعظم مصيبة المسلمين بما إلا أن قبس ضئيل من نور انبثق خلالها , حيث يروي الذهبي ان شيخ خوارزم نجم الدين الكبرى الملقب بصانع الاولياء الذي اعلن الجهاد ضد المغول وحرص الناس على قتالهم حتى سقط شهيدا في المعركة وهو ابن ثمانين عام , كان قد هرب مجموعة من خواصه و أنبغ تلاميذه قبل اجتياح المغول وأوكل اليهم القيام بمهمة مستحيلة , فقد طلب منهم أن ينتشروا في أوساط المغول ويقومون بالدعوة إلى الإسلام بين أظهرهم سراً !

ويشاء الله أن ينجح بعض تلاميذ نجم الدين في مهمتهم و أشهرهم الشيخ سيف الدين البخارزي الذي أسلم بركة خان حفيد جنكيز خان و زعيم القبيلة الذهبية والكثير من قادتهم وأمرائهم على يديه فتحول لسيف ودرع للمسلمين .

وبدء جلال الدين في العودة لبلادة ٦٢١ هـ و استعاد اجزاء كبيرة منها ولكن المغول عاودوا الهجوم عليه فهزم ٦٢٥ هـ ولكنة تحصن في مدينة أصفهان ليستعيد قواه وفي ٦٢٨ هـ هاجمته قوة مغولية في قلة من اصحابه قرب ديار بكر فتمكن من الفرار لكنه قتل على يد بعض الاكراد الحانقين عليه و انتشرت اشاعات عن انه لم يقتل وانه عاود الظهور في بعض الانحاء وظل الناس يستبشرون بهذه الاكاذيب سنوات طويلة وقد كانت مأساة الخوارزميين موحية للخيال الشعبي في اختراع الكثير من الاساطير لعل من أشهرها ما تردد عن كون السلطان المملوكي قطز أبنا لأحد الامراء الخوارزميين لم يجد خدامه وسيلة لإنقاذ حياته إلا اخفاء شخصيته وبيعه كعبد .

وفي ٦٥٦ هـ كان فصلا جديد من الرعب المغولي على وشك البدء فقد اتى هولاءكو بجيش ضخم و طلب من الخليفة العباسي المعتصم ان يحضر اليه و يقدم له فروض الطاعة والولاء ورد الخليفة عليه بتحذيره عاقبة التهجم على مقام الخلافة وانه يجر علي نفسه حرب المسلمين جميعا ولكن عندما دخلت جيوش التتار العراق و هزمت مقدمة جيش الخليفة ثم حاصرت

بغداد ادرك جدية الامر وعندما يأس من المقاومة خرج الخليفة المعتصم مع ابنائه وأكابر بغداد الي معسكر هولوكو للتفاوض فتودد اليهم و طلب منهم إيقاف اهل بغداد عن الجهاد والخروج منها بلا سلاح لإحصائهم ولكن هولوكو غدر بهم وقتل من خرج من اهل بغداد واقتحمها جيوش المغول و دارت رحى المذبحة المرعبة في بغداد لأسبوع كامل قتل فيها غالب اهلها ويقدر المؤرخين عدد شهدائها بثمانمائة الف نسمة قتلوا بلا حريرة و دمرت المدينة قبل ان يخرج هولوكو وقد فسد هواء المدينة و خشى الاوبئة فأتي بالمعتصم الاسير وقتله بأن جعله في جوال و رفس بالاقدام حتى زهقت روحه و ابنائه و كل من وقع في يديه من بني العباس إلا ابن الخليفة الاصغر مباركشاه الذي وهبه لزوجته التي رقت له لسبب ما وزوجته امرأة مغولية والرعابا المسيحيين في بغداد الذين اعتصموا بالكنائس واستنابها هولوكو من الدمار مرضاة لزوجته المسيحية واستمر الغزو المغولي لبلاد المسلمين كالوباء فاحتلوا حلب و الشام وغيرهم من بلاد الشام والعراق حتى واجههم جيش المماليك المصريين في فلسطين فأوقعوا بهم اول هزيمة كبرى في عين جالوت ٦٥٨ هـ وتبدأ حركة مقاومتهم و طردهم .

اما ايران فقد حكمها المغول عن طريق الإيلخانيون الذين استقلوا لدرجة كبيرة عن خانات المغول الذين حكموا إمبراطوريتهم الي ان ظهر تيمور لنك في بلاد ما وراء النهر وبدء في توسيع دولته على حسابهم فضم سمرقند وحوارزم ٧٨١ هـ ثم اذربيجان والكرج وأرمينية وفي ٧٨٩ هـ كان امراء اصفهان قد اتفقوا مع تيمور ان يبعث لهم سفراء ليدفعوا له الجزية ولكن اهل اصفهان قاموا بثورة وقتلوا محصلي تيمور الذي هاجم المدينة ليلا و قتل من اهلها سبعين الف وأمر بذبحهم وتجميع جماجمهم وأقام في منتصف المدينة ٢٨ هرما من الجماجم البشرية في مشهد مروغ لم يسبق له نظير و امتد سلطانه إلى الشام حيث دمر حلب وحماة والسلمية ودمشق وطرابلس واحرقهم ثم هاجم بغداد في طريق عودته فدمرها ثم تصادم مع العثمانيين بقيادة بايزيد الاول في معركة أنقرة ٨٠٤ هـ فدمر جيشهم و مات السلطان العثماني في اسره وظل تيمور يمثل تهديد مخيف حتى وفاته ٨٠٧ هـ

ورغم قسوة تيمور المفرطة و عداة الشديد للدولتين العثمانية والمملوكية إلا انه أشهر أسلامه على المذهب الاثنا عشري (بغض النظر عن حقيقة عقيدته) وساهم في نشر المذهب في ايران قبل أن يتحول للمذهب الرسمي للدولة على يد الصفويين .

و السلالة الصفوية يرجع اصلها الي اذربيجان و جدهم هو الشيخ صفي الدين اسحاق وهو شيخ طريقة صوفية سني شافعي انتقل الي أردبيل شمال ايران وقد انتسب الشيخ صفي الدين الي الامام موسي الكاظم من جهة الاب و هو حفيد الحسين من زوجته ابنة يزيدجر اخر ملوك فارس .

وتتلمذ الشيخ صفي الدين على الشيخ الصوفي الشهير تاج الدين الحيلاني وتزوج ابنته ولما توفي خلفه في مسجده وكثر تلاميذه في ظل انتشار الطرق الصوفية الذي اعقب اجتياح المغول الدموي للمنطقة ففي اوقات الفوضى و شيوع سفك الدماء يذيع ذلك النمط من التدين الذي يسميه البعض الاستسلامي حيث يسلم الناس قيادهم للدين بحثا عن خلاص الروح بعدما ايقنوا هلاك الاجساد و عجزت العقول عن تفسير الامور وعندما تطول فترات الظلام يتحول ذلك النمط الي النمط التقليدي للتدين حيث تكون محاولة عقلنه الدين عبثية في ظل العجز عن فهم العالم الواقعي .

فتحول الشيخ صفي الدين إلى زعيم شعبي وتحولت اردبيل على يديه الي مركز حيوي للمتصوفة يقصده الالاف من المريدين للاستماع إلى عظاته والتبرك بزيارته حتى تغير اسهما الي دار الارشاد وتولي ابناؤه زعامة الطريقة الصوفية من بعده .

وعندما تولى ابنه صدر الدين موسي الشياخة من بعده بدء يظهر طموحة السياسي مما وضعه في دائرة الخطر وتعرض لمحاولة للاغتيال فغادر أردبيل الي جيلان و أحتمى بأخواله حتى قتل حاكم أردبيل المغولي بعد هجوم للقبيلة الذهبية ضموا به أذربيجان فعاد لبلدته وظل يمارس

دورة كزعيم شعبي بالإضافة لزعامته الطريقة الصوفية حتى وفاته و خلفه ابنه علاء الدين الذي ربطته علاقة طيبة بتميمور لنك حتى انه وهبه ٣٠ الف جندي تركي تم اسرهم في معركته مع السلطان العثماني بايزيد الاول ٨٠٤ هـ

وهؤلاء هم أجداد طائفة القزلباشية الذين تحولوا لقوة لا يستهان بها ساندت الصفويين في صراعاتهم كما منحة تيمور لنك اراضي شاسعة استعملها في اسكان اتباعه ووفرت للأسرة الصفوية موارد مالية ضخمة مكنتها من تبوء مركز الصدارة في مجتمعها بالجمع بين العلاقات السياسية الجيدة و الثروة و الاحترام الديني حتى توفي علاء الدين في القدس ٨٣٠ هـ و تراجع دور العائلة السياسي في عهد ابنه ابراهيم الذي لم يكن في مثل نشاطه .

ولكن ابنة جنيد كان طموحة السياسي فائقا فعندما ورث القيادة بعد ابوة ٨٥١ هـ تحول الي قائد سياسي وعسكري معتمدا على اعداد المردين الضخمة في ظل سقوط الإمبراطورية التيمورية التي تفككت بعد وفاه تيمور لنك حيث استولي ابناءه على ما تحت ايديهم من اقاليم واستقلوا بها ودخلوا في صراعات دموية مع بعضهم وكل منهم يحاول توسيع مملكته على حساب الاخر وحول الدعوة المذهبية إلى سياسية وتم على يديه التغير التاريخي للحركة بتحويلها الي المذهب الاثنا عشري مازجاً التصوف بالتشيع في تركيبة فريدة وضم الي حركته الشيعة التركمان وبشر بالمذهب في البلاد حتى تصادم معه حاكم شروان و جرت بينهم معركة اسفرت عن مقتل جنيد ٨٦٤ هـ

وظل ابنه حيدر في اردبيل متحصنا بها واتباعه دون ان يحاول التصادم مع السلطة قبل الاوان ونظم مريديه تنظيما عسكريا كان اكثر ما يميزه قلنسوة حمراء صارت شعار للصفويين ولكنها عندما خرج للقتال و الغزو قتل في معركة بطبرستان ٨٩٣ هـ واعتقل حاكم أردبيل زوجته وأبناءه الثلاثة وسلمهم الي حاكم فارس الذي سجنهم لمدة اربع سنوات في قلعة ثم افرج عنهم في ظل صراع سياسي عنيف في المنطقة ليجمع ابناء حيدر مريديه وينظموا قواهم مرة

اخرى و قتل من الاخوة الثلاثة سلطان و ابراهيم في المعارك و بقي اسماعيل ليكون له شأن آخر.

لاذ اسماعيل بحاكم لاهجيان الذي ساندته و اسبغ عليه حمايته خمس سنوات كانوا كافيين ليستعد اسماعيل و يشتد عودده و خرج اسماعيل واستقر في أرجوان وأسس فيها جيشه ٩٠٦ هـ

وسرعان ما قام اسماعيل بضربه العسكرية الاولى فتوجه الي ولاية شروان للانتقام من قتله والدة فهاجم عاصمتها وقبض على حاكمها فروخ يسار شاه وقتله و أحرق جثته ولم يكتفي بذلك بل خرب مقابر حكام شروان ونش قبر خليل والد فروخ الذي قتل جده جنيد واخرج جثته واحرقها !

وظهر اسماعيل كقوة محلية يعمل لها حساب وقد ابدى من القسوة ما يخيف اعداءه واستولى على ممتلكات و اموال أسرة يسار شاه وكون ثروة دعمت طموحة العسكري.

ودخل اسماعيل بهذا في خط المواجهة مع الوند رئيس قبائل الآق قوينلو التركمانية التي كانت تسيطر على ايران ورغم ان الوند كان يفضل السلام بسبب النزاعات العنيفة داخل اسرته التي اضعفت قواه إلا ان اسماعيل رد على كتابة طلبا بالسلام بتخييره بين اعتناق المذهب الشيعي والتبعية له أو الحرب.

وبعد معركة عنيفة في وادي أراكس هزم الوند وهرب بينما واصل اسماعيل طريقة الي تبريز عاصمة الآق قوينلو حيث رحب به اهلها لتبدأ دولة الصفوية.

وبادر اسماعيل بفرض المذهب الاثنا عشري بمجرد استيلاءه على تبريز وأعلنه المذهب الرسمي و الاوحد للدولة وبينما كان التشيع منتشرا في ايران إلا ان علماء المذهب تخوفوا من رد فعل

السنة على هذا ولكن اسماعيل تعامل بقسوته المعهودة مع كل من اعترض وقتل الالاف في سبيله لتثبيت المذهب و دحض كل معترض عليه.

وفي ٩٠٧ هـ سك عملة جديدة كتب عليها لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله و اسمه وغير الإذان للصيغة الشيعية و امر بلعن أبي بكر وعمر وعثمان على المنابر في كل خطبة و تسمى باسم الشاه ووحده البلاد اداريا و عسكريا.

وطارد اسماعيل مراد بن يعقوب اخر حكام الاق قوينلو في الهضبة الايرانية و ضمها الي سلطانه واستولي على شيراز وبادر اغلب الحكام المحليين بتقلد ولائهم له و تحولهم الي المذهب الاثنا عشري و فرضه على السكان مقابل استمرارهم في مناصبهم وحاول حاكم خور ان يستغل غياب الشاه عن عاصمته فهاجم تبريز وقتل حاكمها ولكن الشاه عاد وتصدي له ٩١٠ هـ وقتله ووضع جثته في قفص و حملها الي اصفهان حيث احرقها في ميدانها.

والذي يميز اسماعيل وسر نجاحه ليس قسوته و شرسته العسكرية فحسب فقد كانت القسوة المفردة سمة العصر ولكن لأنه صاحب رسالة فهو رجل دعوة كما هو رجل دولة فقد كانت رؤيته ان توحيد البلاد مذهبياً هو السبيل الوحيد لضمان وحدتها في ظل تعدد الاعراق والقبائل بما واختلاف المذهب يقيم حدوداً غير منظورة بينه وبين الدول السنية المحيطة بإيران التي بدئت تكتسب سمات الدولة القومية .

فقد نجح اسماعيل في تحقيق ما عجز عنه الفاطميين والبويهيين في تحويل عقائد الشعوب التي حكموها الي التشيع , فقد كان خطة شاه اسماعيل و طموحة من البداية في تحقيق هوية جامعة لايران يوحد من خلالها الفرس و الترك و الأرمن و العرب في دولته تحت راية المذهب الشيعي الاثنا عشري و قيادته بصفته نائبا عن الامام المهدي حتى عودته , فاستعمل العنف

واراقة الدماء في ضحدا اي مقاومة فكان يقتل كل من لا يرفض التبرء من المذهب السني ويلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة وفي كل ناحية كان يقتل الفقهاء والعلماء السنة و يصادر اموالهم وفي المقابل استجلب فقهاء الشيعة من العراق و جبل عامل بلبنان و اغدق عليهم الامتيازات المالية و الادبية وملكهم اراضى شاسعة حتى استئصل المذهب السني من ايران كلها تقريبا .

وبعد قضاء اسماعيل على اسرة الاق قوينلو في إيران تحول للهجوم عليهم في العراق وراسل السلطان المملوكي قنصوه الغوري يؤكد ان عملياته في العراق لا تهدف لعدهائه وإنما ضريبة وقائية لمناوئيه و أرسل رسالة اخري بذات المضمون للسلطان العثماني بايزيد الثاني وسرعان ما دخل بغداد و ضمها لمملكته ٩١٤ هـ

وبدء الشاه اسماعيل في احياء المذهب الاثنا عشري في العراق فعمر مزارات الائمة الشيعة ومشهد الحسين في كربلاء و مشهد علي في النجف و خرج الشيعة في العراق من اطار التقية الذي استمروا به قرون وأصبحت الدولة الشيعية الناشئة دار هجرة للعديد من الشيعة وخاصة العلماء والفقهاء وظهر في الدولة الصفوية منصب شيخ الإسلام هو مسئول الدعوة و يعود اليه قبض الضرائب الدينية والحقوق الشرعية كالخمس و الزكاة وتعيين مديري الاوقاف ومنصب الصدر وهو الوزير المفوض ومع الدولة الصفوية بدء ظهور السمات الجنائزي للاحتفالات الشيعية بيوم عاشوراء و غيرة من المناسبات الدينية وظهرت ممارسات الندب و جلد الذات وضرب الصدور و البكاء الجماعي و أكد الفقهاء الشيعة في عصر اسماعيل على فكرة التولي والتبري المقابل الشيعي للولاء والبراء عند المسلمون السنه وبينما يقصد بالتولي اتباع وطاعة اولياء الله و علي رأسهم الائمة و الاقتداء بهم و العمل بسيرتهم وإظهار محبتهم يقصد بالتبري معاداة اعداء الدين و ان ادعوا أنهم مسلمون و مخالفتهم وعدم متابعتهم و بغضهم و الدعاء عليهم لأنهم حرفوا دين الله و أضلوا المسلمين عن جادة الصواب .

وبالطبع فإن انتشار مثل هذه الافكار لم يترك مجالاً في النمو إلا للتعصب المذهبي وجعل تصور قيام السلم والتفاهم بين أصحاب المذاهب المختلفة خيال بعيد.

وأخيراً عاد الشاه الى تبريز ٩١٦ هـ بعد عشر سنوات من الحروب المتوصلة وضعت اساس الدولة الصفوية و كان عمرة وقتها ٢٥ سنة فقط!

ولكنة لم يهنئ بالراحة طويلاً فسرعان ما خرج على راس جيش ليواجه توغل الأوزيك في جنوب خراسان وثورة سكان فيروزكوه.

وتمكن اسماعيل في كمين اعدة بإحكام من هزيمة محمد شيباني خان الأوزيك وقتله و قاداته و الالاف من جنوده فقام الشاه بقطع اطراف محمد شيباني الاربع وإرسالها الى بعض المتمردين لإخافتهم و سلخ جلد رأسه وأرسله الى السلطان العثماني بايزيد الثاني و جعل من جمجمته كأساً يشرب فيها!

وتحالف اسماعيل مع بابر مؤسس دولة المغول في الهند الذي كان في صراع مع الاوزيك فقام بابر بالاستيلاء على بخاري وسمرقند بينما هاجم اسماعيل الاوزيك في الاجزاء الغربية من ايران و التقى الجيشان في المهجوم المشترك على مدينة قارشي ورغم انتصارهم إلا ان الخلاف وقع بين بابر و الشاه لتصرف قائد جيشه نجم ثاني الدموي ضد المدنيين و الاسري حيث اقدم على قتل ١٥ الف منهم وعلي رأسهم علماء الدين السنة و الاعيان لتفريغ المدينة من قواها المدنية التي قد تقاوم المد الشيعي كما فرغها من قواها العسكرية بإبادة حاميتها فلم يترك مجالاً للشك ان الصفويين سيفرضون عقائدهم قصراً على كل الاراضي التي يسيطرون عليهم فتوقف بابر عن القتال و ترك جيش اسماعيل يتوجه إلى بخارى وحدة وفي موقعة غجديوان تلقي الصفويين هزيمة ساحقة علي يد الاوزيك الذي واجهوا تعصبهم المذهبي بتعصب مقابل وحشدوا القبائل على اساس الدفاع عن الدين فقتل نجم ثاني واغلب قاداته .

وكانت علاقة العثمانيين و الصفويين قد تحولت الي العداء الواضح بعد قيام ثورة شيعية بتحريض الصفويين في الاناضول ٩١٧ هـ في ظل الصراع العنيف على السلطة بين ابناء بايزيد الثاني حتى حسمه السلطان سليم ودخل في صراع حاد مع الشاه اسماعيل و الصفويين الذين حاولوا تقويض دولته بنشر الدعوة الشيعية بين قبائل التركمان من خلال الدعاة القزلباش لبدأ الصراع التاريخي بين الدولتين حيث مثل الاتراك العثمانيين السنه معسكر ثقافي مناهض لمعسكر الصفويين الفرس الشيعة .

بينما اظهرت الدولة المملوكية الحياض مترقبة الصراع ومتوقعه ان يتجه المنتصر فيه الي الاستيلاء على املاكها في الشام والتي امتدت حتى مرعش والبستان مناطق الاكراد التي حكمها علاء الدولة نيابة عن السلطان المملوكي .

وخرج سليم على راس جيش عثماني ضخم يطلب الشاه اسماعيل الذي ظل متحصنا في الداخل الايراني يخشى مواجهته حتى ارسل اليه سليم رسالة استهزاء واتهمه بالجبن و ارسل اليه عصا و خرقة ومسبحة (باعتباراه لا يصلح إلا درويش صوفي كما اجداده)

فرد عليه برسالة انه مشغول بالصيد في أصفهان ولا رغبة له في الحرب (حاول الشاه اسماعيل وقتها ان يجرض البندقية و الدول الاوربية على المحجوم على العثمانيين لتخفيف الضغط عليه بلا طائل) و ارفق رسالته بعلبة من الافيون كناية عن ان سليم يحلم بهزيمته نتيجة تعاطيه المخدر واستمرت رسائل التهديد و الاهانة بين الطرفين حتى وقعت معركة تشالديران ٩٢٠ هـ التي هزم بها الشاه هزيمة ساحقة وقتل اغلب قاداته وتشتت جنوده واضطر للهرب جريحا الي الداخل الايراني و قد اسرت زوجته تاج لي خانم فلم يردها سليم بل زوجها لأحد كتابة نكاية فيه !

ودخل سليم تبريز عاصمة الصفويين واستولي على خزائن الشاه وكنوزه ولكن بعد الموقعة بأيام وقع تمرد بين الانكشارية و طالبوا بالعودة لبلادهم بعدما اضناهم البرد و سوء الاحوال الجوية ونقص المؤن في ذلك السفر الطويل وبينما احرق الشاه اسماعيل الحبوب والمؤن قبل انسحابه ليجوع مطارديه منع قنصوه الغوري مرور الحبوب والمؤن عن طريق حلب فاضطر سليم للتوقف عن مطاردة اسماعيل مرغماً .

ورغم تلك الضربة القاسمة التي انزل بعدها الشاه اسماعيل و توقف عن الظهور للعامّة إلا ان سلطان الصفويين في ايران لم ينتهي وحاولوا استعادة قواهم مستغلين انشغال العثمانيين بالصراع مع الاوربيين والمماليك وشجع الشاه التجارة و دعي التجار الاوربيين لزيارة ايران و بدء علاقات تجارية معها وسهل لهم السبل بالقوانين و الانظمة الملائمة لتحرر التجارة وازدهارها.

وعندما توفي اسماعيل ٩٣٠ هـ عن ٣٧ عاما فقط بعدما ترددت الاشاعات عن ادمانه للخمر بعد اصابته بالإحباط لتحطم جيشه و الاذلال الذي تعرض له علي يد السلطان سليم تولى الشاه طهمااسب الدولة من بعده و حيث ان سنه لم يتجاوز العشر سنوات فقد تولى الوصاية عليه زعماء القزلباش وتولوا ادارة الدولة نيابة عنه ودارت بينهم الصراعات بينما تعاضم نفوذهم حتى عرفت ايران بمملكة القزلباش و تعرضت الدولة الصفوية لهزة عنيفة فقد تغلب عليهم العثمانيين واستولوا على العراق و خورستان بينما استولى الاوزبك على هراة ومشهد ونيسابور و تراجعت الصبغة الدينية للدولة لصالح الصبغة القبلية وعندما وقع الصراع المسلح بين قادتهم لحيء بعضهم الي السلطان العثماني سليمان القانون الذي توجه الي ايران بجيشه فانضم اليه العديد من زعماء القزلباش و اظهروا ولاءه له

ولكن السلطان سليمان انشغل بحصار فيينا ٩٣٥ هـ فاستعاد الشاه طهماسب تبريز ثم توجه للعراق و ضم بغداد و استورد أسلحة نارية و درب المقاتلين عليها علي يد خبراء أوربيين فأستطاع صد هجوم الأوزبك علي بلاده ٩٣٩ هـ

ولكن في ٩٤١ هـ قام العثمانيون بغزو الدولة الصفوية مرة اخري وانسحب طهماسب من امام جيوشهم التي دخلت تبريز بدون قتال وفر الحاكم الصفوي من بغداد امام السلطان الذي اقام بها اربعة اشهر أعاد فيها بناء الاماكن السنية و عين حاكم عليها ولكن عاد السلطان الي بلاده ليعود الشاه لتبريز ثانية وتستمر المناوشات بين الدولتين .

وفي ٩٦٢ هـ عقد طهماسب و السلطان سليمان صلح أماسيا بعدما سأم الطرفين الكر والفر بلا نهاية.

ولكن الصلح تعرض لهزة عندما اوي الشاه ابن سليمان بايزيد الذي تمرد علي ابيه وجرت مفاوضات بين الجانبين انتهت ٩٧٠ هـ بتسليم بايزيد وأبناءه الاربعة الي مندوبي السلطان العثماني الذين قتلوهم مقابل هدم قلعه قارص وتحديد الصلح .

واستمرت العلاقة طيبة بين الصفويين والعثمانيين ورفض الشاه طلب من البندقية للتحالف ضد العثمانيين بعد فتح قبرص ٩٧٨ هـ

وفي نهاية ايام طهماسب وقع الخلاف على من يخلفه وانقسم قادة القزلباش بين مؤيدين لخلافة اسماعيل الذي كان والده قد سجنه في قلعه فهتة تخوفا من انقلابه عليه لمدة تقارب عشرين عام و اخرين مؤيدين لحيدر بينما اصيب ابن طهماسب الاكبر محمد بمرض افقده بصره و اهليته للحكم

وتوفي الشاه طهماسب ٩٨٤ هـ في اجواء سياسية مضطربة بعد ان قضى ٥٣ عاما في الحكم وبمجرد وفاته اعلن ابنه حيدر نفسه شاه لإيران ولكنه لم يستطيع ان يخرج من ابواب القصر

الذي حاصره الحرس المؤيد لأخيه اسماعيل وقتل اثناء محاولته الهروب متخفياً في زى امرأة وعندما وصل الخبر لإسماعيل تحرر من سجنه ثم قصد اردبيل حيث زار قبور اجداده ثم عاد للعاصمة قزوین ليتوج ملكاً على ايران.

ولكن مؤيدي اسماعيل لم يكونوا يدركون انهم اطلقوا وحشا من سجنه فسرعان ما فتك اسماعيل بإخوته و ابنائهم واغلب الامراء الصفويين وقتل كل من ساند اخيه حيدر وطالت فورة القتل الجنوبي المتصوفين الذين اعتبروا الملك الصفوي مرشدا وليس ملكا متوج وبلغه ان مؤامرة تعد لخلعه وتنصيب ابن اخيه حسن ميرزا علي العرش فقتله خنقا في طهران دون ان تثبت صحة المؤامرة و في مدة لا تزيد عن عام ونصف كان اسماعيل قد قتل ما قدر بثلاثين الف نفس !

وفي النهاية وقعت المؤامرة فعلاً واغتيل اسماعيل بالسم واتفق قادة القزلباش على تعيين اخيه الكفيف محمد خدابنده ملكاً رمزيا بينما تتولي بريخان خانم اخته التي تشير اليها الايدي في تدبير مؤامرة قتل اخيها اسماعيل ادارة الدولة من وراء ستار ٩٨٥ هـ

وشهدت الدولة الصفوية صراعاً علي السلطة بين بريخان وزوجة محمد مهد عليا التي اتحت الصراع بان دبرت مؤامرة لقتل بريخان وأبعدت اعوانها و عينت ابناها الاكبر حمزة ميرزا وليا للعهد ولكن تدخلها المستمر في شئون الدولة وتعيين اقاربها في مناصبها الكبرى اثار غضب القزلباش الذين حذروا محمد فعرض عليهم ان يتنازل عن العرش ان ارادوا مقابل عدم المساس بزوجته ولكنهم لم يقبلوا فقتلت ٩٨٧ هـ و سادت الفوضى قزوین وأقتتل اهلها ولكن في النهاية سلم محمد بالأمر الواقع و تولى الوزير سلمان وزعماء القزلباش ادارة الدولة ووزعوا ولايتها عليهم بينما انتهز حكام خراسان من قبيلة شاملو الفرصة واستقلوا بها واختاروا عباس ابن محمد خدابنده اميرا عليهم وعلي قولي خان وصيا عليه ومن المفارقات ان علي قولي كان

قد كلفة الشاه اسماعيل بقتل الرضيع عباس بن محمد ولكنه تلكأ في التنفيذ حتى قتل اسماعيل

وعندما توجه الجيش لخراسان بقيادة الوزير سلمان تقدم العثمانيين تجاه اراضيهم فتم الصلح بينهم سريعاً و اعترف الخراسانيون بحمزة ميرزا ولياً للعهد مقابل الاحتفاظ بحكم خراسان .

ولكن حمزة سرعان ما قتل ٩٩٤ هـ ورفض الشاه محمد تعيين احد من ابناءه ولياً للعهد من بعده وبعد صراع مع القادة وصل لحد الحرب الاهلية انتهى الامر بان تنازل محمد عن العرش المشغوم لابنه عباس ٩٩٦ هـ

وكان اول ما واجه الشاه عباس هو تحكم الوصي عليه مرشد قولي خان الذي كان قد اسره في معركة عند بلدة سوسفيد و ارسله الي مشهد ليكون تحت وصايته وأطلق علي نفسه نائب السلطنة فلما وصل العرش الي عباس استمر مرشد قولي في منصبه كوصي عليه و تضخمت سلطاته وعين اتباعه في المناصب الكبرى .

وسرعان ما وقع العداء بين الشاه الذي رفض طلب مرشد بالزواج من احدي اميرات الاسرة الصفوية و تسبب في مقتل علي خان مربية بان منع المدد ان يصل اليه اثناء حربة للأوزبك الذين اقتحموا هراة رغم امر الشاه له .

وعندما تحرك الجيش الصفوي الي خراسان ٩٧٧ هـ للتصدي لهجوم الأوزبك امر عباس بعض قادته بقتل مرشد خان ليتخلص من اسره اخيراً

وبدأ حكم عباس الحقيقي الذي أستهلته بالقسوة و البطش بكل من يعارضه ولم يكن علي قيد الحياة من رجال الاسرة الصفوية إلا خمسة من ضمنهم والده الذي منعه من الاختلاط بالناس حتى وفاته اما عماءه و ابنا اخيه فقد أمر بسمل عيونهم حتى لا يطمعون في الاستيلاء علي عرشه وسجنهم في قلعه ألموت حتى وفاتهم !

ولم تقف دموية عباس عند هذا الحد بل امتدت لأبنائه فقتل ابنه محمد باقر ١٠٢٤ هـ وانتحر ابنه خدابنده بعدما سمل عينيه كما سمل عيني ابنه الخامس مقلي ١٠٣٦ هـ

وواجه عباس تمردا من يعقوب خان حاكم فارس ٩٩٨ هـ ولكن يعقوب لم يحارب عباس عندما توجه الي أصفهان بل مثل بين يديه و تعهد له بالطاعة والولاء و عفا عباس عنه ولكن بعد ثلاثة ايام فقط امر بقتله ثم استدعي افراد أسرته وأعوانه لمجلسه وأمرهم بتقبلي قدميه لكي يعفوا عنهم ففعلوا ثم قتلهم ايضا !

وأشتهر عباس بأنه لا يكتفي بقتل من يعصى أو يخالف اوامره فقط بل و يقتل معاونيهم وإفراد اسرهم حتى اصبحت فكرة التمرد علي عباس مرتبطة بالموت والدمار وطبق اسلوب غاية في المركزية فجمع كل ايران تحت سيطرته المباشرة .

وشهد عهد عباس بداية النهاية لطوائف القزلباش التي تجاوزت ٣٢ طائفة و بلغت اعدادهم ٦٠ الف كانوا يتقاضون رواتبهم من الدولة وحكموا الولايات بشكل مباشر وسيطروا على الجيش والإدارة .

وقد عمد الشاه الي التخلص من بعض رؤوسهم تدريجيا بالقتل و تجريدهم من مناصبهم وممتلكاتهم وتحويل الدولة الصفوية تدريجيا الي نظام الادارة المركزية وأنشأ جيشان اخرين تألف احدهما من الارمن والشركس التابعين للدولة الصفوية و الاخر من المواطنين الايرانيين باسم شاهسون (محيي الملك) وجعلهما تحت قيادته المباشرة بينما خفض عدد جيش القزلباش الي النصف واعتني بتسليح وتدريب الجيشان الجدد بالبندق و المدافع فزوده بخمسمائة عربة مدفع و ستين الف بندقية و أنشأ مصنع للذخيرة والسلاح بمساعدة بريطانية و وضع قيادة الجيش تحت اشراف بعثة عسكرية بريطانية حولت جيش الصفويين لخصم كفيء لعدوهم المشترك الامبراطورية العثمانية ١٠١٣ هـ واستعان الشاه عباس بالإنجليز مرة اخرى ١٠٣١ هـ ودخل

معهم في حلف عسكري لطرده البرتغاليين من جزيرة هرمز ولكن البريطانيون استغلوا الفرصة و ملئوا الفراغ بأسطولهم ليكون الخليج تحت سيطرة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وليتغير مسار التاريخ في الخليج العربي بالوجود الإنجليزي عميقا .

وقد ازدهر اقتصاد الدولة الصفوية في عهد عباس وساهم الانفتاح الاقتصادي على نمو التجارة و يظهر اثر ذلك الازدهار في النهضة العمرانية التي مازالت تميز ايران منذ عهدة الذي نعت أصفهان التي تحولت الي عاصمة الدولة ١٠٠٦ هـ خلاله بنصف الدنيا لبهائها و رونقها و ثرائها وبرز الفن الايراني الفارسي بطابعه المميز في الرسوم والزخرفة والعمارة والمنمنمات والخزف والنحاس المنقوش و اشتهر الحرير و المخمل و الاقمشة المقصبة والمطرزة والسجاد من صنع ايراني في العالم وان كان هذا الانفتاح والثراء قد جر الاوربيين الجشعين للبحث عن موطئ قدم في المنطقة في العصر الاستعماري.

وبرغم قسوة عباس المفرطة في تعامله السياسي إلا انه كان على العكس من ذلك مع العامة حيث كان رحيمًا بهم عطوفًا على الفقراء و المعوزين يطعم زائري المزارات المقدسة و يمنحهم لفقرائهم المال ولأغنيائهم الهدايا.

وكان شيعي ملتزم قضي ١٠ ايام في ضريح الامام علي في النجف يخدم زواره و يكنس ارض المقبرة بنفسه وقام بالحج الي ضريح الامام علي الرضا في مشهد سيرا على الاقدام وبرغم انه كان شديد التعصب للمذهب الامامي لم يسمح لأي مذهب اسلامي اخر بالظهور في ايران إلا انه تصدى لنفوذ رجال الدين الشيعة ولم يسمح لهم بالتدخل في امور السياسة والحكم ابدا.

و كان شديد العنف مع الاكراد السنه في دولته حتى اندفعوا للثورة ١٠٢٣ هـ فهاجمهم و اجري في مناطقهم مذابح دموية ثم أجري عملية تهجير قصري لقراية خمسة عشر الف أسرة كردية من كردستان الي شرقي خراسان ليكونوا دروعا بشرية ضد هجمات الازبك .

ولم يعفو عباس عن اسير وقع في يده إلا ان تخلي عن مذهب السنه واعتنق المذهب الشيعي بينما غض الطرف عن نشاط المبشرين الاوربيين و استخدم المسيحيين في جيشه وعمد الي استقدام ٦٠ الف من سكان ارمينيا الذين هاجمهم العثمانيين ١٠١٣ هـ واسكنهم في ولايات ايران المختلفة وبنى لهم ضاحية بجوار العاصمة أصفهان باسم جلفا وهم اسم عاصمتهم القديمة في اذربيجان وبنى لهم كنيسة كبيرة بها.

وشهد عهد عباس تحول العلاقة مع العثمانيين من الخضوع الي تحول الصفويين لقوة تستطيع مواجهتهم.

ففي بداية عهد عباس عقد صلح بين الدولتين ٩٩٨ هـ تنازلت فيه ايران عن تبريز و القسم الغربي من اذربيجان و ولايات ارمينيا و اجزاء اخري بالإضافة الي التعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين و ام المؤمنين عائشة و بقاء حيدر ميرزا اخو الشاه عباس رهينة في استانبول والتعهد بعدم ابواء الفارين من الجانبين.

و لكن الدولة العثمانية سرعان ما دخلت في طور الانحطاط وضعف سلاطينها و تفتشي الفساد بها بينما تضخمت قوه الشاه وتعززت.

وعندما توفي حيدر في الاسر العثماني ١٠٠٥ هـ بعث السلطان العثماني سفيرا يطلب من عباس ان يرسل ابنه الاكبر الي استانبول ليكون رهينة بدلا منه فكان رد عباس ان نتف لحية السفير العثماني و ارسلها الي السلطان ثم ارسل اليه مفاتيح ٢٤ مدينة استولي عليها في خراسان وتركستان وأفغانستان .

وفي ١٠١١ هـ هاجم الشاه عباس تبريز واستعادها وبدء استعادة المدن الارمينية هازما القوات العثمانية الضئيلة التي كانت تحميها.

وتحرك السلطان العثماني أحمد الأول ووجه جيش بقيادة الصدر الاعظم سنان باشا فانسحب عباس من امامه واستدرجه الي العمق الايراني قبل ان يهاجمه في وان فهزمه واضطره للفرار قبل ان يحشد قواه ويعيد الهجوم ليلقي هزيمة جديدة ١٠١٤ هـ انتحر على اثرها في ديار بكر.

واستولي عباس على اذربيجان كلها قبل ان يرسل اليه العثمانيين بطلب الصلح الذي تم
١٠٢١ هـ

ولكن عندما رسمت الحدود بين الدولتين قسمت الكرخ بينهما ووقعت كاخت في نصيب الصفويين فاعترض حاكمها طمهورث خان وأعلن تمرده علي الصفويين ١٠٢٣ هـ

فهاجمه عباس و ارتكب مذابح بشعة في الاهالي وحول كنائسهم الي مساجد فتدخل العثمانيين بجيش ضخم حاصر مدينة أيروان ولكن الشتاء العنيف ونقص المؤن ادي لعودتهم بعد ٥٤ يوما و عندما دخل الجيش العثماني الثاني مدينة تبريز وجدها خاوية على عروشها وقد اخلاها عباس تماما وأثناء مفاوضات الصلح فاجئهم بمحوم عنيف في ضواحي تبريز لتنتهي المفاوضات باتفاقية سراب وتحلي العثمانيين عن الكرخ.

وانتهز عباس فرصة الاضطراب السياسي في إستانبول بعد اغتيال السلطان عثمان الثاني
١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣ م في المحوم على بغداد واستولي عليها وعلى الموصل وكركوك.

وبعد ٤٢ عام من الحكم والصراعات المستمرة توفي الشاه عباس وقبل وفاته عين حفيده ميرزا بن صفي خلفا له ١٠٣٨ هـ

وبدء ميرزا عهدة بتحديد سيرة جده في القتل والقسوة المفرطة وتعرض لهجوم عثمانى بهدف استعادة بغداد هزم امامه جيشه ١٠٣٩ هـ واضطر للفرار للدخل الايراني واستعاد العثمانيين النجف و كربلاء والكوفة و الولايات الغربية الايرانية واحرق العثمانيين مدينة نهاوند بعد معركة عنيفة مع الصفويين وأخيرا حاصروا بغداد ١٠٤٠ هـ وضربوها بالمدافع ولكن يبدوا انهم كانوا قد انهكوا ففكوا الحصار بعد اربعين يوما وعادوا لقواعدهم .

لتكون هذه الحملة بداية الصراع بين الشاه ميرزا والسلطان مراد الرابع وتكررت الحملات العثمانية و المدافعة الصفوية لها حتى توجه السلطان بنفسه على راس جيش لاستعادة بغداد وبعد حصار طويل استسلمت حاميتها فأرسل لهم السلطان ان يخرج جميع الايرانيين من بغداد علي ان من يريد ان ينضم لجيش السلطان يخرج من باب ابي حنيفة النعمان ومن يريد ان يعود لجيش الشاه يخرج من الباب الاسود فقامت معركة بين من اختاروا الانضمام لجيشه و من ارادوا العودة للشاه داخل المدينة تحولت الي مذبحه .

وأخيرا وقعت معاهدة جديدة للصلح بين الطرفين باسم معاهدة زهاب ١٠٤٨ هـ ويبدو ان الطرفين كانوا صادقين في تحقيق السلام فرسمت المعاهدة الحدود بينهما بشكل دقيق على اسس الحدود الجغرافية الطبيعية حتى وان كانت قسمت بعض العشائر الكردية لقسمين بينهما وساد السلام بين الدولتين حتى وفاه الشاه ميرزا ١٠٥٢ هـ

وتولي من بعده عباس الثاني الذي حافظ على العلاقات الودية مع العثمانيين حتى وفاته ١٠٧٧ هـ وليترك العرش محلا للنزاع حيث اتفق الامراء على تولية ابنه الاكبر حمزة ولكن الحاشية رفضت تعيينه وفضلت الابن الاصغر صفي و هدد كبير الخصيان آغا مبارك بقتل حمزة ان تولي العرش فرضخ لهم الامراء و تولي صفي الذي غير اسمه لسليمان بناء على نصيحة احد المنجمين ومن العجائب ان الشاه سليمان قضى في الحكم ٢٨ عاما يدير الدولة

من دار الحرم بين النساء والخصيان دون ان تتعرض الدولة لأي هجوم من اعدائها الكثيرين
الي حين وفاته ١١٠٥ هـ

و بدء الضعف يدب في الدولة و عندما قرر الشاه طهماسب ان يتنازل للعثمانيين عن معظم
الولايات الغربية لإيران في صلح أحمد باشا قوبل ذلك بشورة و اعد قائدة العسكري نادر خان
مؤامرة لخلعه فعزل الشاه طهماسب و سجن و عين محلة ابنه الرضيع عباس ميرزا بينما اصبح
نادر خان وكيل السلطنة ليدبر الدولة كلها و بدء حربا ضد العثمانيين انتهت بمعاهدة سلم
جديدة تنازلت بمقتضاها الدولة العثمانية عن الاجزاء التي كانت احتلتها من ايران ولكن
السلطان العثماني محمد الاول رفض التصديق عليها وتجدد القتال واستعان نادر خان بالروس
وبعد معارك متعددة وقعت هدنة استغلها نادر خان في جمع قيادات الدولة في موقان وطلب
منهم اختيار شاه من الاسرة الصفوية يستطيع حمل اعباء الدولة لرغبته في التقاعد و لكن
الحاضرين قرروا ان ينصبوه ملكا وان ينهوا حكم الاسرة الصفوية فخلع الشاه عباس الثالث
وسجن وتوج نادر خان ملكا على ايران ليبدأ حكم الاسرة الأفشارية و ينتهي عصر
الصفويين فجأة !

وتعرضت إيران للعديد من الاضطرابات وعمدت الجماعات المتصارعة الي رفع اسماء بعض
امراء الاسرة الصفوية السابقين مدعين انهم يحاولون اعادة بناء دولتهم مما ادي لقتل الشاه
عباس الثالث و اخيه سليمان وأبيه طهماسب في السجن ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م

وعلي الرغم من طموح نادر خان العسكري الذي جعله يستولي علي أفغانستان و أجزاء كبيرة
من الهند ويستولي على عرش الطاووس بدلهي ولكنه سرعان ما اغتيل ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م
لتدخل البلاد في حرب أهلية انقسمت على أثرها لدولتين الزند بقيادة كريم خان وعاصمتها
شيراز و الأفشارية بقيادة أبناء نادر خان وعاصمتها مشهد الي ان وحدتها من جديد سلالة

القاجار حيث استطاع قائد القبيلة التركمانية أغا محمد خان أن يقضي على الدولتين الزندية و الأفشارية بعد معارك دموية ليصبح شاه لإيران التي وحدث من جديد ١٧٩٦ م

وبعد سقوط الدولة الصفوية صعّدت الرؤية الاخبارية في أوسط الشيعة وانتشر القول بحرمة الاجتهاد و لزوم انتظار المهدي و العمل بالعبادة دون السياسة وسموا بالإخباريين لأنهم يقتصرون في معرفتهم للأحكام الشرعية على الأخبار أو الروايات الواردة عن أهل البيت وأسقطوا الاستدلال بالإجماع والعقل فلا يستدلون بالإجماع لأنه عندهم بدعة أوجدها أهل السنة وينكرون كذلك صلاحية العقل السليم ليكون حجة أو دليلاً ويعتبر الاخبارية كل الأحاديث الواردة في كتب الحديث الشيعة الاربعة بأنها أحاديث قطعياً الصدور عن المعصومين اي أنهم يعتبرونها كلها صحيحة ولا حاجة للرجوع لعلم الرجال والدراية لتحري صحتها وكذلك حرمة الجهاد لغيبة الأمام ليدخل التشيع في ايران مرحلة سبات طويل إلا ان علماء الشيعة و الفقهاء الاصوليين قاموا بحرك فكري مضاد بقيادة الفقيه احمد النراقي الذي قام بتطوير نظرية ولاية الفقيه مصرحاً (كل ما كان للنبي و الأمام فيه الولاية وكان لهم للفقهاء ايضا ذلك إلا ما أخرجه الدليل من أجماع أو نص أو غيرها) .. مقدماً العديد من الحجج على ضرورة الإمامة في عصر الغيبة اولاً وحصراً الإمامة في الفقهاء ثانياً و قام الفقهاء بممارسة القضاء و الافتاء و تولي امور الرعية وممارسة مهام حكومية بالأساس ليبقي التشيع حياً.

ومع بزوغ فجر العصر الحديث تحولت ايران الي لاعب هام في اللعبة الدولية الكبرى التي شملت إنجلترا و فرنسا و روسيا والنمسا و الدولة العثمانية .

ولكن هزيمة ايران امام روسيا واضطراهم لتوقيع معاهدة تركمانجاي ١٨٢٨ م اضعف جبهتهم الداخلية واثارت العديد من الاضطرابات وكان لسياسات الشاه ناصر الدين القاجاري الذي جلس على العرش ١٨٤٨ م الاقتصادية وخاصة احتكار الدخان اسوء الاثر على الحياة السياسية واثارت طوائف التجار عليه رغم جهوده الكبيرة في اصلاح ايران وإنشاء

المدارس وإدخال التعليم الحديث إلى البلاد فاضطر لإلغاء اتفاق الاحتكار واضطر للاقتراض من الخارج لدفع تعويضات الشركة الإنجليزية التي كان قد وقع معها عقد الاحتكار المشتموم الذي ادي لفوران سياسي في البلاد مما زاد الاشكالات الاقتصادية ومن ثم السياسية تعقيداً و أنهى الامر باغتيال الشاه ١٨٩٦ م

وتحت ضغوط شعبية و نخبوية متعددة اضطر خليفته الشاه مظفر الدين الي اعلان دستور للبلاد ١٩٠٦ م ولكن خليفته الشاه محمد علي الذي تفاقمت في عهده ازمة الديون قام بالانقلاب على الدستور وهاجمت قواته مجلس الشورى و احتلته و اعتقلت عدد من النواب قبل ان تضطره الثورة الشعبية الي اعتزال الحكم و اللجوء الي السفارة الروسية وتولي السلطنة ابنة أحمد ميرزا ليكون شاه بلا سلطان وكانت ايران في حالة فوضى وضعف شديدة حتى استخدمتها إنجلترا كقاعدة لمحاولة الهجوم على روسيا بعد الثورة البلشفية ١٩١٧ م ولكن في المقابل قام الروس بهجوم مقابل لإجهاض المحاولة واحتلوا اجزاء من ايران التي خضعت للحماية البريطانية ١٩١٩ م

وفي ١٩٢١ اطيح بالشاه أحمد بانقلاب عسكري قادة وزير الدفاع رضا بهلوي الذي حل الحكومة وتولي رئاسة الوزراء فيما يعتبره الكثير من الايرانيين مؤامرة بريطانية وفي ١٩٢٣ م سمح للشاه وعائلته بمغادرة إيران الي المنفي ثم أرغم البرلمان على ان ينتخبه شاهاً للبلاد ليعلمن في ١٩٢٥ م انتهاء عهد الاسرة القاجارية

وفي الديكتاتورية العسكرية لرضا بهلوي انتعشت الدولة الايرانية فقد تضخم حجم الجيش من ٢٢ الف رجل في العام ١٩٢١ م الي ١٢٧ الف في العام ١٩٤١ م و نظمت الادارة المركزية بشكل دقيق في ١١ وزارة بما أكثر من ٩٠ الف موظف وذلك نتيجة للعائدات النفطية التي انقذت ايران من الديون الاجنبية و الضرائب والجمارك التي حصلت بحسم

لتنال الطرق و التعليم حصة جادة في الموازنة العامة وفي المقابل أنشأ الشاه منطمتين امنيتين
ألحق احدهما بالجيش والأخرى بالشرطة لمطاردة المعارضين و المشتبه بهم.

ولأول مرة يثور الشاه على التقاليد الدينية الراسخة المميزة لإيران فقد كان رضا بهلوي شديد
التأثر بكمال اتاتورك يتوق لإعادة تجربته في علمنة تركيا و في اطار محاولته لتحويل ايران
لديكتاتورية علمانية تصادم مع رجال الدين الشيعة فعلى الرغم من انه أكد في خطاب تولية
العرش على قوة أعتناقه للمذهب الأثنا عشري وأكتسابه المدد من الأئمة وحرص على اظهار
أحترام القوى الدينية في البلاد مدركاً تأثيرها ألا انه سرعان ما أظهر حقيقتة فقلص من نفوذ
الفقهاء و أستولى على الأوقاف الدينية واستبدل الشاه الشهور الإسلامية في التقويم بالفارسية
وفرض على كافة الرجال الذكور عدا رجال الدين ان يرتدوا السراويل و السترات على النمط
الغربي وشجع الرجال على حلق لحاهم و تخفيف شواربهم وبينما كان النساء يتعرضن لمضايقة
الشرطة ان سرن في الشوارع وحدهن للاشتباه فيهن اصدرت الاوامر بعدم التعرض للنساء غير
المحجبات و السماح لهم بارتياح المطاعم و دور العرض السينمائي و غيرها وقد اجبر الشاه
المسؤولين على احضار زوجاتهم للمناسبات العامة من دون حجاب و اعلن عن رغبته في
توقف النساء عن ارتدائه بينما اعتبر تنظيم مؤتمر المرأة في الشرق الذي ترأسته ابنته شمس
بهلوي عام ١٩٣٢ م عدم ارتداء الحجاب كرمز للحضارة.

وحول بهلوي التعليم الديني لتعليم علماني غربي وأنشئت العديد من المدارس الحديثة ودمجت
الكليات الايرانية الستة لتفتتح جامعة طهران ١٩٣٤ م

وفي ١٩٣٦ م صدم الايرانيين بصدور قرار الشاه بمنع ارتداء النساء الشادور وجميع أنواع
الحجاب في المجال العام و أمر الشرطة بنزع حجاب من تغطي شعرها قصراً واجبر المواطنين
العاديين على احضار زوجاتهم للمناسبات مكشوفات الوجه والرأس وحظرت العديد من
الاحتفالات الدينية و الغى تقليد الاعلان عن قدوم شهر رمضان بالمدافع .

واستبدلت المحاكم الشرعية و التقليدية من قبلية و محاكم الجماعات الحرفية بقضاء موحد للدولة وحولت سلطات تسجيل الوثائق القانونية الي موثقين عامين تعينهم الدولة ومن ضمنهم عقود الزواج والطلاق وبدء تصدر قوانين جديدة منقولة من القوانين الاوربية وتراجع دور الشريعة ونزع سلاح القبائل وحندها اجباريا لتغيير ايران التي قامت على اساس التحالف القبلي وتحالف الفقهاء و الملوك منذ عهد الصفويين كتجسيد لقول الامام الرضا (الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك) ولو ظاهرياً الي مركزية الدولة.

ولم يكن غريبا ان تقوم المظاهرات في مشهد تهتف الشاه يزيد (نسبة ليزيد بن معاوية) ولكن الانتفاضة الدينية قمعت بعد قتل و سجن المئات من المدنيين و حتى اعدم بعض الجنود لرفضهم اطلاق النار على المدنيين و ازداد الشاه شراسة و لم تكن هناك من قوة في ايران تستطيع مواجهته ولكنه ارتكب خطأ كبيراً عندما انحاز الي المحور في الحرب العالمية الثانية ولم يكن الإنجليز و السوفيت ليسكتوا على احتمال أن يكون هتتلر حليف في إيران ذات الموقع الاستراتيجي الهام فقام تحالف سوفيتي انجليزى بغزو ايران ١٩٤١ م وإرغامه على التنازل عن العرش لابنة محمد والذهاب للمنفى بجنوب افريقيا دون ادني معارضة من الشعب الذي سره التخلص من الشاه ولو علي يد قوي اجنبية .

ولم تكن الاجراءات المناهضة لطبيعة الدولة الدينية ان تمر بسهولة فبحوار الاعتراضات الشعبية بدئت حركات مقاومة سرية كان ابرزها حركة فدائيي الإسلام الذين قاموا باغتيال المؤرخ كسروي بتمزيقه بالفؤوس لكتابته انتقادات ضد التشيع وقتل هجير رئيس الوزراء الذي اعلن رجل دين شهير انه بهائي متخف ١٩٤٩ م ثم رئيس الوزراء رزمارة ١٩٥١ م لاثام رجال الدين له بالخيانة لتفاوضه على صفقة بترولية مع الإنجليز بشروط غير عادلة وحاولوا اغتيال العديد من الوزراء و القادة .

وعندما وصل مصدق الي مقعد رئاسة الوزراء كان لابد من صدام ان يحدث فمصدق ذو الميول الاشتراكية مناهض للملكية وعلي علاقة قوية برجال الدين و صغار التجار.

وفي ١٩٥١ م قدم مشروعا للتأميم و نجح بالفعل في تأميم النفط الايراني و تصدي لآنجلترا و اهتمها امام مجلس الامن بالتحريب لوقفها تصدير النفط الايراني عن طريق ايقاف العمل بشركة النفط الانجلوايرانية و قطع العلاقات الدبلوماسية مع انجلترا التي ردت بتجميد الاصول الايرانية و تصادم مصدق مع الشاه في محاولته تعيين وزير للحرب بصفته رئيس الوزراء وهذا ما رفضه الشاه فلجئ مصدق الي الشارع و اعلن في خطاب عبر الإذاعة انه يحتاج للإشراف على القوات المسلحة للحيلولة دون التآمر على فض تأميم النفط وبعد ايام من الاضرابات و العنف تراجع الشاه مضطرا.

وعين مصدق نفسه وزيرا للحرب وغير اسم الوزارة الي الدفاع وفصل مئات الضباط ونقل الالاف إلى الخدمة البوليسية وخفض ميزانية الجيش.

ولكن بينما كان الحديث في طهران يدور حول الانتقال الي جمهورية ديمقراطية كخطوة تالية وقع انقلاب ١٩٥٣ م بترتيب أميركي بريطاني و تواصل ضباط الاستخبارات الامريكية مع الشاه و أكدوا ان اميركا ستقدم مساعدات مالية كبري و اتفاق نفطي جيد بعد الانقلاب للتغطية على اثاره وفي اغسطس قامت الدبابات بالاستيلاء على المراكز الحيوية بطهران و اعتقل مصدق و اعلن الجنرال فضل الله زاهدي اسقاط الحكومة والاستيلاء على السلطة وأعلن الرئيس الامريكي أيزنهاور ان الشعب الايراني قد نجح بفضل ثورته ضد الشيوعية وبجبه الجارف للعائلة المالكة .

ومنذ هذا اليوم تحولت العائلة المالكة الايرانية الي رمز للامبريالية و الخيانة في عيون الايرانيين وبينما تلا الانقلاب ضربات عنيفة للأحزاب الاشتراكية و القومية التي تحالفت مع مصدق

ففرغت الساحة السياسية صعادت ببطء في الظل القوي الدينية التي تجنبت الصدام الي حين

..

وفي عهد الشاه تضخمت العائدات البترولية من ٣٤,٥ مليون دولار في عام ١٩٥٥ الي ٢٠٠٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٦ م

وتحولت ايران الي دولة ريعية و زادت معدلات الانتقال من الريف الي المدن بصورة مكثفة و سريعة حتى اصبح ٤٦% من السكان يعيشون في المدن في العام ١٩٧٩ م وصاحب ذلك تغيرات طبقية عنيفة وظهرت إشكالات عميقة لم يواجهها الشاه وإنما انشغل بالجيش الذي أعتقد أنه الوسيلة الوحيدة للحفاظ على عرشه فأعاد الشاه تسمية وزارة الحرب وتضاعفت ميزانية الجيش ووصل عدد قواته الي ٤١٠ الف جندي وفي العام ١٩٧٥ م كان للشاه خامس اكبر جيش في العالم بألف دبابة قتالية و ١٧٣ طائرة مقاتلة من طراز اف فور و ٤٠٠ مروحية وكانت مشتريات الاسلحة الايرانية هي الاكبر في العالم وظهر بوضوح ولع الشاه بالجيش الذي اعتبره مصدر قوته وسلطانه و أشرف على تسليحه وترقيات ضباطه من رتبة رائد لأعلي وحرص على الظهور بالزى العسكري في المناسبات الرسمية ومنح ضباطه معاملة تمييزية في المساكن و الرعاية صحية و الرواتب و الحوافز الضخمة ثم انتقال إلى مناصب الادارة العليا في الحكومة بعد تقاعدهم من الخدمة العسكرية .

وبمعاونة امريكية وإسرائيلية أنشئ السافاك جهاز المخابرات سيء السمعة الذي ينسب له التسبب في اختفاء ٢٠ الف شخص بدون محاكمات ولا توجيه اتهامات رسمية .

رغم محاولات محمد رضا بهلوي المضنية في ترسيخ سلطاته مستعينا بالأجهزة الامنية و التحالفات الخارجية و على رأسها حلف بغداد مع تركيا و إنجلترا والعراق وباكستان ثم العودة للقمومية الايرانية الفارسية ملقبا نفسه شاهنشاه (ملوك الملوك كما شاهات الفرس) وقد اقام

احتفالات ضخمة بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس الامبراطورية الفارسية على يد

كورش ١٩٧١ م

إلا ان قوي التغيير كانت أقوى وبيضاء بدئت الافكار الثورية تتسرب الي رجال الدين الشيعة بينما انتشرت الايدولوجيات الغربية بين الشباب وواجه الشيوعيين و الليبراليين الذين عارضوا ديكتاتورية الشاه ضربات الأجهزة الامنية العنيفة بشجاعة من يثق بالنصر في النهاية .

وتصاعدت التوترات والاحتجاجات الطبقية والسياسية وبرزت شخصيتي الكاتب اللامع علي شريعتي ذو الشعبية الواسعة بين المثقفين و الطلاب و روح الله الخميني الزعيم الديني الشيعي الذي نفى في عام ١٩٦٣ م ومنذ عودة شريعتي الي ايران ١٩٦٥ م امضي جل وقته في التدريس وإلقاء المحاضرات ليشتهر كمنظر ثوري قوي الحجّة و قد اشتهر شريعتي برؤيته عن التشيع العلوي في مقابل التشيع الصفوي حيث ذهب الي ان الصفويين و من بعدهم جمّدوا التدين في صورة الشعائر الجنائزية (الشيعي الاسود) بينما الاصل في التشيع انه حركة ثورية تطلب الحق و تجاهد في سبيله وبناء عليه فالتشيع الحقيقي يقتضي الجهاد ضد كافة صور الظلم و الاضطهاد وعلّي رأسها الاقطاع و الامبريالية و الرأسمالية العالمية التي تمتص دماء الشعوب وكان شريعتي بهذا جسرا بين التيار الاشتراكي الحامل لمطالب اجتماعية ملحة و التيار الديني الساخط على تقييد الشريعة و علمنة الدولة قسرا.

وكان شريعتي الراديكالي مع ذلك حاداً في انتقاده لرجال الدين لمواقفهم السلبية واتهمهم بالدخول في علاقة غير شرعية مع البرجوازية حيث يتقاضون رواتبهم من الاوقاف والخمس و يرتضون بالألقاب الفخمة كأية الله و حجة الإسلام دون القيام بأي دور ايجابي لتغيير الواقع المزري معلنا (ان المهمة العاجلة لن تكون اقل من التحرير الكامل للإسلام من رجال الدين والطبقات المالكة)

والواقع ان تأثير علي شريعتي كان ضخماً بالنسبة لشخص أكاديمي فكانت مؤلفات شريعتي ومحاضراته تتداول على نطاق واسع بين الشباب الايراني حتى القبي القبض عليه وبعد احتجاجات شعبية لأكثر من عام افرج عنه وسافر الي لندن حيث وجد ميتا في شقته بعد ثلاثة اسابيع من وصوله ١٩٧٧ م و تشير الأصابع بالاتهام الي السافاك في تدبير عملية اغتياله .

وعلي الجانب الاخر كان الخميني متأثره مقتصرأ على العلماء وطلاب الشريعة وصاغ رؤيته في كتاب الحكومة الإسلامية وولاية الفقيه ١٩٧٠ م الذي كان عبارة عن محاضرات القاها في النجف ثم نشر في دائرة ضيقة وبدون اسمه عليه قبل ان يتحول سريعاً الى مرجع ثوري .

وقد اسس الخميني دعوته تطويراً لنظرية أحمد التراقي المتوفى ١٨٦٧ م الذي طور بعض الافكار الفقهية التي ظهرت منذ الغيبة حول صلاحيات الفقهاء ووسعها ليتحول الفقيه الى نائب للامام في مقابل النظرية الاخرى التي أستندت عليها شرعية الملوك ان السلطان الزماني يكون شرعياً واجب الطاعة طالما كان شيعي على استعداد لتسليم الحكم الى الامام عند ظهوره و يقوم على مصالح المسلمين و حمايتها , فيقول الخميني (قد مر علي الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام وقد تمر عليه الوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الامام المنتظر وفي طول هذه المدة المديدة هل تبقي أحكام الإسلام معطلة يعمل الناس خلالها ما يشاءون ؟ إلا يلزم من ذلك الهرج والمرج ؟ وهل حدد الله عمر الشريعة بمائتي عام ؟ هل ينبغي أن يخسر الإسلام من بعد الغيبة الصغرى كل شيء ؟) .. (لا تقولوا ندع اقامة الحدود والدفاع عن الثغور وجمع حقوق الفقراء حتى ظهور الحجة (الامام المهدي) فهلا تركتم الصلاة بانتظار الحجة ؟)

و بعد ان أكد على لزوم قيام امامة حتى خروج المهدي (الحاجة الى خليفة انما هي من اجل تنفيذ القوانين لأنه لا احترام لقانون من غير منفذ وفي العالم كله لا ينفذ التشريع وحده ولا

يؤمن سعادة البشر بل لا بد من سلطة تنفيذية يكون افتقادها في اية امة عامل نقص وضعف .. هنا تبدوا أهمية تشكيل الحكومة وإيجاد المؤسسات التنفيذية وضرورة تنظيمها و الايمان بضرورة تشكل الحكومة وإيجاد تلك المؤسسات جزء لا يتجزأ من الايمان بالولاية) أكد على ان الفقهاء هم اصحاب الحق فيها قائلاً (وبالرغم من عدم وجود نص علي شخص من ينوب عن الامام حال غيبته إلا ان خصائص الحاكم الشرعي لازال يعتبر توافرها في اي شخص مؤهلا اياه ليحكم في الناس وهذه الخصائص التي هي عبارة عن العلم بالقانون والعدالة موجودة في فقهاءنا في هذا العصر) .. (الفقيه لا يكون حصناً للإسلام كسور البلد له إلا ان يكون حافظاً لجميع الشؤون من بسط العدالة وإجراء الحدود وسد الثغور وأخذ الخراج والماليات وصرفها في مصالح المسلمين ونصب الولاية في الاصقاع و إلا فصرف الأحكام ليست بإسلام بل يمكن أن يقال: الإسلام هو الحكومة بشؤونها والإحكام قوانين الإسلام وهي شأن من شؤونها بل الاحكام مطلوبات بالعرض وأمور آلية لأجرائها وبسط العدالة فكون الفقيه حصناً للإسلام كحصن سور المدينة لها لا معنى له إلا كونه واليا له نحو ما لرسول الله وللائمة صلوات الله عليهم أجمعين من الولاية على جميع الامور السلطانية) .. (للفقيه العادل جميع ما للرسول و الائمة مما يرجع الي الحكومة والسياسية ولا يعقل الفرق لان الوالي اي شخص كان هو مجري احكام الشريعة والمقيم للحدود الالهية)

وهكذا وبينما كان مصطلح ولاية الفقيه يطلق على قيام رجال الدين برعاية القصر والأرامل والمعاقين وغيره ممن يحتاج لرعاية خاصة وسع الخميني من مفهوم هذه الولاية لتشمل الامة بكاملها حيث اتهم الملكيين بالسطو على واجب الفقهاء في ادارة شؤون الدولة مفسرا قوله تعالي (أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ان أولي الامر هم الفقهاء المجتهدين وليس الحكام السياسيين وانه في غيبة الامام الكبرى تكون الولاية على الامة للفقيه وليس للملك معتبرا ان محور الرسالات هو تحرير الناس من عبودية الملوك وان الحسين كان ثائرا على

الملكية التي اقامها بني اميه متشبهين بالروم و الساسانيين ووضعت امام المسلمين الشيعة هدفا هو القضاء على الملكية الفاسدة من جذورها .

وأدان الخميني الشاه علانية لعلاقته بأمركا ودعمه لإسرائيل وانتقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفوارق الطبقة الهائلة والبدخ في الانفاق على الترف و الجيش (حكومة الاسلام ليست ملكية ولا شاهنشاهية ولا امبراطورية لان الاسلام منزه عن التفریط و الاستهانة بأرواح الناس وأموالهم بغير حق، ولذلك لا يوجد في حكومة الاسلام نظير ما يكثر وجوده عند السلاطين و الاباطرة من قصور ضخمة وخدم وحشم و بلاط ملكي و ديوان لولي العهد وأمثال ذلك من المستلزمات التافهة التي تلتهم نصف او غالبية ثروة البلاد)

وسرعان ما انتشرت الدعاوي للثورة من أكثر من جهة فمن ناحية رفعت جماعة ماركسية باسم منظمة فدائي خلق راية الكفاح المسلح ضد النظام ودخلت في صراع دموي بداية من العام ١٩٧١ م الي ١٩٧٩ م ونشطت حركة مجاهدي خلق ضد نظام الشاه ثم تحولت لخصم عنيف ضد نظام الخميني بعد الثورة .

ومن المنفي انتشرت شرائط كاسيت تحمل كلمات الخميني محرضة على الثورة بينما قلب الشاه نظام الحكم فجأة في ١٩٧٥ م و حل حزبي مرام و ايران الجديدة و اعلن قيام حزب البعث كحزب وحيد للبلاد وفي اواخر العام اعلن ذلك الحزب اتهام التجار الايرانيين بالتسبب في غلاء الاسعار بجمعهم و فرضت تسعيرة جبرية و سجن الالاف من الصناع والتجار الذين اتجهوا لرجال الدين يستمدون منهم المدد فوجدوهم يرضونهم على الثورة.

وكان حزب البعث اداة لضرب المؤسسة الدينية فلم يتورعوا عن اهانة رجال الدين واتهامهم بالرجعية وأنهم السبب في مشكلات ايران و غير الشاه التقويم الإسلامي للبلاد الي التقويم

الامبراطوري الفارسي ليصبح العام ٢٥٣٥ امبراطوري !

وضيق الشاه على المؤسسات الدينية ومنعها من طبع الكتب إلا بتصريح و ارسل محققين لفحص الاوقاف بينما روج البعثيين ان الشاه هو القائد الروحي للأمة وليس فقط قائدها السياسي و شرع الشاه قوانين جديدة تسمح للنساء بالإجهاض و منع الرجال من تعدد زوجاتهم إلا بتصريح كتابي من الزوجة الاولي و بترخيص من محكمة الاسرة وسمح للنساء بالعمل خارج المنازل دون رغبة ازواجهن وجند طلبة الحوزات الدينية اجباريا فأغلقت الحوزة الرئيسية في مدينة قم أبوابها احتجاجا بعد تجنيد ٢٥٠ من طلبتها.

وصدرت الفتاوى المتعددة تدين حزب البعث وتعارضه مع المبادئ الإسلامية و المصالح الإيرانية وأرسل الخميني يدين الحزب وأفتى بجرمة الانتساب اليه وانه يهدف لتدمير ايران و الإسلام ليرد الشاه بحملة عنيفة قام بها السافاك فالقي بها بعدد ضخم من رجال الدين الي غياهب السجون و أصبحت الثورة حتمية لا مفر منها واشتعلها مسالة وقت.

وفي العام ١٩٧٦ م صدرت وثيقة معنونة ٥٠ عاما من الخيانة كان قد دونها ابو الحسن بني صدر من منفاه بباريس انتشرت كالنار في الهشيم بإيران التي لم تكن تحتاج إلا لقيادة لثورتها الحتمية وتلت هذه الوثيقة وثائق عدة اصدرها معارضون بالداخل والخارج وفي اواخر ١٩٧٧ بدئت الصدامات في الشوارع .

ومن المفارقات ان السعودية قد ساهمت بشكل غير مباشر وبدون قصد بقوة في تأجيج نيران الثورة الإيرانية حيث تصدت السعودية لمحاولات إيران رفع أسعار النفط ١٩٧٧ م و رفعت إنتاجها النفطي وأغرقت السوق العالمي فانهارت عائدات ايران النفطية وارتبك اقتصادها و انهارت صناعاتها ومشاريع الشاه الاقتصادية واشتعلت اسعار السلع حيث سجل التضخم ارقاماً قياسية تراوحت بين ٣٠% إلى ٤٠% وارتفعت البطالة بين الشباب مما افقد الشاه اى تأييد كان له في الطبقة المتوسطة من الشعب.

وفي يناير ١٩٧٨ صدرت الجريدة الحكومية الرسمية وعلى صفحتها الرئيسية سبل من الاهدات والادامات للخميني مدعية انه كان يعيش حياة ماجنة في شبابه وأدمن الخمر وان رجال الدين عامة رجعيون يتعاونون مع الشيوعيين.

وفي الومين التاليين خرج طلاب الحوزات الدينية إلى الشوارع محتجين واغلقت المتاجر ابوابها وتعالق الاحتجاجات والصدامات ليعلن الشاه الاحكام العرفية بلا طائل سوي تصاعد الغضب و زيادة العنف في الشوارع وانتشرت الاضرابات في كافة المصالح والهيئات والمصانع حتى صناعة النفط والبنوك والسكك الحديدية لتصاب ايران بالشلل وفي ديسمبر ١٩٧٨ كان هناك قرابة مليوني شخص في ميدان شيهاد بطهران يهتفون بسقوط الشاه و عودة الخميني و تأسيس جمهورية اسلامية.

ولم يكن امام الشاه من خيار سوي الاستعانة بالجيش الذي صنعه علي عينه لمثل هذا اليوم ولكن الجيش لم ينحاز للشاه و عندما اعلن قادة الجيش حيادهم وعدم تدخلهم لصالح الشاه أو ضده أندفعت جماهير الثوار الى مخازن السلاح وأستولت عليها و أقامت لجان ثورية في كل شوارع طهران التي امتلكت بالمهاجرين من ابناء الريف المحافظون الذين ووجدوا في الثورة خلاصهم الطبقي كما خلاصهم الدينى, و يبقى امام الشاه المهزوم سوي الرحيل وفي يناير ١٩٧٩ م غادر الشاه ايران الي منفاه بالولايات المتحدة الامريكية التي سرعان ما اعلنته شخص غير مرغوب فيه ورفض طلبه للجوء من أكثر من دولة حتى ارسل الرئيس المصري السادات يعرض استضافته حيث أقام و اسرته في قصر القبة ولكن حالته الصحية كانت متأخرة فتوفي في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي متأثرا بسرطان الغدد الليمفاوية ١٩٨٠ م وكان الشاه قد ترك الحكم لرئيس الوزراء شاهبور بختيار الذي أعلن حل السافاك وأفرج عن السجناء السياسيين وسمح للخميني بالعودة بعد ١٤ عام قضاها في المنفى.

ليعود الخميني قائدا للثورة ويعلن تعيين مهدي باذركان رئيسا للوزراء ويأمر بطاعته كممثل عنه

وقبل نهاية العام كان دستور الجمهورية الإسلامية قد خرج للنور بتصويت ٩٩% من الناخبين البالغ عددهم ٢١ مليون بنعم (كما أعلن) علي ان يكون هذا الدستور دائما حتى خروج المهدي المنتظر وعودته لتولي سلطة الامام وان يكون الخميني القائد الأعلى والمرشد للثورة طيلة حياته على ان يختار مجلس الخبراء بعد وفاته بتعيين خلفه وكقائد اعلي له سلطة تحديد مصالح الإسلام و مصالح البلاد و الاشراف على وضع وتنفيذ السياسات و فحص المرشحين لمنصب الرئاسة وعزلهم وإيقاف اي قانون أو قرار جمهوري أو وزاري يتعارض مع الشريعة بالإضافة لكونه القائد الأعلى للقوات المسلحة يختار قيادتها ويعلن الحرب و السلام و يعين قاضي القضاة ويشرف على السلطة القضائية وتضمن الدستور مجلس شوري منتخب من الشعب و رئيس وزراء يعينه رئيس الجمهورية ومجلس مصغر من اثني عشر عضو من الفقهاء يشرف علي عمل مجلس الشورى ويراقب تطابق القوانين مع الإسلام والدستور باسم مجلس المحافظة على الدستور.

وعندما وقع خلاف بين السلطات اوضح الخميني رؤيته لمنصبه بما لا يحتمل الشك فقال (لابد ان اوضح ان الحكومة شعبة من ولاية رسول الله المطلقة وواحدة من الاحكام الاولية للإسلام ومقدمة على جميع الاحكام الفرعية حتى الصلاة والصوم والحج .. انه باستطاعة الحاكم ان يعطل المساجد عند الضرورة وان يخرب المسجد الذي يصبح كمسجد ضرار) (تستطيع الحكومة ان تلغي من طرف واحد الاتفاقيات الشرعية التي تعقدها مع الشعب إذا رأتموها مخالفة لمصالح البلاد والإسلام وتستطيع ان تقف امام اي امر عبادي أو غير عبادي إذا كان مضر بمصالح الإسلام) .. ولم يكن هذا إلا اعلان لانتهاه الدور السياسي للأمة التي اصبحت تبعا للفقهاء في الدولة الجديدة التي تحكم باسم الله .

وأعلنت وزارة الارشاد الإسلامية ثورة ثقافية مناهضة للتغريب فمنعت الرجال من ارتداء رباطات العنق و خفضت سن زواج النساء الي ١٣ عام وسمح للرجال بتطبيق زواجهم دون اذن محكمة و فصل البهائيون من المناصب الحكومية و اعدم قادتهم و اغلقت معابدهم وفرض على النساء ارتداء الحجاب أو الشادور وفرض على الجميع المظهر الإسلامي و عوقب المتجاوزين للقواعد وفرضت رقابة صارمة على الصحف و الافلام و الكتب و محيت اسماء الملوك و الشاهات من الشوارع و الميادين والمساجد وحولت الميلشيا التي ظهرت اواخر ايام الثورة الي قوات مسلحة تامة التجهيز باسم جيش الحرس الثوري وبلغ عددهم ١٢٠ الف بالإضافة إلى قوة احتياط تبلغ ٢٠٠ الف لتكون قوة موازية للجيش النظامي الذي ازيلت قيادته بالتصفية أو الاحالة للتقاعد وتم تأمين المنشئات و الشركات الاجنبية وصودرت ممتلكات العشرات من الاثرياء لتدخل البلاد في عزلة دولية زاداها حادثة اقتحام السفارة الامريكية في طهران و اعتقال العشرات من موظفيها و فشلت محاولة لإنقاذهم بعملية عسكرية كانت السبب المباشر وراء هزيمة الرئيس الاميركي جيمي كارتر في الانتخابات بينما افرج عنهم في ذات يوم حلف ريجان اليمين بعد توقيع اتفاقية في الجزائر بالإفراج عن الأموال الايرانية المحجوز عليها في اميركا مقابل الرهائن .

و بعد وصول الخوميني للسلطة أقيمت شعائر صلاة الجمعة لأول مرة بعد أختفاء المهدي و أصبح للشيعنة الاثنا عشرية في مشارق الارض ومغارها قيادة روحية وسياسية يجب عليهم أن اعتقدوا بصحة مذهب ولاية الفقيه تقدم فروض الولاء لها وان تضاربت (وهي بالطبع تتضارب) مع ولائاتهم القومية والوطنية فكما يعبر أية الله يزدي (اذا كان هناك بلد اسلامي واحد يحكمه نظام ولاية الفقيه هل يجب على المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير اسلامية اطاعة اوامره ام لا ؟ جواب هذا السؤال وفقا لمبدأ ثبوت الولاية بالتعيين أو بإذن من الإمام المعصوم وعلى فرض إحراز أفضلية الفقيه المذكور للتصدي لمقام الولاية ووفقا للأدلة العقلية والنقلية يحق لمثل هذا الشخص الولاية على الناس ويكون امره نافذا على كل مسلم ويجب

عليه تنفيذه , كما ان طاعة الولي الفقيه واجبة ايضاً حتى على المسلمين المقيمين في الدول غير الاسلامية سواء بايعوا أم لم يبايعوا لأن البيعة حسب ولاية الفقيه المطلقة لادور لها في شرعية الولي الفقيه) .. وبالطبع فبعض الفقهاء الشيعة خارج ايران يرفضون هذا ويقولون بتعدد الدول الاسلامية وأن ولاية الفقيه لا تشمل كافة المسلمين الشيعة بل في نطاق دولته فقط كمحمد حسين فضل الله بالاضافة لمعارضة بعض الفقهاء ولاية الفقيه ذاتها وقولهم بولاية الامة على نفسها كاية الله محمد مهدي.

وبرغم محاولات الثورة على الثورة و تصفية مئات الضباط خشية الانقلاب وقيام جماعات معارضة بانتهاج العنف المسلح ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعدما اعدمت المحاكمات الثورية ٤٩٧ من المعارضين السياسيين وتورطها في حرب الخليج الاولى لمدة ثمانية سنوات دامية تخللها اعدام الالاف المعارضين وبمجرد توقيع قرار وقف اطلاق النار ١٩٨٨ م اعدم اكثر من ٢٨٠٠ سجين سياسي في يوم واحد و استمرت عمليات الاعدام الجماعية للآلاف من السجناء خاصة المتهمين بالانتماء لحركة مجاهدي خلق إلا ان ايران خرجت من كل هذه المحن ولا تزال الي يومنا هذا احدي الدول الشيوقراطية القليلة التي تعتمد نظام حكم ديني بحت في العالم بتجربتها الفريدة التي تستحق الكثير من التأمل و التفكير والنظر في كونها وتطورها وتمارس ادوراً غاية في الخطورة في نطاقها الاقليمي الملتهب كما كان دائماً لتفرض وجودها الذي يتطلب منا فهم أسس هذا الوجود ومكوناته لفهم سلوكها .

المصادر

الدولة الصفوية - محمد سهيل طقوش

تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية -عباس إقبال
أشتياني

تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه - أحمد الكاتب

نشوء وسقوط الدولة الصفوية - كمال السيد

تاريخ إيران الحديثة - أروند إبراهيميان

السياسة والدين في مرحلة تأسيس الدولة الصفوية - علي إبراهيم درويش

حدائق الأحزان إيران وولاية الفقيه - مصطفى اللباد

الأسس الفكرية للثورة الإسلامية الإيرانية - محمد شفيعي فر

الوهابية من الدعوة الي الدولة

إن هذا المذهب جديد وقديم معا والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ولكنه قديم في حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القويمة إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله والناس ... ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان من المرجو أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول .

طه حسين مشيرا إلى المذهب الوهابي في كتابه "الحياة الأدبية في جزيرة العرب"

لم يكن عميد الادب العربي طه حسين منفرداً في إعجابه بالحركة الوهابية بين أقرانه من رواد النهضة المصرية و العربية و المفكرين الإسلاميين بل شاركه في ذلك الإعجاب الكثير من الرموز بداية من محمد عبده الي رشيد رضا الي محمود شاكر الذين ارتنوا الحركة الوهابية حركة إصلاحية عميقة تحدف الي الاصلاحيين الديني و السياسي علي أساس التمسك بالهوية العربية الإسلامية في وجه قوى الاستعمار العسكري و الثقافي , بينما خالفهم في هذه النظرة العديد من المثقفين الذين وجدوا الوهابية حركة رجعية قائمة على سوء فهم الدين ليس أكثر , والي يومنا هذا تنظر العديد من الحركات والتنظيمات الإسلامية للحركة الوهابية نظرة تقدير واحترام وتعتبرها نموذج يحتذي به كما كانت تلك الحركة مثلاً استلهمته العديد من الحركات الإسلامية في الماضي .

فما هي الوهابية ومن هو محمد بن عبد الوهاب ؟

ولد محمد بن عبد الوهاب ١١١٥ هـ - ١٧٠٣ م في قرية العيينة و تلقى تعليمة الاولي على يد والده القاضى الشرعي ثم ذهب للحج و تلقى العلم من فقهاء مكة و المدينة ثم توجه إلى البصرة لدراسة الفقه و الحديث ولكنة تصادم مع بعض اهلها لإنكاره عليهم اشياء يري فسادها فخرج إلى الاحساء وعكف على دراسة تراث ابن تيمية و ابن قيم الجوزية لتتكون هويته الثقافية و يتحدد طريقة بناء على منهجهما .

وعندما انتقل الي بلدة حمريلاء مع والده الذي اتجه للعمل كقاضي بما اشتد في معارضة مظاهر الشرك والبدع من التبرك بالقبور و تقديس الشجر و الاحجار و الذبح عند القباب والمزارات ولما اشتهر امرة انتقل إلى العيينة التي أتبع حاكمها عثمان بن حمد بن معمر دعوته و اقتنع بحجته و الزم الناس طاعته فخرجوا إلى العديد من المساجد والقباب و المشاهد المبنية على قبور الصحابة و الاولياء فهدموا المشاهد و القبور وعندما اقرت امرأة من اهل العيينة بالزنا وكانت متزوجة أي محصنة امر بها فرجمت حتى الموت فكانت واقعة مفزعة ادت إلى انتباه السلطة و الناس إلى ما يجري في العينة و نواحيها واضطر محمد بن عبد الوهاب للخروج من العيينة بعد ضغوط من حكام الاحساء.

فتوجه إلى الدرعية و التي كانت علاقة حكامها بحكام الاحساء سيئة و العديد من اعيانها مؤيدين لدعوته و عندما قابل عبد الوهاب حاكمها محمد بن سعود كان قد وصل إلى الشخص الذي يبحث عنه فسرعان ما تلاقت افكار الرجلين و تقاطعت و اتفقا على ان الاصلاح السياسي يستلزم اصلاح ديني كما يستلزم الاصلاح الديني اصلاح سياسي وكانت بيعة الدرعية حيث بايع محمد بن سعود واله عبد الوهاب على ان يمنعه ويحموه و ان يتعاونوا على تغيير المنكر ورفع البدع و كل ما يخالف سنة الرسول .

وتخبرنا الرواية أن بن مسعود قال ابشر ببلاد خير من بلادك و ابشر بالعزة و المنعة فقال الشيخ وأنا ابشرك بالعز والتمكين و النصر المبين وهذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل

كلهم فمن تمسك بما وعمل بما ونصرها ملك بما البلاد والعباد وأنت تري نجداً وأقطارها
أطبقت على الشرك والجهل و الفرقة و الاختلال و القتال لبعضهم بعض فأرجو ان تكون
اماما يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك ... أنت كبيرهم و شريفهم أريد منك عهدا
على أنك تجاهد في هذا الدين والرياسة والإمامة فيك وفي ذريتك بعدك وأن المشيخة والخلافة
في الدين فيّ وفي آلي من بعدي أبدا بحيث لا ينعقد أمرا ولا يقع صلحا ولا حربا إلا ما نراه
كذلك فإن قبلت هذا فأخبرك أن الله يطلعك على أمور لم يدركها أحد من عظماء الملوك
والسلطين وتكون عاقبة أمرك محمودة عند الله لأنك اتبعت الدين ونصرته ولم تقصر ربتك
عن رتبة الصحابة والخلفاء الذين نصروا رسول الله وأي منزلة أعلى من هذه ؟ فقال محمد بن
سعود قبلت وبايعتك على ذلك.

وبهذه البيعة نشئت الدولة الوهابية / السعودية النموذج الذي داعب خيال الإسلاميين الي
الان حيث التحالف بين السياسيين والفقهاء دائم على اساس وحدة العقيدة و الاشتراك في
خدمتها وتسخير قوي الدولة و المجتمع في تحقيق أهدافها.. فيمكننا تسميه عبد الوهاب
بالإسلامي الأول كاول داعية أنتهج العمل الحركي التنظيمي وأسس دولة قائمة على بيعه
مشروطة.

وقد سرت هذه البيعة واستمرت حتى اليوم فتوارث ال سعود حكم الدولة بينما توارث ابناء
محمد بن عبد الوهاب المعروفين بال الشيخ المشيخة ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الشيخ عبد
العزیز بن باز الذي تولى منصب الإفتاء من سنة ١٩٩٢ م إلى سنة ١٩٩٩ م ثم عاد المنصب
إلى آل الشيخ.

ورما تعلقوا الاصوات اليوم برفض مبدأ نظم الحكم الوراثية في الدولة و لكن في ذلك العصر لم
يكن هناك من نموذج معروف للحكم سوي الملكية الوراثية و الحكم العسكري.

ولكن الجديد في هذه البيعة هي النص على القيادة الدينية وحصرها في شخص محمد بن عبد الوهاب وتوارثها في ابناءه وهذا ما لم يعرفه المسلمون السنه قط!

ولم يكد يتم هذا العهد ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م حتى تقاطرت الوفود على محمد بن سعود أول أمير وهابي في نجد يبايعونه و ينضون تحت لوائه و تحولت بلدة الدرعية الي عاصمة دينية وسياسية للدولة الجديدة التي يسميها المؤرخون اليوم الدولة السعودية الاولى .

وكانت السلطة في الدولة الاولى تقوم على نظام شبه ثيوقراطي حيث الحاكم الامام رئيس الدولة وزعيمها السياسي والديني و المشرف العام على كافة شئونها وولي عهدة أكبر ابناءه ويقود الجيش وينوب عن الامام و ظهر امراء الاقاليم بعدما توسعت الدولة لسد الحاجة الادارية اما الشورى فهي للشيخ محمد بن عبد الوهاب خاصة و العلماء وأصحاب الرأي عامة وهذه الدولة التي اختلف في كونها خلافة أو امارة يبدو وصف الخلافة اليق بما كان يدور في اذهن اصحابها.

ففي رسالة من عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب إلى عبد الله بن فيصل قال : تفهم أن أول ما قام به جدك محمد وعبد الله وعمك عبد العزيز أنها خلافة نبوة يطلبون الحق ويعملون به ويقومون ويغضبون له ويرضون ويجاهدون وكفاهم الله أعداءهم على قوتهم إذا مشى العدو كسره الله قبل أن يصل لأنها خلافة نبوة.

و قال في رسالة أخرى : من عبد الرحمن بن حسن إلى إمام المسلمين وخليفة سيد المرسلين في إقامة العدل والدين وهو سبيل المؤمنين والخلفاء الراشدين فيصل بن تركي جعله الله في عدادهم متبعا لسيرهم وآثارهم آمين .

ولكن لمإذا لم تعلن هذه الخلافة وما موقف الوهابيين من الخلافة العثمانية إذا ؟

نحتاج للإجابة لفهم التكوين العقائدي والاختيارات الفقهية للشيخ محمد بن عبد الوهاب وخلفائه وان لم يكن هذا كتاب فقه ولا عقيدة ولا كاتبه مؤهل لذلك إلا ان تجنب الحديث عن العقائد الدينية عند الحديث عن حركة دينية في الاساس امر عبثي فأكتفي بعرض مختصر للأسس التي أعلنها وأكد عليها محمد بن عبد الوهاب و المنتمين لحركته و تتعلق بمسار الحركة التاريخي .

وحجر الزاوية في عقيدة محمد بن عبد الوهاب و التي عبر عنها قبله ابن تيمية و أعلنها عقيدة اهل السنة و الجماعة ان التوحيد قسمان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وحدة لا يجعل المرء مسلماً ولكن لا بد ان يتكامل ذلك مع توحيد الألوهية .

فتوحيد الربوبية يعني أن الله واحد لا شريك له يحيي ويميت و يدبر الامر في الكون بأسره و توحيد الإلوهية يعني توحيده في افعال العباد فلا يدعي غيره ولا يتوكل إلا عليه ولا يعتقد في ان غيره ينفع أو يضر ولا يعتبر محمد بن عبد الوهاب نفسه اتي بجديد في هذا الشأن وإنما يعلن ان هذه عقيدة السلف من الصحابة و التابعين بلا خلاف بينهم فيها ولم يعارضها إلا المبتدعين عندما نشئت المذاهب المنحرفة مستندا على العشرات من الادلة من الايات القرآنية و الأحاديث الصحيحة .

و لا يكتمل التوحيد عند محمد بن عبد الوهاب إلا بالبراءة من الكفر والكفار كما يقول في كتابه التوحيد (قوله صلى الله عليه وسلم : (من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه , وحسابه على الله) وهذا من أعظم ما بيّن معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بما عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها وباله من بيان ما أوضحه ووجه ما أقطعها للمنازع)

أما القسم الثالث من التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات الذي عبر عنه الشيخ عبد الرحمن بن سعد قائلاً (اعتقاد انفراد الرب جل وعلا بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه وذلك بإثبات ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ونفي مانفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص والعيوب وعن كل ما ينافي كماله) .

فهو محل خلاف حيث يذهب الوهابية و الحنابلة وغيرهم من أهل السنة الي انه جزء لا يتجزأ من التوحيد بينما يخالفهم الأشاعرة و الماتريدية الذين يسمعون بتأويل بعض نصوص الكتاب والسنة في الصفات وحيث أنهم يعتقدون كما عبر ابن عبد البر أن (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في الكتاب والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة) فقد عدوا الأشاعرة و الماتريدية (ومنهم علماء الازهر في مصر و الزيتونة في تونس و القرويين في المغرب والغالبية العظمى من العلماء في العالم الإسلامي كله وقتها) مبتدعين خارجين عن اطار اهل السنة والجماعة ولا يزال الجدل قائماً بين الطرفين ليومنا هذا .

ويؤكد عبد الوهاب على ان الشرك الاكبر هو ما وقع فيه اهل الكتاب كما ورد في سورة براءة أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله بمعنى أنهم أطاعوهم في المعصية وجعلوا لهم الحكم في الأمور لا لله فيحلون ما حرم ويحرمون ما أحل وان من الشرك تعليق التمام و التبرك بالشجر والحجر واعتقاد نفعهم والنذر لغير الله و الاستعاذة بغير الله والسحر و تصديق الكهان والتنجيم .

اما الشفاعة فقال (أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)

وأكد عبد الوهاب أن سبب الشرك هو الغلو في الصالحين ولهذا ذهب أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ولهذا كان على رأس قائمه اولويته هدم القباب والمشاهد والقبور المعروفة للصحابة والتابعين التي يزورها الناس ويتبركون بها.

وأكد عبد الوهاب أن وقوع الشرك في المسلمين و تحول بعضهم الي عباد أوثان دون أن يعلمون ممكن وحادث بالفعل مستندا على أحاديث النبي مثل قوله (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان) وقوله (لتبعن سنن من كان قبلكم حدو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) و الحقائق التاريخية كظهور عشرات مدعي النبوة وكلهم وأتباعهم ينطقون الشهادتين ويصرحون بأن القرآن حق و الرسول حق.

ويقول (المشركون في زماننا أضلّ من الكفار الذين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهين أحدهما أن الكفار إنما يدعون الأنبياء والملائكة في الرخاء وأما في الشدائد فيخلصون لله الدين والثاني أن مشركي زماننا يدعون أناسا لا يوازنون عيسى والملائكة. إذا عرفتم هذا فلا يخفي عليكم ما ملأ الأرض من الشرك الأكبر عبادة الأصنام هذا يأتي إلى قبر نبي وهذا إلى قبر صحابي كالزبير وطلحة وهذا إلى قبر رجل صالح وهذا يدعوه في الضراء وفي غيبته وهذا ينذر له وهذا يذبح للجن وهذا يدخل عليه من مضرة الدنيا والآخرة وهذا يسأله خير الدنيا والآخرة. فإن كنتم تعرفون أن هذا الشرك من جنس عبادة الأصنام الذي يخرج الرجل من الإسلام وقد ملأ البر والبحر وشاع وذاع حتى إن كثيرا ممن يفعله يقوم الليل ويصوم النهار

ويُنسب إلى الصلاح والعبادة فما بالكم لم تفسوه في الناس ؟ وتبينوا لهم أن هذا كفر بالله
مخرج عن الإسلام ؟)

والواقع ان مذهب محمد بن عبد الوهاب في العقيدة هو مذهب ابن القيم وابن تيمية واحمد بن
حنبل وغيرهم الكثير من علماء الإسلام ممن يطلق عليهم أسم السلف الصالح .

ويمكننا ان نقول أن محمد بن عبد الوهاب قام بتطبيق المذهب الحنبلي علي الواقع فبعد
الوهاب وان كان داعية فذ و شخص كاريزمي شديد التأثير وخطيب مفوه و شيخ عميق
الثقافة الدينية إلا انه لم يكن مجتهدا ولا مفكرا مستقلاً من العيار الثقيل فلا يمكن ان نعد
الوهابية مذهباً اسلامياً منفرداً ومستقلاً عن الحنبلية و انما هي رافد منها تمايز بطبيعته التي
فرضتها الظروف الواقعية ولذلك فلم تجد حركته اعتراضات ولا مقاومة في الحجاز أول الأمر
ولكن عندما تحولت الحركة لفاعل سياسي واجتماعي قامت الاعتراضات و الاتهامات لمحمد
بن عبد الوهاب بالغلو و تعميم التكفير وعدم اعتبار العذر بالجهل و الافتئات على حق
السلطات و نعت عامة المسلمين بالشرك واستحلال قتالهم علي هذا الأساس .

واختصر عبد الوهاب الرؤية السياسية الدينية للدولة بقولة لا دين إلا بجماعة ويؤكد مثلما قرر
بن تيمية من قبل ان التطبيق الكامل لسائر ما اوجبه الله لا يتم إلا بسُلطان ودولة (من الجهاد
والعدل و اقامة الحج والجمع و الاعياد ونصر المظلوم و اقامة الحدود لا يتم ذلك إلا بقوة
وإمارة) والذي يجوز السلطان هو الحاكم الفعلي القادر على تطبيق الشريعة (الأئمة مجموعون
من كل مذهب على أن من تغلب على بلد أو بلدات له حكم الأمم في جميع الاشياء ولولا
هذا ما استقامت الدنيا) .

وعليه فالعلاقة بين الدين ووحدة الجماعة وطاعة ولي الامر لا تنفصم عراها ابدا فالدين ليس
مجرد اختيار شخصي وإنما هو هوية الجماعة الإسلامية وأساسها و الجماعة لا تقوم إلا بحاكم

و الحاكم لا يكون شرعياً واجب الطاعة إلا ان كان يتبع الشريعة و يخضع لأحكامها فالجماعة لا تخضع للحاكم الأمام وإنما تخضع للشريعة التي يلتزم بتطبيقها .

وهكذا فان مفهوم الشرك الذي تأسست عليه صراعات الوهابيين مع مناوئتهم وغزوهم لمن حولهم كان ذو طابع سياسي كما له طابع ديني فغاياته التوحيد السياسي للمجتمع تحت سلطة الامير الواحد الذي تجب طاعته .

وبما أن معظم العلماء و الفقهاء النجديين كانوا بالفعل حنابلة عند بدء الدعوة الوهابية وأن غلب علي العامة البدع و الممارسات الشركية و المعتقدات الخرافية فتأثير محمد بن عبد الوهاب الحقيقي كان سياسي بتأسيس نظام جديد أكثر منه قيامة بتغيير فقهي أو عقائدي .

وكان موقف العلماء والفقهاء في ذلك العصر من الدعوة الوهابية متنوعاً بين التحمس لها و التحفظ على بعض افكارها و رفضها بالكلية فاعتبرهم ابن عابدين الحنفي وأحمد الصاوي المالكي من الخوارج بينما أستبشر بهم وأيدهم الصنعاني و الشوكاني ولكنهم تراجعوا عن موقفهم و تحولوا لعداء الوهابية والتحذير منها بينما أيد الحركة معظم فقهاء الحجاز حنابلة المذهب سلفية العقيدة .

و اغلب ما رفضه العلماء من الوهابية المغالاة في التكفير لمخالفهم وتشددهم في الاحكام و حملهم الاحكام على ظاهرها وأخيراً فخطأهم الاكبر الذي ادي لانقلاب الكثيرين عليهم و معاداتهم كان في الخروج على السلطان بالسيف ومنع الناس من فريضة الحج .

وكانت نجد البيئة المثالية لظهور الدعوة الوهابية .

حيث كانت نجد التي هي عبارة عن واحات متناثرة تحيط بها الصحراء في اغلبها تقاسي من الفقر المدقع نتيجة ضعف الموارد المائية و ضعف الانتاج الزراعي بالتبعية و بين خطري

الجفاف الشديد المسبب للمجاعة و خطر السيول التي تقشط الطبقة العليا من تربة الحقول فتدمرها و تهدم المساكن و تشرذم الاهالي و الوبئة خاصة الكوليرا و الطاعون كان يعيش سكان نجد و الجزيرة العربية كلها في تهديد دائم و مع ضعف النمو الاقتصادي توقفت العلاقات الاجتماعية عند مرحلة العشائرية وخاصة مع انعدام سمات الدولة و الامن فلا يمكن الاستغناء عن حماية القبيلة أو الامراء و بقي النهب و السلب علامة مميزة للمجتمع البدوي الذي تعد فيه الغنيمة وسيلة للخلاص من الفقر المدقع و الحرب وسيلة للحصول على المآثر و الذكر الطيب ولا يستطيع الشاب التخلف عن الحرب مهما كانت أسبابها عشية وإلا وصم بالجن و يعير هو وذريته بذلك .

وعرفت الخوة وهي اتاوات يدفعها المزارعون و المسافرين إلى البدو و قد كان الباب العالي يدفع مبالغ كبيرة للبدو ولكن وال دمشق العثماني اوقف الدفع ١٧٥٦ م و اعدم شيوخ البدو الذين جاؤوا لاستلام الاموال فكانت النتيجة ان نهبت قافلة الحج العثمانية بعد عامين و ذبح حرسها و ارغم السلطات العثمانية على دفع الاتاوة مرة ثانية بدلا من الدخول في حرب بلا طائل يطاردون فيها البدو في الصحاري القاحلة .

وقد ضمت الحجاز واليمن بالتبعية بعد فتح العثمانيين لمصر حيث كانت شبة الجزيرة العربية في معظمها تحت سيطرة المماليك و الايوبيين من قبلهم و رغم وجود حاميات تركية و موظفين و والي في جدة إلا ان الحكام المحليين العرب كانوا يتمتعون بسلطة كبيرة و اهمهم الاشراف الذين كانوا يتنافسون السيطرة على مكة والمدينة .

ومع ضعف الدولة العثمانية التي لم يكن الشخص فيها يضمن ملكيته أو حياته انتشر النهب من اعضاء الحكومة و الموظفين في الاقاليم و مع حصول اقاليم الامبراطورية على قسط اكبر من الاستقلال اخذت الكتل الإقطاعية من القادة العسكريين و الاثرياء و الحكام المحليين محل الدولة في السلطة و في السطوة على الناس واستعبادهم.

يقول الدكتور عبد الله العثيمين (ومهما يكن فإن نجداً لم تشهد نفوذاً مباشراً للعثمانيين عليها قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما أنها لم تشهد نفوذاً قوياً بفرض وجوده على سير الحوادث داخلها لأية جهة كانت فلا نفوذ بني جبر أو بني خالد في بعض جهاتها ولا نفوذ الأشراف في بعض جهاتها الأخرى أحدث نوعاً من الاستقرار السياسي فالحروب بين البلدان النجدية ظلت قائمة والصراع بين قبائلها المختلفة استمر حاداً عنيفاً)

ولهذا يذهب المدافعون عن الدعوة الوهابية ان الشيخ محمد لم يخرج عن سلطان الدولة العثمانية لأنها لم تمد سلطاتها علي نجد من الأساس فيقول الشيخ عبد العزيز بن باز (لم يخرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب على دولة الخلافة العثمانية فيما أعلم وأعتقد فلم يكن في نجد رئاسة ولا إمارة للأتراك بل كانت نجد إمارات صغيرة وقرى متناثرة وعلى كل بلدة أو قرية مهما صغرت أمير مستقل وهي إمارات بينها قتال وحروب ومشاجرات والشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يخرج على دولة الخلافة وإنما خرج على أوضاع فاسدة في بلده فجاهد في الله حق جهاده وصابر وثابر حتى امتد نور هذه الدعوة إلى البلاد الأخرى)

ولكن في المقابل يرفض العديد من الباحثين هذا ويؤكدون علي وجود سلطة للدولة العثمانية في نجد وأن الأشراف كانوا يستمدون سلطتهم من السلطان العثماني و يدينون له بالولاء بوضوح وعندما حاربوا الوهابيين فعلوا ذلك بأذن السلطان و دعوا الوهابيين للدخول في طاعته وان افترضنا عدم تبعية نجد للدولة العثمانية فالدولة الوهابية توسعت و ضمت مناطق تابعة للدولة العثمانية في الحجاز والعراق بلا خلاف .

والقول بان الوهابيين لم يخوضوا الحروب إلا دفاعا عن انفسهم غير دقيق لأنه ان لم يكن الشيخ مؤمناً بعدم شرعية العثمانيين تكون الدولة السعودية الأولى غير شرعية من الأساس فإزالتها واجبة وليس لها حق الدفاع عن النفس بإزاء الحاكم واجب السمع و الطاعة وان كان ظلماً حسب فقه الشيخ وبهذا يكون الوهابيين معتدون ابتداء و يجوز قتالهم وحملهم بالقوة

على الالتزام بالحكم الشرعي ولا حق لهم في الدفاع عن النفس لأن ذلك في تلك الحالة دفاع عن العدوان والمخالفة الشرعية.

ولهذا حكم الفقهاء المعارضين للوهابيين في ذلك العصر عليهم بأنهم حوارج وأفتوا بجواز قتالهم كما نص ابن عابدين في حاشيته.

وقد فسر الشيخ عبد الله أبا بطين حروب الوهابية بقوله (والشيخ محمد بن عبد الوهاب قاتل من قاتله ليس لكونهم بغاة وإنما قاتلهم على ترك الشرك وإزالة المنكرات وعلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والذين قاتلهم الصديق والصحابة لأجل منع الزكاة ولم يفرقوا بينهم وبين المرتدين في القتل وأخذ المال)

فحروب الوهابية و الدولة السعودية الاولي كانت على اساس عقائدي قائم علي شرك الدولة العثمانية وعدم كونها خلافة شرعية معتبرة فلا تلزمهم السمع والطاعة لهم لأنهم علي غير العقيدة الصحيحة.

يقول الشيخ بن عبد الوهاب (إذا شهد الإنسان أن هذا دين الله ورسوله كيف لا يكفر من أنكره وقتل من آمن به وحبسهم؟ كيف لا يكفر من أتى المشركين يحنهم على لزوم دينهم ويزينه لهم ويحنهم على معاداة الموحدين وأخذ أموالهم... فكيف بمن كان معهم وسكن معهم وصار من جملتهم؟ فكيف بمن أعانهم على الشرك وزينه لهم؟ فكيف بمن أمرهم بقتل الموحدين وحنهم على لزوم دينهم)

وقال سعود بن عبد العزيز في رسالة إلى الكتبخدا علي بك نائب والي بغداد (لما كان أهل الحرمين آيين عن الإسلام وممتنعين عن الانقياد لأمر الله ورسوله ومقيمين على مثل ما أنت عليه اليوم من الشرك والضلال والفساد وجب علينا الجهاد بحمد الله فيما يزيل ذلك عن حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم من غير استحلال لحرمتهما)

وبرغم وجود العديد من العلماء والفقهاء البارزين في المراكز الحضرية في نجد والحجاز إلا ان البدو كما يظهر من سلوكهم و ملاحظات الرحالة الاوربيين لم يكونوا شديدي الالتزام بتعاليم الإسلام قبل الدعوة الوهابية وكانت مرجعيتهم الاخلاقية و السلوكية هي التقاليد القبلية و الاعراف العشائرية .

وفي ظل هذه الظروف المتشابكة و الظلمات فوق بعضها ظهرت الحركة الوهابية كحركة اصلاحية دينية و سياسية واجتماعية تعود بالعرب الي حظيرة الإسلام و تجعلهم اخوة في الله متحابين وفي المقابل كانت حركة عنيفة قوية في مواجهة خصومها تتعامل بعنف في ظل ظروف جعلت العنف سمة من سمات الحياة الاساسية.

ولم يبلغ إلى مسامع الخلافة العثمانية خبر هذه الدعوة رسميا إلا سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م عن طريق واليها في مكة الشريف مسعود الذي ارسل عريضة إلى الحكومة العثمانية بالأستانة أشار فيها إلى نشاط محمد بن عبد الوهاب.

وكان الرد في صورة أمر سلطاني من الخليفة العثماني محمود الأول كان نصه (أمر إلى أمير مكة المكرمة حاليا الشريف مسعود دام سعه. لقد ظهر شخص سيء المذهب في العيينة وهي إحدى قرى نجد في جهة الشرق وقام بإصدار اجتهادات باطلة ومخالفة للمذاهب الأربعة ونشر الضلالة والترغيب. وبناء على إعلامكم إيانا واقتراحكم السابق فإن عليكم المبادرة إلى زجر المفسد المذكور وأتباعه بمقتضى الشرع المطهر وإمالتهم إلى طريق الصواب أما إذا أصروا على معلنتم فإن عليكم إقامة وتنفيذ الحدود الإلهية الواجبة شرعا. وقد أصدرت إليكم يا شريف مكة المشار إليه أمرى هذا خطابا. ولما كنتم قد أبلغتم الدولة العلية في كتبكم الواردة إلى دار السعادة (اسطنبول) بحاجتكم إلى الإمدادات والمعونات بسبب تمكن الملحد من كسب سكان تلك المناطق إلى جانبه بكل الحيل بحيث لم يعد ممكنا التقرب من تلك الأطراف فإن التقاعس بخصوص هذا الشخص المذكور (محمد بن عبد الوهاب) سيؤدي إلى

ظهور حاجة إلى قوات أكثر عددا لمحاربة الشخص المذكور. لقد صدر أمر السلطاني بخصوص سيركم ضد الشخص المذكور واستئصاله. وأن إيذاءهم بسيف الشريعة وتطهير الأراضي المقدسة (منهم) يعتبر سياست (عقوبة) لهم وواجبا يفرضه الدين. ولأجل تسديد مصاريف رواتب ومؤن العساكر الذين ستقومون بتسجيلهم لهذه المهمة فقد أنعمت عليكم بمبلغ ٢٥ كيس رومي من الأفضاح من إرسالية مصر.

لكن الشريف مسعود تقاعس لسبب ما عن التنفيذ ولم يتصادم مع الوهابيين حتى وفاته ١١٦٥ هـ / ١٧٥٢ م ثم وقع النزاع بين الأشراف الطامعين في وراثة منصبة .

وأما الدولة الوهابية / السعودية فقد استغلت الظرف السياسي جيدا وأخذت في التوسع السياسي بالحملة العسكرية الناجحة و الفكري بنشر الدعوة في كل الجزيرة العربية وخارجها في سوريا والعراق وحتى في آسيا الوسطى خارج العالم العربي وفضل القبائل البدوية في أواسط الجزيرة تغلغت الوهابية جنوبا حتى في عمان وغربا في الحجاز وشمالا في العراق وشرقاً في الإحساء.

ولم يكن العثمانيين ليقفوا مكتوفي الأيدي بإزاء هذا التهديد وبدء الصراع بين الدولتين الوهابية والعثمانية في عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م عن طريق ثويني بن عبد الله رئيس قبائل المنتفق على القصيم ولكنة فشل في حملتين متتاليتين فجهز العثمانيين حملة جديدة من الجند النظامي مع العشائر العراقية ولكنها فشلت بدورها فعزل العثمانيين شريف مكة لتقاعسه في حرب الوهابيين و عينوا أخيه غالب بن مساعد بدلاً منه .

ثم حاولوا اقامة حلف مع حاكم مسقط سلطان بن أحمد البوسعيدي ولكنة قتل في طريق عودته لبلاده بحراً بعد اجتماع مع القيادات العثمانية في هجوم مفاجئ من طريق القرصنة في الخليج و تشير اصابع الاتهام للانجليز في جريمة اغتياله حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تبذل قصارى جهدها لمنع محاولات العثمانيين في بسط نفوذهم على الخليج العربي و انتهى الامر بالصلح بين خليفته بدر و سعود بن عبد العزيز.

وفي عام ١٢٠٢ هـ أمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جميع أهل نجد أن يباعدوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولي العهد بعد أبيه وذلك بإذن عبد العزيز فبايعوه جميعهم وأكمل سعود انتصارات أبيه فضم مكة و المدينة الي دولته التي امتدت من ساحل البحر الأحمر حتى الخليج العربي ومن عمان حتى العراق .

كانت الدولة العثمانية تنظر إلى الوهابية كأحدي فرق الخوارج وليس كحركة استقلالية ويظهر هذا بوضوح في رسالة وجهها والي الشام سليمان باشا سنة ١٢٢٥ هـ إلى سعود بن عبد العزيز جاء فيها - باختصار وتصرف بسيط - (من سليمان والي أقاليم الشام من طرف الدولة العثمانية أيدها الله إلى يوم القيامة وثبتها على عقيدة أهل السنة والجماعة إلى سعود بن عبد العزيز... أنتم أعراب سكان البادية فئة نجدية فئة مسيلمة الكذاب اعتقاداتكم محدثة وبدعة قوم جهلة بقواعد أئمة الدين أهل السنة والجماعة أنتم طائفة باغية خوارج عن اعتقاد أهل السنة والجماعة السلطانية فإن كانت شهوتكم في إعانة الإسلام بالمقاتلة والمعاندة فقاتلوا أعداء الدين الكفرة الفجرة لا الملة الإسلامية ... وكيف تخاطبون أهل الإسلام مخاطبة الكفار وتقاتلون قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قال عليه الصلاة والسلام "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها" .. فأي حالة أسوأ وأضل وأعظم ظلماً من قتال المسلمين واستباحة أموالهم وأعراضهم وعقر مواشيهم وحرق قراهم من نواحي الشام التي هي خيرة الله في أرضه وتكفير المسلمين وأهل القبلة والتجري على ذلك وعلى مخاطبة المسلمين بما حوطب به الكفار؟ فلم يُسمع ذلك من أئمة الدين إلا من الفرق الضالة ... وكيف تدعون العلم وأنتم جاهلون بل أنتم خوارج في قلوبكم زيغ تبغون الفتنة وتريدون الملك بالحيلة وقد خلت أمثالكم زائلة) .

وقد شجع احتلال مصر على يد الفرنسيين ١٧٩٨ م وعجز العثمانيين عن حمايتها الوهابيين وزادت جرائمهم وفي ١٨٠٢ م هاجم ١٢ الف وهابي كربلاء و دمروا المزارات الشيعية و ضريح الحسين و نهبوا ما به من كنوز هائلة و قتلوا الالاف من الزوار في مذبحه مروعة.

وهذا ما وضع السلطان العثماني في حرج بالغ فقد طلب شاه ايران أن يرسل قوات تحمي العتبات الشيعية المقدسة مادام السلطان العثماني عاجز عن حمايتها وهي في اراضيه وفي ١٨٠٣ م دخل الوهابيين مكة وبعد اداء الحج دمروا كل الاضرحة و المزارات و الزموا الاهالي بعدم الصلاة في الالبسة الحريرية و حرم بيع التبغ و التدخين و اخرجوا كل الاتراك منها وعينوا حاكما وقاضي جدد لمكة في ضربة قاسمة لسلطان العثمانيين.

وقد اخرج علماء مكة بيانا بعد دخول الوهابين جاء فيه (نشهد - ونحن علماء مكة الواضعون خطوطنا وأختامنا في هذا الرقيم أن هذا الدين الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ودعا إليه إمام المسلمين سعود بن عبد العزيز من توحيد الله ونفي الشرك الذي ذكره في هذا الكتاب أنه هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب وأن ما وقع في مكة والمدينة سابقا ومصر والشام وغيرها من البلاد إلى الآن من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب أنه : الكفر المبيح للدم والمال والموجب للخلود في النار ومن لم يدخل في هذا الدين ويعمل به ويوالي أهله ويعادي أعداءه فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر وواجب على إمام المسلمين والمسلمين جهاده وقتاله حتى يتوب إلى الله مما هو عليه ويعمل بهذا الدين) .

وبينما كانت الدولة العثمانية تعد لضرب الوهابيين بيد واليها في العراق تعرض الوهابيين لضربة عنيفة حيث اغتيل عبد العزيز امير الدرعية على يد درويش غير معروف وهرع سعود بن عبد العزيز للدرعية بعد مقتل ابيه فبايعه سكانها في الحال بينما أعتزل محمد بن عبد الوهاب العمل السياسي بعد احتلال الرياض خصم الدرعية الرئيسي في نجد وتفرغ و ابناءه من بعدة للعمل الدعوي و تأليف كتب الفقه و التوحيد .

كانت قوافل الحج تأتي مكة ومعها المحمل وهو جمل ضخم عليه هودج مزين ويحمل كسوة الكعبة من القاهرة الي مكة في كل عام و يسير معهم موسيقيين يضربون بالطبل و الطنبور وهذا ما لم يكن يقبله الوهابيون الذين طالبوا أن يحضر الحجيج بدون آلات موسيقية و هودج

و سواء منع الوهابيين الحجاج من دخول الحرم كما هو مشهور أو هم من رفضوا دخوله إلا وقد تقدمتهم الطبول و الهودج كعادتهم كما ادعي بعض الوهابيين فما شاع وأنتشر و افسد سمعه الوهابيين انهم منعوا من يخالفوهم في المذهب من المسلمين من اداء فريضة الحج فتحول الكثيرين ضدهم .

ونظم الوهابيين نمطا من الجنديية الجبرية حيث إذا احتاج الامير إلى الجند ارسل للقبائل فلا يتخلف احد و يذهبون مسلحين مستعدين بالزاد و الذخيرة ويعين الاثرياء غير القادرين اما من يتمتع فيبعث جنده يعاقبونه ويعذبونه دون ان يتحاسر احد على ان يشفع فيه بينما للأمير حرسه الخاصة والذي كان في اغلبه من العبيد المسلحين الذين يتولى تجهيزهم وإعدادهم بنفسه حتى وقعت الطامة على يد المصريين ١٨١١ م إلى ١٨١٨ م

ولم تكن إنجلترا غائبة عن المشهد فصعود الوهابيين كان مقلقا لهم بالإضافة إلى مشكلات القرصنة في الخليج وفي ١٨٠٥ م شنت حملة عسكرية على القواسم وبين التدمير لتقليم الاظافر وفرض الإرادة ومحاولات التفاهم كانت العلاقات بين الوهابيين و الإنجليز ممثلين في شركة الهند الشرقية غير واضحة حتى وقوع الغزو المصري للجزيرة الذي حطم الدرعية ولكنة لم يحطم اساس العقيدة الوهابية .

بعد الاطاحة بالسلطان سليم الثالث ثم قتل السلطان مصطفى ١٨٠٨ م حاول السلطان محمود الثاني ان يستعيد بعض ما فقد من الامبراطورية وقد ادرك ان لا امل من ولاية بغداد ودمشق في استعادة الحجاز فكلف محمد علي والي مصر بالمهمة الصعبة فعين ابنة طوسون قائدا للحملة .

ولم تكن الدرعية في افضل حالاتها فقد اضعف الوباء و الجفاف الدولة السعودية ولم يحقق الوهابيين بعد اجتياح كربلاء اى نصر كبير بل الحق بهم الإنجليز المتحالفون مع اهل مسقط

هزائم متعددة و مكثرو البحرين من الخروج من سلطانتهم علي الرغم من أنهم منعوا وصول شحنة من الاسلحة للشيعه في النجف رغم غضب حلفائهم شاه فارس و بني كعب وشيعه العراق .

ولكن الجيش المصري هزم هزيمة مخزية في اول صدام مع الوهابيين الذين فاجئوهم في وادي الصفراء و يبرر الجبرتي الهزيمة (حدثني بعض أكابريهم من الذين يدعون الصلاح والتورع قالوا : "أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا إذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون ويتنظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعساكرنا يتعجبون لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته ... وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر (العثماني) فوجدوهم غلغا غير محتونين ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف و بما خيار الناس و بما أهل العلم و الصلحاء نهبوا وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له تبيت معي هذه الليلة وأعطيتها لك في الغد) .

ولكن عندما واصلت مصر دعمه بالمال و الرجال استطاع طوسون استمالة مشايخ القبائل وفي ١٨١٢ م استعاد المدينة المنورة واجلى الوهابيين عنها وفي العام التالي استولوا على مكة والطائف و اقيمت الاحتفالات في القاهرة و ارسلت مفاتيح مكة و المدينة و جدة إلى الأستانة حيث احتفل بالنصر سبع ايام ولكن الوهابيين سرعان ما عادوا لشن الغارات المنهكة على الجيش المصري وذهب محمد على للحج و تعزيز سلطته في الحجاز ولكنه أنقلب علي الشريف غالب فجاءة فنفاه و اسرته و عين محلة يحيى بن سرور .

وقد أضعف هذا موقف المصريين وتحول الكثير من اتباع الشريف غالب الي حلفاء للوهابيين نكاية بهم بالإضافة إلى الفظائع التي ارتكبتها الجنود ضد السكان المحليين والبدو ولكن مع عودة الحج بدء ازدهار احوال السكان عادت الامور لمجاريها إلى ان توفي امام الدرعية سعود ١٨١٤ م وتسلم ابنه عبد الله الدولة وهي في حال انهيار فقاوم عبد الله قدر طاقته طوسون ووقع معه هدنة بعد صدامات متعددة إلى ان توفي ابراهيم باشا محل طوسون بعد وفاته ١٨١٦ م لينهي المسألة حتى يتسنى لمحمد علي ان يطالب بالشام مكافأة له .

ولم تكن قوات ابراهيم ضخمة الاعداد ولكنها كانت من قوات الجيش المصري الجديدة جيدة التجهيز و التدريب فاستولى على البلدات و المواقع واحدة بعد اخري دون ان توقعه مقاومة الوهابيين حتى وصل الدرعية حيث كانت المعركة النهائية و بها تحصن الوهابيين الخلاء بقيادة عبد الله وأبناءه وبدء حصار طويل مرير أستمر ستة اشهر لم تنقطع فيها الحرب بين الطرفين حتى انهك الوهابيين ونفذت مؤنهم و تيقنوا من الهزيمة وأخيرا استسلم عبد الله مع من بقي من رجالة.

وهدم ابراهيم باشا الدرعية حتى سواها بالأرض وحمل الاسري الي القاهرة ولكن بعد ذلك نقل عبد الله بن سعود وبعض قاداته الي الاستانة حيث أعدمهم السلطان العثماني وطيف بجهنم في الاسواق ثم ألقيت في البحر.

وسرعان ما تبين لإبراهيم ان عوائد الحجاز لا تكفي نفقات احتلاله وبدء التذمر في جنوده الذين ضحروا من طبيعة الصحراء القاسية فقام ابراهيم بالانسحاب إلى ساحل البحر بعدما دمر اواسط الجزيرة و نهبها وترك قبائلها بلا قيادة موحدة تموج في بعض.

ولكن العقيدة الوهابية لم تندثر وأن انكسرت سيوفها وقد امتدت الدعوة الوهابية بعيداً عن الحجاز فقد وصلت للهند و أعتمد الثائر سيد أحمد افكار عبد الوهاب و اعلن الجهاد ضد الإنجليز حتى قتله ١٨٣١ م وكان للوهابيين تأثير كبير في انتفاضة ١٨٥٧ م

وكذلك ساهم الوهابيين في تأجيج الثورة باندونيسيا ضد احتلال الهولنديين وكذلك ظهر أثرها في الحركة السنوسية بليبيا و وانتشرت الدعوة كذلك في الشام ووجدت العديد من الانصار كالشيخ جمال الدين القاسمي و عبد الرزاق البيطار .. فقد كان العصر "يحتاج" لحزمة أفكار اسلامية ثورية قائمة على التمسك و لو لدرجة التعصب للهوية الإسلامية التي تخوض حرباً شرسة للبقاء بإزاء غزو غربي شامل ثقافي و اقتصادي و عسكري و سياسي .

ولقد وصلت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى مصر عن طريق أولاده وأحفاده الذين أتى بهم محمد علي مع نسائهم واسكنهم بالأزبكية وبني دار لعائلة ال سعود ودرس بعضهم في الأزهر وكانوا طلقاء لا يتعرضون لأي تضيق عليهم وقد بقى عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب مدة ثمان سنوات في مصر قبل عودته إلى وطنه في وبقي ابنه عبد اللطيف ثلاثين عاما في الأزهر .

وتحت رماد الدرعية كانت الجمرات تشتعل.

كانت المهجمة العثمانية / المصرية الشرسة التي دمرت الدولة الوهابية / السعودية باعثا لحراك فكري مضاد وقد اقنعت وحشة المصريين و الاترك الوهابيين ان غايتهم ليست السلطة وإنما القضاء على الدين القويم وبدئت في اثناء المعارك المحتدمة تبرز عقيدة الولاء و البراء كعقيدة وليس كمسألة فقهية كما اعتقد بن تيمية وأكد علي ذلك في كتاب الايمان فقال (فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف [لو] التي تقتضي مع الشرط انتقاء المشروط فقال: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء} فدل على

أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه .. ومثله قوله تعالى: { لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولم منكم فإنه منهم } [المائدة: ٥١] فإنه أخطر في تلك الآيات أن متولبيهم لا يكون مؤمنا وأخطر هنا أن متولبيهم هو منهم) .

من خلال فتاوى الشيخ سليمان ال الشيخ التي جمعت في كتابه (الدلائل في حكم موالة أهل الإشراك) والذي بدء بقوله (اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفا منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويغضهم ويحب الإسلام والمسلمين. هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك. فكيف إذا كان في دار منعة واستدعى بهم ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم وقطع الموالة بينه وبين المسلمين وصار من جنود الشرك والقباب وأهلها بعدما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله. فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر من أشد الناس عداوة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ولا يستثنى من ذلك إلا المكروه) .

فقد ساهمت نيران البنادق و أنصال السيوف في إزكاء نار الفرقة بين الوهابيين و غيرهم من المسلمين اتباع الدولة العثمانية الذين اصبحوا لا يشك في كفرهم و عدائهم للدين و ظهر ذلك في فتوى علمائهم مثل عبد الله بن عبد اللطيف ال الشيخ الذي قال(ومن لم يعرف كفر الدولة (العثمانية) ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين لم يعرف معنى لا اله إلا الله فان اعتقد مع ذلك ان الدولة مسلمون فهو اشد وأعظم وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله وأشرك به ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي اعانة فهي ردة صريحة) .. وربما يكون هذا أول ظهور لفكرة كفر الدولة كمؤسسة سياسية بغض النظر عن عقيدة رجال حكومتها و

مواطنيها , وهي فكرة مركزية عند كافة الجماعات الإسلامية المسلحة التي ظهرت في القرن العشرين .

و يقارن محمد نبيل ملين ما بين تطبيق الوهابيين لعقيدة الولاء و البراء على صراعهم مع العثمانيين و المبدأ اليهودي المعروف بالاعزلة و هي اقامتهم في جيتو منعزلين عن سائر المجتمعات متحاشين التعامل معهم إلا للضرورة والذي أدى لقيام ثقافة الحصار و النظر للأخر كعدو ومنعت هذه المبادئ اليهود من الذوبان في المجتمعات التي عاشت بها وأدت لاحتفاظهم بهويتهم الدينية رغم مرور الالاف السنين من خضوعهم لسلطات يعتقدون كفرها .

وكان الفراغ السياسي في الحجاز لا يترك بديلاً سوى صعود الوهابية مرة أخرى فظهر تركي بن عبد الله واستولي على الدرعية ثانية ١٨٢٠ م ثم الرياض ولكنه تصادم مع القوات المصرية بقيادة حسين بك ففضت على انتفاضته و استعمل حسين الغدر فدعا اهل الدرعية للعودة لتوزيع الاراضي عليهم فلما عادوا قتل ٢٣٠ منهم بلا رحمة و ادت قسوة الجنود المصريين إلى الانتفاضات ضد احتلالهم فاكتفوا بإبقاء الحاميات في المدن الرئيسية فعاد تركي للظهور بعد فراره ١٨٢٣ م و عاد ايضا عبد الرحمن بن حسن حفيد ابن عبد الوهاب ليمارس دوره الدعوى واتسع سلطان تركي حتى اخضع ساحل الخليج العربي كله ولكن صراع وقع بين حكام البحرين و تركي ترتب عليه اغتياله ١٨٣٤ م على يد عميل لمشاري بن عبد الرحمن الذي استولي على السلطة بانقلاب مفاجئ ليشتمل صراع السلطة على عرش الرياض .

وبعد اقل من شهرين استولي فيصل بن تركي على السلطة من مشاري وقتله ولكن سلطان الدولة كان قد ضعف وخرج من عباءتها العديد من القبائل و هاجمته القوات المصرية واسر ونقل سجيناً إلى القاهرة وأعادتها سيطرتها على نجد ١٨٣٨ م مما دفع بريطانيا للتقدم عسكرياً و الاستيلاء على عدن ١٨٤٠ م و اقامة قاعدة بحرية عسكرية بما للحيلولة دون

تقدم المصريين في عسير واليمن ولكن الحرب في الشام و التحالف التركي الانجليزي ضد محمد علي اضطره لسحب قواته عدا حاميات ضئيلة في المدن مفسحا المجال لقيام دولة سعودية ثانية .

ثم هرب فيصل بن تركي من مصر و يعتقد العديد من المؤرخين ان عباس الاول حفيد محمد علي هو من أطلق سراحه ومهد له الطريق لإعادة بناء دولته لقناعته بالعقيدة الوهابية وسرعان ما حقق فيصل نجاحات كبرى و ايدته القبائل وفي ١٨٤٣ م سقطت الرياض وبعثت الدولة السعودية الثانية التي اختلفت طبيعة علاقتها بالعثمانيين و الإنجليز و سائر جيرانها عن سابقتها فقد أثبتت الوثائق أن فيصل كان يدفع ١٠ الالاف ريال للباب العالي سنويا حيث كانت الدولة السعودية تابعة للخلافة العثمانية بترتيب مصري مع تركي بن عبد الله ثم ولده فيصل بن تركي ثم عبد الله بن فيصل دون ان يعلم شيوخ الوهابية عن ذلك شيء !

وظلت الدولة السعودية تواجه البحرين من ضمن مناوئتها حتى عام ١٨٥٩ م حيث تدخل البريطانيون و طلبوا من فيصل عدم التعرض للبحرين و في ١٨٦١ تحولت البحرين لمحمية بريطانية كما الامارات ..

وكانت الدولة السعودية الثانية كان قد فقدت الكثير من طابعها الديني و كان فيصل يمنح إلى السلم مع المصريين و العثمانيين و الإنجليز بينما يعزز من سلطات الدولة في نجد ولا يترك لمشايخ القبائل الفرصة للاستئثار بقدر منها في محاولة لإقامة دولة على اساس السلطة المركزية بعيدا عن التحالفات القبلية .

وعند وفاه فيصل بن تركي ١٨٦٥ م بدء الصراع بين ابناءه على السلطة وانحاز الإنجليز لسعود بينما تولى السلطة فعليا عبد الله و تصدى لهجوم شنه اخيه سعود على الرياض محاولا الاستيلاء عليها وردة خائبا ليهرب للكويت .

واجتاحت القلائق والصراعات البحرين وعمان وانقسم امراءهم إلى مؤيدين لعبد الله و
اخرين مؤيدين لسعود وازدهرت اماره ال رشيد في جبل شمر المتحالفين مع العثمانيين

وفي ديسمبر ١٨٧٠ م عقد سعود تحالفا مع قبائل عجمان واستولي على الاحساء ثم هزم
اخيه محمد و اسره في معركة الجوده قبل ان يتحرك صوب الرياض حيث اقتحمها ونهبها رجاله
من الاعراب قبل ان يعلن والي بغداد مدحت باشا ان عبد الله بن فيصل كان قائمقام للدولة
العثمانية و ان استيلاء سعود على الرياض و غيرها من اراضي نجد عدوان عليها وسرعان ما
ارسل قواته التي استولت على الاقليم الشرقي بسهولة وطرد عبد الله بن تركي شقيق الامير
فيصل سعود من الرياض و ظهر عبد الله بن فيصل في الاراضى التي استعادها الاتراك محاولا
جمع قواته من جديد وعندما عاد للرياض كانت تواجهه جماعة قاتلة ولكن هذا لم يمنع الأخوين
من مواصلة الحرب للسيطرة على عرشها !

وقد أنحاز شيوخ الوهابية الي سعود ضد عبد الله صدرت الفتاوى بتجريم عبد الله لأنه استعان
بالدولة العثمانية وحكم بعضهم برده وأوجبوا السمع والطاعة لأخيه سعود دون أن يعلمون
بتحالفه مع إنجلترا وعندما استفتى عبد الله بعض العلماء الوهابية في الاستعانة بالأتراك ومنهم
محمد بن إبراهيم بن عجلان فأفتوه بجواز ذلك من باب "جواز الأستنصار بالكفار على البغاة
من أهل الإسلام .

فرد عليه بعض علماء الوهابية ومنهم الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن الذي قال في رسالة
له (وأما مسألة الأستنصار فانه مسألة خلافية والصحيح الذي عليه المحققون منع ذلك
مطلقاً ثم أن القائل به شرط أن يكون فيه نصح للمسلمين ونفع لهم وهذه القضية فيها
هلاكهم ودمارهم و شرط أيضا أن لا يكون للمشرك صولة ودولة يخشى منها وهذا مبطل
لقولك في هذه القضية واشترط مع ذلك أن لا يكون له دخل في رأي ولا مشورة بخلاف ما
هنا) .

فحتى عندما وقع الخلاف الداخلي بين الوهابيين وتجاربوها كان كلا الطرفين يقول بكفر الدولة العثمانية !

وظل الصراع حتى وفاة سعود ١٨٧٥ م وعاد عبد الله لحكم الرياض الي حين ولكن بعد ان اضحت مجرد امارة صغيرة ضعيفة و في ١٨٨٧ م استولي عليها ابناء سعود بن فيصل ولكن حاكم حائل محمد بن الرشيد سارع بطردهم واستولي هو على الرياض لتنتهي دولة السعوديين الثانية .

وفي ظل علاقاتهم الجيدة بالدولة العثمانية واعتمادهم على قوة عشيرتهم شمر رسخت اقدام ال رشيد وأصبحوا القوة الاولي في الحجاز و نجد إلى مطلع القرن العشرين حيث اختلفت الامور.

فبدء تأييد ال رشيد في نجد يتناقص وأصبحت عائلة ال سعود التي استقرت في الكويت مركز جذب للمتذمرين من حكم ال رشيد في ظل مساندة بريطانيا لهم و تحريضهم على ال رشيد حلفاء العثمانيين .

وحين بدأ عبد العزيز بن سعود محاولاته من الكويت لاستعادة دولة أجداده سنة ١٩٠٢ م بدء التواصل مع المقيم السياسي البريطاني في الخليج طالبا مساعدتهم ودعمهم بينما رفض عروضاً بالمساعدة من مسئول روسي كبير .

وخلال عام ١٩٠٦ م دخل عبد العزيز بن سعود في مفاوضات غير مباشرة مع البريطانيين لتأمين محاولتهم استعاد الإحساء بدون ان يتدخل البريطانيين علي الاقل وبالفعل لم يمنع البريطانيون وصول الاسلحة والذخائر الي الكويت لدعم ال سعود بينما كانت تمنع تجارة السلاح في الخليج عموماً ليستطيع ال سعود التصدي لآل الرشيد المتحالفين مع العثمانيين.

وفي مغامرة مفاجأة توجه عبد العزيز بن سعود إلى الرياض و بصحبته ٤٠ مقاتل فقط
١٩٠١ م وبعد مناوشات عديدة قتل حاكم الرياض في كمين و استولوا على المدينة بلا
مقاومة تقريبا و اقسام اهلها الولاء لعبد العزيز الذي تحصن بها و استقبل الامدادات من
الكويت و برغم ان والده كان حيا إلا انه فضل ان تكون البيعة لابنه الشاب الذي اثبت
جدارته و صمد امام محاولات ال رشيد استعادة الرياض حتى اضطروا للانسحاب بعدما تفشي
الوباء بين جنودهم و حافظ على التحالف بينه و الشيخ مبارك شيخ الكويت و اعوانه في صد
الهجوم الانتقامي الذي شنه عليه ال رشيد ١٩٠٣ م ثم تواصل مع الإنجليز طالبا ان يقوموا
بمنع الاتراك من التدخل ان استولي على الاحساء .

وقد اصبح الخليج محل للصراع الدولي الكبير في مطلع القرن العشرين وفي النهاية تصادم عبد
العزيز مع قوات نظامية تركية رغم محاولاته تجنب هذا الصدام ولكن اشتعال حركة الامام يحي
بن حميد في اليمن شغلت الاتراك بحرية عن مواجهة عبد العزيز و تدهورت حالة القوات التركية
في الجزيرة حتى باعوا اسلحتهم للأهالي وفر معظمهم في ظل نسيان القيادة التركية لوجودهم!
وعندما تم اجلاء القوات التركية في ١٩٠٦ لم يعد للعراق و المدينة إلا ألف جندي من أصل
اربعة الالاف و خمسمائة جندي ارسلوا إلى اواسط الجزيرة ١٩٠٤ م

ورد عبد العزيز بن سعود على الأميرالاي حسن شكري - الذي أرسل له رسالة يونيو ١٩٠٤
م يدعوه فيها لطاعة الخليفة و عدم التعامل مع الإنجليز بقوله : لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث
تركي و إنني مختار لنفسني ما اختاره آل الصباح (حكام الكويت تحت حماية بريطانيا) ولا
نعترف لكم بسيادة فلا طاعة لكم علينا بل نراكم كسائر الدول الأجنبية .

ويري بعض الباحثين الي ان علاقة عبد العزيز بن سعود بالإنجليز لم تكن الاولي بل سبقتها
علاقات سرية اخري اقامها ابائه مستدلين على ذلك بأدلة متعددة منها رسالة من عبد العزيز

بن عبد الرحمن آل سعود إلى سير. كوكس ١٩١٣ م جاء فيها (نخاطب سيادتكم بالنظر إلى الصداقة القديمة بيننا وبينكم وإلى المعاهدة الأسبق من ذلك التي تعود إلى عهد المغفور له جدي فيصل والتي انقضت من مدتها خمس وخمسون سنة ويبقى منها خمس وخمسون سنة إنني أرغب في إقامة العلاقة ذاتها على النحو ذاته الذي كان عليه بينكم وبين أجدادي) .. و يحدد الباحثين مضمون المعاهدة بعدم التعرض للسفن البريطانية و قواعدها في الخليج مقابل سماح البريطانيين بمرور السلاح والذخيرة للسعوديين.

وفي ١٩٠٨ عين الاتراك الحسين بن علي شريف لمكة وتسبب الجفاف في اجتياح القلاقل للمنطقة كلها وتمرد على عبد العزيز الكثيرين من ضمنهم ثلاث من ابناء عمومته بينما حاول شريف مكة توسيع سلطاته بقدر استطاعته وقام بضم اقليم عسير لصالح الاتراك وتحويل موقف عبد العزيز إلى الضعف الشديد حتى قامت حركة الاخوان .

كان عبد العزيز يفتقر للأساس العقائدي لدولته التي كانت لسابقه و دعمتهم في صراعاتهم حتى ظهرت حركة الاخوان مجددة للحركة الوهابية تحت قيادة أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب و غيرهم من الشيوخ ولم تختلف حركة الاخوان عن الوهابية عقائديا في شيء وإنما اضافت اليها اختيارات فقهية و اجتماعية حول توحيد المسلمين و الخضوع للإمام و مساعدة بعضهم و عدم التعامل مع الكفار و مع سكان البلاد التي يتحكمون في مقدراتها .

وبدء بعض المنتمين لهذه الجماعة في اقامة مستعمرات زراعية تشاركيه يتعاونون جميعا في الزراعة والصناعة و يكفلون بعضهم البعض في نموذج نادر الوجود وربما لم تشهد المنطقة مثله وانتشر هذا النموذج الذي كان يعتبر " هجرة " للحياة الفاسدة التي يغلب عليها التكالب على الدنيا و نسيان الدين وساعد بن سعود البدو على التحول للاستقرار والزراعة و ساعد الاخوان بالحبوب و مواد البناء و زودهم بالسلاح و الذخيرة للدفاع عن انفسهم وقت الحاجة و كان استثمار بن سعود في الحركة موفقا فقد احدثت انقلابا في موازين القوى.

و استعاد عبد العزيز الاحساء بينما توصل الإنجليز لاتفاق مع العثمانيين ١٩١٣ م تضمن الاعتراف بامتلاك العثمانيين لنجد و الاحساء ولكن الاتفاق سقط باندلاع الحرب العالمية الاولى ومن قبلها كان العثمانيين يدركون انهم لا يستطيعون السيطرة على الاحساء ونجد فعمدوا إلى تقوية حلفائهم في جبل شمر.

ومع بداية الحرب وضعت القيادة البريطانية في الشرق الاوسط مهمتين علي رأس اولويتها هما السيطرة على مصر وقناة السويس و البحر الاحمر من ناحية و من اخري السيطرة على شط العرب مصب دجلة والفرات لتأمين حقول البترول الايرانية من هجوم تركي المائي وتخوفا من دعاوي الجهاد التي اطلقها العثمانيين .

و بينما كانت المهمة في مصر سهلة حيث عزل الخديوي عباس حلمي وأعلنت الاحكام العرفية و احتلت القاهرة والمدن الكبرى بقوات عسكرية كثيفة كان المهمة الثانية صعبة فبدء الإنجليز يبحثون على حليف عربي اسلامي وكانت الخيارات المتاحة الشريف حسين الذي دعمه لورانس العرب و مخبرات القاهرة بينما فضلت مخبرات حكومة الهند الشرقية بن سعود وانتهي الامر بتقدم البريطانيين الدعم لكلا الغريمان سراً !

وفي اول عامين من الحرب منيت القوات البريطانية بمزائم موجهة في العراق و جاليبولي فكان تشجيع الحركات القومية العربية ضروري لشق صف العثمانيين وبينما وقف عبد العزيز بن سعود على الحياد في الصراع ظاهرياً و كثف جهوده للقضاء علي منافسه ال رشيد و شجعه البريطانيين على الهجوم على جبل شمر حيث ان ال الرشيد حلفاء العثمانيين كانوا يناوشون قواتهم في العراق بينما قام الشريف حسين بتحريض بريطاني بإعلان العصيان على العثمانيين فما عرف بالثورة العربية الكبرى.

ورغم ان الاتراك اوصلوا لحسين معاهدة سايكس بيكو السرية التي ظهرت للعلن بعد الثورة البلشفية التي نشرت المعاهدات السرية التي وقعتها روسيا القيصرية مع اعلان خروجها من الحرب إلا ان حسين صدق أكاذيب بريطانيا ان الوثائق مزورة .. وفي الحقيقة ان الحسين كان معتمدا كلياً على الاموال و السلاح الانجليزي ولم يكن يستطيع إدارة ظهره لهم حتى وان اراد

وفي ١٩١٥ م وقع عبد العزيز بن سعود اتفاقية سرية مع إنجلترا مشابهة لتلك التي ربطت بإنجلترا بكل من البحرين والكويت وتعهد فيها بقبول الوصاية البريطانية على علاقاته الخارجية مقابل تعهد إنجلترا بحمايته من اي اعتداء خارجي و دفع مساعدة شهرية قدرها خمسة الالاف جنية استرليني له بينما تلقي الشريف حسين عشرين الف جنية شهريا و قد اجري تحقيق في البرلمان البريطاني بعد الحرب لمناقشة تلك المبالغ الضخمة التي انفقتها المحابرات علي الخصمين و ان كانت بريطانيا استمرت في دعم عبد العزيز مالياً بعد الحرب وقدر ما تلقاه عبد العزيز من إنجلترا ما بين عامي ١٩١٧ م و ١٩٤٢ م بمبلغ ٤٧٧٣١٠ جنيهاً إسترلينية ذهباً .

وفي نوفمبر ١٩١٦ عقد مؤتمر ضم عبد العزيز و امير الكويت و شيخ الحمرة و بيرسى كوكس ممثلاً عن بريطانيا حيث اعلن عبد العزيز الخيازة للجانب البريطاني وقد منح الإنجليز عبد العزيز وسام فارس الإمبراطورية الهندية بعدما أعتقل مندوب للعثمانيين و صادر ٧٠٠ جمل كان قد اشتراهم لصالحهم سلمهم لوكيل للبريطانيين .

وأمتدح عبد العزيز في كلمته بهذا المؤتمر الإنجليز قائلاً (أن الحكومة العثمانية قد سعت إلى تفكيك وإضعاف الأمة العربية بينما السياسة البريطانية قد استهدفت توحيد وتقوية قادة الأمة

وعندما سعي ابن الرشيد للصلح و المسالمة و ارسل رسالة لعبد العزيز بهذا المضمون ١٩١٧ م
كتب ابن سعود (لو كان الأمر بيني وبينك لما كان أحب إلي من حقن دم المسلمين وجمع
شمل العرب لكن الأمر اليوم يا أخي ليس في يدي فإن شئت الخير لك وللعرب فإن السلام
يمكن أن يتحقق بثلاثة شروط أن تقطع كل صلة لك بتلك الحكومة الوضيعة التي سببت
الخسارة لدينا ودينانا وأعني الحكومة التركية التي لم تترك إنما لم ترتكبه و أن تصبح صديقا
مع الحكومة التي نحن حلفاؤها (أي بريطانيا) وإخوانك العرب ونحن متعاهدون على توحيد
العرب و أن تكون صديقا مع الشريف وتساعده فأني عربي لا يساعده يجب أن نتجنبه لأن
الشريف هو عضو في تحالفنا)

ورفض ابن الرشيد تلك المطالب كلية وظل مساندا للدولة العثمانية للنهاية .

وعندما انتهت الحرب واستسلمت الدولة العثمانية كان عبد العزيز قد أنتصر على ال الرشيد
وقويت دولته في نجد و أصبح الصدام بينه وبين الحسين ملك الحجاز حتمياً

وسرعان ما وقع الصدام المسلح في واحة تربة محل النزاع بينهما حيث احتلها عبد الله بن
الحسين قبل ان يفاجئ بمجوم الاخوان العنيف عليه حيث ابادوا جيشه وتمكن من الفرار
بصعوبة شديدة في اول معركة كبرى يشتركون فيها مما شجع عبد العزيز على التفكير في غزو
كامل الحجاز ولكن البريطانيون ارسلوا يحدرونه فتوقف .

ولم تكن إنجلترا تهدف لاحتلال الحجاز واعتقد ان جورج لويد رئيس وزراء بريطانيا كان صادقا
عندما كتب (أن احدا ما لا ينوي ارسال قوات اجنبية لاحتلال جزء ما من الجزيرة العربية
فهي بلد فقير جدا لا يستحق ان تحتله دولة ضارية) ولكن رغبتهم الحقيقية كانت في قيام
دولة حليفة لهم بالحجاز كما هو الحال مع امارات الخليج .

وفي سنة ١٩٢١ م هاجم عبد العزيز قبائل شمر و حاصر حائل في الوقت الذي قرر تشرشل ان ينصب فيصل ابن الشريف حسين ملكا على العراق و انشىء امارة الاردن و اسندها لابنة الاخر عبد الله فأسرع عبد العزيز بتشديد الحصار حتى استسلمت حائل وانتهت امارة جبل شمر و اسبع عبد العزيز حمايته على الشيعة وامن الناس و زودهم بالمؤن والأغذية بعد طول الحصار رغم اعتراض الاخوان و تدمرهم من هذا التسامح مع المشركين.

وكان صدام عبد العزيز مع الاسرة الهاشمية التي أصبحت تحاصره حتميا فالصحراء بين الجزيرة و الاردن والعراق لا توجد بها حدود طبيعية ولا سياسية و القبائل ترتحل بين الدول التي تقاسمت المنطقة بحرية .

وفي ١٩٢٢ م هاجم الاخوان اجزاء من العراق ولكن الطيران الانجليزي قصفهم و كذلك تحركوا نحو شرق الاردن واستولوا على واحات الجوف و تيماء وتبوك حتى اقتربوا من عمان العاصمة فتدخل الإنجليز ووجهوا ضربات عنيفة ضد الاخوان ردتهم للداخل وبدئوا ترسيم الحدود بين الدول التي صنعوها فتفاوض بيرسى كوكس مع عبد العزيز ووضعا ملاحق لمعاهدة الحمرة بترسيم الحدود بين العراق و نجد وحق القبائل ان تدين بالطاعة لأى حكومة من الدولتين ووضع منطقة محايدة للبدو و رسمت حدود اخري مع الكويت .

ورغم الاتفاقيات إلا ان الحدود السعودية الاردنية لم تحسم إلا في صيف ١٩٢٤ م حيث حاولت قوة ضخمة من الاخوان الهجوم على عمان فتصدي لهم الجيش الانجليزي و الحق بهم خسائر فادحة.

وفي ١٩٢٤ م اعلن حسين نفسه خليفة بعد سقوط الخلافة العثمانية وافتتحت في جدة قنصلية سوفيتية مما اثار البريطانيين ضده وقد كانت الخلافات بينهما تصاعدت فأقتنع البريطانيون انه سيحاول الاستعانة بالسوفيت لحمايته فأطلقوا يد عبد العزيز ضده فلم يضع

وقتاً ودخل الاخوان الطائف وارتكبوا بما مذمومة ولم يستطيع الحسين وقف زحفهم فاجتمع اعيان الحجاز وقرروا خلع الحسين في محاولة ساذجة لإرضاء سعود ظنا ان المشكلة شخصية وغادر للعقبة ومنها لقبرص ولكن الاخوان استمروا في التقدم ودخلوا مكة بينادق منكسة لأسفل و اصر سعود على مغادرة الاسرة الهاشمية كاملة للحجاز .

وفي بداية ١٩٢٥ م حاصر الاخوان جدة قرابة عام دون ان يتدخل الإنجليز رغم توصلات علي بن الحسين حاكمها وعندما وصل الكولونيل كلايتون إلى مقر عبد العزيز توصل معه لاعتراف بريطانيا بضممة للحجاز مقابل تنازله عن الممر الذي يربط شرق الاردن بالعراق وبعدها استسلمت جدة وبويع عبد العزيز ملكا للحجاز وسلطان نجد وملحقاتها وسرعان ما اعترفت به الدول الاوربية وفي ١٩٢٦ دعا لمؤتمر اسلامي بمكة حضره مندوبين عن المنظمات الإسلامية في مصر و سوريا و السودان والهند و كافة ارجاء العالم الإسلامي وخرج منه عبد العزيز يحمل لقب حامي الحرمين الشريفين و توطد مركزه دوليا بدرجة كبيرة ألا انه كانت هناك مشكلة كبيرة كانت تواجهه .. جماعة الاخوان الذين أوصلوه لتلك المنزلة بدمائهم ودماء غيرهم ماذا يفعل معهم ؟

سيرة عبد العزيز بن سعود سيرة رجل سياسي عملي لا رجل دين ولم يكن متممنا بأى معنى كان للكلمة بينما الأخوان جماعة متممة شديدة الالتزام العقائدي وكرجل دولة كان عبد العزيز يدرك اهمية الراديو والهاتف لتعزيز سلطته بينما رأى الاخوان الاختراعات الحديثة بدع من عمل الشيطان رفضوا انتشارها حتى أن اول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة تم إحراقها !

تجاهل عبد العزيز تدمير الاخوان للقباب و المشاهد والأضرحة في الجزيرة و لكنه نزع سلاحهم في مكة و حاول التخفيف من قوتهم قدر الطاقة وفي ١٩٢٦ م وصل المحمل المصري مع قافلة الحج مع ضاربوا الطبول والآلات الموسيقية فثار الاخوان و اصطدموا بالقوة

العسكرية المصرية التي تحمي القافلة فأطلقوا عليهم النيران فقتل ٢٥ من الإخوان و برغم أن هذا الحادث قد أدى لانقطاع العلاقات بين مصر و الدولة السعودية حتى ١٩٣٦ م إلا ان الإخوان نعموا علي عبد العزيز عدم الاقتصاص من حراس القافلة و سماحه لهم بالعودة الي مصر .

وفي محاولة للحد من سطوة الاخوان اسس عبد العزيز جماعة الامر بالمعروف و النهي عن المنكر وأمرهم أن يبلغوا الجماعة بكل منكر يرونه ولا يحاولوا انزال العقوبات بالناس بأنفسهم وبدئت السعودية في التحول من تحالف عشائري إلى دولة حديثة تدريجيا وكان الصدام مع جماعة الاخوان التي يناقض وجودها فكرة الدولة الحديثة حتميا

ربما كانت علاقة عبد العزيز بالإنجليز خافية على الاخوان ولكن جفائه لهم ومنعهم من غزو المشركين بعدما ما قدموا من تضحيات و دماء لإقامة دولته اثار حنقهم وخاصة تسامحه مع الشيعة في الاحساء و القطيف .

وكذلك فان جماعة الاخوان لم تتخلص من طبيعتها العشائرية فعلى رأسها كان شيوخ العشائر و ابرزهم شيخ قبيلة مطر فيصل الدويش الذي اجتمع مع قادة اخرين و وجه قائمة اتهامات لعبد العزيز حول سفر ابنة سعود إلى مصر و ابنه فيصل إلى لندن واتهموه بالتعاون مع بلد الشرك و كذلك استعمال التلغراف و التليفون و السيارة و فرض رسوم جمركية على مسلمي نجد ومنح قبائل الاردن و العراق حق الرعي في اراض المسلمين وحظر التجارة مع الكويت دون مقتضي و السماح الشيعة بممارسة شعائهم الدينية .

ولم يدخل عبد العزيز في صدام معهم بل بدأ مفاوضتهم بالرياض فوافق على تقليل الضرائب و اقتنعهم بمبايعته ملكا لنجد و الحجاز وملحقاها يناير ١٩٢٧ م بينما توصل مع كلايتون المندوب البريطاني في جدة ووقعت معاهدة الصداقة مع بريطانيا .

وتعرض سعود للإجراج من هجمات قامت بها جماعة الاخوان على الكويت والعراق تصدت لها القوات العراقية و الكويتية مدعومة بالطيران الانجليزي و اعلن ان هذه الهجمات مخالفة لأوامره متتهما جماعة الأخوان بالتمرد .

و بدء الاخوان في الاعداد للثورة على عبد العزيز بينما اعد هو لمقاومتهم بحشد القبائل وتأييهم عليهم وفي مارس ١٩٢٩ بدء الصدام العسكري بين عبد العزيز و الاخوان في معركة السبلة التي هزموا فيها هزيمة ساحقة اصيب فيها فيصل الدويش اصابة بالغة طلب بعدها العفو من عبد العزيز الذي عفا عنه عندما ادرك انه لم يعد منافسا و توجه للغطظ مركز الأخوان و اسر ابن بجاد و شيوخ القبائل معه فحبسهم في الاحساء حتى وفاتهم وهدمت الغطظ حتى الارض كما هدمت الدرعية وخرت قبل هذا اليوم بخمسين عام .

وظن عبد العزيز انة قضي على تمرد الاخوان و حسم المعركة مبكرا ولكن ثورتهم سرعان ما تجددت بعد تعافي فيصل الدويش و تواصله مع قبائل العجمان ودارت الحرب الاهلية طاحنة و استعان عبد العزيز بأمرء القطيف و الاحساء و استقدم مئات السيارات و اربع طائرات للمجهود الحربي (غالبا مساعدة بريطانية) و الحق بالإخوان وحلفائهم هزائم ثقيلة حتى أضطر قادتهم للاستسلام إلى السلطات البريطانية بالكويت يناير ١٩٣٠ م وطلب عبد العزيز تسليمهم مقابل تعويض العراق و الكويت الأضرار من هجمات الاخوان و وعد البريطانيون بالإبقاء على حياة قادة الاخوان و بالفعل وضعهم في السجون حتى وفاتهم واحد تلو الاخر .

وفي فبراير ١٩٣٠ وعلى متن بارجة بريطانية وقع الصلح بين عبد العزيز والملك فيصل برعاية المندوب السامي البريطاني بالعراق همفرز حيث اتفق الملكين على معاهدة صداقة وحسن جوار و تبادل البعثات الدبلوماسية .

ورغم قيام حركة احرار الحجاز بمحاولة للانقلاب على عبد العزيز وصراعاته في اليمن إلا ان الدولة الجديدة كانت قد رسخت اقدمها وفي ١٨ سبتمبر ١٩٣٢ م صدر الامر الملكي بان يكون اسمها المملكة العربية السعودية ووضع نظام لتوارث العرش وأعلن في ١٩٣٥ العفو العام وعاد الكثير من المنفيين و المعارضين السابقين للسعودية

وحاول عبد العزيز الابقاء على السمات الديني لدولته بإظهار احترام العلماء و على رأسهم ال الشيخ سلاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب و احكام الشريعة ومع الوقت تحولت السعودية لدولة حديثة ذات مؤسسات دستورية و قوانين تتماشى مع طبيعة مجتمعها ولكنها لم تعد امتدادا للدولة السعودية الاولي الوهابية بحال .

و بدئت الاكتشافات البترولية منذ العام ١٩٣٢ م ومن ثم قامت شركة ستاندر اويل الامريكية بالدخول للسوق السعودي في ظل الخشية من سيطرة الشركات البريطانية و انشئت شركة خاصة للتقيب عن البترول السعودي في ١٩٤٤ م باسم ارامكوا (اراب اميركان اويل كومباني) وقد نقل النفط السعودية من دولة فقيرة توقفت عن سداد ديونها و قدرت ميزانيتها بمليوني جنية مصري فقط إلى دولة مهمة في الشرق الاوسط و العالم وقفز إنتاجها النفطي من ٥٠٠ الف برميل فقط في العام ١٩٣٨ م إلى ٣٥٠ مليون برميل ١٩٥٤ م ثم إلى ٣٥٧٩ مليون برميل في العام ١٩٨١ م

وسمح تدفق العائدات النفطية النظام الملكي في ترسيخ وجوده رغم المحن و الصراعات في منطقة عنيفة التحولات من خلال تعزيز تحالفه مع العلماء و توسيع دائرة الاسرة الملكية بالمصاهرات فسمحت عائدات النفط لإيجاد فرص عمل بالآلاف لخرجي المؤسسات التعليمية الدينية لتمنحهم قسطا من السلطة والسطوة الاجتماعية لا يمكن لهم الحصول عليه في ظل دولة مدنية غير مرتبطة بنمط عقائدي .

وفي العام ١٩٤٥ أعلنت السعودية الحرب على دول المحور والانضمام للحلفاء ورغم عدم مشاركتها في العمليات الحربية على الاطلاق إلا ان ذلك مكنها من الانضمام للأمم المتحدة

وعند وفاة عبد العزيز نوفمبر ١٩٥٣ انتقلت السلطة بيسر لولي عهدة سعود الذي عاصر احداث جسام واضطر في مارس ١٩٦٤ لتسليم السلطة لولي عهدة اخيه غير الشقيق فيصل بعدما اصدر العلماء فتوى ايدها افراد الاسرة الملكية بتسليم السلطة لفيصل على ان يبقي سعود ملكا بالاسم فقط و عندما رفض سعود حاصرة الحرس الوطني في قصره و استسلم لهم الحرس الملكي ثم اجتمع علماء الدين والأمراء و اخرجوا فتوى بمبايعة فيصل ملكا وقع عليها الامراء و كافة افراد الاسرة المالكة و اعضاء مجلس الشورى .

وقد صمد النظام السعودي رغم التغيرات العنيفة التي شهدها الشرق الاوسط في الخمسينات والستينات ولم تخترقه رياح التغيرات الايدلوجية إلا في استثناءات محدودة كقيام حركة الامراء الاحرار ١٩٥٨ م من خمسة من الامراء بقيادة الامير طلال بن عبد العزيز ال سعود والذين توجهوا للبنان ثم لمصر وطالبوا بإقامة دولة دستورية برلمانية و حظر الرق و المساواة بين الجنسين إلا ان هذه الحركة كانت محدودة الاثر وانتهت بعودة الامراء الخمسة للبلاد والعفو عنهم وان كان المجتمع قد شهد مع تدفق الاموال و التكنولوجيا الحديثة العديد من مظاهر المجتمعات الحديثة التي تتناقض بعنف مع القيم الوهابية وبدء بالتدرج في فقدان سمته البدوي واكتساب سمته مدني حديثي إلا ان الدعوة الوهابية التي أكتسبت اسم السلفية كانت في أوج قوتها حيث وفر الدعم المالي الكثيف الفرصة للعديد من الهيئات و الشخصيات التفرغ للدعوة في الدول العربية كافة تقريبا و من المفارقات انه رغم العداء الحاد بين النظام السعودي و نظام عبد الناصر فقد ساهم عبد الناصر في نشر التوجهات السلفية بشكل كبير عندما قام بتأميم الأزهر وجعل شيوخه موظفين حكوميين و تقسيمه إلى عدة مؤسسات ١٩٦١ م مما ادي لفقدان الازهر الكثير من نفوذه و علماءه الذين انتشروا في البلاد العربية و الإسلامية في

وظائف التدريس والقضاء و استقبلت السعودية بترحاب المثات منهم لتسيير المؤسسات الدينية و التعليمية والعدلية و تحول الأزهر من أكبر خصم فكري للوهابيين الي منبع لحلفائه حتى ان هيئة كبار العلماء السعودية مستوحاة من هيئة كبار العلماء المصرية التي انشئت ١٩١١ م وضمت ٣٠ عالم من المذاهب الاربعة حتى حلها عبد الناصر ٦١ م وكان مفتاح دخول تلك الهيئة التي تبوأ الصدارة هو الزهد السياسي فلا يوجد احد من مشايخها عمل بالسياسة وإنما الفصل بين المؤسساتين الدينية و السياسية قائم لليوم .

وفي ١٩٦٦ م انشاء جهيمان العتيبي جماعة السلفية المحتسبة والتي انتشرت في البلاد خلال ١٠ سنوات لتقوم بعمل الامر بالمعروف و النهي عن المنكر بصفة اجتماعية و لكنها سرعان ما تحولت إلى فاعل سياسي ولكن الملك خالد اصدر امراً بتوحيد جميع هيئات الامر بالمعروف و النهي عن المنكر ١٩٧٦ م وفي العام التالي قامت حملة اعتقالات واسعة في جماعة جهيمان التي لم تكن مصادفة ان أطلقوا علي أنفسهم أسم الاخوان وان يكون والد جهيمان نفسه قد اشترك في تمرد الأخوان على عبد العزيز .

وفي نوفمبر ١٩٧٩ م احتل جهيمان العتيبي وجماعته المسلحة المسجد الحرام بمكة و احتجز الالاف من الحجاج رهائن معلنا سقوط ال سعود و إعلان محمد بن عبد الله القحطاني المهدي المنتظر واخذ البيعة له في الحرم و طالب جهيمان بإقصاء عدد من كبار الامراء من مناصبهم و التوقف عن بيع النفط إلى الغرب ورغم فشل الحركة وقتل محمد القحطاني و أعدم جهيمان وستون من أعضاء جماعته بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع و معارك عنيفة خلفت مئات القتلى من القوات السعودية و جماعة جهيمان وعدد غير معلوم من الحجاج الذين احتجزوا رهائن بعدما أضطر السعوديين للاستعانة بالقوات الخاصة الفرنسية لهزيمتهم إلا ان التوترات الجسيمة التي صاحبته ثم الاضطرابات التي قام بها الشيعة لاحقا ادت لتزمت السلطة أكثر وتعثر قطار التحديث في الدولة فطرده الالاف من العمال الاجانب المشتبه بهم

واستدعي الطلبة الموفدون و حظر على الفتيات الدراسة بالخارج و سرحت مذيعات التلفزيون و اغلقت صالونات ونوادى النساء في محاولة لإرضاء المتشددین الذين ورغم وقوف المؤسسة الدينية الرسمية مع السلطة في الازمة وتوقيع فتوي بقتالهم في الحرم أظهروا نوعا من التعاطف مع جهيمان وتفهماً لبواعث لحركته التي كانت بإمكانها أن كان قادتها أكثر عقلانية ووعياً سياسياً أن تستولى على الحكم وتسقط النظام كما سقط نظام الشاه في ايران بعد إعلان الجيش حيادة .

ورغم التعقيم الاعلامي التام و حظر نشر اي من بيانات الجماعة إلا ان ما تسرب منها يظهر منه التحريض علي الثورة على ال سعود بوضوح ففي رسالة (الإمارة والبيعة والطاعة وكشف تلبيس الحكام على طلبة العلم والعوام) التي كتبها جهيمان جاء (اليوم إنما يحكم المسلمين الملك الجبري الذي ليس مبنيا على البيعة وقد خالف شرع الله في عدة أمور منها أن الحكام فيه ليس من القریش و أنهم لا يقيمون الدين بل يهدمونه ويحاربون أهله و أنهم لا يأخذون البيعة من رعيتهم بصفقة اليد وثمرة القلب وطوعه واختياره بل بالجبر والقهر... فأنت تعلم أن الطاعة لا تجب إلا لمن يقودنا بكتاب الله أما من يقود المسلمين بالأنظمة المختلفة والقوانين ولا يأخذ من الدين إلا ما وافق هواه فهذا لا سمع له ولا طاعة وقد عرفت بطلان بيعته فيما تقدم) .

فلقد واجهت تلك الدولة التي قامت على اساس دعوة دينية خالصة الخطر الجسيم وشهدت اسوء كوابيسها متمثلة في دعوة دينية احرى ترفع شعار الدين الحق والتزام شريعة الله وترمي القائمين عليها بالفسق والجور كما أنهم أجدادهم من قبل سلاطين الدولة العثمانية الذين كان لقبهم التشريفي أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ظل الله في الأرضيين وسلطان البحرين وخدام الحرمين الشريفين بالكفر والشرك والضلال.

ولكل شيء افه من جنسه.

المصادر

الوهابية بين الشرك وتصدع القبيلة - خالد الدخيل

اوراق منسية من تاريخ الجزيرة العربية - غيرتروود بيل

علماء الإسلام تاريخ وبنية المؤسسة الدينية في السعودية - محمد نبيل ملين

الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث - محمد كامل ضاهر

خواطر حول الوهابية - محمد إسماعيل المقدم

الوهابيين تاريخ ما أهمله التاريخ - لويس دو كورانسي

خروج الوهابية على الخلافة العثمانية - ياسين بن علي

تاريخ العربية السعودية - أليكسي فاسيليف

تاريخ نجد - حسين بن غنام

نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط - ديفيد فرومكين

هل بالتاريخ ما ينفعنا؟

(قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون)

الاعراف ١٢٩

(سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ألا يهلك امتي بالسنة فأعطانيها وسألته ان لا يهلك امتي بالغرق فأعطانيها وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها.)

صحيح مسلم

اعطى التاريخ الفرصة للجميع في التجربة ومحاولة تحويل احلامهم و آرائهم السياسية الي واقع فالخوارج و الشيعة على خلاف فرقهم ومذاهبهم من قرامطة وفاطميين و اثني عشرية و كيسانية و صفرية و أباضية وحتى من ادعوا المهديية كلهم أقاموا دولاً و امارات ترفع رايتهم و تحقق شعاراتهم عاشت ما بين بضع سنين الي قرون بجوار عشرات الدول الاخرى التي اقامها اهل السنة على الانساق السائدة في سائر العالم حيث الملكية الوراثية المدعومة بالتحالفات القبلية و ما انفردت به الدول التي اعتمدت على الرقيق ليكون حاميتها العسكرية بدلا من الشعوب التي حرم عليها حمل السلاح حتى لا يكون لرأيهم وزناً .

وفي كل تلك الدول ظهر الفارق الشاسع بين مثالية الفكر وواقعية التطبيق حيث غيرت التوازنات السياسية والتحولات الاجتماعية و الاقتصادية من مسارات هذه الدول التي قامت لنصرة المعتقد على مذهب واضح فانتهت الي تغيرات جذرية يندesh مؤسسيها الاصليين ان اطلعوا عليها ولم يكونوا يتخيلونها يوما ولا دارت في خلداهم.

وهنا يضع التاريخ ايدينا على أحدي أهم حقائق الحياة حيث يضع نصب أعيننا البون الشاسع بين الفكرة والتطبيق.. ولا ضير على الإطلاق في أن نقرأ التاريخ للمتعة والتسلية ولكن لا ضير أيضا في ان نحاول الاستفادة من رسائله.

وبعد تلك الرحلة في أروقة التاريخ أحب أن أختتم ببضع ملاحظات نهائية أرجوا ان يسعها ما بقي من صفحات الكتاب وصدرك.

السياسة ابداً

في ايماننا هذه من المعتاد على اسماعنا القول بالفصل بين الدين و السياسة ولكن التاريخ الإسلامي ينظر الي من يقولون بهذا باستخفاف شديد , وأن كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه كائن سياسي و كائن يعرف التدين , وتشابك الدين و السياسة في تشكيل المجتمعات البشرية طوال التاريخ الإنساني كله لا يجهله أحد , فالتاريخ الإسلامي ليس باستثناء بل وقدم لنا نماذج لا تحصى من هذا التداخل و شهد تأثير بارزاً للقضايا السياسية على مر العصور والتي تسببت في انقسام الأمة الإسلامية العقائدي ومن خلال قراءة التاريخ الإسلامي نجد ثلاث إشكاليات سياسية كبرى هيمنت على مساراته إشكالية الشرعية , إشكالية السلطة الدينية , إشكالية الحرية.

إشكالية الشرعية:

لم يكد الرسول صلي الله عليه وسلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ثار الخلاف الحتمي الوقوع حول أساس شرعية الحاكم من بعده ولكن ذلك الخلاف لم يتحول إلى نزاع حتى وقعت الفتنة الكبرى في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه حيث رأي الخارجون عليه انه فقد أساس شرعيته بينما رفض المدافعون عنه حجتهم لأنه لم يرتكب جرماً يستوجب خلعة ولأنهم لا يمثلون الامة بل مجرد أفراد معدودين لا يمثلون إلا أنفسهم.

فثارت الاسئلة ما هي حدود سلطة الحاكم ومدى مسؤوليته أمام الامة ومن يمثل الأمة ويعبر عنها بإزاء حكامها؟

ولكن تلك الاسئلة لم تجاب بحسم ثم تفاقمت الازمة حيث رفض معاوية ومن معه بيعه علي باعتبارها ناقصة لم تستوعب كامل الامة بل من حضر بالمدينة فلا تلزم غيرهم ممن لم تتم مشورتهم بينما رفض علي ومن معه هذا المنطق لاستحالة أخذ رأي جميع المسلمين لانعدام

الطريقة التي تمكن من ذلك و أن شيوخ المهاجرين و الأنصار الذين يجلبهم كافة المسلمون و يتقنون فيهم و في سلامة صدورهم و حسن دينهم و حرصهم على مصالح المسلمين هم أهل الحل والعقد و أن بيعتهم كافيهم وملزمة لغيرهم بإعتبارهم يمثلونهم.

ثم نقض الخوارج بيعه علي عندما قبل بالتحكيم رافعين شعار (إن الحكم إلا لله) وأصروا على أن يقر علي نفسه بالكفر ثم يتوب حتى يقبلوا ولايته لتقفز اسئلة اضافية الي الصدارة حول المرجعية الشرعية الحاكمة لتصرفات الحكام وحول اهليتهم للحكم أن تخطوا الحدود الشرعية؟ وبعد وفاه معاوية وبدء ولاية يزيد صعد سؤال هل يجوز توارث الحكم في الإسلام وهل يجوز قيام اسرة ملكية حاكمة علي غرار الامبراطوريات الرومانية والفارسية؟ وكيف يمكن اختيار قيادة الجماعة الإسلامية التي تحولت الي امبراطورية متعددة الاعراق واللغات بينما بدء الرعيل الأول من المؤمنين في الانقراض؟

وفي خضم نيران المعارك التي استعرت و بجور الدماء التي تفجرت من بعد مأساة الحسين كان صعود الأمويين الثاني مؤسساً علي المزج بين فكرة وكالة أهل الحل والعقد عن الأمة و العصبية القبلية التي أمدتهم بوقود الحرب من مال ورجال لتنشأ دولة بني امية الملكية المستندة علي أفكار فقهية و عقائد تدعمهم فمع ادعاء أن الأمويين هم أهل الحل والعقد من دون الناس و أن قدرتهم علي حماية خياراتهم بالسيف تمنحها الشرعية ظهرت أفكار تحريم الخروج علي الحكام و عدم قابليتهم للمسائلة ولا النقد في نموذج قريب الشبه مما نعرفه اليوم بتقديس الدولة أو الهوبزية (نسبة الي توماس هوبز مؤلف كتاب لفيثان الذي صور فيه الدولة ككائن خرافي مستقل بذاته كل ما يفعله للحفاظ علي كيانه وسلامته ايا كان مبرر اخلاقيا و منطقياً) وتحت ادعاء الصالح العام و حماية الامن أستحل قتل الابرياء و نكل بالمعارضين و انتهكت الحرمات من اجل الحفاظ علي الدولة التي أصبحت مرادفاً للأمة ومصالحة المسلمين .

وفي المقابل طور الشيعة والخوارج بدورهم أفكارهم وعقائدهم فظهرت فكرة الامام المعين المعصوم المنصوص عليه كحاكم شرعي اوحدهم يمثل مرجعية في ذاته، لا يخالفه أمره أو يعاديه

مؤمن وظهرت أفكار جواز تعدد الامارات والدول عند الخوارج و مشروعية الكفاح المسلح ضد الحاكم الظالم الي حد وجوبه علي كل قادر .

ولم يختلف العباسيين عن الأمويين في شيء تقريباً عندما نُجحت ثورتهم استبدلوا بالعجم العرب ليكونوا لهم عصبية و منعه و استمروا في تكريس الاستبداد و جحد حق الناس في الاختيار الحر فالفارق الشاسع بين عمر بن الخطاب حيث يقول (والله ما احد أحق بهذا المال من أحد ولا أنا احق به من أحد , والله ما من احد من المسلمين إلا وله في هذا المال نصيب) و بين الخليفة العباسي المنصور حيث يقول (إنما انا سلطان الله في ارضه أسوسه بتوفيقه وتأييده وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وأرادته وأعطيه بإذنه) ليس فارق بين شخصيتين و انما فارق بين عصرين و طريقتين للتفكير السياسي , حيث سقطت الامة من المعادلة السياسية وأصبح الملك / الخليفة يستمد سلطانه من الله سبحانه وليس من الامة التي لم يعد أحد أفرادها , ولكن بينما دعمت الكنيسة في اوربوا الحق الالهى للملوك من خلال نظرية السيفين التي ظهرت على يد البابا جيلاسيوس حيث تنقسم العالم قوتين السلطة السياسية (الامبراطور) والدينية (البابا) و الاخيرة اقوى حيث ان الاباطرة هم ابناء الكنيسة , لم تظهر في العالم الإسلامي نظرية مماثلة ولم تكن هناك من كنيسة إسلامية تحب هذه الشرعية الدينية , حيث أن الاندماج بين المؤسساتين الفقهية الدينية و السياسية الحكومية لم يحدث الا في حالة الامام عند الشيعة الاسماعيلية و ولاية الفقيه عند الاثنا عشرية بينما عند اهل السنة كان هناك فاصل واضح بين المؤسساتين قائم على احترام كلاهما للآخر و منع تسلط الدولة على الدين و استيلائها على حرية الضمير الديني فكانت معركة أحمد بن حنبل في قضية خلق القرآن معركة حرية العقيدة الدينية والضمير بازاء السلطة , فأحمد الذي أعلن صراحة فساد عقيدة الخليفة المأمون لم يخلع يده من طاعته و لم ينقض بيعته بل تحمل السجن والتعذيب حتى لا يسهم في فرض تلك العقيدة على الناس بكلمة قبول يحق له شرعاً قولها حفظاً لحياته .

ولكن العباسيين لم يستمروا جالسين علي عروشهم حتى يسلموا الخلافة الي عيسي عليه السلام كما توهموا ولكن بسبب ضعف مركزهم بسبب افتقارهم الي مصدر لشرعية حكمهم

بدئوا تقليد جلب المماليك و اتخاذهم جنوداً و حراساً ثم قادة وكذلك فعل ولائهم الذين استقلوا بولايتهم دون ادني سند سوي قوة المرتزقة و العبيد ليجلس على عروش الأمة المغلوبة علي امرها الخصي و مجهول النسب كما جلس اولئك الذين طالما تفاخروا بعراقة أنسابهم و رفعه شرفهم، ولكنهم ضنوا على الامة بحقها و حريتها.

وتعاقبت الدول الي ان ظهرت الدولة العثمانية قائدة للعالم الإسلامي في امبراطوريتها الممتدة التي لم تختلف عما سبقها كثيراً بينما تغير العالم من حولها بعمق وبسرعة فائقة جعلت سقوطها حتماً.

ولم تنفع الامبراطورية الآفلة محاولة تغيير جلدها لأخر غربي لمقاومة الانحلال والفساد بها تحت ضغط القوي الداخلية التي رفعت رايات القومية التركية والعلمانية والخارجية التي استغلت هزائم الاتراك العسكرية في فرض ارادتها السياسية عليها حيث اعتمدت الدولة العثمانية قانون العقوبات المؤسس على القانون الجنائي الفرنسي والغيث الحدود ١٨٤٠ م ثم وفي ١٨٥٨ م الغيت جريمة الردة واستبدلت المحاكم الشرعية بالمحاكم النظامية أو العدلية واستحدثت برلمان ودستور.

ولكن هذا سارع في سقوطها فمع صعود العنصرية التركية تحت اسم القومية ضعفت شرعية السلطان العثماني المزعزعة اصلا وساءت صورة الدولة العثمانية وتراجعت فكرة الجامعة الإسلامية وقيادة الدولة العثمانية للعالم الإسلامي حتى لم يعتبرها البعض دولة اسلامية من الاساس وصعدت القومية العربية و الكردية وغيرها مدفوعة بطموح القادة المحليين و الدعم الاوربي و سرعان ما تحولت لحركات ثورية مواجهة لسياسة التتريك العثمانية.

و بعد ائحيار الدولة العثمانية و فقدان الأمة الإسلامية رمز وحدتها دخلت عصر الحداثة محملة بتراث ثقيل تمثل أزمة الشرعية جانباً كبيراً منه.

فبينما وجد الشيعة الاثنا عشرية مأربهم في تطوير نظرية ولاية الفقيه، حيث يتولى مجلس من الفقهاء السلطة العليا في الدولة نيابة عن الأمام الغائب حتى عودته بدلاً من الملوك الذين لم يكونوا على قدر المسؤولية، وجد أهل السنة أنفسهم في مأزق.

فأهل المجتمعات الإسلامية التي حرمت من تطورها الطبيعي فلم تستطيع تكوين قوى محلية مؤهلة لتولي زمام السلطة بها في العهود المتتالية بعد قرون من سيطرة الإمبراطورية العثمانية التي ككل الإمبراطوريات حاولت الحفاظ على وحدة أراضيها بأضعاف ولاياتها فأعتمد الأتراك على المركزية الشديدة و قمع محاولات الانفصال بأضعاف الولايات اقتصاديا بفرض الجزية ومنع تملك الأراضي وتوارثها و تجريدها من القوة العسكرية المحلية , فلما ضعفت كانت الغلبة للقيادات الطائفية و العشائرية التي تمتعت بأستقلالية كبيرة في حكم أبناء الملل والطوائف المختلفة وخاصة في الشام الذي تفتت وأضحى قيام دولة موحدة به أمراً بعيد المنال , فحاء الاستعمار ليفرض على الشعوب العربية نخبة خانعة متواطئة لا تعبر عنها استمرت بعد رحيله و ورثت سلطته مستندة على المناصب التي تولتها والثروات التي كونتها بالتعاون معه , لتحقيق أغراضه في تدجين الشعوب لتبقي تلك المجتمعات تحت نير نخبة حاكمة لا تشاركها الهوية ولا الاهداف ولا القيم وتعاني الأمرين من تبعات الانفصال بين الطبقة الحاكمة و الشعب وهي تتوهم أنها نالت احيرا بعد تضحياتها الجسيمة استقلالها وأصبحت حرة .

الإشكالية الحقيقية انه لا بديل عن حكم الامة لنفسها وإن حياتها لا تستقيم إلا بذلك مهما جادل البعض بحرافة المستبد العادل فطبيعة اعتقادات اهل السنة و الجماعة التي تترك باب الاجتهاد مفتوح علي الدوام ولا تحدد طريقة لتداول السلطة مع اعطاء الحق للعامة و الخاصة في المشاركة السياسية والتي تصل لحد فريضة الكفاية (الفرائض تنقسم لفرائض شخصية يجب على كل فرد ادائها بأحكامها كالصلاة والزكاة وفرائض كفاية تكون على المجموع يجزئ عنهم قيام بعضهم بادائها وتلك تشمل كل ما لا غني للمسلمين عنه وما لا تستقيم حياتهم إلا بأدائه ككافة الصناعات والعلوم الضرورية) في تولى الوظائف العامة و التخطيط تمثل مساراً واضحاً لعلاقة السلطة بالمجتمع وقد جربنا خلال الف عام خلعت الحيدة عن هذا المسار و السير في غيره فلما أتت الحداثة كسحت الجميع أمام قطارها المسرع وسقطت أنظمة كانت تصلح لعالم قدس انتهى و سقطت ثوابته و ضروراته التي بررت وجودها وبقي المسار المستقيم مهجوراً مرغوباً عنه بينما تجرب في الشعوب كل نظرية مستوردة اياً كانت .

ومن الجدير بالملاحظة ذلك التطابق بين أفكار بعض الإسلاميين في العصر الحديث و الأفكار التي تردت في التراث الإسلامي فالجماعات الإسلامية في القرن العشرين كررت رؤية بني أمية في تأسيس دولتهم مدعين أن الشورى ليست للعامة وإنما لمن هو أهل لها سواء من أهل الفقه و الاجتهاد عند بعضهم و أهل القوة و القدرة على الجهاد عند بعضهم الآخرين وهم في الحالتين المنتسبين لتلك الجماعة تحديدا دون غيرهم , ولا شرعية ولا اعتبار لسلطة خارجة عن اعترافهم بها وأن اضطروا لإظهار بعض الطاعة فذلك لمقتضيات مرحلة الاستضعاف تنتهي بانتهاؤها بلا تثريب عليهم فليس للسلطة بيعة في أعناقهم تلتزمهم ولا شرعية تستند إليها , بالإضافة الى تصور بعضهم قابلية المجتمع "للجمعة" فليست غايتهم أن تحكم جماعتهم الدولة وإنما أن تصبغ المجتمع كله بصبغتها ويصبح صورة منها و يتماهى معها في الافكار والعقائد أن لم يكن بالحسني و قبول الدعوة بالسلم فبالقوة والعنف أو اى وسيلة كانت لتحقيق الهدف الأسمى الذي تهون في سبيلة كافة العقبات و تبرر كل التجاوزات , ولكن كما علمنا التاريخ و الواقع أن الفجار عادة ما يغلبون الأبرار وان الصراع السياسي و الاجتماعي أن أعتمد في حسمه على العنف و القوة فالأتقياء عادة ما يكونون الضحايا ذلك أن الصراع ان كان "داخلي" أختلط البر بالفاجر واصبح فتنة يصعب تصور أن يخوض غمارها أحد دون أن يتلطح بالأثم , وما تحزب أصحاب عقيدة دينية أو غير دينية في جماعة حركية إلا نازعت مصلحة الجماعة أصول عقيدتهم وخامرتها حتى أصبحت مصلحة الجماعة عندهم مرادف للعقيدة .

وفي المقابل نجد عبارة السلطان ظل الله في الأرض يعاد صياغتها بألفاظ مختلفة من داعمي السلطة (أي سلطة) رافعين شعارات تحريم الخروج على الحاكم وإن الصراع السياسي لا يستحق ما يراق على جوانبه من دماء وما يترتب عليه من مفاسد بينما الأخرى بالمسلم العاقل التقى أن يحذوا حذو الأتقياء من أسلافه ويدعوا للحاكم بالصلاح والتوفيق ويظهر طاعته واحترامه أيما كان مصدر سلطته وأيما كانت سياساته .

ولا يجمع بين هؤلاء و هؤلاء إلا اتفاقهم على جحد حق العامة في المشاركة السياسية و اعتبار من يقول بسيادة الشعب متجاوزاً في حق الله تعالي، ويتناسون إن الغرور الذي جعلهم

يتصورون أنفسهم صفوة الأمة ليس حكرًا عليهم بل يشاركه فيهم غيرهم الذين أن كانوا أسعد منهم حظاً و وصلوا للسلطة يكون التنكيل بهم (كما حدث مراراً) على رأس أولويتهم .

أن المستبد بهم يتشبهون بالمستبد ويحاكونه و تنطبع أنفسهم على قبول الاستبداد و الرغبة في ممارسته رغم ما يقاسون منه و رغم صبهم اللعنات على المستبد و الاستبداد ليل نهار .

وتاريخنا الطويل أورتنا من ضمن تركة كبيرة استبداداً خرافياً , ربما يجعل قول الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار (إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد وتساس بالظلم والاضطهاد تفسد أخلاقها وتذل نفوسها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتألف الخضوع وتأنس بالمهانة والخنوع وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثه ومكتسبة حتي تكون كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية إذا أخرجت صاحبها من بيئتها ورفعت عن رقبتة نيرها ألفتها ينزع بطبعه إليها ويتفعلت منك ليقتحم فيها وهذا شأن البشر في كل ما يألونه) ينطبق علينا فلا يتصور أن يكون حل الإشكالية التي رسمت قدراً كبيراً من التاريخ الإسلامي ميسوراً , وان كان التراث الإسلامي يحمل في طياته الحل من خلال قيمة العدل كمقصد من مقاصد الشريعة بلا خلاف و العقلانية كسمة من سمات الفقه الإسلامي الذي ظل حتى قريب يعلو على كافة القوانين الوضعية .

فأن تضافر العامل الأخلاقي في ضرورة إقامة العدل ديانة مع عامل العقلانية في ضرورة تحقيق المصالح المشروعة ودفع المضار عن المجتمع لم يعد للاستبداد موضعاً، وأصبحت الرضائية أساساً لشرعية السلطة وبدونها لا تكون السلطة أخلاقية لافتقارها للعدل ولا عقلانية لعجزها عن حسن أداء وظائفها .

فالسلطة التي لا تحوز رضا الشعب بأن تكون علاقتها به قائمة على أسس مجردة يتساوى فيها جميع أفرادها لا تكون معبرة إلا عن طائفة منه ولا تعمل بطبيعة الحال إلا للمصلحة هذه الطائفة وهذا منافي للعدل ولمصلحة المجتمع التي تتطلب وحدته و تماسكه وترسيخ السلام الداخلي به بإزاء أعدائه و بإزاء التحديات التي تواجهه و تتطلب تمكين كافة أفرادها من

السعي لتحقيق طموحاتهم و مكاسبهم الشخصية التي يكون مجموعها في نهاية المطاف مكاسب المجتمع و منجزاته.

وما غفلة بعض الإسلاميين عن هذا إلا جراء الثقل النفسي والتراث الاستبدادي الذي طبعهم كما طبع غيرهم ولكن لكل غفلة إفاقة.

وعندما حملت الحداثة الينا التعددية السياسية في صورة الحزبية ظهر ما يسمي بالأحزاب الإسلامية و التي في كثير من الأحيان بدلاً من حماية الدين من الاعيب الساسة وحماية هوية المجتمع من تقلبات الالهواء الايدلوجية ووسيلة لخوض الإسلاميين غمار السياسة سلمياً دون ان يضطروا للانخراط في كيانات حزبية يختلفون مع ايدلوجيتها , تحولت لوسيلة للحظ من الدين و اهله و جرئت السفهاء على اهانة المقدسات , فكيف يكون الدين معصوما من النقد والهمز و اللمز وهو يوضع كصنف يفاضل بينه وبين غيره على أرفف المتجر السياسي ! وأصبحت تلك الأحزاب وسيلة تفريق و فتن لأن من طبيعتها الاستقطاب فأصبحت تتنافس على تحزيب المتدينين و أدجلة الدين وكل حزب يدعي ليس فقط احتكاره الصواب السياسي وإنما احتكار الصواب الديني ايضاً !

فوجدنا جانب معتبر من الإسلاميين يعتقد و يسوق أن الإسلامي فقط هو المسلم و المسلم غير الإسلامي و الذي لا يعتقد بإسلامية السياسة و الحكم والدولة هو على أحسن تقدير ناقص الإسلام و الإسلامي الحركي المنضم لجماعة ما (جماعتنا بالطبع فهم اهل الاستقامة في زمن الاعوجاج) افضل ديناً من الإسلامي المستقل وان فاقة عبادة و عملاً للدعوة وأتباعاً الشرع , ولم يتركوا شيء من سخافات و سلبيات الحزبية من إقصاء للمخالفين و التشيع عليهم و الاستقطاب ولو علي حساب أمن المجتمع ووحدة و أدعاء النقاء و الإخلاص بينما الاخرين مدعين مشبهين إلا أخذوه ثم صبغوا هذا القبح كله بصبغة اسلامية منتحلة !

ولا يمكننا أن نفسر هذا الاعراض المتعمد عن الطريق الواضح في تمكين الامة من حكم نفسها إلا بتأثير الاستعمار و تراث الاستبداد الطويل فعندما نقرأ ما كتب سيد قطب في ظلال القرآن (والإسلام ليس مجرد عقيدة حتى يقنع بإبلاغ عقيدته الناس بمجرد وسيلة البيان انما هو

منهج يتمثل في تنظيم حركى يزحف لتحرير كل الناس والتجمعات الاخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو ومن ثم فيتحتتم على الإسلام ان يزيل هذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام.. وهذا لا يتم إلا بوجود عصابة مؤمنة ذات تجمع حركى تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام وتنفذه في عالم الواقع وتجاهد كل طاغوت يتعدى بالأذى والفتنة على معتنقى هذا الدين أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه) .

وعندما نقرء هذا الخطاب قراءة عملية تهدف لتبين وسائل تفعيله نجد تجاهل واضح للأمة و القول بان جماعة ما هي التي تمثل الإسلام و هي التي تتولى قيادة الامة وان تلك القيادة لا تتأتى إلا بالقوة الغاشمة التي تمكن تلك الجماعة من الانقلاب على نظام الحكم والقفز على مقاعد السلطة و حكم المجتمع بما يعتبر صواباً عند الله بحسب معاييرها, وهذا ناتج عن سوء الظن بالأمة وعدم الثقة بقدرتها على اتخاذ الطريق الصحيح من ناحية و التأثير بمعيار القوة المتمثلة في جماعة متحوصلة منغلقة على نفسها في حالة جاهزية قتالية دائمة دفاعاً عن المعتقد من ناحية اخري مع تجاهل امكانية قيام جماعات متعددة كلها يظن أنه العصابة المؤمنة ذات الرسالة السامية في انقاذ الامة وحماية الدين فينتهي الامر بالتناحر بينهم و فوز الاكثر حظاً و الأقل تقوي كما حدث مراراً ولا يمكنني أن أتجاهل الحقيقة المؤلمة انه في الوقت الذي أخط فيه هذه السطور تطالعني الاخبار عن المذابح المروعة التي ترتكبها الميليشيات ذات الشعارات الإسلامية ضد بعضها , دون ان ينتبهوا ان الداعي لا ينزع و الذاهب منهم لا يرجع وأنهم ينفذون بأيديهم مخططات إبادةهم بأسلحتهم .

فتم جحد حق الامة في حكم نفسها ثانية ولكن هذه المرة لصالح جماعة حركية ما يظن أفرادها المعدودين انهم الصفوة والقادة وأنهم اهل الحل والعقد وأعلم الناس بمقاصد الشرع ومصالح العباد، ولا اعتبار لأراء لمخالفينهم.

ولا تبدووا هذه الافكار شاذة على الأطلاق فعندما وقع الصدام مع الغرب الاستعماري طرحت اجابة واضحة لأسباب هذه الهزيمة و كانت هى ان المسلمين تخلفوا وسقطوا بسبب تخليهم عن دينهم في الاساس وللدقة فانهم تركوا الجهاد فذلوا كقول الرسول (ما ترك قوم

الجهاد الاذلول) صحيح مسلم .. وان الحل لرد الاستعمار و استعادة ما فقد من سبق حضاري هو التمسك بالوحدة الاسلامية وعدم الاستجابة للافكار القومية المسمومة التي يروجها الاستعمار لتفريق المسلمين واعلاء قيم الجهاد والعمل بالدين.. فصعدت فكرة الجامعة الاسلامية و التمسك بالخلافة العثمانية مع اصلاحها في فكر الافغانى و محمد عبده و رشيد رضا قبل ان تسقط الخلافة في تركيا ذاتها وتتحول الى دولة علمانية بانقلاب اتاتورك و صعود المرحلة القومية، وفي ظل تشظى الدول العربية الإسلامية ووقوعها تحت سطوة احد المعسكرين الغربيين وفشل محاولات اقامة دولة مواطنة حديثة كان من الطبيعي ان تصعد أفكار راديكالية تهدف لهدم بنیان تلك الأنظمة الفاشلة و أجتثاثها من أصولها وتغيير المجتمعات التي تغربت واعادتها لجادة الصواب.

والواقع انه من سمات الدولة القانونية الحديثة أن تسبغ حمايتها على العقائد السائدة (دينية أو غير دينية) في المجتمع ومن الشائع أن يدرج في النظام الاساسي للدولة ضمانات لحماية ثوابت العقيدة السائدة في المجتمع من العدوان و جعلها فوق محاولات التغيير و التبديل بالقوانين و هو الامر الذي يتطابق مع حقوق الانسان ومبادئ المواطنة باعتباره حماية للحق في الاعتقاد يفرض ان تلتزم الدولة بترك الناس وما يدينون به ويتطابق مع مقتضيات امن و وحدة المجتمع حيث ان التعرض لمسائل العقيدة وأسس الدين يعد أضرار بالنظام العام يعرض امن الدولة للخطر ويضع المتدينين في مواجهة مع الدولة التي يجدون أنفسهم مضطرين للاختيار بين ولائهم لها و ولائهم للعقيدة التي تمنعهم من ممارستها , و عليه ففي ظل دولة مواطنة ذات اغلبية مسلمة لا يكون هناك مرر أو داعي لقيام ما يسمى بالأحزاب الإسلامية التي تدعوا لقيام ما يسمى بالدولة الإسلامية وهم ما ظهروا إلا كرد فعل للأفكار الغربية التي فرضت نفسها علينا فعندما صعد مصطلح الدولة المدنية ظهر مصطلح الدولة الإسلامية كمقابل وعندما صنف الناس انفسهم يمينيين و يساريين صنف بعض المسلمين أنفسهم ايضا كإسلاميين , وعندما عجزوا أو رفضوا الاندماج في الدولة الحديثة كان اختراع مصطلح الدولة الإسلامية (ذات المفهوم المغاير تماما لمفهومها في التراث الإسلامي لأهل السنة كله الذي اعتبر ارض الإسلام تلك التي يحكمها مسلمون ويمارس فيها المسلمون عبادتهم بحرية) كبديل نظري للدولة الحديثة القائمة على التجربة الغربية بشكل رئيسي وان كان في النهاية سقط في

فخ محاكاة الفكر السياسي الغربي , فبحانبا تاثر الإسلاميين الواضح من ناحية التنظيم و التراتبية بالجماعات الفاشية و الأشتراكية التي صعءت معها , نجد تصور الدولة عند الكثير منهم تصور شمولى تنءءل الدولة به فى كل صغيرة وكبيرة من حياة الناس , بينما النموءج الغالب فى التاريخ الإسلامى أن تكون الدولة أقرب للنموءج الليبرالى فى ايامنا تقوم بوظائف الدفاع و القضاء و تقدم بعض الخدمات العامة و تعين المحتاجين و يتولى المجتمع تنظيم نفسه و يصلح أهل الدين و الخير ما أعوج من سلوك أفرادة فتبقى للمجتمع قوته و سطوته على نفوس أفرادة بغض النظر عن صلاح او فساد حكامه الذين يتعاقبون تعاقب الليل والنهار, ولكن تأثراً بالءءاءة وضعت مؤسسة الدولة فوق المجتمع وبدلاً من أصلاحة من الءاءل أصبح التوجه للسيطرة على مؤسسة الدولة التى تفرض عليه قيمها ومعاييرها.. وقد كان هذا مفهوماً ومبرراً فى مرحلة تاريخية معينة كان الصراع العالمى فيها قائم على تناحر وأستقطاب إءءلوجى ولكنه لم يعد مبرراً اليوم .

قد يكون الطريق طويل ولكن السير فيه ضرورى و قد تكون الإشكالية عميقة موءلة فى القدم ولكن حلها ضرورة.

إشكالية السلطة الدينية:

ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى الموعظة الحسنة والءعوة إلى الخير والتنفير من الشر وهى سلطة حولها الله لأءنى المسلمين يقرع بما اعلاهم.. ولم يجعل الإسلام لهؤلاء -القاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام - أءنى سلطة على العقائد و تقرير الاحكام وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامى ولا يسوغ لواحد منهم حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه فى طريق نظر.

الشيخ محمد عبءه

قبل أن يكتمل القرن الأول الهجرى كانت الفرق الإسلامية المختلفة قد بدء ظهورها وكل منها يؤسس موقفة السياسى على بنية عقائدية مغايرة للأخر وبين تناقضات الخوارج و الشيعة و المرجئة أريق المءاء فى المواجهات الفكرية كما اريقء المءاء فى المواجهات العسكرية..

و في ظل عدم وجود سلطة دينية واضحة في الإسلام تحولت حرية الاجتهاد في كثير من الاوقات لفوضى و لم يكن هناك من وسيلة للحيلولة دون تشرذم الإسلام إلى فرق غير محدودة إلا بإحاطة الاجتهاد بسياج المذهبية حيث يحقق المذهب منهجية واضحة للاجتهاد فيحمي المجتهد من الشطط و توهم صحة الشاذ من الاراء ولكن السياج تحول في كثير من الاحيان إلى سجون طائفية , ففى سبيل مجابهة الغلو الذى أنتجتة الفرق الباطنية التى أستندت على الفلسفة والحجاج المنطقى في كثير من الأحيان والذى ادى الى النقمة على الفلسفة والمشتغلين بها والنظر لمن يقول بالعقلانية بريية وانه لا يقصد باتباع العقل إلا التشكيك في صحة النصوص و اتباع الهوي , صعد غلو مقابل ليس فقط بالتمسك بالنصوص و المناهج وإنما تعدي ذلك للتمسك براء و أفكار وأختيارات فقهية بعينها .

وفي عصرنا هذا نجد السؤال حول السلطة الدينية يعود للصدارة فأوضاعنا الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية المتردية و المتلبسة أفرزت شتات فكري للمجتمع الذي أصبحت الافكار و نقيضها تجد نفس درجة القبول من أفرادها وفي ظل الفوضى الاعلامية و المعلوماتية التي اضحت سمه العصر، أصبح من المعتاد قيام الضجة الاعلامية حول مسالة دينية أو اخري كل فترة ومع ارتباط المؤسسات الدينية الرسمية بالدول أصبح الكثيرين خاصة الشباب لا يجدون مرجعاً دينياً يعتمدونه و يتقون فيه ليحتكموا اليه فيفتهم .

بل اعتادت أسمعنا و ألسنه بعضنا المجاهرة برفض فتاوى رسمية و اراء علماء و نفي صفة العلم عنهم ايضاً أن كان قولهم لا يعجبنا .

وفي الحقيقة أن كل مسالة ذات طبيعة دينية نجد المختلفين فيها فرق يدعى كل منهم انه على الحق المبين وانه من يفهم مراد الله من عبادته على حقيقته بينما الاخر يتبع خطوات الشيطان يمدد في الغي و في ضلال مبين .

وفي مرحلة ما قبل الاستعمار كانت المجتمعات الإسلامية يدرس أبنائها منذ نعومة اظافرهم الفقه و العقائد على مذاهب بعينها بمناهج شبة ثابتة , فلما أتى الاستعمار و حول التعليم من ديني الي غربي أصبحت معرفة المذهب مقصورة على فئة متناقصة من ابناء المدارس

الشرعية بينما يرفض غيرهم خاصة المثقفين أن يخضعوا لقولهم في الدين لأنهم ليسوا بأفضل منهم عقلاً و لا ديناً ببساطة , ومع حالة السيوالة التي انتجتها الحداثة لم تعد للقيم و المعايير في المجتمعات نفس درجة الجمود و الثقل التي كانت لها بل أصبحت محل شك و محاولات مستمرة للتغيير و التبديل .

وتلك الفوضى و غياب السلطة و الجهة التي يرتضى المتنازعين الأحتكام إليها و يقبلون حكمها لا يمكن ان ينتج عنه إلا زيادة في معدلات انتشار التطرف و الافكار الشاذة و البدع بكافة انواعها .

فكيف نوقف هذه الفوضى أن لم تكن هناك ثمّة مؤسسة قادرة على القيام بدور (الكنيسة) الإسلامية؟

السؤال الاولي و البديهي لمن يبحث مسألة الخلافات الدينية بشكل عام أو في نطاق جزئية معينة هو ماهية الدين ذاته أصلاً؟

و أن اردنا تعريف الدين وجدنا له أطلاقات ثلاث :

فهو من وجه اختيار شخصى و من آخر ظاهرة اجتماعية و ثالثاً هو حزمة حقائق تاريخية و علمية .

و الوجه الاول للدين باعتباره اختيار فردي يقتضى كون العقيدة الدينية حقاً لصيقاً بالشخصية فلكل فرد الحرية التامة في أن يعتقد ما يريد من اراء و معتقدات وان يعتقد في الله ما يشاء وان كان الانكار و الجحود لوجوده أو الشرك به ذلك ان الدين في هذا الوجه مسألة قلبية لا تكون محاولة الآخرين التدخل بها أو تغييرها قصراً إلا عبثاً ظاهر الفساد .

و الوجه الثاني للدين هو كونه ظاهرة اجتماعية فعندما تتوافق جماعة من الناس على حزمة من العقائد و الأفكار الأساسية و الاراء الفقهية المكونة لدين أو مذهب يكون الدين بهذه الكيفية ظاهرة اجتماعية و سمة من سمات المجتمع و قيمة جماعية مرتبطة بأعرافه و التاريخ المشترك لأفراده الذي يمنحهم لقب الامة .

وأخيراً فالدين عبارة عن حزمة حقائق علمية وتاريخية تخضع للتدقيق العلمى والتاريخى بمعاييرها الخاصة.

فإن كان من حق الانسان أن يعتقد ما يريد ألا أن ادعائه أن قناعته هي صحيح الدين يجانبها من ناحية اعتقادات المجتمع الذي يعيش فيه والتي قد تصمه بالهرطقة أو الابتداع ان أخرج مكنون صدره و الحقائق العلمية و التاريخية من ناحية أخرى كمدى مصداقية النص و صحة نسبه و الحقائق اللغوية والمنطقية في تفسيره.

فمثلاً الرؤية و الكشف مصدران للمعرفة الدينية عند بعض الصوفية و الشيعة ولكن لا يمكن بحال اعتبار الأحلام سواء في النوم أو اليقظة مصدراً لأي معرفة من الوجه العلمى فلا تكون للمعتقدات الدينية الناتجة عن هذا المصدر أى اعتبار سوى احترام حق أصحابها في اعتناق ما يشاءون واحترام الأمر الواقع في حال كونها جزء من عقائد بعض المجتمعات , وكذلك فالتفسيرات الباطنية للنصوص الدينية شائعة عند بعض المذاهب ولكن تطبيق القواعد العلمية اللغوية و المنطقية يسقطها فلا يمكن تأويل النص عن معناه اللغوي إلى معنى آخر لا يحتمله بلا قرينة ولا الجمع بين المتناقضات .

وفي المقابل فإن المعتقدات الدينية قد تجد تسامحاً من المخالفين في أطار اعتبارها خياراً شخصياً و ليس باعتبارها تحتمل الصواب كما هو الحال في المسائل الاجتهادية وإنما باعتبار الحرية في اعتناق الاعتقادات الخاطئة حقاً طبيعياً وتفهم هذا الحق ولكن هذا التسامح المشروط بالتبادلية وإرادة الحفاظ عليه من القوى الفاعلة في المجتمع لا يبدوا يسير المنال في ظل حقيقة أن تاريخ الجنس البشرى مشحون بالابادات الجسدية والثقافية وحقيقة أن الدين من أكثر العوامل استغلالاً في الصراعات السياسية و الاجتماعية.

وأن كانت الغاية هي استنقاذ الدين من تحويله إلى اداة في الصراعات السلطوية القائمة على إزكاء التعصب من ناحية و استنقاذه من تمييعه و تحويله لمسألة ذوقيه تخضع للأهواء الشخصية من اخرى فلا تبدوا هناك طريقة لذلك بعيداً عن اقامه سلطة قمعية تحتكر تفسير الدين و تقمع اي تفسير مخالف لما تري إلا بإقامة توازن في رؤيتنا بين الوجوه الثلاث للدين فلا نجحد

الفرد ما وهبه الله له من حرية الاختيار ولا نتعamy عن الواقع الاجتماعي و نحتكم للعقلانية
فنضع المعيار للترجيح بين قول و اخر الحقائق العلمية والتاريخية وليس تعصبنا لما نعتقد وما
يوافق اهوائنا.

فتتصدى لمحاولات تأميم الدين من قبل الدولة أو أي فئة أو جماعة ما تريد فرض رؤية بعينها
كحقيقة واحدة وتحدد ما سواها و تستغله للحصول على سطوة اجتماعية أو سياسية.
ونحترم المعتقدات الدينية السائدة في المجتمع دون أن نمنحها قداسة قد لا تكون لها فكثيراً مما
في الوجدان الشعبي لا يوجد على صحة نسبه للدين دليل .

ونحترم الحق في الاعتقاد ولكن نحكم على الآراء الدينية ذاتها بحسب موافقتها أو مخالفتها
للأدلة والمنهجية العلمية و الحقائق التاريخية ودون أن نخادع أنفسنا بادعاء امتلاكنا لمفاتيحها
كاملة فليس بيننا معصوم ولسنا بأفضل من أمم من قبلنا بنت واقعها علي أساس اعتقادات
نحكم عليها اليوم بالسحف والبطلان.

فيمكنني أن أعتقد ما أشاء ولكن عندما يريد ان أحول اعتقاداتي الى حراك سياسي
كالمطالبة بتقنين ما أراه صواباً أو بتصرف الحكومة على الوجه الذي اراه في اعتقادي صائباً
لا بد أن أستند لحق في هذ الحراك .. فلا يمكنني ان اطالب الحكومة الفنلندية بتجريم فعل اراه
ضاراً في اعتقادي لأنني لست مواطناً فنلندياً و في المقابل فتلك المواطنة التي أتمسك بها في
مطالبتي السياسية لها شروط واركاز تجعلني على قدم المساواة مع آخرين لا يشاركونني الاعتقاد
و يسقط حقي في تلك المطالبة أن أسقطت حقوقهم في المطالبة بما يرونه صواباً بالتبعية ..
فلا بد هنا من موازنة و موازنة و من تأسيس العلاقات على أسس محايدة يتساوى امامها
جميع المواطنين والا فهي الغلبة و حكم القوة و ليس الحق فاعتقادي بصواب أمر لا يجعله
صائب مطلقا فالجميع يرون أنفسهم على الحق و الاخرين على الباطل .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم

اشكالية الحرية:

في أحيان عديدة كان الدين دعامة للاستبداد.. تلك حقيقة تاريخية ثابتة في كافة الحضارات الإنسانية لا يليق بنا إنكارها والشرق الإسلامي ليس استثناء.

واستغلال الدين في حيازة السطوة السياسية و الاجتماعية سبباً مهماً لرفض العلمانيين القاطع و المتعنت في كثير من الاحيان لدور الدين في المجال العام كله بالإضافة الي الأوهام الناتجة من التبعية الثقافية والتي سوقت طويلاً ان النهضة الغربية نتجت من أقصاء أوروبا للدين ومن ثم تم افساح المجال للعقل لتحقيق التقدم المادى الملموس بعد ازالة العراقيل العقلية والنفسية التي وضعها الدين في طريق تقدمها!

و يشيع ذلك القول المتعسف بين العلمانيين ليؤسسوا رفضهم لاي دور للدين في الشأن العام من ناحية وبين الاسلاميين من ناحية اخري و هذه المرة للتدليل على فساد العقيدة المسيحية للغرب التي أصبحت عائقاً امام تقدمه فكان من الواجب سقوطها!

والحقيقة أن النهضة الأوروبية كان لها أسباب متعددة لم تكن كلها مشرفة فعلي رأسها الامبريالية واستعباد الشعوب وجاء حراكها نحو الديمقراطية و الشيوعية نتيجة حتمية لتغيرات الطبقات الاجتماعية تبعاً لتغيرات الاقتصادية والتي تشابكت مع التغيرات الدينية ايضاً ولم تكن ثورات التحرر السياسي كلها مناهضة للدين ففي مقابل النموذج الفرنسي المعادي للدين بوضوح (أشنعوا أخر ملك بأمعاء اخر قسيس) كان النموذج الإنجليزي على العكس حيث تضامنت كنيسة إنجلترا مع الطبقة الأرستقراطية في تكوين نظام سياسي ديمقراطي راسخ في الثورة المجيدة ١٦٨٨ م والتي انتجت قانون الحقوق الإنجليزي و نصت على إلغاء الحق الالهي للملوك وان الملك يستمد سلطته من البرلمان و لا يستطيع سن قانون بدون موافقته والي اليوم تظل علاقة الكنيسة بالدولة جيدة فالقوانين البريطانية تقدم دعم مالي للمدارس المسيحية و يخصص ٢٦ مقعداً في مجلس اللوردات للأساقفة .

وأخيراً فالدين يجد من حرية الشخص بدرجة ملحوظة فقيمه الاخلاقية وأوامره و نواهيه تقف أمام العديد من النظريات السياسية و الاجتماعية و حتى العلمية.. والمتقف والسياسي

والناشط والحقوقي أن كانت اختياراته غير مقبولة ديانة يجد نفسه في مواجهة مع المجتمع الذي يرفض تسويقه لأفكاره ويطعن في دينه و خلقه ايضاً.

وذلك كله يصب في إطار الصراع على السطوة الاجتماعية بين المثقفين و المتدينين فبعيداً عن مثالية الخطابات تبدوا المعركة بين الفريقين شخصية لمدي بعيد في كثير من الاحيان و هذا مفهوم فالمثقف يجد في صدره حرجاً بلا شك عندما يري الناس تلتف حول (الشيخ) الذي يخاطبهم بلغة وعظمية دون أن يملك من العلم و الثقافة إلا حفظ بعض من التراث بلا ادراك كافي لمعانية , واذكر منذ سنوات قليلة أنى سمعت من أحد كبار المثقفين و كان ايضاً ذو حيثية في دوائر السلطة شكوى مريرة أن عامة الناس لا يولون قوله نصف الأهتمام الذي يحظى به شيخ سلفي شهير .

وفي المقابل ينحاز المتدينين الذين حازوا قدرا من العلوم الشرعية الي اى رؤية ذات سمت إسلامي ويتصدون بعنف لأي رؤية علمانية حيث أن انتصار العلمانية لا يعني إلا فقدانهم لقيمتهم ومكانتهم الاجتماعية لا محالة .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر و بدايات العشرين بدئت المعركة بين دعاة التغريب و الأصوليين تظهر ملامحها فعندما نجد طه حسين يقول في نص معبر عن شريحة كبيرة من مثقفي عصره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر ١٩٣٨ (صدقي يا سيد القارئ أن الواجب الوطني الصحيح , بعد أن حققنا الاستقلال وأقرنا الديمقراطية في مصر إنما هو أن نبذل ما نملك وما لا نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين أفراداً وجماعات أن الله قد خلقهم للعزة لا للذل وللقوة لا للضعف وللسيادة لا للاستكانة وللنباهة لا للحمول وان نحو من قلوب المصريين أفراد وجماعات هذا الوهم الاثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينته الاوربي و فطروا على امزجة غير الامزجة الاوربية .. علينا ان نصبح أوربيين في كل شيء قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات .. علينا أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها مرها ما يجب منها وما يكره وما يحمد فيها ويعاب) .. ولا نحتاج طويل تفكر لنستنتج ان هذا المسلك و هذه الدعوة الى محق الهوية و التماهي في الحضارة الغربية و الانسياق الخاضع لها لا

يمكن ان يكون رد الفعل عليه إلا بتيار اخر مماثل في قوته مضاد في اتجاهه يرفض اخذ حتى المنجز العلمي من الغرب , فصعدت الرؤية الإسلامية الصرفة والتي ترى الإسلام ايدولوجية و منهج سياسي وأجتماعى كما هو دين (حتى ان طه حسين نفسه تحول موقفه الى تأييد التوجهات الاسلامية لاحقاً) فوجدت افكار ابو الاعلى المودودى (اول من طرح مفهوم الحاكمية الجوهري) و حسن البنا كبير صدي عند عامة المسلمين , و نجد عبد القادر عودة يعبر عنها بوضوح في كتابة الإسلام و اوضاعنا السياسية ١٩٥١ (أن الاسلام يلزم الناس باتباع ما أنزل الله , ويوجب عليهم أن يتحاكموا الي ما جاء من عند الله ويحكموا بوحده دون غيره وليس لذلك معنى الا أن الحكم هو الأصل الجامع في الاسلام والدعامة الأولى التي يقوم عليها الاسلام أن الاسلام ليس عقيدة فقط ولكنه عقيدة ونظام وليس ديناً فحسب ولكنه دين ودولة) وبعده نجد سيد قطب يعبر في كتابه معالم في الطريق (فالإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات مجتمع إسلامي ومجتمع جاهل المجتمع الاسلامي والمجتمع الذي يطبق فيه الاسلام عقيدة وعبادة شريعة ونظاماً و خلقاً وسلوكاً والمجتمع الجاهلي هو الذى لا يطبق فيه الاسلام ولا تحكمه عقيدته و تصوراته وقيمه وموازينه و نظامه و شرائعه وخلقته و سلوكه) .

وان كانت نهايات القرن التاسع عشر و بدايات العشرين قد شهدت ظهور رؤي إسلامية تتوافق مع الدولة الحديثة سواء بتقنين الفقه الاسلامي لأضفاء شرعية دينية على الدولة المدنية أو التيار المحافظ الذى يرغب فى بقاء الدين كفاعل اساسي فى الحياة الاجتماعية والسياسية دون ان تستند شرعية الدولة اليه إلا انها تراجعت بشدة فى مقابل صعود الايدولوجيات العلمانية الصرفة و ما قابلها من ايدولوجيات اسلامية صرفة تعادى الدولة الحديثة وتجه لاقامة دولة جديدة تماماً فى شكل دولة خلافة او امارة .

وطوال التاريخ الإسلامي شهدنا ظهور العديد من الفرق استترت الأسباب الحقيقية لظهورها وراء الخلاف العقائدي ولكن فى عصرنا الذى لم تعد الثقافة الإسلامية فيه (رغم كونها السائدة نسبياً) الثقافة الوحيدة فى المجتمع لم يعد هذا الوضع قائم وإنما ظهرت بدائل عن تكوين الفرق مستندة للثقافة الغربية بالأساس , من أهمها حالياً دعوي التاريخية التي يرفع

بعض الحداثيون رايتها في إطار محاولتهم لتحديد الدين وإخراجه من المجال العام أو علي الاقل السياسة باعتبار ذلك التحديد خطوة رئيسية تجاه التحديث والإصلاح .

و التاريخية مصطلح غربي يطرح كنعقوض للمقدس فيكون هدفه نزع القداسة عن النص الديني وأستخدم لإسقاط حججة الأحكام الواردة في التوراة خاصة والكتب المقدسة عامة باعتبارها كانت أحكام خاصة بالفترة التاريخية التي أنزلت بها حيث نزلت متماشية مع أحوال من أنزلت عليهم وثقافتهم و عندما أنتقل المصطلح / النظرية الي الشرق الإسلامي أرتفع الصراع مع مناهضي تطبيق الشريعة الإسلامية إلي مستوى جديد.

فتحولت حجة الرافضين للشريعة من مجرد القول أن بعض أحكامها غير ملائمة لزمنا و ظروف مجتمعاتنا إلي القول بأننا غير مخاطبين أصلا بتلك الأحكام الشرعية بل المخاطب بها من نزلت فيهم فقط , وأن القول بغير هذا ليس تعنتاً و محافة لروح العصر فحسب وإنما قول مناهض للعلم وللدين معاً , وبالطبع فإن ذلك في إطار الصراع السياسي / الثقافي مع الإسلاميين في محاولة لضرب قواعد بنيانهم وأساس مطالباتهم بتحكيم الشريعة .

وعلي رأس هؤلاء نصر حامد أبو زيد حيث يقول (النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي , والمقصود بذلك انه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد علي العشرين عاما , وإذا كانت هذه الحقيقة تبدوا بديهية ومتفق عليها فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص)

هكذا أعلن أبو زيد أهم دعاة التاريخية موقفة من القران الكريم، واصفاً إياه بنص أنساني فقدت سمه الإلوهية بمجرد نزوله على النبي كما أعلن بكتابة (نقد الخطاب الديني).. أن القرآن خطاب تاريخي لا يتضمن معنى مفارقاً جوهرياً ثابتاً... وقد تحول من لحظة نزوله من كونه (نصاً إلهياً) وصار فهماً (نصاً إنسانياً) لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل , وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية , وعلى نصوص العقائد والقصص , وهي تحرك دلالة النصوص وتنقلها في الغالب من الحقيقة إلى المجاز .

و من رؤية أبو زيد أن مفهومنا للنص مجرد تأويل يجب أن يكون لتحقيق المصلحة العامة وحتى تطرف سعيد ناشيد الذي أعلن انه لم يبق من الإسلام إلا مبدأ التوحيد الربوبي بلا زوائد تنتمي إلي العالم القديم كالشرايع التي يصفها بالبدوية والبدائية و أن صلاحية القرآن انتهت إلا للوظيفة التعبدية.. تتفق كلمة أصحاب هذا التوجه على تاريخية النص الديني وأن احكامه تقتصر حجيتها على الفترة الزمنية التي نزل بها وما يقصدونه هو القرآن في المقام الأول أما السنة فلا يعترف أغلبهم بها لا من جهة الثبوت ولا من جهة الإلزامية .

فالقران عندهم ليس مقدساً فما بأيدينا هو المصحف العثماني الذي هو نسخة منقحة من المصحف المحمدي الذي هو ثمرة جهد الرسول في تأويل الوحي وترجمة الإشارات الإلهية إلى عبارات بشرية بحسب سعيد ناشيد , ولا يوجد به ما هو قطعي الدلالة بل هو نص مثله كأى نص أخر قابل للنقد و التأويل , و ليس للإسلام من سمة عالمية وإنما هو دين العرب خاصة .

ولا يخفى عليك أن مقتضى هذا سقوط كافة الأحكام الشرعية وأن تصبح مصطلحات الحلال والحرام بلا معني، واحتمال كافة التفسيرات والتأويلات للصواب فيتجاوز الأمر مجرد محاولة تحييد الشريعة بالعلمنة إلى نزع القيمة العملية من الدين مطلقاً ووضعها في مصاف الأسطورة الشعبية.

و لا توجد أدلة نصية يعتد بها تدعم هذا القول و محاولات البعض الاستشهاد بأدلة نصية كانت فاشلة وأحياناً سخرية كاستشهاد من لا يعتقد في حجية السنة أصلاً بمحدث (أنتم أعلم بشئون دنياكم) .

وإنما حجتهم عقلية خالصة أن الخطاب ليكون مفهوم ويؤتي ثماره فذلك كما يستلزم أن يكون بلغة يفهمها المخاطبون يستلزم أن يكون على قدر أفهامهم يناقش قضايا يعيشونها بمنطق يدركونه ولهذا فالقران خطاب الله لقوم بعينهم اى للعرب خاصة في عصر الرسالة كما كانت التوراة و الإنجيل خطابات للأقوام الذين نزلت فيهم.

أما الآيات و الأحاديث المتواترة التي تناقض هذا القول والتي تقطع بأن الإسلام هو الدين العالمي وليس لقوم خاصة وان أحكامه باقية مادام في الناس أثنين وإنها غير قابلة للتجزئة يؤمن

بعض ويكفر ببعض، فلم يجدوا وسيلة للالتفاف حولها إلا القول بأنها بدورها قابلة للتأويل بما لا يخالف نظريتهم.

والحقيقة أن اغلب علماء المسلمون يميزون التأويل (صرف النص عن ظاهره بقرينة تستوجب هذا العدول) و يقولون أن كلمات القرآن منها الحقيقي ومنها المجازي ولكنهم اشترطوا لتأويل الآيات و الأحاديث أن يكون اللفظ يحتمل عده معاني في اللغة وأن يكون تأويل اللفظ إلي معني غير الظاهر بدليل قوي يرجح هذا المعني و أن لا يكون متعارضاً مع نص آخر قطعي .
فالتأويل عندهم جزء من منهجية الاجتهاد وليس وسيلة لأسقاط الاحكام والالتفاف عليها.

والشريعة الإسلامية تنقسم الي عقائد لا محل للقول بتاريخيتها، وأخلاقيات لا يمكن القول أنها نسبية إلا بإنكار الفطرة وهذا ما يمثل جحوداً للدين بأسره، والأحكام الشرعية والتي هي أما عملية أو تعبدية ولا يمكن التحجج بالظروف في إسقاط العبادة إلا أن كان بها من المشقة ما يفوق الاحتمال وهذا ما تسعه الرخص الشرعية ولكن بعض الحداثيون ادعي تاريخية حتى العبادات ونادي بتصدي الدولة لإلغاء بعضها كالصيام و الحج!

أما الأحكام العملية كحرمة الربا و الزنا و الحدود و أنصبة الموارث الخ فهي جوهر الصراع فما نودي بالتاريخية إلا للأسقطها.

و الحقيقة أن الكثيرين يجدون في صدورهم شيء من بعض الأحكام الشرعية ويصعب عليهم قبولها وهذا طبيعي لتغير الازمان و ايقاف العمل بها لفترات تباعدت و الاكتفاء بالتطبيق الجزئي لبعض احكام الشريعة و الاعراض عن بعضها مما جعل البنين التشريعي تليفي غير متجانس، ذلك أن الامة ليست هي من تضع القوانين في الغالب الاعم وهؤلاء الذين يضعون القوانين نيابة عنها لا يمثلونها في أغلب الاحيان ففقد النص القانوني أصلة في كونه مرتبطاً بمصلحة المجتمع و سداد احتياجاته و مواكبة تطورها ليصبح نصاً تعسفياً في كثير من الاحيان .

و كذلك في ظل حقيقة كوننا شعوباً مستعمرة أن لم يكن عسكرياً فتقافياً و سياسياً والحضارة الغربية المهيمنة أصبحت قيمها هي النموذج الذي يحتذي به و المعيار الذي يحكم به العديد

منا علي الافكار و المواقف الأمر الذي يصفه البعض بغسيل المخ الثقافي , فمنذ طرح السؤال التاريخي الاكبر لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم بعد الصدمة الحضارية مع الغرب الاستعماري قدمت اجابات متعددة وفي ذيلها كان الجواب الاقرب للصواب الاستبداد السياسي الذي حرم الامة والشعوب الاسلامية من التطور الطبيعي والذي يحتوى بطبيعته عوامل هدم كما يحمل عوامل البناء فتسقط افكار وانظمة وبنى اجتماعية لتسمح بصعود اخري كما الحياة لا تستمر الا بموت جزئي , وعندما أتكلم عن الاستبداد السياسي فلست أقصده باعتباره نقيض التعددية السياسية و الانتقال السلمي للسلطة وإنما أقصد به أن تكون السلطة ذاتها قائمة على القوة و فرض ارادة اصحابها على من سواهم و جحد حقوقهم وهذا التصور للسلطة هو الأستبداد سواء كان في أذهن من يملكونها بالفعل او معارضيههم .

فإن كان الأستبداد هو الواقع و القوة هي الوسيلة الوحيدة لتحويل الأفكار الى واقع ملموس فما قيمة الأراء و الأفكار و النظريات اذا ؟ وما جدوي الكلام بحق لا نفاذ له ؟ وفي مقابل تضييق الشريعة يتم تسويق تقديس الغرب للحريات و الحقوق الإنسانية وهذا غير دقيق ..

فالحضارة الغربية لا تقديس الحرية و لا الحقوق الإنسانية (للإنسان الغربي بطبيعة الحال) وإنما تقديس الفردانية .

فعندما اضطرت اوربا لقبول الحرية الدينية (نسبياً) بعدما كادت تفنيها الحروب الداخلية سقطت تدريجيا قداسة الدين وعندما قاست من نيران الفاشية و النازية القومية سقطت قداسة الوطن وفي خضم الحرب مع الشيوعية تحول دور الدولة لدعم الفئات الاقل حظاً في المجتمع و تحسنت أحوال العمال و الفلاحين خشية ثورتهم و قدمت الحريات الفردية مقابل القمع الذي مارست الدول الشمولية في صفقة لدرء استيلاء الطبقة العاملة على السلطة , واستدعى صعود الرأسمالية صعود الفردية ضمناً لحرية السوق و ازدهاره المستمر من خلال حرية المستهلك وتنويع خياراته .

وعندما أرتفع سقف عنف المادية التي نظرت للإنسان ككيس من اللحم والدماء مجرد كيان بيولوجي الي حده الأقصى فأباد النازيون و الشيوعيون و الفاشيين ملايين من البشر وأجبروهم علي العمل حتى الموت في معسكرات الاعتقال لمجرد انتمائهم الي عرق أو طبقة أو دين قدمت قيم المواطنة كبديل يحمي الضعفاء و الاقليات ضد العنصرية و الفاشية و جنون المادية علي الرغم من سوابق الغرب العديدة في الابادات الثقافية و الجسدية ولكن عندما وصل الحريق الي العرق الابيض لم يعد من الممكن تسميه ما يحدث بأنه قانون الطبيعة كما وصف الرئيس الأميركي جون آدمز إبادة الهنود الحمر أو التطور الذي يقتضي التخلص ممن هم زائدون عن حاجة المجتمع و يعرفلون تقدمة كما برر قتل ٧٠ الف معاق جسديا وعقليا في المانيا خلال ثلاث سنوات فقط .

فالذي سقطت عنده قداسة الدين ثم قداسة المجتمع ثم قداسة الوطن لا يبقى عنده إلا قداسة ذاته ولذا فمن المفهوم كمثال شرعنه تعاطى المخدرات في العديد من الدول الاوربية لان المدمن حر في جسده وقداسة فردانيته اعلى من الاضرار التي تنال اسرته و مجتمعه بينما هو حر في ايداء نفسه.

ويرد رافعي لواء الشريعة على دعاة التاريخية بقوة.. فالواقع أن السلف قد أعترف بضرورة تغير القضاء بتغير الأعراف و الظروف الواقعية ففرقوا بين الحكم و الفتوى وهذا ما لم يدركه دعاة التاريخية (في مفارقة مضحكة) لضعف ثقافتهم الشرعية فالفتوى تتغير بتغير أحوال المستفتين و ظروفهم لتحقق غايات الأحكام بينما الأصول الشرعية ثابتة .

فالشريعة الإسلامية كما يعبر ابن تيمية مبناها على تحصيل المصالح و تكميلها ودرء المفساد وتقليلها والورع ترجيح خير الخيرين بتفويق أدناهما و دفع شر الشرين وإن حصل أدناهم , فإن كانت المصلحة (الحقيقية التي تشهد لها أدلة أو مقاصد الشرع) تقتضي وقف أو تعطيل الحكم الشرعي الثابت بالدليل والفتوى بغيره فيجوز ذلك أن كان تطبيق الأصل يوقع المكلفين في الحرج ويضع عليهم عبء يفوق طاقتهم أو يتسبب في ضياع مصلحة جوهرية أو يحيق بهم ضرر بالغ .

فإنما مراد الله من الأحكام تحقيق مصلحة المكلفين الدنيوية و الأخروية ولم يفترضها رب العزة على عبادة تعنتاً فما جعل علينا في الدين من حرج ولهذا اتفقت كلمة أهل الفقه على أن المشقة تجلب التيسير و على إفتاء الناس بما يخالف النصوص عند الضرورة .

ومن أشهر تطبيقات ذلك ضالة الإبل حيث كانت في عهد رسول الله و صاحبيه تترك لشأنها حتى يجدها صاحبها ثم رأى عثمان الطمع في عهدة فأمر بأن تباع و يحفظ ثمنها لصاحبها.

و ما ذهب التابعين من جواز التسعير الجبري للسلع رغم نهي الرسول صلى الله عليه وسلم الصريح عنه لشدة الحاجة إليه في عصرهم مجابهة جشع التجار الذين غالوا في الأسعار بدون مبرر ثم ذهب بن تيمية لمجل التسعير بيد جماعة التجار فيحددوا هم السعر العادل في أوقات الضيق باتفاقيات جماعية يشرف عليها القضاء و لما ارتفعت الحاجة وذهبت الحالة الاستثنائية عاد الحكم الأصلي بعدم جواز التسعير .

وليس في ذلك تبديلا لشرع الله وإنما تطبيقا له بادلته المعتمدة.

والفارق بين هذا و بين التاريخية هو أن الرخص الفقهية إنما تستمد من مقاصد الشريعة و تجد أدلتها في القرآن و السنة، فالشريعة هي التي أنتجت الحكم و الشريعة هي التي أوقفته .

وتلك إحدى إشكاليات القول بالتاريخية فأن قال أحد أن لائحة أعلى مرتبة من الدستور قلنا بعدم فهمه للتشريع والبيان القانوني المتدرج فكيف نقبل القول بأن يعلوا حكم الفرد برؤيته الشخصية للمصلحة و العدالة على حكم الله المنصوص عليه دون أن ننكر أن هذه النصوص كلام الله من الاساس ؟

والأحكام لا تستنبط من ظاهر النص فحسب بل ومن دلالة المطابقة و مفهوم الموافقة و مفهوم المخالفة الخ , فالنص الذي يرسي حكماً أخلاقياً قد يستنبط منه آخر عملياً و العكس فلا يمكن تقسيم آيات الكتاب إلى آيات أحكام وأخرى أخلاقية وثالثة عقائدية تقسيم جامع مانع ثم نورد لكل مجموعة منها طريقة خاصة للتعامل معها .

ومن ناحية أخرى فإن سلمنا أن بعض الأحكام التي أنزلت علي الأنبياء كانت خاصة بأقوامهم , فهل يصح في جانب رب العزة أن يترك الخلق للأهواء بلا هدى أن كانت الأحكام القرآنية تاريخية انقضى أثرها ؟

وكيف نفسر أن يهب قوماً تنظيمًا تشريعياً متكاملًا و يترك من يأتون بعدهم بلا شيء ؟
فأما أن نكذب الله ورسوله ونقول إن الإسلام ليس آخر الأديان و محمد ليس آخر الأنبياء أو نصدقهم ولا نحمل النصوص مالا تحتمل، فأما إسقاط حجية القرآن بالكامل وأما الاعتراف بأن هذه النظرية الغربية غير قابلة للتطبيق عليه.

ومن ضمن أسباب الدعوة لتحديد الدين ما يبدو أن الغرب أستطاع تحقيقه من إقامة المجتمع الناجح بدون دين ولكن التدقيق يظهر أنه يمكن اعتبار ما جرى إقامة للمجتمع على أساس الدين المدني الذي بشر به جان جاك روسو وهيجل من بعدة حيث تستبدل الدولة الكنيسة و القوانين الأناجيل وكذلك في التجارب الشمولية و الاشتراكية المتعددة كانت الأيدلوجية المسيطرة بها دوما دوجماتية راسخة لا تقبل تشكيك و لا مناقشة مثلها مثل أقصى حالات التطرف الديني حيث يوصم من يشكك بها بالخيانة للوطن أو الطبقة و العمالة والرجعية ويلقي مصيرا مفرعاً .

وبسبب هذه النظرة تغفل حقيقة تعدد أنماط التدين فبينما نشهد في التاريخ الإسلامي تنوع فكري كبير يؤكد على أن التطور سواء في الجانب الفقهي أو الفكري لمواكبة حاجات الناس و مستجدات العصر سمة أساسية في هذا الدين و نرى في واقعنا اختلافات كبرى في مواقف وأراء المسلمين أفرادا وجماعات نجد هذا التعميم بغير مقتضى .

ذلك لأن العقائد الدينية و حتى الأيدلوجيات لا تعطى حلولاً جامدة لكل صغيرة و كبيرة وإنما تقدم أصولاً ثابتة غير قابلة للتبديل و تفوض المؤمنين بما في ابتكار حلول لما يصادفهم من مشكلات في ضوء أيمانهم في الجزئيات , ويقدر ما يختلف الناس تختلف قراءتهم للنصوص الدينية و بحسب طبيعة أنفسهم تكون اختياراتهم وتقديرهم للمفاسد و المصالح .

وفي سوق الأفكار يكون الرواج أو الكساد تبعاً لعوامل متعددة تتضافر لتكون طبيعة البيئة الثقافية التي تتقبل نمط من الأفكار و يكسد بها سوق غيرها.

فالأفكار الرجعية والسلبية والتي يموج بها مجتمعنا وتمثل سداً بينه و بين التطور لم تكن لتلقى صدي ألا عند أناس مهينون نفسياً و ثقافياً لقبولها وكذلك الأفكار الإيجابية النافعة لا بد أن تجد بيئة تساعد على الازدهار ويتلقاها أناس يجدون بها وجاهه فيقبلونها .

و خير مثال على هذا الأفكار المساندة للاستبداد السياسي و تلك المناهضة له والذين ساروا جنباً إلى جنب طيلة التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا , فلم يعدم أنصار الاستبداد نصوصاً و تأويلات و حجج دينية لتأييد قولهم كما فعل مناهضيه .

وبشكل عملي بحث تبداوا محاولة إقصاء الفكر الإسلامي عن محاولات النهضة عند بعض الحداثيون الذين يريدون أسقاط سلطة النص و سطوة اهل النصوص عبثية، فأنا إن تغاضينا عن مقتضيات الأيمان بقي الإسلام العامل الثقافي الأكبر في مجتمعنا فلا يمكن تصور تطويرها من خلال أقصاءه , وحتى أن تصورنا أمكانية حصر الدين في الإطار الشخصي كما يري البعض حلاً لإشكاليات سياسية و اجتماعية متعددة فهذا موقف ديني لا بد أن يبني على فتاوات دينية .. ألا أن استمرت محاولات العلمنة قسراً التي لم تنجح إلا في تعميق المشكلات و سد أفق حلها و ترحيلها ليتحمل أوزارها أجيال قادمة كما دفع ويدفع جيلنا فاتورة أوزار سابقه مع فاتورة أخطائه فما كان ظهور الحركات الإسلامية السلمية منها والعنيفة إلا كرد فعل على محاولات التغريب ومحق هوية المجتمع علي يد الاستعمار و ابناءه المخلصين من المتحدثين بالعربية ثم كان ما تعرف.

وفي النهاية فحرية فكرنا لا يمكن حمايتها بإلغاء الأفكار التي تعارضنا , ولا يمكن ان نحاول تغيير الدين لأنه يرفض أفكارنا بل نتمسك بحقنا في اعتناق ما نراه صواباً لأن ذلك حقنا سواء توافقت أفكارنا مع الدين أو خالفته , وسواء وافقت الرؤية السائدة في المجتمع أو خالفها ليس لأنها صواب و لكن استنادا لحقنا كمواطنين في التمتع بكفالة الدولة والمجتمع لحقنا في الاعتقاد و التعبير بما لا يخالف النظام العام بتعدي علي حقوق الآخرين مقابل الولاء

لهما , وان تتمتع جميعاً بأكثر قسط ممكن من الحرية ندير حياتنا و أمورنا الشخصية بحسب ما نعتقد صواباً بلا تدخل من أحد و علي من يرفض معتقداتنا ان يجادلنا ان شاء بالحسنى دون تشهير أو ترهيب ومثله نعمل مع مخالفينا فشرعاً وعقلاً وسياسة لا أكره في الدين .

الخلاصة ان الغاية التحلية بين الناس و بين المخلصين الذين يريدون مناصحتهم فيكون السجال بالحجة والراى لا بالقهر و الارهاب يخاطب الضمائر و العقول لا المطامع والمخاوف , اما ما ينتج عن تلك الحرية و ذلك الجو المفتوح فهو بالطبع لن يرضى الجميع و لن يكون ابدأ مثالياً , فالناس مختلفين ما بقوا ولكن الحرية تنمي عقولهم و تترك لضماهم الفرصة على السيطرة على مقدراتهم أما محاولة البعض فرض ما يراه صواباً سواء في الامور الاجتهادية او العقائدية فذلك امر ان نجح فيه كان نجاحة (على كلفتها العالية اخلاقياً باضطرارة الى تبرير الجريمة في سبيلة) مؤقتا محدودا و يترك المجتمع ضعيف يتحكم فيه من يغلب كما رأينا و نرى .

و بعد ؟

في ختام رحلتنا بين التاريخ و الواقع نجد أنفسنا نتطلع الي المستقبل بخوف وأمل.

وان كانت آمالنا في أن لا نعيد تكرار أخطاء الماضي فأقضي مخاوفنا أن تتكرر مآسيه علي أيدينا .

يعلما التاريخ أن تتواضع ولا نجعل ثقنتنا في أنفسنا تتحول الي كبر و غرور يعمي ابصارنا عن الحق فقد شاهدنا دولاً و امارات قامت لقرون علي أفكار و معتقدات باطله ثم انهارت و اصبحت اثرا بعد عين .

ويعلما التاريخ أن شهوة السلطة مفسدة فعندما نقرأ قول الخليفة العباسي المأمون وهو يحاور مرتد عن الإسلام احتجاج بالخلاف بين المسلمين لردته (ولو شاء الله ان ينزل كتبه لا تحتاج لتفسير لفعل , لكننا لا نرى شيئا من الدين والدنيا دفع لنا على الكفاية .. ولو كان الامر كذلك لسقطت البلوى والحنة وذهبت السابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل و ليس على هذا

بني الله الدنيا) لا يمكننا أن نتصور أن ذلك هو نفس الشخص الذي سجن علماء السنة و
عذبهم لما اختلفوا معه في مسألة عقائدية.

ويعلمنا التاريخ أن الحياة صراع دائم من يغفل فيه عن أسلحته يخط بيده نهايته وأن كانت
الصدامات العنيفة هي الأكثر وضوحاً لأنها الأكثر جلباً إلا أن الصراعات الفكرية و
الاقتصادية ليست بأقل منها تأثيراً بل أنها تفوقها أهمية يوماً بعد يوم .

ونحن اليوم اذ نتطلع الي الغد بأمل في نهضة حضارية تنقلنا من ذيل العالم الي صفوف
الفاعلين به لا يمكننا أن نتصور قدرتنا علي ذلك و نحن نخاصم ماضينا ونتصور أن في تنكرنا
لأرثنا الحضاري و الثقافي سبيل لنهضتنا

ولا يمكن أن يكون لدينا أمل في الغد و نحن نترصد لبعضنا البعض و نبحث عن ما يفرقنا لا
ما يجمعنا

ولا يمكن ان نصل لصيغة ثقافية مشتركة و مشروع حضاري يحقق آمالنا في العدالة و الرخاء و
يواجه ظلمات الفكر والواقع من تعصب و جهل و تعنت و تحديات العصر الشرس و نحن
شيعاً متفرقين كل حزب بما في ايديهم من قبض الريح فرحون.. لن نصل حتى ينتصر منطق
الحق على منطق القوة في عقولنا.

تم بحمد الله